المفيد في خطب الجمعة والعيد

تأليف
إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء الثالث

دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المُفِيدُ
في
خُطَبِ الجُمُعَةِ والعِيدِ

٣

ⓒ إبراهيم بن محمد الحقيل ، ١٤٢٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل ، إبراهيم بن محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد / الرياض ، ١٤٢٥ هـ.

٥٨٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم ٤ مج

ردمك : ٤-٦٠٣-٤٤-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٦٠٦-٤٤-٩٩٦٠ (ج٣)

١- خطبة الجمعة ٢- الخطب الدينية أ - العنوان.

ديوي : ٢١٣ ١٤٢٥/٩٠٧

رقم الايداع : ١٤٢٥/٩٠٧

ردمك: ٤-٦٠٣-٤٤-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٦٠٦-٤٤-٩٩٦٠ (ج٣)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان

هاتف : ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس : ٤٧٦٠٧٩٥

المواعظ والرقائق

١٠٥- الرضى عن الله تعالى (١)
١٠٦- السبيل إلى الأمن (١)
١٠٧- السبيل إلى الأمن (٢)
١٠٨- من فوائد الأمراض (١)
١٠٩- من فوائد الأمراض (٢)
١١٠- من فوائد الأمراض (٣)
١١١- في مطلع العام
١١٢- القلب السليم
١١٣- شدة حر الدنيا من نار جهنم
١١٤- علو فرعون
١١٥- الثبات على الحق
١١٦- الاعتبار بالآيات والنذر
١١٧- التخويف بالزلازل
١١٨- فضيلة طول العمر مع حسن العمل
١١٩- الاستقامة على دين الله تعالى
١٢٠- حسن الخاتمة (١)
١٢١- حسن الخاتمة (٢)
١٢٢- سوء الخاتمة وختام العام

١٠٥- الرضى عن الله تعالى (١)

٧/ ١١/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: خلق الله تعالى البشر، وفضَّل بعضهم على بعض في الرزق وفي العلم، وفي الرفعة والرياسة، وفي الصحة والقوة، وفي غيرها، وفاوت بينهم في المحن والابتلاءات، والمصائب والنكبات، ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي

جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والدنيا من جاهٍ ومناصب وأموالٍ وعافيةٍ يعطيها الله تعالى من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، كما جاء في الحديث[1]، وفي كتاب الله تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٢٠-٢١].

ولا أحد يحوز الدنيا بكل عافيتها، وبهجتها، على وجه لا يداخله كَدَرٌ، فإن صفت له من وجهٍ كدرتها وجوهٌ أخرى.. وهكذا؛ لأن الدنيا دارُ ابتلاء وليست دار نعيم، ولو كانت الدنيا تستقيم لأحد من كل وجه لكان الأنبياء والمرسلون أولى بها من غيرهم، ولو كانت كذلك لزاحمت الآخرة في نعيمها.

من أجل ذلك: كان الرضى عن الله تعالى فيما قسمه من أرزاق،

---

(١) جاء ذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند أحمد (١/ ٣٨٧)، والبزار (٣٥٦٢)، والبغوي (٢٠٣٠)، والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤)، وضعفه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٦٧٢)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٤٧)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٤٣٧)، وفي سنده الصباح بن محمد وهو ضعيف، وهو يرفع أحاديث موقوفة ومنها هذا، والصحيح وقفه على ابن مسعود كما في العلل للدارقطني (٥/ ٢٧١)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفاً على ابن مسعود (٧/ ١٠٥) برقم (٣٤٥٤٥)، والطبراني في الكبير (٨٩٩٠)، وجاء نحوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عند القضاعي في مسند الشهاب (١١٠٨) بسند ضعيف.

وما قدره من ابتلاءات من النعم العظيمة التي يهبها من يشاء من عباده؛ فمن رضي بما قسم الله تعالى له من أرزاق وعافية، وما كتب عليه من ابتلاءات ومحن كان سعيداً في الدنيا، مأجوراً في الآخرة إن كان من المؤمنين. ومن لم يرض لم يسعد في الدنيا ولو حاز مال قارون، وملك ممالك ذي القرنين، وعوفي في نفسه وماله وولده، وكان في الآخرة من الهالكين؛ فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط.

إن الرضى عن الله تعالى مقامٌ جليلٌ من مقامات أولياء الرحمن، ومنزلةٌ عالية يحققها الموفقون من عباد الله سبحانه، وهو يعني قبول العبد بما هو فيه من السراء والضراء. قيل لابن المبارك: «ما الرضى؟ قال: «الرضى لا يتمنى خلاف حاله»[٢]، وقيل للفضيل: «من الراضي عن الله تعالى؟ قال: الذي لا يحب أن يكون على غير منزلته التي جُعل فيها»[٣]، وقيل: «هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام»[٤].

وسببُ سكون القلب لأحكام الله تعالى، ورضى صاحبه بمنزلته التي هو فيها: علمه بأن الخير يكون فيما يحبُ، وما لا يحب، وأن مصالحه لا يدلها عليه هوى قلبه، ومرادُ نفسِهِ؛ بل قد تكون مصلحته فيما يكره، وهلاكه فيما يحب، فالخيرةُ خفية، والغيبُ لا يعلمه إلا الله تعالى، ومآلاتُ الأمور ليست بالضرورة على ما يبدو للناس، ﴿وَعَسَىٰ

---

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضى (٢٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٣١)، وابن أبي الدنيا في الرضى (٢٣).

(٤) نضرة النعيم (٦/ ٢١٠٤).

أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعلى هذا الأصل العظيم كانت نظرة سلفنا الصالح لما يبتلون به من الخير والشر، من السراء والضراء، من النعمة والنقمة. كما كانوا راضين عن الله تعالى في أرزاقهم ومنازلهم، قابلين لابتلاءاته وامتحاناته، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أبالي علي أي حال أصبحت، على ما أحب أو على ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره»(٥).

كم من عبدٍ أراد أمراً من الأمور، وتعلَّق قلبُه بهذا الأمر، وسعى فيه سعيه، وأجهد فيه نفسه، وما ترك شيئاً يحققه له إلا عمله ولكن الله تعالى حجبه عنه، حتى أيس منه، وحزن عليه، ثم تبين له بعد أمدٍ أن الشر كان فيما أراد، وأن الله تعالى قد أنعم عليه لما صرفه عنه. فالعبدُ بجهله قد يطلب ما يضره، فإذا بانت له العاقبة اكتشف جهله، وفي هذا المعنى يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «إن الرجل ليستخير الله تعالى، فيختارُ له، فيتسخط على ربه، فلا يلبث أن ينظرَ في العاقبة فإذا هو قد خِيرَ له»(٦).

وقد يريد العبد منزلةً من منازل الدنيا مالاً أو جاهاً أو ما سواه،

---

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٢٥)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧١)، وابن أبي الدنيا في الرضى (٣٠)، وفي الفرج بعد الشدة (١٣).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٨)، وابن أبي الدنيا في الرضى (٥٦).

ويسألُ الله تعالى تمكينه مما أراد، وهو لا يعلم أن مراده جسرٌ يوصله إلى جهنم؛ فيرحمه الله عزَّ وجلَّ فيمنعه منه؛ ليصرف عنه العذاب في الآخرة، فلا يرضى عن اختيار ربه، وقد اختار له ما في نجاته، فما أكرم الله تعالى! وما أحلمه على عباده جل في علاه، وما أجهل الإنسان!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الرجل ليُشرف على الأمر في التجارة أو الإمارة حتى يرى أنه قد قدر عليه ذكره الله فوق سبع سموات فيقول للملك: اذهب فاصرفْ عن عبدي هذا، فإني إن أُيسره له أدخله جهنم، فيجيءَ الملك فيعوقه، فيُصرف عنه، فيظل يتطير بجيرانه: إنه دهاني فلان، سبقني فلان، وما صرفه عنه إلا الله تعالى» رواه ابن المبارك(٧).

إن العبد المؤمن إذا أدرك حقيقة الأقدار، وأيقن بأن السراء والضراء، والمنح والمحن، والعطاء والمنع، كل ذلك من عند الله تعالى، وحسُن ظنه بربه، فظن أنه لا يختار له إلا ما هو خير له؛ قاده ذلك إلى الشكر في السراء، والرضى في حال الضراء، والقبول بحاله التي هو عليها، ولم تتطلع نفسه إلى أرزاق الآخرين ومنازلهم ومناصبهم، فلا يحسدهم على ما أُعطوا، وإذا استنصحوه نصح لهم، وإذا استشاروه أشار عليهم بما يراه خيراً لهم؛ لأن رضاه عن الله تعالى، وحسن ظنه به، وقبوله

---

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٩)، وابن أبي الدنيا في الرضى (٦١)، وجاء مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما كما في الحلية لأبي نعيم (٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، ولا يصح مرفوعاً كما أفاد ذلك العراقي في تخريج الإحياء (٤٠٨٧).

بما اختاره له؛ أورثه قلباً سليماً على إخوانه المسلمين.

ويبلغ الرضى بالعبد مبلغـاً يجعله يكبر الله تعالى عند المصيبة، وينظر إلى عظيم تدبيره وتقديره حال الابتلاء، فلا يشغله البلاء عن معرفة الله تعالى، أو العلم بأمره وحكمته، وملاحظة حسن تدبيره في خلقه، فيكبر الله تعالى ويسبحه ويعظمه حال محنته وبلائه؛ كما فعل أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى حينما دخل على أبي الدرداء في اليوم الذي قبض فيه ـ وكان عندهم في العـزِّ كأنفسهم ـ فجعل أبو مسلم يكبر، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أجل فهكذا فقولوا؛ فإن الله تبارك وتعالى إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به»(٨).

وقال أبو عمرو الكندي: «أغارت الروم على جواميس لبشير الطبري نحواً من أربعمئة جاموس، قال: فاستركبني، فركبت معه أنا وابن له، قال: فلقينا عبيده الذين كانوا مع الجواميس، قالوا: يا مولانا ذهبت الجواميس، فقال: وأنتم أيضاً فاذهبوا معها، فأنتم أحرار لوجـه الله تعالى، فقال له ابنه: يا أبتاه أفقرتنا! فقال: اسكت يا بني إن ربي عزَّ وجلَّ اختبرني فأحببت أن أزيده»(٩).

وليس من شرط الرضى أن لا يحس العبد بألم المصائب والمكاره؛ لأن هذا على خلاف طبيعة البشر؛ بل يحصل الرضى بعدم اعتراضه

---

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضى (٦) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٤).
(٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٣٠)، وابن أبي الدنيا في الرضى (١٩)، وهو في صفة الصفوة (٤/ ٢٣٥).

على الحكم الإلهي أو تسخطه منه فيقبلُ باختيار الله تعالى له في الضراء كما قبل باختياره في السراء؛ لحسن ظنه بربه، ويقينه بأنه لا يختار له إلا ما هو خير له، وإن بدا له في أول الأمر أنه أصيب بمصيبة، أو ابتلي ببلاء؛ ولهذا كانت ثمرةُ الرضى: الفرحَ والسرورَ بالرب تبارك وتعالى(١٠).

قال نافع: «اشتكى ابنٌ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فاشتدَّ وَجْدُه عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ إنْ حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام، فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشدَّ سروراً منه، فقيل له في ذلك، فقال ابن عمر: إنما كان حزني رحمةً له، فلما وقع أمر الله رضينا به»(١١).

فمن نظر إلى علم الله تعالى، وغناهُ عن خلقه، ورحمته بهم، وإحسانه لهم؛ حَسُنَ ظنه بربه؛ فظن أن الله تعالى لا يختار له إلا الخير، فرضي بما قسم الله تعالى له من رزق، وبما أصابه من ابتلاء، فيكون مطمئن القلب، مستقر النفس، هنيئاً بعيشته، فرحاً بربه، مع ما ينال من عظيم الثواب على رضاه عن ربه تبارك وتعالى.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، فسَّر علقمة

(١٠) مدارج السالكين (٢/ ١٧٤٠).

(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضى (٩٧)، وهو في إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٩).

هذه الآية بالمصيبة تصيب الرجل فيعلمُ أنها من عند الله فيُسلمُ لها ويرضى بها[١٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأطيعوه، واحذروا نقمته فلا تعصوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦].

أيها المسلمون: ليس من لوازم الرضى أن يقعد العبد عن السعي فيما يصلحه، أو يعجزَ عن تحصيلِ مكاسبه، حتى يصبح عالة على غيره؛ ولكن الرضى أن يسعى في منافعه، ويتقي الله تعالى فيما يأتي ويذر، وفيما يأخذ ويترك، ويفوض أمره إلى الله تعالى، فإذا حصَّل مراده شكر الله تعالى، وإذا تخلف مراده رضي بما قسم الله تعالى له. وليس من الرضى أن يتمنى العبدُ البلاءَ، أو يتعرض له، أو يسأل الله تعالى أن يبتليه؛ إذ الأمر الشرعي يقضي بأن يسأل العبد ربه العافية

(١٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ٨٠)، وابن أبي الدنيا في الرضى (٧)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٢٢٧).

كما هي وصية النبي صلى الله عليه وسلم وفعله الذي داوم عليه[١٣]،

(١٣) وفي ذلك أحاديث كثيرة منها:
أ ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح: «**اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهل ومالي**... الحديث» أخرجه أبو داود في الأدب باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤)، وابن ماجه في الدعاء باب ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٧١)، وصححه ابن حبان (موارد ٢٣٥٦)، والحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٥١٧ ـ ٥١٨).
ب ـ حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، أيُّ الدعاء أفضل؟ قال: **سل ربك العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة**... الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه في الدعوات باب (٨٩) (٣٥٠٧)، وابن ماجه في الدعاء باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٨).
ج ـ حديث أبي بكر رضي الله عنه أنه قام على المنبر ثم بكى، فقال: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ثم بكى، فقال: **سلوا الله العفو والعافية فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية**» أخرجه الترمذي في الدعوات وحسنه (٣٥٥٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤٩)، وصححه ابن حبان (٢٤٢١).
د ـ حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول الله، علمني شيئاً أسأله الله، قال: **سل الله العافية**، فمكثت أياماً ثم جئت، فقلت: يا رسول الله، علمني شيئاً أسأله الله، فقال لي: **يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة**» أخرجه الترمذي في الدعوات وصححه (٣٥٠٩).
وأنكر عليه الصَّلاة والسَّلام على ذلك الرجل الذي دعا على نفسه بتعجيل عقوبته في الدنيا قبل الآخرة فأصابته الأمراض فعاده عليه الصَّلاة والسَّلام وقال: «**أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟**» أخرجه مسلم في الذكر والدعاء باب كراهية الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٢٦٨٨)، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٣).

فإذا أصابه البلاءُ رضي بما قسم الله تعالى له. وما يدريه أنه إن تمنى البلاءَ أو سأله فابتلي أن يطيق الصبر فضلاً عن أن يرضى؟! فقد يجزع ويتسخط فيعود موزوراً من حيث أراد الأجر، كما حصل لبعض الزهاد مثل: رويم وسمنون وغيرهما. قال رويم: «فكيف ما شئت فامتحني»(١٤)، وقال ذلك سمنون، فابتلاه الله عزَّ وجلَّ باحتباس بوله في مجاريه أربعة عشر يوماً فلم يصبر، فكان يدور على الصبيان ويقول: «ادعوا لعمكم الكذاب»(١٥)، ولقد كانت رحمة الله تعالى وعافيته أوسع لهم من أن يسألوا الله تعالى البلاء.

أيها الإخوة: ما أحوج المسلمين في هذا العصر أفراداً وجماعة إلى الرضى عن الله تعالى؛ حتى يرضى عنهم ربهم، فلقد انتشر الفكر المادي بين الناس، واجتاحت ثقافة الاستهلاك الدول والأمم؛ حتى تقالّ الناس أرزاقهم، وباتوا يطلبون المزيد من الدنيا في متاعها ومالها وجاهها، وكثير منهم قد يبذلون دينهم في سبيل ذلك، نعوذ بالله أن نكون كذلك، ومنهم من اشتكى الخالق الرازق إلى المخلوقين المرزوقين نسأل الله العافية.

لقد عظم الخوف على الدنيا، وكثر التفكير في المستقبل المجهول، ونتج عن ذلك ضعف الرضى عن الله تعالى، وقلة الراضين بقضائه وحكمه.

---

(١٤) حلية الأولياء (١٠/ ٣١٠)، والاستقامة (٢/ ٨٨ ـ ٩٠).

(١٥) الاستقامة (٢/ ٨٨)، والزهد والورع والعبادة من كلام ابن تيمية (١٢٣)، ومدارج السالكين (٢/ ٥٠) وتلبيس إبليس (١/ ٤٢٠)، وإحياء علوم الدين (٤/ ١٣٥).

ومع تعاظم المصائب على المسلمين، واعتداء الكافرين والمنافقين على دينهم وتراثهم وأراضيهم ظهرت نابتةٌ منافقة خبيثة تريد من المسلمين أن يسخطوا على دينهم، وأن لا يرضوا عن ربهم؛ بحجة أن البلاء الذي أصابهم كان بسبب دينهم، وزينوا للناس أن التخلي عن شريعة الإسلام، أو تبديلها بغيرها يستجلب رضى الغاضبين عليهم من أعداء الله تعالى، وهذا ابتلاءٌ عظيم من الله تعالى، يحتاج فيه المسلمون إلى الرضى عن الله تعالى، والثبات على دينهم مهما مستهم البأساء والضراء وزلزلوا؛ حتى يأتيهم الفرج، ويكتب لهم النصر. وإن هم سايروا الكافرين فيما أرادوا، وأطاعوا المنافقين فيما أشاروا؛ فقد أعلنوا عدم رضاهم عن الله تعالى وعن شريعته، واستبدلوه برضى الكافرين والمنافقين الذين لن يرضوا عنهم إلا بإسخاطهم لربهم؛ فتكون خسارتهم في الدنيا والآخرة، نسأل الله السلامة من ذلك.

ألا فاتقوا الله ربكم ـ أيها المسلمون ـ وارضوا عنه في حال الابتلاء، واشكروه على النعماء، وتمسكوا بشريعته التي قد رضيها لكم ديناً؛ فإن من رضي عن الله تعالى وعن دينه، وقبل أحكامه الكونية، والتزم أوامره الشرعية فهو المستحق لرضى الله تعالى، ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [المائدة: ١١٩ - ١٢٠].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم،،،

١٠٦- السبيل إلى الأمن والرزق (١)

الجمعة ٦/ ٧/ ١٤٢٣هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: بعث اللهُ تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فما من شيء ينفع الناس، ويحقق مصالحهم إلا دلت عليه شريعة الله تعالى، وحذرتهم من كل ما يضرهم أو يسبب شقاءهم ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

شريعة كاملة شاملة، اختارها ربنا جل جلاله، ورضيها، وأمـر الناس بالأخذ بهـا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقـرة: ٢١]، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥].

شريعةٌ أنزلها وفرضها من يملك السموات والأرض، ويحي ويميت، ويقدر الأرزاق والآجال والسعادة والشقـاوة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

شريعةٌ تحقق الأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة، فمن تمسك بها، ووقف عند حدودها؛ فله الأمنُ في الدنيا والآخرة، ولن يشقى أو يخاف ولو اجتمع أهلُ الأرض كلهم على إخافته وشقاوته فلن يستطيعوا ذلك؛ لأن السعادة والشقاوة، والأمن والخوف، محلها القلب، ومن يملك القلوب إلا الله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»(١).

وإذا أراد الله تعالى أمان شخص، وطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وراحة باله؛ فلن تستطيع أية قوة إخافته أو زعزعته، ومهما كان أسيراً

(١) جاء ذلك من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عند مسلم في القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، وابن حبان (٩٠٢)، ومن حديث النواس بن سمعان عند أحمد (٤/ ٨٢)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٥٢٥).

أو طريداً أو معذباً أو مشرداً فإنه يعيش في نعيم ما دام الله تعالى قد ربط على قلبه، وثبت نفسه، على حد قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لما سجن في القلعة: «ماذا يفعل بي أعدائي، إن جنتي في صدري أنَّى ذهبت فهي معي»(٢).

وتأمل يا عبدالله عجيب تدبير الله عزَّ وجلَّ، وتأمينه لعباده المؤمنين في مواطن الخوف وملاقاة العدو، كما في غزوة بدر ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ**﴾ [الأنفال: ١١]، وفي غزوة أحد ﴿**ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٤]، كان أحدهم من شدة نعاسه يسقط سيفه من يده، ويُطأطأ رأسُه على راحلته(٣).

عجيبٌ والله تدبير الله تعالى، إنه تدبيرٌ على خلاف حسابات البشر وظنونهم، فالمعارك تحتاج إلى اليقظة والقوة. والنعاسُ عنوانُ الضعف والغفلة التي تسبب الفشلَ والهزيمـةَ، ولكن الله تعالى بقدرته يجعل النعاس مصدر قوةٍ؛ لأن فيه أمناً للقلوب من الخوف، وراحة للأجساد من التعب، ولو كان ذلك النعاس على أرض المعركة، وفي أصعب الساعات؛ فسبحان الله العليم القدير.

في مقابل ذلك فإن الله تعالى إذا خذل عبداً، وسلب منه الأمن والطمأنينة؛ فلن يأمن ولو تحصن بحصونِهِ، ولبس دروعه، وحرسه

---

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (٦٠).

(٣) جاء ذلك في عدة أحاديث منها: حديث أبي طلحة رضي الله عنه قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه» أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٨).

البشرُ كلُهم؛ كما لم يأمن بنو النضير عندما حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم لما نقضوا العهد مع المسلمين، وحاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم، فتحصنوا في حصونهم، وخزنوا مؤنهم، وأغلقوا عليهم أبوابهم، وحرسوا قلاعهم، ولا خوف عليهم من جوعٍ أو قلة أو نقصِ سلاحٍ أو قوةِ عدوٍ أو كثرته؛ مما يحتم عليهم عسكرياً الثبات والقتال، ولا سيما أن من يحاصرونهم هم أقل منهم سلاحاً وطعاماً، وقد لا يصمدون طويلاً في العراء والحصار، ولكن الله تعالى سلَّط على يهود بني النضير رعباً اخترق حصونهم من دونِ اقتحام، واستقرَّ في قلوبهم بلا قتال؛ فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجلاهم عن المدينة ﴿**هُوَ الذي أَخْرَجَ الذينَ كَفَرُوا منْ أَهْلِ الكتَاب من ديَارهمْ لأَوَّلِ الحَشْر مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ اللَّه فَأَتَاهُمُ اللَّهُ منْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبهمُ الرّعْبَ يُخْربُونَ بُيُوتَهُم بأَيْديهمْ وَأَيْدَي المُؤْمنينَ فَاعْتَبرُوا يَا أُولِي الأَبْصَار**﴾ [الحشر: ٢] .

إنَ تحقيقَ الأمنَ على مستوى الأفرادِ والدول والأمم صار في هذا العصر هاجساً ينفقُ فيه البشر من الأموال أكثر مما ينفقون على مآكلهم ومشاربهم ومراكبهم وعمرانهم وأي شيء آخر؛ إذ لا فائدة من أي شيء بلا أمن، ولا طعمَ لأي حلوٍ في حالة الخوف.

ولن يتحقق الأمنُ للبشر إلا بالإيمان بالله تعالى، والتزام الإسلام شريعةً ومنهجاً، فمن حقق الإيمانَ فلن يخاف، ومن كفر بالله تعالى فلن يأمن، وكيف يأمنُ من أراد الله تعالى خوفه؟! وكيف يخافُ من

أراد اللهُ تعالى أمنه؟! وهذا ما قاله الخليل عليه السلام حينما أخافه المشركون بأصنامهم وطواغيتهم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١ -٨٢]، ما كان أمنهم إلا لأن الله تعالى أراد أمنهم؛ بسبب إيمانهم وإخلاصهم.

وإذا تجمعت الحشود، وعظمت الخطوب، وتجبر الأقوياء، ودنت ساعةُ الخطر؛ لاذَ المؤمنونَ بحمى الله تعالى؛ فأمنَّهم سبحانه وتعالى بإيمانهم ويقينهم، وربط على قلوبهم، وثبت أقدامهم، وحفظهم من السوء والمكروه ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

إن العالمَ المعاصرَ قد أسس بنيانه على ما يكون سبباً في الذعر والخوف، واستبعد ما يحقق الأمن والسلام؛ فهو عالمٌ في أكثره ـ أفراداً ودولاً وأمماً ـ مؤسسٌ على الإلحاد والمادية، بعيد عن الإيمان بالله تعالى ومعرفة أوامره ونواهيه، والتزام حدوده وحرماته، فأضحى أكثر أفراده يلهثون في الدنيا؛ لأنهم لا يرجون الآخرة، واستباحوا كلَّ محرم من ربا وغش ونهبٍ لتأمين هذه الدنيا التي لا يرجون غيرها، وصار عالمهم بين اثنين لا ثالث لهما؛ إمَّا لصٌ غني، يتاجر في المحرمات، ويأكل

السحت والربا، ويلتهمُ بشركاته العملاقة صغار التجار حتى يفقر الناس، ويسيطر على الأسواق، وإمَّا فقير محترق قد مص الأول دمه، وسحق عظمه، وشرد أسرته، ورمى به على قارعة الطريق، بما حملَّه من أغلال الربا، وكبله باحتكار السلع، ثم يقومُ هذا الطاغية المستكبر بشراء الذمم بأمواله، وصياغة القوانين بجاهه وسلطانه، وتوجيه الإعلام للدعاية إلى أفكاره وآرائه؛ من أجل تنمية ماله، وجمع المزيد والمزيد حتى يضمن تربعه على عرش المال والأعمال!! ثم ماذا بعد ذلك؟ وهل أمن من بلغ هذا العرش؟ كلا، إنه لم يحقق الأمن، ولن يأمن ما دام يفقدُ الإيمان.

أوَليسَ يدفعُ طائلَ الأموال للتأمين على حياته وعلى شركاته ومساكنه ومراكبه وكل شؤونه، فلو كان آمناً ما احتاج إلى التأمين؛ ولكن الله عزَّ وجلَّ شاء أن يأتيه الخوفُ من مأمنه، فمأمنه ما جمعه من أموال يضمن بها رفاهيته في الدنيا التي لا يرجو غيرها، ولكن هذه الأموال التي جمعها صارت مصدر رعبٍ وخوف لا يعرف كيف يحافظ عليها من الضياع، ولو ضاع بعضُها لربما ضاعت نفسه معها!!

ولأنه جمع ثرواته، وسن القوانين التي تخدمه بالطرق المحرمة؛ فإن ضحايا قوته وبطشه سينتقمون منه، والمنافسون له سيتطلعون إلى ما يملك، فاحتاج إلى أن يؤمن خوفه من الحاقدين عليه، والمنافسين له، ويؤمن على أمواله بدفع بعضها لضمان بقائها؛ فصار مصدرُ الأمن هو مصدر الخوف عند هؤلاء الملاحدة الماديين!! هكذا أصبح الحال عند أفرادهم وأممهم، والبلادُ الغربية ومن سار في فلكها المادي الإلحادي

لا تعدو ذلك.

أمَّا المؤمنون الصادقون فإنهم موقنون بأن الرزاق هو الله تعالى، وأن رزقه ينال بطاعته وتقواه، وأن الحافظ هو الله تعالى فلا يتعلقون بسواه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢ -٣].

فنسأل الله تعالى أن يؤمن خوفنا، وأن يربط على قلوبنا، وأن يحسن خواتمنا، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى وآله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ فمن حقق التقوى أمن في الدنيا والآخرة ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١].

أيها المسلمون: لما كانت قيادةُ العالم بيد المسلمين كانت البشرية تنعم بالأمن والسلام، فلما تحولت القيادة إلى غيرهم انتشر الذعرُ والخوفُ والظلمُ والبغيُ والعدوان؛ ذلك أن الإسلام من الاستسلام لله

تعالى بالخضوع والطاعة، والانقياد لشرعه وأمره، ومن استسلم لله تعالى سلمه الله من الخوف، وسلَّم الناس من ظلمه وبغيه؛ لأنه يعمل فيهم بحكم الإسلام الذي هو مصدر الأمن والسلام. والإيمانُ من الأمان، فأصحابه آمنون في الدنيا والآخرة، ويأمنهم غيرهم؛ ولذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[٤].

وفي الحديث الآخر: «**المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»[٥]، فمن دخل في الإسلام دخل في دائرة الأمن والأمان؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله تعالى حرم دمه وماله وحسابه على الله**»[٦].

ومن دخل من الكفار تحت حكم المسلمين بعقد أمانٍ أو ذمة نالته

---

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم في الإيمان باب: بيان تفاضل الإسلام (٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وجاء أيضاً من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم (٤٠)، ومن حديث أبي موسى رضي الله عنه عند البخاري (١١)، ومسلم (٤٢). ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي (٢٦٢٩)، والنسائي (٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي في الإيمان باب (١٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٦٢٩)، والنسائي في الإيمان باب صفة المؤمن (٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ١٠)، وصححه ابن حبان (١٨٠).

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله... (٢٣)، وأحمد (٦/ ٣٩٥)، من حديث أبي مالك الأشجعي سعد بن طارق عن أبيه رضي الله عنه.

بركة الإسلام، فأمِنَ على نفسه وعرضه وماله وولده. وكل أمـةٍ أو طائفة تحقق الإسلام والإيمانَ فإن الأمن سيتحقق لها لا محالة؛ وذلك بموجب قول الله تعالـى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ من قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الذي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الفَاسقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

كما أن كل أمةٍ أو طائفةٍ تفقد الإيمان، ولا تلتزم الإسلام شرعة ومنهاجاً فلن تأمن أبداً مهما عملت من احترازات، ومهما ملكت من أسلحة وقوات؛ وذلك بموجب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمنَةً مُّطْمَئنَّةً يَأْتيهَا رزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بأَنْعُم اللَّه فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْف بمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فيا ليت شعري من يهدي جمهور البشرية التائه، الهائم على وجهه يبحث عن الأمن والسلام، من يهديه إلى الإسلام؛ ليحظى بالأمـن والسلام؟!

ماذا جرَّت سيادة الماديين على العالم، وإلى أين ستوصلـه؟ إنَّها جرَّت البشرية إلى مكامن الخوف، ومواطن الرعب.

ظلت القوتان الشرقية والغربية ردحاً من الزمن، تستبقان في ميادين التسلح، وتتنافسان في صنع الدمار؛ حتى صنعوا من أسلحة الدمار الشامل ما يدمرُ الأرض عشرات المرات، ثم صار ما صنعوا وبالاً عليهم وعلى البشرية، ومصدر رعبٍ وخوف في حفظه من أن يقع في يد من

يستخدمه ولا يبالي، وكما أنفقوا المليارات على صنعه باتوا ينفقون أضعافها على حفظه وحراسته ونزعه.

ثم لما ملكوا القوة ما سخروها في خدمة البشرية، وبسط العدل فيما بينهم، والسعي في تحقيق الأمن والسلام لهم؛ بل عملوا على ابتزازهم واستغلالهم، ومصادرة حقوقهم، وتكريس الظلم بإعانة الظالم على ظلمه؛ كما فعلوا ذلك في فلسطين وفي الشيشان وكشمير والبوسنة وكوسوفا وتيمور الشرقية وغيرها من بلدان مسلمة وغير مسلمة، ما رأت الأمن والسلام في ظل سيادتهم وحضارتهم؛ لأنهم يدورون مع المصالح حيث تدور، وكم من حرب أشعلوها من أجل مصالحهم المادية أهلكت ألوفاً من البشر، وشردت ملايين! وكم من قرار صنعوه، وقانون وضعوه ليس فيه من العدل شيء إلا أنه يحقق مصالحهم، فكيف يأمن البشر في ظل سيادتهم؟! وإذا لم يأمن غيرهم بسبب ظلمهم وعسفهم فلن يأمنوا، فيا ليتهم يعقلون.

أسأل الله تعالى أن يحفظ المسلمين بحفظه، وأن يؤمنهم بتأمينه، وأن يربط على قلوبهم، ويثبت أقدامهم.

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ -١٨٢].

١٠٧- السبيل إلى الأمن والرزق (٢)

١٤/ ١١/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: بعد ما خلق الله آدم عليه السَّلام، وأسجده ملائكته، ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١]؛ استكباراً على الله تعالى، واحتقاراً لمَن خُلِق مَن طين أن يسجدَ له من خُلق من نار؛ جرى التكليف على آدم وذريته، وسُلط الشيطان وجنده على إغوائهم، وصدهم عن سبيل الله تعالى؛ فمن أطاع الله تعالى دخل

الجنة برحمته سبحانه، ومن سلك طريق إبليس وعصى الله تعالى استحق النَّار ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

لقد جعل الله تعالى الدنيا ميداناً لهذا الابتلاء، وجعل الآخرة جزاءً عليه، فمن خاف الله تعالى فأطاعه، وعمل بشريعته كان له الأمن الكامل، والرزق الدائم، والنعيم المقيم في الآخرة ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥]، آمنين من فقدانها، وآمنين من الموت، وآمنين من كل ما يخاف منه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

لقد جمع الله تعالى لهم بين الأمن والرزق، الأمن التام الشامل والرزق المتتابع الذي لا ينقطع ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١].

إن قوامَ حياةِ البشر، ومنتهى سعادتهم وفرحهم، وغاية مطلوبهم ومرادهم يرتكز على الأمن والرزق، وإن منتهى تعاستهم وشقائهم يكمن في انعدامِ الأمن وقلة الرزق؛ ولذا جاءت الآيات القرآنية تكرس هذا المفهوم في قلوب المكلفين، وتغرسه في أفهامهم، وتدلهم على الطريق التي يحصلون بها على الأمن والرزق الأبدي، الذي لا يعتريه خوف ولا وجل ولا قلة ولا ذلة، وهي طريق الله تعالى التي بينتها الرسل، وأنزلت بها الكتب، وابتلي من أجلها المكلفون: توحيد الله تعالى وعبادته؛ فمن حقق ذلك من المكلفين توفتهم الملائكة طيبين ﴿ يَقُولُونَ

سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿إِنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

كما جاءت الآيات القرآنية تحذرهم من سلوك طريق الخوف والجوع، وهي الطريق التي يدعوهم إليها الشيطان، وتبين لهم أن من سلكها فلن يأمن مهما عمل، وسيُخلد في الجوع والخوف والحزن والعذاب ﴿وَالَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠]، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وكما أن النعيم في الجنة يرتكز على الأمن والرزق، والعذاب في الآخرة يكون بالخوف والحزن والحرمان. فإن حياة البشر في الدنيا لا تستقيم إلا بتوافر الأمن والرزق، وبفقد أحدهما يفقد الآخر، وبفقدهما تستحيل حياة الناس شقاءً وعذاباً نسأل الله العافية؛ ولذلك فإن من حكمة الله تعالى ورحمته بالبشر لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض أن جعل فيها من مقومات الأمن والرزق ما يُمَكِّنُه وذريته من العيش فيها ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، والأرض لا تكون مستقراً لبني آدم إلا بتوافر الأمن؛ لأن من نتائج الخوف: الاضطراب وعدم الاستقرار، والمتاع ما يتمتع الناس به من رزق الله تعالى، ولو لم تكن الأرض آمنة ـ إلا من

عدوان الناس بعضهم على بعض، وإخافة بعضهم بعضاً ـ لاستحال عيشهم فيها، ولو كانت خالية من الأرزاق لهلكوا.

ولأهمية هاتين النعمتين ـ الأمن والرزق ـ نبه الأنبياء عليهم السلام أقوامهم عليها، وبينوا عظيم منة الله تعالى عليهم بها؛ فهذا صالح عليه السَّلام يقول لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨].

ودعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يؤمن بيته الحرام، ويجبي إليه الأرزاق فقال عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]. وفي الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ويوم أن ألهم الله تعالى الخليل عليه السلام أن يدعو بهذه الدعوات المباركة لم تكن مكة آهلةً بالسكان؛ بل كانت وادياً مهجوراً؛ فأراد الله تعالى بحكمته أن تعمر ويُعمر فيها بيته، وأن تصير مهيع الحضارات، ومهوى أفئدة الناس، وذلك لا يكون إلا بحلول الأمن فيها، وتدفق الرزق والخيرات عليها، فالبشر يستوطنون ويعمرون حيث يوجد الأمن والأرزاق.

فاستجاب الله تعالى دعوة الخليل عليه السلام، وجعل البيت مثابةً للناس وأمناً، يثوب الناس إليه من كل مكان آمنين بما قدره سبحانه فيه

من أسباب الأمن والرزق، وبما توارثه سكانه من تعظيم للبيت عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام[١].

وحتى بعد شركهم وانحرافهم عن الحنيفية، بقي فيهم تعظيم البيت على مر العصور، وتتابع الأجيال من عهد إبراهيم عليه السلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا دخلوا البيت وضعوا السلاح، وكفوا عن الثأر، حتى إن الرجل ليرى قاتل أبيه فلا يمسه بسوء تعظيماً للبيت الحرام.

إن ما نعمت به مكة من أمن وأرزاق منذ دعوة إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا ما كان إلا بقدر من الله تعالى، واختياراً لهذه البقعة المباركة التي ما كانت صالحة للعيش قبل ذلك، ثم جاءت شرائع الأنبياء عليهم السلام لتؤكد على أمنها، وتحث الناس على قصده لعبادة الله تعالى فيها، فحصل الأمن والعمران، وتدفقت عليها الخيرات في وقت كان من حولهم لا يأمنون ولا يشبعون ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولما رفض المشركون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من تعليلاتهم في رفضها أنهم إن تركوا إرث الآباء والأجداد اجتمعت العرب على حربهم، ففقدوا الأمن والرزق، ﴿**وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا**﴾ كان جواب الله تعالى عليهم: ﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا**

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٧٠٩).

يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧].

قال ابن زيد: «كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش من ذلك لمكانة الحرم، وقرأ ﴿ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [القصص: ٥٧]»(٢).

وقال ابن جزئ: «وكان غيرهم من الناس تؤخذ أموالهم وأنفسهم»(٣).

ولما فتحت مكة، ودانت بالإسلام؛ أمنت وأمن أهلها بما شرع الله تعالى من الشرائع والحدود، والواجبات والحرمات فكانت بلداً آمناً مطمئناً تجبى إليها الأرزاق من كل مكان، ما دام أهلها قائمين بأمر الله سبحانه، مستمسكين بشريعته.

وكانت هذه الشريعة المباركة التي أنزلت في البلد الأمين محققةً لما يحتاجه البشر من الأمن والرزق في الدنيا والآخرة؛ ولذا كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامةً إلى الناس كلهم، منذ إرساله إلى قيام الساعة؛ ليعبدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئاً، فإن هم حققوا هذه العبودية حقق الله تعالى لهم الأمن والرزق في الدنيا والآخرة.

وبقدر انتقاصهم من عبودية ربهم، وتفلتهم من شريعته يحل عليهم ما يوازيه من الخوف والقلة، ويرفع عنهم من الرزق والأمن

---

(٢) جامع البيان (٢٠/ ٩٠)، والجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٠٠)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٩٨).

(٣) التسهيل لعلوم التنزل (٤/ ٢٣٣).

بقدر تفريطهم وعصيانهم، فالمشركون لا أمن لهم ولا رزق في الآخرة، وفي الدنيا لا يكتمل لهم الأمن والرزق من كل وجه؛ بل يعتريه من النقص والخلل ما ينغصه عليهم، ولا تكمل به لذتهم.

والعصاة من المؤمنين قد يُعاقبون في الدنيا على عصيانهم برفع الأمن والرزق عنهم، وحلول الخوف والحرمان عليهم. وقد يؤخر الله تعالى عقوبتهم لتكون في الآخرة، فيصيبهم فيها من الحرمان والخوف ما يكفر سيئاتهم، ثم مآلهم إلى الجنة برحمة الله تعالى.

والطائعون لهم الأمن والرزق في الدنيا والآخرة، وإذا أصابهم في الدنيا ما ظاهره القلة والخوف فإن الله تعالى يربط على قلوبهم، ويزيدهم يقيناً به؛ فلا يخافون في مواضع الخوف، ويكون ما أصابهم من نقص الأمن والرزق ابتلاءً تكفر به سيئاتهم، وترفع درجاتهم؛ ليكون لهم الأمن الكامل، والرزق التام، والنعيم المقيم في جنات عدن، جعلنا الله تعالى بكرمه من الآمنين في الدنيا والآخرة، ووقانا وبلادنا وبلاد المسلمين الفتن والخوف والجوع، إنه سميع مجيب.

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيها كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا عذابه فلا تعصوه؛ فإنه سبحانه عزيز ذو انتقام، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

أيها الناس: هاجس الأمن والرزق هاجس لازم البشر طوال تاريخهم؛ إذ لا يقوم لهم عيش إلا بأمن ينعمون به، ونِعَمٍ يرتعون فيها، وفي عصرنا هذا نجد أن جُلَّ موارد الأرض، وأرزاق الناس إنما تنفق لتحقيق هذين المطلبين؛ فأكثر خزائن الأمم، وميزانياتِ الدول تنفق على السلاح؛ لاستخدامه في الحماية، ورد العدوان، وردع الأعداء؛ ليتحقق الأمن. وليس خافياً على أحد ما يُنفق على الاقتصاد والصناعة والتجارة من أموال طائلة؛ حتى صاروا يستغلون النفايات ويصنعونها من جديد، وليست نفايات البيوت والمصانع فحسب، بل حتى نفايات الإنسان والحيوان؛ وذلك بقصد الاستفادة من كل شيء لتوفير الأرزاق، وتحقيق الرفاهية.

ورغم ذلك كله فإن البشرية في مجملها تجد الخوف، وتحس بالجوع، ومن كان عنده قدر من الرزق والأمن فهو يعاني خوفاً آخر وهو خوف فقده مع كثرة الحروب والقلاقل، وتقلبات الدول، واضطرابات الاقتصاد، فالحرمان من الأمن والرزق، أو الخوفُ من فقدانهما صار سمة من سمات هذا العصر المتقدم! وسبب ذلك أن البشرية باتت تحكم على الصعيد العالمي بما يخالف منهج الله تعالى، وصار يقرر مصيرها من لا يقيم للشرائع الربانية أي وزن. وسيطر على عقول الناس

العيش للدنيا، والاستمتاع بها بلا ضوابط دينية، ولا قيود أخلاقية، إلا عند المؤمنين المتمسكين بدينهم، وهم يحاربون من أمم الأرض على تمسكهم هذا.

ولأن كثيراً من المسلمين وقعوا فيما وقع فيه غيرهم من حب الدنيا والتعلق بها؛ فإن هاجسَ الأمن والرزق صار مصدر رعب وقلق يقض مضاجعهم، فراح أكثرهم يستجلبون الأمن والرزق بالطرق المحرمة، والكسب الخبيث، والركون إلى الذين ظلموا ليؤمنوهم، في بعد تام عمن بيده ملكوت كل شيء، وهو من يهب الأمن والرزق جلَّ في علاه!!

إن الأمة التي تريد تحقيق الأمن، وبسط الرزق، وكثرة الخيرات، وانعدام المشكلات عليها أن تتقي الله عزَّ وجلَّ، وأن تأخذ بأحكام شريعته في كل شيء؛ ليتحقق لها ذلك.

وإن من أعظم مما يسبب زوال الأمن، وقلة الرزق: كفر النعم، وكثرة العصيان، وقلة الاستغفار، وضعف التوبة والأوبة إلى الله تعالى، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

لاحظوا قوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، الأنعم جمع قلة، أي: كفرت بأنعمٍ قليلة فعذبها الله تعالى بسلب الأمن، ورفع الرزق، وحلول الخوف والجوع مكانهما، والمقصود: التنبيه بالأدنى

على الأعلى، أي: أن كفران النعم القليلة لما كان موجباً للعذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب(٤)، وكم في المسلمين من كفران للنعم، وعصيان للمنعم في هذا العصر؟! نسأل الله العافية والسلامة، ونسأله أن لا يؤاخذنا بذنوبنا، ولا بما فعل السفهاء منا.

وعبَّر سبحانه عن عظيم ما أصابهم بالذوق واللباس ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** ﴾ [النحل: ١١٢]، لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف، وملازمته إياهم، أراد سبحانه إفادة أن ذلك متمكن منهم، ومستقرٌ في بلادهم استقرار الطعام في البطن؛ إذ يُذاق في اللسان والحلق، ويُحس في الجوفِ والأمعاء، فاستعير له لفظ الإذاقة تلميحاً، وجمعاً بين الطعام واللباس، والمعنى: أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم، وملازمان لهم، وقد بلغا منهم مبلغاً أليماً(٥).

ألا فاتقوا الله ربكم، واشكروه على نعمه، فلن يحقق عبد الأمن الشامل الكامل الذي لا ينغصه خوف بوجه من الوجوه في نفسه وأسرته وماله إلا بإقامة شريعة الله تعالى في نفسه وبيته وماله، ولن تحقق أمة من الأمم الأمن الشامل بين رعاياها حتى تقوم فيهم بشريعة الله تعالى في علاقاتهم مع أنفسهم ومع إخوانهم، ومع غيرهم من مسلمين وغير مسلمين. وبغير ذلك ستكون المحن والفتن، والقلاقل والاضطرابات التي ينتج عنها اختلال الأمن، وانتشار الخوف، وقلة الأرزاق، وكثرة

---

(٤) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٠/١٠٢).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (١٤/٣٠٧).

الجوع. نسأل الله أن يحفظنا وإخواننا المسلمين في كل مكان من ذلك ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩].

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم،،،

١٠٨- من فوائد الأمراض (١)

الجمعة ٩/ ٦/ ١٤١٨هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واهتدى بهداهم.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى وأطيعوه، وراقبوه ولا تعصوه، واعلموا أن الموعد قريب، والعرض عظيم، والحساب دقيق، كتاب ﴿ **لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** ﴾ [الكهف: ٤٩]؛ فالموفق من وفقه الله لَمراضيه، والمَحروم من انغمس في معاصيه.

أيها الإخوة المؤمنون: لم يجعل الله الدنيا دار بقاء وقرار؛ وإنما جعلها دار انتقال وابتلاء واعتبار. يخرج فيها الولدان صغاراً لا يميزون، ثم يبلغون فيكلفون، ثم يشبون، ثم يهرمون، ثم يموتون فيدفنون، ثم يبعثون فيحاسبون. ومنهم من لا يدرك الهرم ولا الشباب، وكل ذلك تقدير الحكيم العليم.

وخلال هذا العمر الذي قضاه الإنسان في الدنيا عاش فيه تقلباتٍ وأحوالاً، كم فرح وكم حزن؟ وكم ضحك وكم بكى؟ داخلته المسرات، وحاقت به الملمات، وخالطته المحزنات. مرت به فترات ضاقت عليه الدنيا بما رحبت؛ حتى تمنى يومها أنه لم يخلق أبداً، ثم اتسعت في

وجهه حتى ظن أنه أسعدُ السعداء.

وهكذا الدنيا في تقلباتها وأحوالها، والمؤمن يدرك الحكمة من ذلك؛ فيصبر في الضراء، ويشكر في السراء، ويعلم أن الكل من عند الله؛ فيثاب على شكره، ويؤجر على صبره.

وما من غم يغتمه، ولا همّ يهتمه، ولا مرض يصيبه، ولا شيء ينال منه إلا كان فيه مأجوراً، مهما كان يسيراً قد يحتقره العبد فإنه يؤجر عليه؛ حتى الشوكة يشاكها.

أما الكافر فيلهو مع اللاهين، ويخوض مع الخائضين، ويكذب بيوم الدين. إن أصابته سراءُ كفر وبطر، وإن أصابته ضراء جزع وتسخط وليس له من الأجر شيء. يغتم ويهتم، ويتألم ويحزن، وعاقبة أمره خسراً ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر] ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾ [محمد] ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾ [الفرقان].

هذه حياة الكافر وهذا مصيره، لم يسلم من أكدار الدنيا، وحق عليه العذاب في الآخرة ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾ [فصلت] ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ [الحج].

أيها الإخوة: وفرق المؤمن عن الكافر أن المؤمن رضي بالله رباً؛ فرضي بقدره، وسلم الأمر إليه، واعتمد عليه، مع الصبر والمصابرة في الشدائد والنكبات، والمصائب والملمات. فترى الكافرَ يصيبه

المرض فيجزع ويتسخط ويشكو للخلق، وإن صبر فصبره تجلد لا حسبة فيه ولا إخلاص؛ لأن قلبه فسد بالكفر، ولا تصح النية من قلب فاسد حتى يصححه بالإيمان. أما العبد المؤمن فحينما يصيبه المرض يصبر على لأوائه وشدته. جسده يتألم، ولسانه يردد الحمد والشكر لله رب العالمين على ما أولاه من آلائه ونعمه، يريد بذلك الأجر والثواب.

جرح أحد السلف فتبسم فقيل له في ذلك فقال: «إن حلاوة الأجر أنستني مرارة الألم»، لذا كان المؤمن منتفعاً بالأمراض والنوائب أيما انتفاع؛ إذ هي مُحِطَةُ الأوزار، وسلم الدرجات، ومخازن الحسنات، ومواطنُ المحاسبة والاستعتاب، وطريق الرجوع إلى الله تعالى، مع ما فيها من إصلاح القلوب، وتذكير العبد نعم الله عليه، ولفت انتباهه إلى حال إخوانه المرضى والمصابين، ويكفي فيها أنها سبب للنجاة من النار، وبلوغ المنازل العالية في الجنة.

فالأمراض تحد من شهوات العبد ولذائذه، والنار إنما حفت بالشهوات، وكلما تقلل العبد منها كان إلى الجنة أقرب، وعن النار أبعد. والأمراض من جملة المكاره، والجنة إنما حفت بالمكاره. إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع التي يجنيها المؤمن حال مرضه ما دام محتسباً.

ولم يكن ذلك الثواب مستغرباً عند من يفهم شريعة الإسلام من رفْع الدرجات، وزيادة الحسنات، وتكفير الخطيئات. فالعبد دائم العصيان، كثير النسيان، لا يكاد ينفك عن الذنوب والخطايا، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل هذه الأمراض والمصائب مخففات على العبد،

مقللات من ذنوبه. قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣] وكل شيء عملنا جزينا به؟ فقال: «**غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟! ألست تحزن؟! ألست تصيبك اللأواء؟!** قال: قلت: بلى، قال: **هو ما تجزون به**» أخرجه أحمد[1].

وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما يمرض مؤمن ولا مؤمنة، ولا مسلم ولا مسلمة إلا حط الله بذلك خطاياه كما تنحط الورقة عن الشجر**» أخرجه أحمد[2].

ويزداد هذا التكفير للخطايا بازدياد الأمراض والمصائب؛ حتى لا يدع خطيئة إلا محاها، فيموت المؤمن حين يموت وهو نقي من الذنوب والأوزار، يقول النبي عليه الصلاة والسلام «**لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله ونفسه حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة**» أخرجه الترمذي وصححه[3]، وفي حديث آخر قال: «**...فإن**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١) وأبو يعلى (٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٧٤) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٧٣) وصححه ابن حبان (٢٩١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٦) والبخاري في الأدب المفرد (٥٠٨) والبزار (٧٦٨) وصححه ابن حبان (٢٩٢٧) قال الهيثمي في المجمع: ورجال أحمد رجال الصحيح (٢/ ٣٠١).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٠) والترمذي في الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء وقال: حسن صحيح (٢٣٩٩) وصححه ابن حبان (٢٩١٣) والحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٣٤٦).

مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة»[٤].

ينضم إلى تكفير الخطايا: زيادة الحسنات، ورفع الدرجات، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة**»[٥] وفي الحديث الآخر عنها قال عليه الصلاة والسلام: «**ما ضرب على مؤمن عرقٌ قط إلا حط الله عنه بها خطيئة وكتب له حسنة ورفع له درجة**» أخرجه الطبراني والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.[٦]

وقد يظن ظانٌ أن هذا الأجر العظيم إنما يكون لمن أصيبوا بأمراض خطيرة، أو لمن كانت آلامهم شديدة. وهذا ظن خاطئ؛ إذ إن جميع ما يصيب المؤمن فهو مأجور عليه وإن كان يسيراً ما دام محتسباً.

وما من شك أنه كلما عظم المرض واشتد الألم، كان الأجرُ أعظم، والثوابُ أكثر.

---

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز باب عيادة النساء (٣٠٩٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧) وفي الصحيحة (٧١٤).

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٢).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٤٦٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٤٧) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٠٤) وجود إسناده الحافظ في الفتح (١٠/ ١٠٩).

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً من المسلمين قال: يا رسول الله أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ماذا لنا منها؟ فقال: «**كفارات**»، فقال: أي رسول الله وإن قلَّتْ، قال: «**وإن شوكة فما فوقها**» قال: فدعا على نفسه أن لا يفارقه الوعك حتى يموت، وأن لا يشغله عن حج ولا عن عمرة ولا جهاد في سبيل الله ولا صلاة مكتوبة في جماعة، قال الراوي: «فما مس إنسان جسده إلا وجد حرها حتى مات» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان، وفي رواية أحمد: أن الذي دعا على نفسه أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه. (٧)

---

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠) وأبو يعلى (٩٩١) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢١٩) وصححه ابن حبان (٢٩٢٨) قال الهيثمي في المجمع: ورجاله ثقات (٢/ ٣٠١). واجتهاده رضي الله عنه معارض بنصوص صحيحة منها ما رواه مسلم (٢٦٨٨) والترمذي (٣٤٨٣) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سبحان الله لا تطيقه ـ أولا تستطيعه ـ أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنه وقنا عذاب النار؟** قال: فدعا الله له فشفاه». وكذلك ما رواه مسلم (٣٠٠٦) وأبو داود واللفظ له (١٥٣٢) من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم...**» وهذا نهي صريح من النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يدعو الإنسان على نفسه، وهو عام لا مخصص له، والنهي يقتضي التحريم. وما فعله أبي رضي الله عنه فمحمول على أن النهي=

وهذا اجتهاد منه رضي الله عنه يريد زيادة الأجر والثواب، والعبد في الأصل مأمور أن يسأل الله العافية؛ فإذا ابتلي فهو مأمور بالصبر والاحتساب، ولا يجوز له أن يدعو على نفسه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً يليق بجلاله وعظمة سلطانه، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله: اتقوا الله تعالى حق التقوى، واشكروه في السراء، واصبروا في الضراء؛ فالشكر والصبر جماع الدين كله، والسبيل إلى تحقيقهما تقوى الله تعالى في السر والعلن.

أيها المؤمنون: من نعمة الله تعالى على عباده المؤمنين أنه إذا ابتلاهم رزقهم الصبر والرضى حتى ينالوا الجزاء الأوفى. فالمؤمن إذا ابتلي واتجه بقلبه إلى الله فإن الله تعالى يصبره على ما يجد من آلام وأوجاع،

= لم يبلغه، أو أنه دعا على نفسه قبل ورود النهي، ثم إن العبد إذا دعا على نفسه بالمرض قد لا يوفق للصبر عليه؛ فيجزع، ومن ثم يكون آثماً وقد أراد الأجر. فلا حصل الأجر، ولا سلم من الإثم، مع ما يعانيه من ألم المرض.

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ومن يتصبّر يصبره الله**»(٨)، وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله تعالى ينزل المعونة على قدر المؤنة، وينزل الصبر على قدر البلاء**»، وفي رواية: «**وينزل الصبر على قدر المصيبة**». (٩)

فلله الحمد، ما أعظم فضله! وما أكثر عطاءه! وما أشد رحمته بعباده!! يبتليهم ليؤجروا وتكفر عنهم الخطيئات، ثم لا يكلهم إلى أنفسهم؛ بل يرزقهم الصبر حتى يتم الأجر.

والواقع يزيد من إيمان العبد بهذه النصوص الصحيحة؛ فكم من مريض به من العلل والأسقام العظيمة والخطيرة ما يدعو من رآه وزاره إلى رحمته والرأفة به، وانكسار النفس من أجله، والحزن لما أصابه؛ لكن إذا حادثته وجالسته وجدته مرتاح البال، مطمئنَ القلب، قريرَ العين، راض بقضاء الله وقدره، لا يفتر لسانه عن حمد الله والثناء عليه؛ حتى إن بعض زواره يكونون أشدَّ ألماً منه. وما كان كذلك إلا لأن الله تعالى قد رزقه الصبر لما ابتلاه، وأنزل عليه السكينة والطمأنينة.

ومع ذلك فقد يوجد شيء من الجزع والتسخط عند من قلّ إيمانهم،

---

(٨) أخرجه البخاري في الرقاق باب الصبر عن محارم الله (٦٤٧٠) ومسلم في الزكاة باب فضل التعفف والصبر (١٠٥٣).

(٩) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٩٩٢) والبزار كما في الزوائد لابن حجر (١٥٦) وذكره الألباني في الصحيحة (١٦٦٤) وعزاه في صحيح الجامع للبيهقي والحاكم ولم أعثر عليه عندهما (١٩٥٢).

وضعفت صلتهم بربهم؛ فيجزعون من الأمراض، ولا يصبرون حال البلاء. وهؤلاء قد حرموا أجر الصبر والاحتساب، ولم يسلموا من الآلام والأوجاع؛ فخسروا هذا وذاك، نعوذ بالله من الخسران.

والصبر على الآلام والمصائب ليس مباحاً أو مستحباً؛ بل هو واجب قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإن الصبر على المصائب واجب»(١٠) وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر» ثم ذكر أن الصبر يتحقق بثلاثة أمور: حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى للخلق، وحبس الجوارح عن فعل ما ينافي الصبر.(١١)

فاتقوا الله ربكم واشكروه على فضله العظيم، وإنعامه العميم، وإذا أعطيتم فاشكروا، وإذا ابتليتم فاصبروا ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ⑩﴾ [الزمر] ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كَمَا أَمَركم بذلك ربكم.

* * *

(١٠) مجموع الفتاوى (٨/ ١٩١).

(١١) مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٥٢) و(٢/ ١٥٦) وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (١٣).

١٠٩- من فوائد الأمراض (٢)

الجمعة ٨/ ٤/ ١٤١٩هـ

الحمد لله؛ يبتلي بالسراء، ويبتلي بالضراء، ويُعظم على أحبابه البلاء؛ حتى يوافيهم يوم القيامة بالجزاء. أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره؛ لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا رب لنا سواه، ولانعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، اصطفاه الله وابتلاه؛ اصطفاه فكان عبداً شكوراً، وابتلاه فكان على البلاء صبوراً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ أنجمٍ في جبين التاريخ زاهرة، وأعلامٍ على الحق سائرة، الأنصارِ منهم والمهاجرة، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القارعة.

أما بعد: فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى، فنعم الزادُ التقوى، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١٨﴾﴾ [الحشر].

أيها المؤمنون: الأيام تحملُ في طياتها مسراتٍ تحتاج شكراً، وتحوي بلاءً يحتاج صبراً. وما البلاء بالسراء بأهون خطراً من البلاءِ بالضراء؛ إذ البلاءُ بالضراء مدعاةٌ للمحاسبة والاستعتاب، وأما البلاءُ بالسراء فمدعاةٌ للبطر والعلو والكبرياء؛ ولذلك قال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»

وقال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون» وقال ابن القيم: «وإنما كان الصبر على السراء شديداً؛ لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها»[١].

ومن ابتلاءات الضراء: تلك الأمراض التي تصيب الإنسان؛ فيردى بها الفاجر، وينتفعُ بها المؤمن.

ولأن الأمراض من عظيم الابتلاءات؛ كان ما يترتبُ عليها من جزاءٍ عظيماً كبيراً، متى كان المصاب بشيء منها مؤمناً ثابتاً، صابراً محتسباً، حابساً نفسه عن الجزع والسخط، ممسكاً لسانه عن الشكوى والضجر، موثقاً جوارحه عن كل ما يخل بالإيمان والصبر[٢].

ذلك المؤمنُ الذي يجد عاقبة مرضه وصبره خيراً مدخراً له أحوج ما يكون إليه في الآخرة، نعم! إنه ذلك المريض الذي لا يلتذ بطعام ولا شراب، ولا يغمض جفنه براحةٍ ولا نوم، نَحَل جسدُه فلم يبق منه إلا رقائقُ جلدٍ تكسو عظماً هزيلاً، لقد ذهب المرض بنُضرةِ جسده، وأطفأ الألمُ نورَ وجهه.

كم اشتهى طعاماً فمنع منه! وكم رأى حوله نياماً وهو يساهر آلامه! وكم استشرف الناسُ المستقبلَ وهو مشتغلٌ بمرضه! يلهو أقرانُه مع

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (٨٩) والأثران منه أيضاً (٨٨).
(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/١٥٦) وعدة الصابرين (١٣).

أهليهم وأولادهم، وشغلُه الشاغل أن يُخلّف من بعده أيتاماً ضعافاً؛ فيقترن ألم قلبه مع ألم جسده، وكم هو عسير على المرء أن يحمل ألمين في آن واحد.

يعوده زوارُه فيأنس بهم قليلاً من الوقت، ثم يذهبون فينسونه، ويأنسون بغيره، وينامون ملء جفونهم، وهو يقضي ليله يعالج آلاماً وهموماً.

فلله هو ما أعظم ما أصابه من خطب! استحق أن يكون الجزاءُ عليه موفوراً: من تكفير الخطايا، ومحو السيئات، ورفع الدرجات، ووفرة الحسنات.

وهذه الأمراضُ دليلٌ على أن الله تعالى أراد بمن أصابه بها خيراً، بها يبلغ العبدُ المنازل العالية، وهي سببُ رجوع العبد إلى الله، تحفظُه من البطر والغرور، وتصلح ما فسد من القلوب، وتنبه الغافلين إلى أحوال إخوانهم المرضى، وتذكر الناسين نعم الله تعالى عليهم بالصحة والعافية.

ورغم ألم الأمراض وشدتها، وخوفِ الناس منها؛ فإن فيها للمؤمنين خيراً كثيراً، وهذا حالُ المؤمن انتفاعُه بالسراء والضراء.

ومع أن السلف الصالح رحمهم الله تعالى كانوا يسألون الله العافية؛ فإنهم يفرحون بالأمراض، ويصبرون عليها؛ لما في ذلك من الأجر والثواب، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «ما يسرني بليلة أمرضها حمر النعم»[٣].

---

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٤٤٢) برقم (١٠٨٢٢).

وما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن ابتلاء الله تعالى للمؤمنين دليل على محبته لهم، وبرهانُ خيريتهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[٤]، وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فعليه السخط**» أخرجه الترمذي وحسنه[٥].

وخير للمؤمن أن يعاقب على عصيانه في الدنيا بالمصائب والأمراض، والبلاء والآفات من أن يُدخـرَ له وزرُها في الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة**»[٦]، قال الطيبي: «يعني لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب

(٤) أخرجه مالك (٢/ ٩٤١) وأحمد (٢/ ٢٣٧) والبخاري في المرضى باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤٥) والبغوي في شرح السنه (١٤٢٠) وابن حبان (٢٩٠٧).

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء وقال: حسن غريب من هذا الوجه (٢٣٩٦) وللحديث شواهد يصحح بها، انظر: فيض القدير (١/ ٢٥٨) ورياض الصالحين ص (٤١) برقم (٤٤).

(٦) أخرجه الترمذي من حديث أنس رضي الله في الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦) وله شاهد عن عبدالله بن المغفل رضي الله عنه أخرجه أحمد (٥/ ٨٧) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٣٤٩) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥) وابن حبان (٢٩٠٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩١): رجال أحمد رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨).

وافيها فيستوفي حقه من العقاب» اهـ(٧).

وهذا يفسرُ لنا كثرة نزول البلاء بالصالحين؛ إذ أراد الله بهم خيراً، بينما أهل الفساد والفجور ينعمون في العافية ورغد العيش وحسابهم عسير.

وقد تكون الخيريةُ التي يريدها الله بعبده المؤمن المريض المبتلى منزلة عالية في الجنة لا يرقى عمله إليها؛ فيبتليه الله تعالى بالمرض أو غيره حتى يرتقي إلى تلك المنزلة العالية. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمله فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغها**» صححه الحاكم وابن حبان(٨). وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلةٌ لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده ثم صبّره على ذلك حتى يُبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى**» أخرجه أبو داود(٩).

ومن منافع الأمراض: أنها تصلح القلوب، وتذهب الغرور،

---

(٧) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي (٧/ ٧٧).

(٨) أخرجه الحاكم وصححه (١/ ٣٤٤) وابن حبان (٢٩٠٨) وعزاه الهيثمي في المجمع لأبي يعلى وقال: ورجاله ثقات (٢/ ٢٩٢).

(٩) أخرجه أبو داود في الجنائز باب الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٩٠) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٧٤) وعزاه الحافظ في الفتح للإمام أحمد وقال: رجاله ثقات (١٠/ ١١٤).

وتزيل حدة النفس، وتكسر الشهوة، وتقود إلى المحاسبة، يقول علي ابن الحسين رحمه الله تعالى: «إذا لم يمرض الجسد أشر، ولا خير في جسد ما يشر»(١٠). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مصيبةٌ تقبل بها على الله خير لك من نعمةٍ تنسيك ذكر الله»(١١).

والواقع يشهد لهذا الأمر فكم من جبار عنيد أزال المرض جبروته وألان عناده! وكم من غارق في المعاصي والشهوات كان المرض سببَ محاسبته لنفسه ورجوعه إلى الله تعالى! وكم من ظالم أكّالٍ لحقوق العباد قاده المرض إلى التخلص من مظالمه وإعطاء كل ذي حقه حقه! وكم من مضيع للفرائض، متهاونٍ بالواجبات، مقبل على الدنيا، يكاد يعبدها جعل المرض منه أواهاً منيباً، زاهداً قنوعاً!!

وما كان ذاك إلا لأن فترة المرض فترةُ محاسبةٍ واستعتاب، تنبه العبدَ من غفلته، وتوقظُه من رقدته، وتزيل عنه سكرته، وتذكره من بعد نسيانه؛ لأن المرض مشعرٌ بدنو الأجل، ومذكرٌ له بالموت، أو ما يجده العبد من آلام المرض يجعله يهرع إلى الله تعالى أو ربما لأن المرض يكسر الشهوات.

ولا ينتفع بتلك المحاسبة والاستعتاب إلا المؤمن. قال سعيدُ بن وهب: انطلقت مع سلمان إلى صديقٍ له يعوده من كندة فقال: «إن المؤمن يصيبُه الله بالبلاء ثم يعافيه فيكون كفارةً لسيئاته، ويستعتبُ

---

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٤٤٣) برقم (١٠٨٢٦).
(١١) تسلية أهل المصائب (٢٢٦).

فيما بقي، وإن الفاجر يصيبه الله بالبلاء ثم يعافيه فيكون كالبعير عَقَلَه أهله لا يدري لما عقلوه ثم أرسلوه فلا يدري لما أرسلوه»[١٢].

ويكفي في المرض فائدةً أنه يبين للعبد ضعفه، ويبرز له مدى افتقاره وحاجته لرب العالمين؛ فتجد أنه في هجعة الليل والعيونُ نائمةٌ في مصلاه، خالٍ بربه يدعوه ويلح في دعائه، ويتضرع بين يديه. والدعاء من أعظم العبادات، والله تعالى يحب من عباده التضرع والإلحاح ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ [الأنعام: ٤٢] فالبأساء: الفقر والضيق في العيش، والضراء: الأمراض والأسقام والآلام[١٣]، وفي آية أخرى يقول سبحانه ﴿ **وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (١٦٨) ﴾ [الأعراف] قال وهب بن منبه: «ينزل البلاءَ ليستخرج به الدعاء»[١٤].

وما أجمل قولَ سفيانَ بنِ عيينة رحمه الله تعالى: «ما يكره العبدُ خيرٌ له مما يحب؛ لأن ما يكره يهيجه للدعاء وما يحبه يلهيه»[١٥]. وهذا والله حقٌ واقع؛ فكم لهى أناس بعافيتهم! وكم أرجعت الأمراض عبيداً إلى ربهم؛ فاهتدوا من بعد الضلال، وتابوا من العصيان، فسابقوا

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤١) برقم (١٠٨١٣).
(١٣) تفسير ابن كثير - سورة الأنعام - (٢/ ١٨٠).
(١٤) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا (١٣٢).
(١٥) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا (٢٢).

في الخيرات، ونافسوا في الباقيات الصالحات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)**﴾ [الحديد] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله اتقوا الله كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)**﴾ [البقرة: ١٩٤] وأنه ﴿**يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)**﴾ [آل عمران].

أيها الإخوة: من فضل الله تعالى على عباده أن أعمالهم الصالحة تكتب لهم، وتجرى أجورها عليهم ولو لم يعملوها ما دامت الأمراض تحبسهم عن هذه الأعمال الصالحة، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثلُ ماكان يعمل مقيماً صحيحاً»(١٦)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وهو في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها»(١٧)، وفي حديث آخر قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا! عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب: اختموا له مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»** أخرجه أحمد والحاكم وصححه(١٨).

ويزداد فضل الله تعالى على عباده، ويتتابع إنعامه عليهم؛ فلا يكتب على المريض منهم الأعمال السيئة التي حبسه المرض عن مزاولتها كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إذا ابتلي المسلم ببلاء في جسده، قيل للملك: اكتب له صالح عمله الذي كان يعمل، فإن شفاه غسله وطهره، وإن قبضه غفر له ورحمه»** أخرجه أحمد بسند حسن(١٩). وفي حديث ابن عمرو رضي

---

(١٦) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٠) والبخاري في الجهاد باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦) وأبو داود في الجنائز باب إذا كان الرجل يعمل عملاً صالحاً فشغله عنه مرض أو سفر (٣٠٩١) والحاكم (١/ ٣٤١).

(١٧) فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٣٦).

(١٨) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٦) والحاكم وصححه (٤/ ٣٠٨) وعزاه الألباني لابن أبي الدنيا في المرض والكفارات وصححه كما في صحيح الجامع (٥٤٣٢) والسلسلة الصحيحة (٢١٩٣).

(١٩) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٨-٢٥٨) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٣) وعزاه الهيثمي=

الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا اشتكى العبد المسلم قال الله تعالى للذين يكتبون: اكتبوا له أفضل ما كان يعمل إذا كان طلقاً حتى أطلقه**» أخرجه أحمد وأبو نعيم[٢٠].

فدلت هذه النصوص على أن العمل الصالح هو المكتوب حال المرض دون العمل السيئ، وتلك نعمة ومنحة من الله على عباده؛ يحبسهم عن الأعمال الصالحة فيكتبها لهم، ويحبسهم عن الأعمال السيئة فلا يكتبها عليهم؛ فاجتمع لأهل الأمراض من أهل المعاصي نعمتان: نعمة حبسهم عن العصيان وانشغالهم بأمراضهم عن الشهوات، ونعمة عدم كتابة ما كانوا يمارسونه من عصيان شغلهم عن ممارسته المرض.

فاتقوا الله ربكم، واشكروه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، نعم العافية، ونعم الأجر على البلاء، واشكروه في حال الصحة وفي حال المرض.

فالله تعالى ذو فضل عظيم على عباده، فله الحمد والشكر أبداً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

= لأبي يعلى وقال: ورجاله ثقات (٢/ ٣٠٤) وحسنه الألباني في المشكاة (١/ ٤٩٢).

(٢٠) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٥) وأبونعيم في الحلية (٨/ ٣٠٩) وله روايات وطرق استوفى الكلام عليها العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٣٢).

١١٠- من فوائد الأمراض (٣)

الجمعة ١٤/ ١/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى واعملوا صالحاً؛ فإن فضل الله عظيم، وثوابه جزيل، ورحمته وسعت كل شيء؛ لكنها تنالُ بالإيمان والتقوى والعمل الصالح. أما مجرد التمني بلا عمل فسوء ظن بالله تعالى، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

أيها المؤمنون: نعمُ الله تعالى عظيمة، وغناه واسع، وعطاؤه متتابع، نعمُ السراء والضراء، نعمُ الأخذ والعطاء، نعمُ المنْح ونعمُ المنع.

إن نعمَ السراء والمنْح والعطاء مفهومة معلومة؛ ولكن هل في المنع والأخذ والضراء نِعَم؟ نَعَم والله إن فيها رحمةً بالعباد، وإنعاماً عليهم.

أليس الله تعالى يمنعُ المال عن بعض عباده لكيلا يبطروا، ويأخذ من بعضهم الصحة والعافية كيما يعودوا إليه ويتوبوا، ويبتليهم بالضراء لتكفرَ عنهم الخطايا ويؤجروا؟.

وما يدريك - أيها المؤمن - أنك مُنعت ما تراه نعمة لئلا يصير عليك نقمة، أو أن الله تعالى ابتلاك بالمرض والسقم ليكفر عنك ذنوباً تعلمها أو لا تعلمها لا تكفر إلا بابتلائك.

وكما أن الأعمال الصالحة من صلوات خمس وجمعة وصيام وحج مكفرات للخطايا، فكذلك الصبر على البلاء والأمراض مكفرٌ للخطايا، رافعٌ للدرجات، يمحو السيئات، ويزيد الحسنات، وعلى مقدار البلاء وشدة الأوجاع مع الصبر والاحتساب، والقبول والرضى يكون الأجر والجزاء. وإذا حبَسَ العبدَ عن الصالحات مرضٌ من الأمراض كتب له ما كان يعمل حال صحته ولو طال مرضه؛ حتى يُشفى أو يموت، وذلك من فضل الله تعالى على عباده.

إن ألم المصيبة يخفف ألم الآخرة، وإن نار الحمى في الدنيا هي حظ المؤمن من نار جهنم، عاد النبي صلى الله عليه وسلم مريضاً ومعه أبو هريرة رضي الله عنه من وعك كان به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أبشر فإن الله عز وجل يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة**» أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه بسند صحيح(١)، وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال: «**ما لك يا أم السائب أو يا**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠) وابن ماجه في الطب باب الحمى (٣٤٧٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٤٥).

أم المسيب تزفزفين، قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال: **لا تسبي الحمى فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهبُ الكيرُ خبث الحديد»**[٢]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الحمى حظُ كل مؤمن من النار**»[٣] فهنيئاً لمن كانت حماه لا تفارقه إلا قليلاً إذا كان صابراً محتسباً.

وكما أن الأمراض والحمى سببٌ للنجاة من نار جهنم فإنها كذلك سبب لدخول الجنة، أليست الأمراض من المكاره التي يكرهها بنو آدم؟! والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**» متفق عليه[٤].

وإذا فقد المؤمن بصره فصبر واحتسب فله الجنة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضتُه منهما الجنة**» يريد عينيه، أخرجه البخاري والترمذي[٥].

---

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٥) وأبو يعلى (٢١٧٣) وابن حبان (٢٩٣٨). ومعنى تزفزفين أي: ترعدين وتتحركين حركة شديدة.

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٧٦٥) وحسنه الهيثمي في الزوائد (٢/ ٣٠٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق باب حجبت النار بالشهوات (١/ ٢٧٤) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٢).

(٥) أخرجه البخاري في المرضى باب فضل من ذهب بصره (٥٦٥٣) والترمذي في الزهد باب ما جاء في ذهاب البصر وقال: حسن صحيح (٢٤٠١).

ومن كان يُصرعُ ويصبر فتُرجى له الجنة، عن عطاء ابن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: «ألا أُريك امرأةً من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك**» فقالت: أصبر! فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها». متفق عليه(٦).

إن الصحة - وإن كانت نعمةً من الله تعالى - ليست محمودةً على الإطلاق؛ بل هي محمودة متى ما سخر العبدُ عافيته في طاعة الله تعالى ومرضاته وخدمة دينه. وإن البلاء والشرَّ متى ما اجتمع عافية وعصيان، وصحة وكفران.

ومع أن العبد مأمور أن يسأل الله تعالى العافية في كل أحيانه، إلا أن العافية المستديمة، والصحة التي لا يخرقها مرض قد تكون مذمومة لاسيما إذا كان العبد رديئاً في الطاعة، منكباً على المعصية.

لذا رفض النبي صلى الله عليه وسلم الزواج من امرأة لم تشتك مرضاً قط، عن أنس رضي الله عنه أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: ابنةٌ لي كذا وكذا ـ ذكرت من حسنها وجمالها ـ فآثرتك بها، فقال: **قد قبلتها**، فلم تزل تمدحها حتى ذكرت

---

(٦) أخرجه البخاري في المرضى باب فضل من يصرع من الريح (٥٦٥٢) ومسلم في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه (٢٥٧٦).

أنها لم تصدع ولم تشتك شيئاً قط، قال: «**لا حاجة لي في ابنتك**» أخرجه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات[٧].

ودخل أعرابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هل أخذتك أمُ مِلْدَم؟**» قال: وما أم مِلدم؟ قال: «**حرٌ بين الجلد واللحم**» قال: ما وجدت هذا قط، قال: «**فهل أخذك هذا الصداع؟**» قال: وما الصداع؟ قال: «**عِرقٌ يضرب على الإنسان في رأسه**» قال: ما وجدت هذا قط، فلما ولّى قال: «**من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**» أخرجه أحمد[٨] قال ابن حبان رحمه الله تعالى: «قوله صلى الله عليه وسلم: «**من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**» لفظة إخبار عن شيء مرادها الزجرُ عن الركون إلى ذلك الشيء، وقلة الصبر على ضده، وذلك أن الله عز وجل جعل العلل في هذه الدنيا والغمومَ والأحزان سبب تكفير الخطايا عن المسلمين؛ فأراد صلى الله عليه وسلم إعلام أمته أن المرء لا يكاد يتعرى عن مقارفة ما نهى الله عنه في أيامه ولياليه، وإيجاب النار له بذلك إن لم يتفضل عليه بالعفو، فكان كل إنسان

---

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥) وأبو يعلى (٤٢٣٤) وإسناده حسن وقال الهيثمي: رجاله ثقات (٢/ ٢٩٤).

(٨) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٥) والبزار كما في كشف الأستار (٧٧٨) وصححه ابن حبان (٦/ ٢٩) والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٣٤٧) وحسنه الهيثمي (٢/ ٢٩٤) وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: حسن صحيح.

مرتهن بما كسبت يداه، والعلل تكفر بعضها عنه في هذه الدنيا لا أن من عوفي في هذه الدنيا يكون من أهل النار»(٩).

لقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى، وأدركوا ما للأمراض من منافع عاجلة وآجلة؛ فصبروا على ما أصابهم رجاء الثواب، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: أتت الحمى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من أنت**؟ قالت: أنا أم ملدم. قال: **أتهتدين إلى أهل قباء**، قالت: نعم، فأتتهم فحمّوا ولقوا منها شدة فاشتكوا إليه وقالوا: يا رسول الله ما لقينا من الحمى قال: **إن شئتم دعوتُ الله فكشفها عنكم وإن شئتم كانت طهوراً**، قالوا: لا، بل تكون لنا طهوراً وعَرْفاً» أخرجه أحمد وأبو يعلى(١٠).

وعن الرباب القشيري قال: «دخلنا على أبي الدرداء نعوده، فدخل عليه أعرابي فقال: ما لأميركم؟ وأبو الدرداء يومئذ أمير قال: قلنا: هو شاكٍ، قال: والله ما اشتكيت قط، أو قال: والله ما صدعت قط، فقال أبو الدرداء: أخرجوه عني، ليمت بخطاياه، ما أحب أن لي بكل وَصْبٍ وصبته حُمْر النعم. إن وصْبَ المؤمن يكفر خطاياه» أخرجه عبدالرزاق(١١).

---

(٩) انظر: صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان (٧/ ١٧٩).

(١٠) أخرجه أبو يعلى (١٨٩٢) وأحمد (٣/ ٣١٦) وعزاه الهيثمي لأحمد وأبي يعلى وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد (٢/ ٣٠٥).

(١١) مصنف عبدالرزاق (١١/ ١٩٨).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ **مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (١١) ﴾ [التغابن] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - أيها المسلمون - واعلموا أن العبرة بقوة القلب لا بقوة الجسد. وقوةُ القلب تكون بقدر ما فيه من إيمان بالله تعالى، ومحبة ورجاء له، وخوف منه، ورضىً بقضائه وقدره.

وكم من صاحب جَسَدٍ هزيل، لا تفارقه الأسقام والعلل يجتنبه الناس خشية العدوى، له عند الله تعالى مقامٌ عالٍ؛ لما في قلبه من صلاح وتقوى.

وكم من شخص قوي البنية، جميل الشكل، حسنِ الثياب، عَطِرِ الرائحة، لا يشتكي أبداً، في قلبه من الفساد والشر ما لو كان لقلبه رائحة لم يجالسه أحد.

عن سعيد بن مسروق عن منذر قال: جاء ناس من الدهاقين إلى عبدالله بن مسعود فتعجب الناس من غِلَظ رقابهم وصحتهم قال: فقال عبدالله: «إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسماً، وأمرضهم قلباً،

وتلقون المؤمن من أصح الناس قلباً وأمرضهم جسماً، وأَيْـمُ الله لو مرضتْ قلوبكم، وصحت أجسامكم؛ لكنتم أهـون عـلـى الله من الجِعْلان»(١٢).

إن للقلب انتفاعـاً عظيماً بتلك الأمراض التي نكرهها ونضجـر منها، فالأمراض سبب للمحاسبة والاستعتاب، والأوبة والتوبة، وبها يُستخرج الدعاء من العبد، ويقل لهثه على الدنيا، ويتذكرُ الموت والدار الآخرة.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «انتفاع القلب والروح بالآلام والأمراض لا يحس به إلا من فيه حياة، فصحة القلوب والأرواح موقوفة على آلام البدن ومشاقها...»(١٣) وقال أيضاً: «ولولا محنُ الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعُجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سببُ هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه. فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه.. فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا. والله سبحانه إذا أراد بعبده خيراً سقاه من دواء الابتلاء والامتحان على قدر حاله؛ يستفرغ به من الأدواء

---

(١٢) الحلية لأبي نعيم (١/ ١٣٥) والزهد لأحمد (٩٠٢) ونحوه عند هناد في الزهد (٢٤٧).

(١٣) شفاء العليل (٥٢٤).

المهلكة؛ حتى إذا هذّبه ونقّاه وصفّاه أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه»اهـ[١٤].

جعلني الله تعالى وإياكـم من أهل عبوديته، ورزقنا جنته وقربه ورؤيته في الآخرة إنه سميع مجيب، وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(١٤) زاد المعاد (٤/ ١٩٥).

١١١- في مطلع العام: محاسبة ومقارنة

الجمعة ٣/ ١/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: بعد توديع عام مضت أيامه ولياليه، وطويت صحائفه بما كان فيها من حسنات وسيئات، وفي مطلع هذا العام الجديد، هذه وقفة محاسبة وتذكير ومقارنة، نحاسب فيها أنفسنا أفراداً حتى تتحقق المحاسبة الجماعية، ونقارن بعض أفعالنا بأفعال سلفنا الصالح؛ لأن مشكلتنا أننا نأنف من المحاسبة ونظنها عيباً وقدحاً في الذوات، وهذا سبب استمرارنا على الخطأ الذي كانت نتيجته التخلف لأمتنا التي أصبحت عالة على الغير، بيد أبنائها قبل أعدائها، وقد كانت في موقع الريادة والصدارة على أيدي

أسلافنا، مع أن ظروفنا أحسن من ظروفهم من حيث الكثرة العددية ومن حيث الموارد الطبيعية، لكن النظرة إلى الدنيا بيننا وبين أسلافنا كانت مختلفة، فحينما كانت الدنيا وسيلة عندهم، أصبحت عند الكثيرين منا غاية، ولو لم تكن غاية بالقول والادعاء - لأننا لا يمكن أن نعترف على أنفسنا - فهي غاية بالأفعال والأحوال.

إنه وللأسف يوجد انفصام بين قناعاتنا وبين أفعالنا، فقناعتنا هي بالدار الآخرة لكن أفعالنا في أكثرها للدنيا، ولم يكن عند أسلافنا هذا الانفصام، فقناعتهم كانت بالآخرة، وعملهم كان من أجلها، ويرون أن ذلك عين العقل والحكمة، حين يقول حكيم منهم: «لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزفاً يبقى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني، فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني والآخرة هي الذهب الباقي»(١). بهذه النظرة الصحيحة إلى الدنيا والآخرة صلح حال أسلافنا، فصلحت لهم الدنيا، وانقادت لهم الأمم.

لما سمع الصحابة رضي الله عنهم قول الله عز وجل: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الحديد: ٢١] فهموا من ذلك أن المراد أن يجتهد كل واحد منهم في أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملاً يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له؛ فيحزن

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي (٢٦).

لفوات سبقه؛ فكان تنافسهم في درجات الآخرة، واستباقهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] ثم جاء من بعدهم فعكسوا الأمر فصار تنافسهم في الدنيا وحظوظها الفانية.[٢]

لقد فقه سلفنا عن الله أمره، وتفكروا في حقيقة الدنيا ومصيرها إلى الآخرة؛ فاستوحشوا من فتنتها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم عن مطامعها، وارتفعت همتهم عن السفاسف، فلا تراهم إلا صائمين قائمين، باكين والهين، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلو همتهم في التوبة والاستقامة، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات، وهاكم - أيها الإخوة - طرفاً من عباداتهم وعباراتهم[٣] في مقارنة مع عباداتنا وأفعالنا: قال الحسن رحمه الله: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»، وقال وهيب بن الورد: «إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل»، وقال بعض السلف: «لو أن رجلاً سمع برجل أطوع لله منه فانصدع قلبه فمات، لم يكن ذلك بعجب».[٤]

كانوا رحمهم الله ورضي عنهم مجتهدين في العبادة، متفانين في الطاعة، قيل لنافع: «ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال: الوضوء

---

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (٤٣١).
(٣) علو الهمة لمحمد أحمد المقدم (٢٠٩).
(٤) انظر هذه الآثار في: لطائف المعارف (٤٣٢).

لكل صلاة والمصحف فيما بينهما»[٥] ولم يكن أشد إزعاجاً عليهم من فريضة تفوت؛ لأنهم عظموا الله تعالى فعظموا فرائضه، قال وكيع بن الجراح: «كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه أكثر من ستين سنة فما رأيته يقضي ركعة». [٦]

قارنوا هذه المحافظة على الصلاة بحال الصلاة عند المسلمين اليوم!! وإذا أردتم أن تتم المقارنة فما عليكم إلا أن تنظروا إلى المساجد في صلاة الفجر!!

فإذا فاتت الواحد منهم صلاة الجماعة لعذر فما عساه أن يفعل؟! كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا بقية ليلته[٧].

كم تفوتنا الجماعة؟ وإذا فاتتنا فماذا نفعل؟ بل قد تفوتنا الصلاة في وقتها كسلاً وتهاوناً بلا عذر، فما هو شعورنا تجاه ذلك؟ هل تحركت قلوبنا كما تحركت قلوب القوم؟ وما نهضت الأمة في وقتهم إلا لأن قلوبهم كانت يقظة مراقبة لله تعالى.

استشعروا مسؤولياتهم تجاه الله تعالى، وحافظوا على ما استرعاهم الله عليه من حقوق الناس وأعمالهم، فراقبوا الله في ذلك كله. يرى الواحد منهم أن الولاية والوظيفة مسؤولية وحمالة؛ فيتجرد من شهواته

---

(٥) طبقات ابن سعد (٤/ ١٧٠) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٥).

(٦) تهذيب التهذيب (٢/ ٤٢٤) رقم الترجمة (٣٠٤٩).

(٧) حلية الأولياء (١/ ٣٠٣).

وينسى اللذائذ للقيام بها خير قيام وإتقان عمله فيها.

أما نحن فإننا نجعلها سلماً يوصلنا إلى اللذائذ والشهوات، ونظنها تشريفاً، ونتغافل عن كونها تكليفاً، وهذا سبب من أسباب التخلف والفوضى، عن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبدالملك فقال: «ألا تخبريني عن عمر بن عبدالعزيز؟ قالت: ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استخلف»(٨).

سبحان الله!! إنه رحمه الله ما تبتل ولا ترهبن، كيف وهو الفقيه العالم! ولكنَّ هَمَّ المسؤولية أخمد شهواته. إنه تذكر أنه سيقف بين يدي الله تعالى ليسأل: ماذا عمل في تلك الأمانة؛ فكان ذلك كافياً لأن يوجل قلبه، فتضيق عروقه عن شهواته. قارنوا ذلك بحالنا، وانظروا كيف تتحرك شهواتنا بعد أدنى درجة ورفعة دنيوية نحصلها.

كانوا يعيبون من جعل الدنيا أكبر همه، وينكرون عليه ذلك، بينما ننظر إلى من فعل ذلك بإجلال وإكبار، نقول كيف أدار عقله تلك التجارات؟ وكيف أحسن التصرف في فرص المال والجاه؟ وربما كان هذا الذي أثار إعجابنا وإكبارنا عن الآخرة من الغافلين؛ بل ربما أنه لا يراعي في كسبه حدود الله، ولا يتورع عما حرم الله، ولا يؤدي حق الله فيه، وكثير منهم كذلك، ومع ذلك نُعجَبُ به، ونقدمه في المجالس والدعوات على قوم صالحين، من أجل الدنيا التي يملكها.

---

(٨) الحلية (٥/ ٢٥٩) والزهد لابن المبارك (٨٩٠) والسير (٥/ ١٣٥).

قال عامر بن قيس لقوم ذكروا الدنيا: «وإنكم والله لتهتمون؟ أما والله لئن استطعت لأجعلنها هماً واحداً، قال الحسن: ففعل ذلك حتى لحق بالله تعالى»[٩].

كانوا يعجبون من مؤمن بالجنة يطول نومه، وموقن بالنار يكثر لهوه، أما نحن فلا شيء من ذلك يثير العجب عندنا، قال أحمد بن حرب رحمه الله تعالى: «يا عجباً لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه والنار تسعر تحته، كيف ينام بينهما»[١٠].

كان الخوف من الذنوب ملازماً لهم، أدى إلى شدة محاسبتهم لنفوسهم ولومها على الحقير قبل الجليل، والصغير قبل الكبير.

وضعوا النار نصب أعينهم مع رجائهم في رحمة الله تعالى، لكنهم لم يتكلوا عليها ويتركوا العمل كما يفعل كثير منا حينما يؤمر بطاعة أو ينهى عن معصية يبادرك قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وينسى أو يتناسى ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

كان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: «رجل أصيب بمصيبة، منكسر الطرف، منخفض الصوت، رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع، قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته، لا تسكت، لعلك يا بني أصبت نفساً، لعلك قتلت قتيلاً؟! فيقول: يا أمه، أنا أعلم بما صنعت نفسي»[١١].

---

(٩) الزهد لابن المبارك (٨٥٨). (١٠) إحياء علوم الدين (٤/ ٤١١).

(١١) صفوة الصفوة (٣/ ١١٤) ونحوه في الحلية (٥/ ٤١) وفي السير (٥/ ٤٠٦).

وهذا الخوف الشديد أدى إلى ضبط ألسنتهم عن اللغو والثرثرة، فضلاً عن نطق الحرام، قال بعض أصحاب الربيع من خثيم: «صحبت الربيع عشرين عاماً ما سمعت منه كلمة تعاب»[١٢].

قارنوا هذا مع رصيدنا الذي نودعه كل يوم في صحف الأعمال من الكلام الذي لا يفيد.

ومع هذا كله تجد عندهم تنوعاً في الأعمال الصالحة، ومسابقة في ميادينها، وإبداعاً في مجالاتها، مع كثرة هذا العمل الصالح بحيث يستوعب الوقت كله، قال عبدالرحمن بن مهدي: «لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غداً، ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً»[١٣] وحماد ابن سلمة تأثر بشيخه سليمان التيمي حيث قال عنه: «ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عز وجل فيها إلا وجدناه إما متوضئاً أو عائداً أو مشيعاً لجنازة أو قاعداً في المسجد، قال: فكنا نرى أنه لا يحسن يعصي الله عز وجل»[١٤].

لقد تعلقت قلوبهم بالله تعالى فكان همهم الآخرة، يتسابقون عليها، ويتنافسون فيما يقرب إليها.

ولما كان الصحابة قد شرفوا بالصحبة لم يقعد التابعون عن مسابقتهم في الخير بحجة أنهم قد سُبِقُوا بالصحبة؛ بل اجتهدوا في العمل لعلهم يدركون من سبقوهم، يفصح عن هذا المعنى التابعي الجليل أبو مسلم

---

(١٢) طبقات ابن سعد (٦/ ١٨٥) والسير (٤/ ٢٥٩).
(١٣) السير (٧/ ٤٤٧) وتهذيب التهذيب (٢/ ١١).
(١٤) الحلية (٣/ ٢٨) وصفة الصفوة (٣/ ٢٩٧).

الخولاني رحمه الله تعالى حينما يقول: «أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا؟ كلا، والله لنزاحمنهم عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلّفوا وراءهم رجالاً». (١٥)

فمن منا ينظر تلك النظرة، وينافس في الخير أولي الخير، ويرضى من الدنيا بما قسم له، ويفرغ قلبه للآخرة؟!

وصاحب الهمة العالية، والنفس الشريفة التواقة، لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى، ولا يرجع عن مطلوبه ولو تلفت نفسه في طلبه، ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه (١٦).

وبعد هذه المقارنة المختصرة هل أدركتم ـ أيها الإخوة ـ بم سبقنا، وما سبب تخلفنا وضعفنا؟ إن سبب ذلك ركوننا إلى الدنيا، مع إعراض كثير عن الله والآخرة، فوكلنا الله إلى أنفسنا، وما أضعفنا إذا وكلنا إلى أنفسنا. أما سِرُّ قوة أسلافنا فإنهم عَلَّقوا قلوبهم بالله تعالى والآخرة فكفاهم الله أمر الدنيا ورفعهم على أمم الأرض.

فهل ندرك ذلك في بداية عام جديد فنصلح أنفسنا حتى تصلح أمتنا؟ نرجوا ذلك، ونسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا إنه سميع مجيب..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] بارك الله لي و لكم في القرآن العظيم.

---

(١٥) حلية الأولياء (٢/ ١٢٧) والسير (٤/ ٧) وعلو الهمة (٢١١).

(١٦) لطائف المعارف (٤٣٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها المؤمنون ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝**﴾ [الطلاق: ٢, ٣].

أيها الإخوة: في شهر محرم كتب الله النصر والغلبة لطائفة من المؤمنين على جند من الكافرين؛ إذ أنجى الله موسى صلى الله عليه وسلم وقومه، وأغرق فرعون وجنده، وكان ذلك في يوم عاشوراء فصامه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه حيث روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: «**ما هذا؟** قالوا: هذا يوم صالح نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم فصامه، فقال: **أنا أحق بموسى منكم؛** فصامه ﷺ وأمر بصيامه» أخرجه الشيخان[١٧]، وأخبر في حديث

(١٧) أخرجه البخاري في الصوم باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤) ومسلم في الصيام باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

آخر أنه يكفر السنة التي قبله [١٨] وأخبر صلى الله عليه وسلم بأنه إن بقي العام القادم سيصوم التاسع معه مخالفة لليهود، فلم يأت العام القابل إلا وقد توفي صلى الله عليه وسلم [١٩].

فاحرصوا رحمكم الله على هذه السنة العظيمة؛ فصوموه وصوموا يوماً قبله أو يوماً بعده حتى تتحقق مخالفة اليهود.

وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم ربكم بذلك.

* * *

(١٨) كما في حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه عند مسلم في الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢) وأخرجه الترمذي مختصراً مقتصراً على ذكر يوم عاشوراء فقط في الصوم باب ما جاء في الحث على صوم يوم عاشوراء (٧٥٢).

(١٩) كما في حديث ابن عباس عند مسلم في الصيام باب أي يوم الصيام في عاشوراء (١١٣٣) و(١١٣٤) وأبي داود في الصوم باب ما روي أن عاشوراء يوم التاسع (٢٤٤٥) و(٢٤٤٦).

١١٢- القلب السليم: وصفه وأهله

الجمعة ١٦/ ٥/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: صلاح الجوارح في صلاح القلب، وفسادها في فساده «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان[1].

---

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري في الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢) وفي البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩)، وأبو داود في البيوع باب في اجتناب الشهوات (٣٣٢٩ ـ ٣٣٣٠)، والترمذي في البيوع باب ما جاء في=

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنودٌ طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك؛ فإن كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحةً، وإن كان فاسداً كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] سليم منيب، سلم من الآفات والمكروهات كلها[٢]. . سلم من الشرك والبدعة، ومن الهوى والشهوة، ومن الحسد والدغل.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا، فهو القلب الذي قد سلم لربه، وسلّم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره، ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته. . . ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل، وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها» اهـ[٣].

= ترك الشبهات (١٢٠٥)، والنسائي في البيوع باب اجتناب الشبهات (٧/ ٢٤١)، وابن ماجه في الفتن باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٠ ـ ١٤١) شرح الحديث السادس.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٤١).

إذاً فهو قلب سلم من محبة غير الله تعالى؛ فأخلص عبوديته لله، إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة، وإخباتاً وخشية ورجاءً. أخلص عمله لله؛ فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وأن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله. ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤).

فالقلب يفسد بغير الله كفساد الكون لو كان فيه غير الله تعالى، فكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فكذلك القلوب إذا كان فيها غير الله تعالى فسدت(٥).

والله تعالى لا يريد من عباده غير توحيده وطاعته، وذلك لا يكون إلا بصلاح القلوب. وفي هذا المعنى قال الحسن رحمه الله تعالى لرجل: «داو قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم»(٦).

أيها الإخوة: وكلما كان العبدُ أشدَّ التزاماً بأمر الله تعالى كان ذلك دليلاً على سلامة قلبه وصلاحه واستقامته، وأكثر الناس سلامة قلوب: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول الله عنه: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الصافات: ٨٣, ٨٤].

---

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١١ ـ ١٢).

(٥) انظر: التزكية بين أهل السنة والصوفية للدكتور أحمد فريد(١٥) عن: القلب في القرآن وأثره في سلوك الإنسان للدكتور سيد الشنقيطي (٦٦).

(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤١).

وخاتم النبيين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شُق صدره، وغسل قلبه ثلاث مرات:

مرةً وهو صغير يلعب مع الغلمان إذ أتاه جبريل فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقةً فقال: «**هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمَهُ، ثم أعاده في مكانه**» أخرجه مسلم[٧]، فصار قلبه سليماً من طفولته؛ فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان.

ثم شُق صدره ثانية عند بعثته رسولاً إلى قومه زيادة في إكرامه؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحول من التطهير[٨].

ثم شق صدره مرة ثالثة عند إرادة العروج به إلى السماء؛ ليتأهب لمناجاة الرب تبارك وتعالى. قال عليه الصلاة والسلام في حديث إسرائه ومعراجه: «**فُرِجَ سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل صلى الله عليه وسلم ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهبٍ ممتلئٍ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي**

(٧) أخرجه أحمد ٣/ ١٢١)، ومسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٦١)، والدارمي في مقدمة سننه (١/ ٨ ـ ٩)، والحاكم (٢/ ١١٦ ـ ١١٧)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٧) من حديث أنس رضي الله عنه وفي الباب حديث عتبة بن عبد السلمي عند أحمد (٤/ ١٨٤)، والدارمي (١/ ٨)، والحاكم (٢/ ٦١٦).

(٨) انظر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٤٤).

إلى السماء...» أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم[٩].

فصار قلبه بما استخرج منه من علائق الشيطان، وبهذه الغسلات الثلاث، وبحشوه إيماناً وحكمة؛ أصفى القلوب وأنقاها، وأكثرها سلامة وصلاحاً، وأصبح قلبه السليم بما فيه من أنوار الإيمان والحكمة مهيئاً لاستقبال خير الكلام، فأنزل الله عليه القرآن ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٥]، ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٩٧].

واختار الله تعالى لصحبته صلى الله عليه وسلم ولنشر دينه في الأرض أبرَّ الناس قلوباً، وأصدقهم لساناً، وأزكاهم علماً وعملاً؛ فكانت قلوبهم أكثر القلوب في هذه الأمة صفاءً ونقاءً، وسلامةً وإيماناً، خاطبهم الله تعالى فقال لهم: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [الحجرات: ٧] وبيّن صلاح قلوبهم واستقامتها وسلامتها فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾

---

(٩) أخرج هذا اللفظ مسلم من حديث أنس أن أبا ذر كان يحدث فذكره (١٦٣)، وأخرجه البخاري من حديث أنس عن مالك بن صعصعه فذكره في مناقب الأنصار باب المعراج (٣٨٨٧)، ومسلم في الإيمان باب الإسراء (١٦٤)، وأحمد (٤/ ٢٠٨)، والنسائي في الصلاة باب فرض الصلاة (١/ ٢١٧).

[الحجرات: ٣].

والذين تبعوا الصحابة بإحسان، وأخذوا عنهم، وترضوا عليهم سلمت قلوبهم من البدعة والنفاق، ومن الغش والدغل ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والعلماء الراسخون في العلم يسألون ربهم سلامة صدورهم، ويرجونه صلاح قلوبهم ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧, ٨] ولأجل صلاح قلوبهم وسلامتها من الزيغ كانوا أشدَّ الناسِ خشيةً لله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وأكثرهم خشوعاً ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وهكذا المؤمنون الصادقون في إيمانهم تجد في قلوبهم من الصلاح والاستقامة على قدر إيمانهم ويقينهم، فكلما عظم إيمانهم ويقينهم كانت قلوبهم أكثر نقاءً وسلامة، وصلاحاً واستقامة. ولهؤلاء المؤمنين الصادقين أوصافٌ معروفة، وميزانٌ يستطيع كل مؤمن أن يزن قلبه بهذا الميزان ليعرف مدى سلامته وصلاحه واستقامته. إنه ميزان الطمأنينة بذكر الله تعالى، والتأثر بكلامه، تأثر خشوع خالص لله تعالى، لا حظ لمخلوق

فيه، سالمٍ من الرياء والنفاق والسمعة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، قلوب صلحت وسلمت واستقامت، فاطمأنت بذكر ربها ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣] فهذا هو الميزان، فليعرض كلُ مؤمن قلبه على هذا الميزان الدقيق ليعلم قدر ما في قلبه من صلاح وسلامة واستقامة.

وهناك قلوب أسلمت؛ لكن نور الإيمان لم يخالط بشاشتها؛ فكان فيها ما فيها من أدواءٍ وعلل، وفسادٍ وانحراف ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

وليس بعد هذه القلوب المذكورة إلا قلوبٌ ما سلمت من كفر أو نفاق أو بدعة؛ لأنها ما سلّمت الأمر لله تعالى، ولا انقادت لشرعه؛ فكان أصحابها من الهالكين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ

فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن جزاء أصحاب القلوب السليمة عظيمٌ يومَ القيامة، فكما أنهم سلّموا أمرهم لله تعالى في الدنيا، وسلمت قلوبهم من علائق الشهوات والشبهات؛ فإن الله تعالى سلّم لهم الدار الآخرة، فجعلهم سالمين من أكدارها وعذابها، متسلمين للذاتها ونعيمها في جنات الخلد **﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾** [ق: ٣١ - ٣٥].

فمن أراد أن تسلم له الدار الآخرة فليحرص على سلامة قلبه.. ليخش الله تعالى، وليقبل عليه بقلب منيب سليم خاضع له، خاشع عند آياته، ممتثل أمره، مجتنب نهيه **﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾** سلّم قلبه في الدنيا لله تعالى فاستحق أن يدخل الجنة بسلام.

ولأهمية هذا الأمر ـ أعني سلامة القلب ـ كان من دعاء النبي صلى

الله عليه وسلم: «**وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً**» أخرجه الترمذي[١٠].

وما أحوجنا ـ أيها الإخوة ـ إلى أن نتعاهد قلوبنا فنسعى في سلامتها، ونأتي أسباب صلاحها، ونجتنب ما يمرضها ويهلكها. كم في قلوب العباد من شهوات الدنيا ومتعها وحظوظها التي أضيعت من أجلها الفرائض، وانتهكت الحرمات! تنافسوا فيها، واختلفوا عليها؛ فتحاسدوا وتباغضوا، ثم تقاطعوا وتدابروا؛ فلا الأخ يرى أخاه، ولا القريب يعرف قريبه!!

كم زاحم الإيمانَ حبُ المال فأضعفه أو أقصاه؛ حتى ضيعت الأمانات وارتكبت الخيانات، وأكل السحت من رباً ورشوة وغصب لحقوق الآخرين.

وعندما تَقِلُّ القلوب السليمة في العباد، وتكثر القلوب المريضة، ويسود ذلك في الناس؛ فإن العبد حينئذ يُعرَف بما يملك من جاه أو مال، ولا يُعرَف بقدر ما في قلبه من تقوى وإيمان.

وفي هذا الزمن باب الشهوة مفتوح على مصراعيه، إن سلم قلب العبد من شبهات في الدين، أتته شهوات الدنيا. فالمال شهوة، والجاه شهوة، وكرسي الوظيفة شهوة، والنساء شهوة، والأهل والأولاد فتنة،

---

(١٠) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٧)، والنسائي في السهو باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٤)، والطبراني في الكبير (٧١٧٥)، وصححه ابن حبان (١٩٧٤)، والحاكم وقال: على شرط مسلم وأقره الذهبي (١/ ٥٠٨) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

إن سلم العبد من واحد من هذه الشهوات وقع في أختها إلا من عصم الله قلبه، وجعل الآخرة همه، ورزقه القناعة في الدنيا. فذلك الذي يسعد في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا كذلك، اللهم إنا نسألك قلوباً سليمة، اللهم أصلح فساد قلوبنا وأعمالنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، والحمد لله رب العالمين.

١١٣- شدة حرِّ الدنيا من نار جهنم

الجمعة ٢٠/ ٤/ ١٤٢١هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: شدة الحر مؤذيةٌ، كما أن شدة البرد مؤذية أيضاً، وحرارة الشمس ولهبها يجعل الأحياء تبحث عن ظلٍ يقي حرها، أو ماءٍ بارد يخفف لهبها؛ ولذا كان من كمالِ نعيمِ أهل الجنة أنهم لا يجدون الحر، ولا يرون الشمس، كما لا يجدون شدة البرد. ظل دائم، واعتدالٌ في الهواء، لا حارٌ يلفح، ولا باردٌ يلسع ﴿وَنُدْخِلُهُمْ

ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء: ٥٧]، ﴿ **لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا** ﴾ [الإنسان: ١٣]، ﴿ **فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ** ﴾ [المرسلات: ٤١].

وهو ظلٌّ تميز بميزات كثيرة، منها: أنه ممدود لا ينتهي، ودائم لا ينقطع، فليس في مكان محدود من الجنة؛ بل ممتد فيها ﴿ **وظل ممدود** ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن في الجنة شجرة يسيرُ الراكبُ في ظلها مئة عام لا يقطعها؛ اقرؤوا إن شئتم** ﴿ **وظل ممدود** ﴾» متفق عليه[1].

وهو كذلك دائم أبداً، لا ينقطع في زمان من الأزمنة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ **أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا** ﴾ [الرعد: ٣٥]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الجنة سجسجٌ كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[2].

والسجسجُ في اللغة: الاعتدالُ في الجو، يقال: يومٌ سجسج، إذا لم يكن فيه حرٌّ مؤذٍ، ولا بردٌ شديد[3].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة الواقعة باب قوله ﴿وظل ممدود﴾ (٤٨٨١) ومسلم في صفة الجنة ونعيمها باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها (٢٨٢٦) والترمذي، في صفة الجنة باب ما جاء في صفة شجر الجنة (٢٥٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء مثله عن سهل ابن سعد في الصحيحين، وعن أبي سعيد في الصحيحين وجامع الترمذي، وعن أسماء بنت أبي بكر في جامع الترمذي وجاء عن غيرهم، حتى قال ابن كثير عنه: «متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه، وقوة أسانيده، وثقة رجاله» انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٢) عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الواقعة.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٢٥) وعبد الله ابن الإمام أحمد في زياداته على الزهد لأبيه (٢١٣).

(٣) نقل الخطابي عن ابن الأعرابي أن السجسج: أرق مايكون من الهواء، ونقل =

وبضد ذلك جهنم ـ أعاذنا الله والمسلمين منها ـ فإنها شديدةُ الحرارة، ظلها يحموم، وهبوُبها سموم ﴿ **وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ** ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، والسموم: الهواء الحار، والحميم: الماء الحار، والظل اليحموم: هو ظلُّ الدخانِ، وهو حار أيضاً(٤)؛ فاجتمع عليهم حرارةُ الهواءِ، وحرارةُ الماءِ، وحرارةُ الدخان أجارنا الله منها بعفوه ورحمته.

ومن المنن التي يعددها أهل الجنة لربهم عليهم: أنه تعالى أبعد عنهم حرارة الهواء، يقولون: ﴿ **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ [الطور: ٢٧, ٢٨].

ومن شدة حرارة جهنم ـ أجارنا الله منها ـ أن بعضها يأكل بعضاً، ويحطم بعضها بعضاً، وأشدُّ حرٍ نجده في الصيف ما هو إلا نَفَس من أنفاسها، وأشد ما نجد من برد في الشتاء نَفَس من أنفاسها؛ كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربِّ أكل بعضي بعضاً فأَذِنَ لها بنفَسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف.**

= عن غيره أنه هواء لاحر فيه ولا برد، انظر: غريب الحديث (٢/ ١٧٤) وقال ابن الأثير: أي معتدل لا حرٌّ ولا قُر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٤٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦٠).

فهو أشدُّ ما تجدون من الحر، وأشدُّ ماتجدون من الزمهرير»[٥]، قال ابن عبدالبر رحمه الله تعالى: «وأحسن ما قيل في هذا المعنى ما فسره الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: اشتكت النار إلى ربها فقالت: ياربِّ أكل بعضي بعضاً فخفف عني، قال: فخفف عنها، وجعل لها كل عام نَفَسين، فما كان من بردٍ يهلك شيئاً فهو من زمهريرها، وما كان من سموم يهلكُ شيئاً فهو من حرها» اهـ[٦].

ثم قال ابن عبدالبر: «ومعلوم أن نَفَسها في الشتاء غيرُ الشتاء،

---

(٥) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٦-٥٣٧) وفي بدء الخلق (٣٢٦٠) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه (٦١٧) ومالك في الموطأ (٢٧-٢٨) وشكواها المذكورة في الحديث حقيقة وليست مجازاً، وأخطأ من حملها على المجاز، وقد ذكر المحققون من أهل العلم أنها شكوى حقيقية، قال ابن عبدالبر: «يعضده عموم الخطاب، وظاهر الكتاب، وهو أولى بالصواب» اهـ وأثبت حقيقة شكواها الحافظ ابن حجر وابن المنير والسيوطي والزرقاني وغيرهم من الشراح، انظر: الاستذكار (١/ ٣٥٣) وفتح الباري (٢/ ٢٤) وشرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٦٠) وهذا الحديث من الأدلة على أن الجنة والنار مخلوقتان، وهو مذهب أهل السنة من المحدثين والفقهاء خلافاً لمن أنكره من المبتدعة. انظر: الاستذكار (١/ ٣٥٤) وبوّب عليه البخاري بقوله: باب ماجاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة. وباب صفة النار وأنها مخلوقة، وذكر أحاديث كثيرة تدل عليه. انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، البابين: الثامن والعاشر.

(٦) الاستذكار (١/ ٣٥٣).

ونَفَسَها في الصيف غيرُ الصيف لقوله: «نَـفَسٍ في الشتاء ونَفَسٍ في **الصيف**» اهـ[٧].

فصار إذاً أشدُّ حر في الصيف من نفسها، وأشدُّ برد في الشتاء من نَفَسها، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «النفس المذكور ينشأ عنه أشدُّ الحر في الصيف»[٨].

وخرّج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «تطلع الشمس من جهنم في قرن شيطان وبين قرني شيطان، فما ترتفع في السماء قضمة إلا فُتح بابٌ من أبواب النار، فإذا اشتد الحر فتحت أبوابُها كلُها»[٩]، قال السيوطي: «وهذا يدل على أن التنفس يقع من أبوابها، وعلى أن شدة الحر من فيح جهنم حقيقة» اهـ[١٠].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتأذون من شدة الحر في صلاة الظهر ـ خاصة حرارة الأرض وهم يسجدون عليها ـ حتى قال أنس رضي الله عنه: «كنا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدة الحر فإذا لم يستطع أحدنا أن يُمكِّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه» رواه مسلم[١١].

---

(٧) المصدر السابق (١/ ٣٥٣).

(٨) فتح الباري (٢/ ٤٢).

(٩) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) برقم (٨٩٨٨)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٠٧)، والزرقاني في شرحه على الموطأ (١/ ٦٠).

(١٠) شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٦٠).

(١١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب تقديم الظهر في أول الوقت في غير شدة الحر (٦٢٠).

وفي لفظ لأبي عوانة: «كنا إذا صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سجدنا على ثيابنا مخافة الحر»(١٢)؛ ولذا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإبراد في الظهر، أي: تأخير صلاة الظهر إلى آخر وقتها في شدة الحر، قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا اشتدَّ الحرُ فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم**» رواه الشيخان(١٣)، قال الزرقاني رحمه الله تعالى: «أي من سعةِ انتشارها وتنفسها، ومنه مكان أفيح: أي متسع، وهذا كناية عن شدة استعارها، وظاهرهُ أن مثار وهج الحر في الأرض من فيحها حقيقة» اهـ(١٤).

أيها الإخوة: شدةُ الحر في الدنيا تذكـرُ بحر الموقف العظيم يوم القيامة، كما تذكـرُ بحر نار جهنم. وكلما اشتد الحرُ في الدنيا كـان ذلك أدعى للتفكر والتذكر، وعدم نسيان حرِ القيامةِ، وحر نار جهنم. ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد ذكر لنا أن الشمس تكون قريبة من رؤوس العباد في عرصات القيامة مما يجعل كربَ العباد شديداً؛ فيطلبون الخلاص بالفصل والقضاء ليذهب كلُ واحد منهم إلى سبيله: إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال عليه الصلاة والسلام: «**تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكـونُ الناس**

(١٢) مسند أبي عوانة (١٠١٣).

(١٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٣) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الإبراد بالظهر في شـدة الحر... (٦١٥).

(١٤) شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٥٧).

على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ، وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه» أخرجه مسلم(١٥) .

وإذا كان الناسُ يتأذون في الدنيا من شدة الحر ومن عرقهم؛ فإن من الناس من سيغرق في عرقه يوم القيامة ـ عوذاً بالله من ذلك ـ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن العرقَ يوم القيامة ليذهبُ في الأرض سبعين باعاً وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس وآذانهم**» رواه مسلم(١٦)، وأشد من ذلك وأعظم: نار جهنم، من دخلها لا يقضى عليه فيموت، ولا يخفف عنه من عذابها، كلما نضجت جلودهم بُدّلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب .

إنها نار عظيمة، ليست نـارُ الدنيا على شدةِ حرها واستعارها، وعظيمِ لهبها وشررها إلا جزءاً يسيراً منها؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «**ناركم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم**، قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: **فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثلُ حرها**» متفق عليه(١٧)، قـال القرطبي رحمه الله تعالى: «يعـني

---

(١٥) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب صفة يوم القيامة (٢٨٦٤) والترمذي في صفة القيامة والرقاق والورع باب ماجاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤٢١).

(١٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب صفة يوم القيامة (٢٨٦٣).

(١٧) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥) ومسلم في صفة الجنة ونعيمها باب في شدة حر نار جهنم (٢٨٤٣) والترمـذي فـي=

أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يوقدها بنو آدم لكانت جزءاً من أجزاء جهنم المذكورة، وبيانه: أنه لو جمع حطب الدنيا فوقَدَ كلُه حتى صار ناراً؛ لكان الجزءُ الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءاً أشد من حر الدنيا كما بينه آخر الحديث» اهـ[١٨].

أسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته، وأن يعفو عنا، وأن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدون إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وخذوا من حرِّ الدنيا تذكرة لحرِّ الآخرة، وارجوا رحمة الله تعالى، وخافوا عذابه، ولاتأمنوا مكره؛

= صفة جهنم باب ماجاء أن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم (٢٥٩٢) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٤).

(١٨) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ١٨٧).

فإن من خاف الله في الدنيا أَمِن في الآخرة، ومن أَمِن في الدنيا فحريٌ أن يخاف في الآخرة، وكان من هدي سلفنا الصالح الخوفُ من عذاب النار.

يقول فاروقُ هذه الأمة عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: «لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون هو» [١٩].

وقال عثمان رضي الله عنه: «لو أني بين الجنة والنار، ولا أدري إلى أيتهما يؤمرُ بي؛ لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلمَ إلى أيتهما أصير» [٢٠].

والخوف من النار يدفع المسلم إلى عمل الصالحات، واجتناب المحرمات، والأخذ بأسباب النجاة.

ألا وإن من هذه الأمة أقواماً لا يحزنهم الفزع الأكبر فهم آمنون، ولا يحسون شمسَ الموقف القريبة من الرؤوس فهم محفوظون، ولا يجدون حرها وسمومها فهم منعمون. كانت لهم في الدنيا أعمالٌ صالحة أوصلتهم إلى ظل الرب تبارك وتعالى، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمامُ العادل، وشابٌ نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب**

---

(١٩) أخرجه أبونعيم في الحلية (١/ ٥٣).

(٢٠) أخرجه أحمد في الزهد (٦٨٥) وأبونعيم في الحلية (١/ ٦٠).

وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفقُ يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» متفق عليه[٢١].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله»** أخرجه مسلم[٢٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«من أظل رأس غازٍ أظله الله يوم القيامة»** أخرجه أحمد وصححه الحاكم وابن حبان[٢٣].

وأخبر عليه الصلاة والسلام أن: **«كل امرىء في ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس»** أخرجه أحمد والحاكم[٢٤].

والمتحابون في الله تعالى لهم نصيب من الظل يوم القيامة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون**

---

(٢١) أخرجه البخاري في الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٦٠) ومسلم في الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٢٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠٠٦) وابن ماجه في الصدقات باب إنظار المعسر (٢٤١٩) والدارمي (٢٥٨٨) وأحمد (٣/ ٥٢١).

(٢٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٠) وأبويعلى (٢٥٣) وابن أبي شيبة (١/ ٣١٠) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٧٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٨٩) وصححه ابن حبان (٤٦٢٨).

(٢٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٤٥) وأحمد (٤/ ١٤٧) وأبويعلى (١٧٦٦) وصححه ابن خزيمة (٢٤٣١) وابن حبان (٣٣١٠) والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٤١٦).

بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» رواه مسلم[٢٥].

وكثرةُ الدعاء من أسباب النجاة من عذاب الله تعالى، وقد كـان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذُ في كل صلاة من عذاب جهنم[٢٦]، وأمر بذلك، وقال أنس رضي الله عنه: «كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»** رواه البخاري[٢٧]، ومن دعاء المتقين الأبرار: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٦].

فنسأل اللهَ تعالى أن يظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه، وأن يجيرنا من النار برحمته، اللهم أجرنا من النار ﴿**رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٥, ٦٦].

ألا وصلوا وسلموا على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، محمد ابن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

---

(٢٥) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب فضل الحب في الله (٢٥٦٦) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٢) وأحمد (٢/ ٣١٧) والدارمي (٢٧٥٧).

(٢٦) جاء ذلك في حديث عائشة عند البخاري في الفتن باب ذكر الدجال (٧١٢٩) وحديث أبي هريرة عند مسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨-٥٨٩) وحديث ابن عباس أيضاً عند مسلم (٥٩٠) وغيرها من الأحاديث.

(٢٧) أخرجه البخاري في الدعوات باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ربنا آتنا في الدنيا حسنة (٦٣٨٩).

١١٤- علو فرعون

الجمعة ٥/ ١/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: تاريخ البشرية تاريخٌ مليئٌ بالأحداث والعبر، حُفظ الكثير منه، وما ضاع منه أكثرُ مما حفظ.

تمكنت ملوك وأممٌ من الإعمار والتشييد، وأوتيت أنواعاً من العلوم، حتى إذا ما تم بناؤهم، وأزهرت حضارتهم؛ عادت أنقاضاً كما كانت من قبل، وقام على أنقاضها حضارة أو حضارات أخرى.

والقرآن العظيم حكى لنا ما نحتاج إليه من تواريخ الأمم، وأعرض

عمّا لا حاجة لنا به؛ فأخبرنا عن قوم نوحٍ وما حلّ بهم، وعن عادٍ وثمودَ وما جرى لهم، وعن هامان وقارون وفرعون وقومهم وكيف عذبوا، وعن غيرهم من طواغيت وأممٍ، كذبوا المرسلين، وصدوا عن السبيل فأهلكوا؛ حتى نعتبر ونتعظ، ونجانب الطريق التي سلكوها ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠١ - ١٠٣].

آيات بينات تدعونا إلى استدعاءِ التاريخ، والنظر في أحوال من كانوا قبلنا، ثم الاستفادة من هذا الاستدعاء والنظر؛ إذ هو المقصود الأعظمُ من عرض الأخبار والقصص.

وأشهر رمز ذكره القرآن في الطغيان البشري، وأبدى فيه وأعاد، وفصّل قصته واختصرها، وبيّن عاقبته في سور عدة: فرعون الطاغية. ذلك العبدُ الضعيفُ الذي رزقه الله تعالى القوة والشباب، والسلطة والجاه، والمالَ والقصورَ، والجيوش والعبيد، فلم يشكر نعم اللهِ تعالى عليه؛ بل كفر بالله تبارك وتعالى، وأعلن جحودَه له مع استيقان قلبه به، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، ثم ادعى أنه الرب من دون الله تعالى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ۝٢٣﴾ [النازعات: ٢٣, ٢٤].

وما أوصله إلى ذلك إلا العلو والاستكبار، تلك الصفةُ التي ما داخلت قلباً إلا أفسدته. تدرجت به من دَرَكٍ إلى درك، حتى بلغ قاع الكفر والجحود.

إن العلوَ هو الداءُ الذي فتك بقلبِ فرعون[١]؛ حتى ما عاد ينظر أن لأحد من الخلق حقاً عليه؛ فاستعبد رعيته، وسخرهم في خدمة شهواته، وأوقع بهم ألوان الظلم والأذى.

رأى رؤيا في منامه، فعبّرها كهنته وسحرته بأن ذهاب ملكه سيكون على يد واحد يخرج من بني إسرائيل[٢]، فأصدر أمره الطاغوتي بقتل أبناء بني إسرائيل، واستبقاء بناتهم لشهواته وشهوات جنده.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: «لقد ذكر لنا أنه كان يأمر بالقَصَب فيشق حتى يجعل أمثالَ الشفار، ثم يُصفُّ بعضه إلى بعض، ويؤتى بحبالى من بني إسرائيل فيوقفن عليه، فيجزُّ أقدامهن حتى إن المرأة منهم لتضع بولدها، فيقعُ بين رجليها، فتظلُّ تطؤه وتتقي به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها. حتى أسرف في ذلك وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس وقطعت النسل، وإنما هم خولك وعمالك.. فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستبقون عاماً»[٣].

---

(١) انظر في علو فرعون ومعناه: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠/ ٦٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٢٧)، والدرّ المنثور للسيوطي (٥/ ٢٢٣).

(٣) الدر المنثور (٥/ ٢٢٧) وعزاه لابن أبي حاتم.

ثم زاد علوه، فلم ير لخالقه حقاً عليه، فجحده وأنكره، واستكبر عن عبادته، وادّعى ماله من حق. وهكذا أوصله علوه إلى هذا الحد؛ ولذلك فإن الله تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون بالتفصيل في سورة القصص استهلّ القصة بذكر السبب الذي أورد فرعون هذا المورد المهلك وهو علوه على الناس فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٤].

وعلو فرعون كان سبباً في ظلمه وطغيانه، وفساده وإجرامه، والعلو يقود إلى هذه الكبائر، وربما وصل بالعبد إلى أحطِّ دركاتِ الكفر وهو لا يشعر.

إن علوَ فرعون أوصله إلى الظلم ففعل برعيته ما فعل، وذكر الله تعالى ظلمه فقال سبحانه: ﴿**وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ**﴾ [الشعراء: ١٠, ١١].

وأوصله علوه إلى الطغيان والفساد كما أخبر الله بذلك ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ**﴾ [الفجر: ١٠ - ١٢].

وأوصله علوه إلى الإجرام ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾ [يونس: ٧٥].

ولأن فرعون وجنده كانوا يريدون الاستمرار في هذا العلو على الناس خافوا دعوة موسى؛ لأنها سترفع من شأن بني إسرائيل، وستوقفُ

علوَ فرعونَ وجنده، فاتهموا موسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما بأنهما إنما أرادا أن يسلبا هذا العلوَ من فرعونَ وجنده ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] إن فرعون اتهم موسى وهارون عليهما السلام بما هو واقع فيه، وهو الاستعلاءُ على الناس ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾.

والقرآن بيّن لنا بصريح العبارة أن رفض فرعونَ وجنده لدعوة موسى كان سببه علوَ فرعونَ على قوم موسى، واستعباده لهم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٧].

إن علوَ فرعونَ أوصله إلى حدٍّ جحود الله تعالى، وإن استيقن قلبه به، فجعلَ من نفسه طاغوتاً يُعبدُ من دون الله تعالى، والطاغوت هو ما عُبد من دون الله تعالى، ولا يعبد الناسُ الطاغوت إلا إذا وُجد طاغية يدعوهم إلى ذلك؛ لأن الناس مفطورون على التوحيد. وهذا الطاغيةُ لابدّ له من قوة حتى يُرغم الناس على ذلك بالترغيب أو الترهيب، بالإغراء أو التعذيب. ولا يخنع الناسُ لهذا الطغيان إلا إذا كانوا ضعفاء بالاستعباد أو بالترف أو بالجهل.

أما إن كانوا أقوياء علماً وعملاً وعبادة؛ فإن أيَّ طاغية لن يستطيع أن يخضعهم لطاغوته.

وهذه الأمور اجتمعت لفرعون؛ فإنه كان طاغية قوياً، واستخدم لإخضاع بني إسرائيل له أساليب الترهيب والتعذيب، وكان في بني إسرائيل من الضعف والجهل والوَهْن ما جعلهم يخضعون لفرعون؛ ولذلك ذمهم الله تعالى. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿**وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه واتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وإيّاكم والعلو فإنه سبب هلاك الطغاة ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣].

أيها المؤمنون: قص الله تعالى علينا نبأ فرعون، وأوضح في أكثر من آية علوه واستكباره عن الحق، وبيّن أن ذلك سبب هلاكه، فلماذا هذا البيانُ والتوضيح؟!

إن القرآن مصدرُ هدايةٍ لنا، وعلاجٌ لأمراض القلوبِ التي منها: العلو. والنفسُ البشرية فيها من الضعف ما لا يخفى، فقد يغترُ العبدُ بنعمةٍ أنعم الله بها عليه، فيرى أنه أعلى من غيرِه، ويتدرج في ذلك، ولربما وصلَ إلى ما وصلَ إليه فرعون.

إن من الناس من أصابُه العلو والاستكبار عن الحق بسبب جاه أو مال رزقه الله إياه فظلم وأفسد في الأرض، ورأى أن له الحقَ في الظلم والفساد.

ومن الناس من يكون سببُ علوه ما أعطاه الله من الذكاء والعقل؛ فيرفض شريعة الله تعالى؛ لأنها لعموم الناس وهو أميز منهم عقلاً، وأعلى فكراً حسب رؤيته، وهذا شأنُ كثير من الزنادقة والملحدين الذين جعلوا أول واجباتهم الشك في وجود الخالق سبحانه وتعالى.

والذين يرفضون النصوص الشرعية، ويردونها بمحض عقولهم؛ فيهم نوعٌ من العلو على النصوص، والاستكبار عن قبولِ الشريعة كلها.

ومن الناس من قد لا يصلي مع خدمه وعماله؛ لعلوه عليهم، أو لا يصلي مع عامة المسلمين في المساجد؛ علواً بنفسه، واعتداداً بها.

وصورُ العلو عديدة، ونماذجه في الناس كثيرة. ومن الناس من يوصله علوه إلى الكفر والعياذ بالله، ومنهم من يوصله إلى كبائر الذنوب. والعبدُ مأمور أن يحاسب نفسه، ويفتش عن قلبه؛ فإن أنعم الله تعالى عليه بنعمة شكر الله عليها، ولم يجعلها سبباً لعلوه وفساده؛ ليكون من الناجين.

ومن وقع في شيء من العلو فعليه أن يبادر بالتوبة قبل أن يصل إلى ما وصل إليه فرعون؛ فيستكبر عن الله تعالى، ويرفض عبادته، فيكون مصيره مصير فرعون الذي قال الله تعالى فيه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠ - ٤٢].

لقد أغرق الله فرعون، وجعل موته آية لبني إسرائيل؛ لأن أكثرهم ما كان يصدق أن فرعون يموت(٤)، بل إن بعضهم صدق أن فرعون إله والعياذ بالله، فأغرقه الله تعالى أمام أعينهم؛ ليريهم عاقبة كفره، وحتى يعلموا أن طغيان فرعون وجنده وماله وقصوره التي تجري من تحتها الأنهار لم تنفعه من عذاب الله تعالى شيئاً.

ونجّى الله تعالى موسى عليه السلام، وشرع صوم اليوم الذي يوافق نجاته شكراً لله تعالى على ذلك، وهو صوم يوم العاشرمن شهر محرم.

ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد اليهود يصومونه

---

(٤) نقل المفسرون أن بني إسرائيل لم يصدقوا موته، قال قتادة: «لما أغرق الله فرعون لم تصدق طائفة من الناس ذلك؛ فأخرجه الله آية عظيمة». ونحوه عن ابن جريج وغيره، انظر: جامع البيان (١١/ ١٦٥) ونقل ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع؛ ليتحققوا موته وهلاكه». ا هـ تفسير ابن كثير (٢/ ٦٦٧).

فقال لهم: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**» فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعونَ وقومَه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فنحن أحق وأولى بموسى منكم** فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه». أخرجه الشيخان[٥]، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه يكفر السنة التي قبله كما في حديث أبي قتادة عند مسلم[٦]، وأمر بمخالفة اليهود، وذلك بصيام يوم قبله أو بعده وقال عليه الصلاة والسلام: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع**»[٧].

فصوموه ـ أيها المسلمون ـ شكراً لله تعالى على نجاة موسى، وغرق فرعون، وخالفوا اليهود فصوموا يوماً قبله أو يوماً بعده..

وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم..

---

(٥) أخرجه البخاري في الصوم باب صوم يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٦) أخرجه مسلم في الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس (١١٦٢).

(٧) كما في حديث ابن عباس عند مسلم في الصيام باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤).

١١٥- الثبات على الحق

الجمعة ٥/ ٣/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: الاهتداءُ إلى الصراط المستقيم، والتزام الحق المبين نعمةٌ لا يعدلها إلا نعمةُ الثبات عليه إلى الممات.

وكم من بشر زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، وعموا عن الحق فأضلهم الله تعالى بحكمته وعدله ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وكم من آخرين عرفوا طريق الحق فسلكوه، وعرفوا الباطل فجانبوه؛ ولكنهم ما استمروا على ذلك، ولا تمسكوا بمنهجهم، ولا بقوا على هداهم.

قومٌ أصابتهم الفتن فجمحت بهم عن الجادة، وباعدت بينهم وبين الحق؛ فضلوا من بعد الهداية، وعموا من بعد البصيرة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى.

والثبات على الحق إلى الممات أمرٌ عسير المنال إلا على من وفقه الله تعالى وثبته. وإذا تتابعت الفتن، وترادفت المحن، وعظمت الابتلاءات؛ كثر المتساقطون من جرائها، الذين يبدلون أمر الله تعالى؛ اتقاءً للبلاء، أو طمعاً في الدنيا، ومن بدّل أمر الله تعالى، وأمرَ رسولهِ صلى الله عليه وسلم فلن يرد حوض النبي صلى الله عليه وسلم حينما يردُ عليه الذين ثبتوا على الحق، ولم يبدلوا أو يغيروا.

إن الثبات على الحق إلى الممات نعمةٌ من الله تعالى ينعم بها على من يشاء من عباده، فلا يصرفهم عن الحق صارفٌ، مهما كانت قوته وأثره، ولا يمنعهم من الصدع به مانع ولو كان فيه ذهابُ أموالهم وأولادهم، أو كان فيه أذى أجسادهم، ولو عذبوا بالنار، أو قطعوا بالسنان، أو مشطوا بأمشاط الحديد، ما يردهم ذلك عن دينهم.

كما حكى الله تعالى عن سحرة فرعون رضوان الله عليهم حينما آمنوا هددهم فرعونُ بالعذاب الأليم، وقال: ﴿ **فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه:

٧١]، فكان جوابهم على وعيد فرعون وتهديده أن قالوا: ﴿**لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ [طه: ٧٢]، إنه الثبات على الإيمان لما ذاقوا حلاوته، وخالطت بشاشته قلوبهم.

وقال خباب بن الأرت رضي الله عنه: «شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة ـ قلنا له: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: **كان الرجلُ فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعلُ فيه، فيجاءُ بالمنشار فيوضعُ على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن اللهُ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستجعلون**» رواه البخاري[1].

إنه الثبات على الحق مهما كلف الأمر، ومهما كانت التبعات؛ ففي سبيل الله تعالى تهون عظائم المصائب، وتصغر كبيرات البلايا والمحن.

وهذا التثبيت يحتاج إليه أهل الحق في مواجهة أهل الباطل، سواء كانت المواجهة مواجهة سلاح وقتال أم مقارعة حجة وبيان، ويسألون

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة (٣٨٥٢)، وأبو داود في الجهاد باب في الأسير يكره على الكفر (٢٦٤٩).

الله تعالى أن يرزقهم الثبات على الحق.

وإذا رأوا تجمع الكفر عليهم بملله المختلفة، وأديانه المتفرقة، ورماهم العدو عن قوس واحدةٍ، وهو يملك من العدة ما لا يملكون، وعنده من الأسلحة ما لا يتصورون؛ فإنهم لا يخافونه، ولا يخشون تجمع الناس عليهم؛ لإيمانهم بأن الله تعالى أقوى، وأن جنده أكثر؛ فتتعلق قلوبهم بالله العظيم، ويعلنون لجوءهم إليه سبحانه وتعالى ﴿الذين قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وهم مع هذا الإيمان واليقين، وعدم الخوف إلاَّ من الله تعالى؛ يعلمون أن للنصر على العدو شرطاً لابد أن يحققوه، وأن الثبات على الحق في مقابلة الباطل ومقارعته مرهون بتحقيق هذا الشرطِ الذي هو: إقامةَ دين الله تعالى ظاهراً وباطناً، في كل شؤونهم وأعمالهم؛ لأنهم يقرؤون قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

كما يعلمون أن من أهم موانع النصر على الأعداء: مقارفة الذنوب والمعاصي؛ فتراهم مجانبين طرقها، حذرين من أهلها، ومع هذا التوقي والحذر فإنهم لا يأمنون على أنفسهم، ولا يدعون عصمتها من كل الذنوب؛ ولأجل ذلك فهم يكثرون من الاستغفار إذا حانت ساعة مقارعة الباطل، وغلت مراجلُ المعارك، فيقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا

في أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وإذا التقت الصفوف، ورأوا كثرة الجموع، وهولَ الحشود؛ لم يكن في قلوبهم إلا الله تعالى، يكثرون من ذكره وتكبيره والثناء عليه بما هو أهله؛ لأنه سبحانه وتعالى أمرهم بذلك **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [الأنفال: ٤٥].

ويلحون على الله تعالى يسألونه الثبات قائلين: **﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** [البقرة: ٢٥٠].

إنهم وحالهم تلك قد أتوا بأسباب الثبات على الحق، وحققوا شروطه، وأزالوا موانعه؛ فكان جزاؤهم تثبيت الله تعالى لهم.

ثبت قلوبهم، وربط عليها؛ فما هابت عدواً مهما كانت قوته، وحيثما بلغت كثرته. وثبت أقدامهم فما تزحزحت عن مقارها، ولا ولَّت على أعقابها؛ فواجهوا عدوهم الكثير بعددهم القليل، ورموه بسلاحهم الضعيف ورماهم بسلاحه القوي؛ فخاب سلاح عدوهم، وأصاب رميهم ما رموا؛ لأن الله تعالى سددهم، وهو الذي رمى عنهم **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾** [الأنفال: ١٧]، وأمدهم بملائكة تقاتل معهم، وتثبتهم في مصافهم **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** [الأنفال: ١٢].

وليس ميدانُ مقارعة الباطل بالحجة بأقل شأناً من مقارعته بالسلاح، وليست مناظرة الكافرين في كفرهم، ومناقشة المنافقين في نفاقهم،

ومجادلة أهل الشبهات في شبهاتهم إلا من جهاد الكلمة الذي أمر الله تعالى به مع جهاد السلاح في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

وصحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**» رواه أحمد وأبو داود وصححه ابن حبان والحاكم(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم»(٣).

وهذا الجهاد يقتضي دحض الباطل بالحجة، وكسره بالمحجة، وهو يحتاج إلى ثبات في المناظرة والمجادلة والمناقشة، وهذا الثبات يُطلب من الله تعالى؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل فيدعو قائلاً: «**رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر هداي إليَّ، وانصرني على من بغى عليَّ... رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي**» رواه أبو داود بإسناد صحيح(٤).

---

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٤)، وأبو داود في الجهاد باب كراهية ترك الغزو (٢٥٠٤)، والنسائي في الجهاد باب وجوب الجهاد (٦/ ٧)، وصححه ابن حبان (٤٧٠٩)، والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/ ٨١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٨٣)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١١).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، وأبو داود في الصلاة باب ما يقول الرجل إذا سلم (١٥١٠) واللفظ له، والترمذي في الدعوات باب في دعاء النبي صلى الله=

وإلا فإن العبد إذا لم يُسدد في حجته، ويقوى قلبه؛ اضطرب في كلامه، وضاعت حجته، وضعف في مناظرته.

أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على الحق، ويسدد ألسنتنا في النطق به، ويتوفانا غير مبدلين ولا مغيرين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى حق التقوى؛ فإن العبد إذا حقق التقوى، وراقب الله سبحانه في السر والعلن رزقه الله الثبات على الحق إلى الممات، وثبته عند موته فلا يجدُ الشيطان إلى قلبه سبيلاً، وثبته في

= عليه وسلم (٣٥٥١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٠٧)، وابن ماجه في الدعاء باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٨٣٠)، وصححه ابن حبان (٩٤٧)، والحاكم، ووافقه الذهبي (١/ ٥١٩ ـ ٥٢٠).

قبره فلا تضره فتنة القبر، وثبته في موقف القيامة فلا يجزع مما يرى من أهوال.

ألا وإن من أسباب الثبات على الحق: قراءة القرآن بخشوع وتدبر، فما فيه من أسماء الله تعالى وصفاته، وعظمته وجلاله؛ يجعل القلوب تتعلق به سبحانه دون من سواه. ومن أعظم أسباب الثبات: تعلق القلوب بالله تعالى.

وما في آياته من الوعد يجعلُ العبد راغباً فيما عند الله تعالى، طالباً لثوابه، فلا يترك الحق لشهوات الدنيا وزخرفها مهما عظمت.

وما في آياته من وعيد شديدٍ على من جانبَ الحق ورفضه يجعل قلب العبد يخاف الحساب ودقته، والعرض وكربته، والعذاب وشدته، فلا يتزحزح عن الحق مهما ناله من عذاب وأذى في الدنيا؛ لأنه يرى في آيات الله تعالى أن عذاب الدنيا الزائلة لا يساوي شيئاً أمام عذاب الآخرة الباقية.

ولعظيم ما للقرآن من أثر في تثبيت القلوب على الحق فإن آياته نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقة منذ بعثته إلى وفاته؛ تقويةً لقلبه، وتثبيتاً لإيمانه ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**﴾ [الفرقان: ٣٢].

ومطالعة أخبار المؤمنين السابقين، وما نالهم من أذى في سبيل الله تعالى سبب مهم من أسباب الثبات على الحق. ومن أعظم مقاصد القرآن والسنة في قص القصص، وذكر أخبار المرسلين، وأحوالِ الغابرين:

تثبيتُ القلوب المؤمنة على الحق مهما كانت العوائق والصوارف، ومهما ترتب على هذا الثبات من الابتلاءات والمحن. ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومن أعظم أسباب الثبات على الحق: الدعاء، وسؤال الله تعالى التثبيت، كما أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم، وامتدح قولهم: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: **«يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك»** وفي لفظ: **«يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»**. وكان يقول: **«ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»**(٥).

وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يدعو في صلاته فيقول: **«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر»**(٦).

---

(٥) أخرجه من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أحمد (٤/ ١٨٢)، والآجري في الشريعة (ص٣١٧)، والبغوي في شرح السنة (٨٩)، وابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٩) واللفظ له، وصححه البوصيري في الزوائد (١/ ٨٧)، وأخرجه من حديث أنس رضي الله عنه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩١٩٦)، ومن حديث هشام بن عروة عن أبيه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٦٤٦)، ولفظ: **«يا مثبت القلوب...»** لابن ماجه وعبد الرزاق وابن أبي شيبة.

(٦) أخرجه من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أحمد (٤/ ١٢٥)، والنسائي=

وكان يكثر من الأدعية التي فيها التثبيت مع أن الله تعالى عصمه من الزيغ والضلال.

وكان من هديه عليه الصلاة والسلام الثبات على الأعمال الصالحة التي يعملها كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عمل عمـلاً أثبته»، وفي لفظ: «إذا صلى صـلاة أحب أن يداوم عليها»(٧).

فإذا كان هذا حال خير البشر وخاتم النبيين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وهذا حرصه على الثبات على الحق ـ وهو المعصوم الذي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ فما هو حال المسلمين في الأزمان المتأخرة، وقد فُتحت عليهم أبواب المحن، وتلاطمت من حولهم الفتن؟! حتى رأينا رجالاً ذوي عقولٍ وأفهامٍ جرَّتهم الفتن إلى أتونها، وصلتهم بنارها، فما عاد لهم ثباتٌ على الحق، ولا صبرٌ على البلاء، ولا قوة في مواجهة الباطل!! وسبب ذلك: عدمُ أخذهم بأسباب الثبات والقوة في تحصين أنفسهم ضد الفتن والابتـلاءات، والفتنة قد تكون فتنةً بالضراء من الترهيب والتعذيب والإقصاء، وقد

في السهو باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٧)، وصححه ابن حبان (٩٣٥)، والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٥٠٨).

(٧) أخرجه مسلم في حديث طويل يحكي أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضي الله عنها في صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل (٧٤٦).

تكون فتنةً بالسراء من الترغيب والعطاء والإدناء.

ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله تعالى وثبته، فلقي الله تعالى غير مفتون في دينه، ثابتٍ على الحق، لم يجد أهل الباطل عليه سبيلاً، ولا سلك الشيطان إلى قلبه طريقاً. والعبدُ مأمور أبداً أن يسعى في صلاح قلبه، وتثبيت إيمانه، والثباتِ على الحق مهما كثر الزائغون عنه، أو ضعف صوتُ الداعين إليه؛ لأنه لا ينظر إلى كثرة الأتباع، ومعاضدة الإخوان، بقدر ما يلاحظ رضوان الله تعالى، ويرغب في جنته ورضاه؛ وذلك السعيد الذي لا يشقى أبداً.

فتعاهدوا قلوبكم ـ عباد الله ـ وقووا إيمانكم، واثبتوا على الحق المبين، فإن الدينا دار ابتلاء واعتبار، وإن الآخرة هي دار القرار.

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق. اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطل وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، اللهم أحيينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين ولا مغيرين.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

١١٦- الاعتبار بالآيات والنذر*

١٠/ ١١/ ١٤١٦هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: من نتائج كثرة العرض الدنيوي في أيدي الناس، وتسابقهم في ميادين الدنيا، والتوسع في النفقات والشهوات، وطول الأمل: قسوةُ قلوبهم، وتقصيرُهم في حق الآخرة. ولما كانت

* كانت هذه الخطبة بمناسبة الرياح الشديدة وسقوط البَرَد الذي أضر بالناس في مدينة الرياض عصر السبت الموافق ٤/ ١١/ ١٤١٦هـ نسأل الله العافية والتوبة.

طبيعةُ أكثر البشر نسيان القيامة، والتغافلَ عن مواعظ الكتاب والسنة، والذهول عن الاعتبار بما حلَّ بالعاصين والمكذبين في الأمم الغابرة من أنواع العقوبات، ورحمةً من الله تعالى بعباده، وإعذاراً إليهم، عندما تطبقُ الغفلة عليهم، وتفشوا المنكرات فيهم؛ فإنه عز في علاه يذكرهم ببعض آياته المحسوسات، ويُظهر لهم شيئاً من دلائل قدرته، وعظيم سطوته، وأليم عقابه، وسرعة انتقامه، ممن خالف أمره، وأتى نهيه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وكتابُ الله تعالى مليءٌ بهذا التذكير، ولكنّ إعراض أكثر الناس عن تدبره والعمل بما فيه، وتقصير كثير منهم في قراءته، يجعلهم لاينتبهون لآيات الوعيد والتهديد، ولا يلتفتون لعاقبة المعذبين من المكذبين. وإذا كان هذا حالنا أو حال أكثرنا مع آيات الوعيد والتذكير، وقصص الغابرين فلا غرابة حين ننسى ونغفل في ظل النعمة التي نعيشها، قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: «وجدت النقمة مع الغفلة»[1] يعني قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦].

أيها الإخوة: إننا بحاجة إلى النظر في أحوال المكذبين والعاصين، الذين قصّ الله تعالى علينا نبأهم في الكتاب العظيم؛ لعلنا نتعظ فنرجع قبل أن يصيبنا ما أصابهم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣١).

الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤] ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٨ - ١٠] ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧-٢٨] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٢ - ١٦] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

تأملوا رحمكم الله تعالى حال قوم هود لما استكبروا في الأرض ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فكان مصيرهم ما قص الله تعالى بقوله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وتأملوا خبر قوم صالح لما كذبوه ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٩].

فأين قوم هود؟ وأين قوم صالح؟ وكيف هلكوا؟ وكيف هلك قومُ لوطٍ لما كذبوه ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

ثم يأتي بعد هؤلاء الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، شعيبٌ عليه الصلاة والسلام فينذر قومه، ويذكرهم ما حلَّ بالمكذبين قبلهم فيقول لهم: ﴿ **وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ** ﴾ [هود: ٨٩] لكنهم لم يعتبروا؛ فقضى الله تعالى بإهلاكهم ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

ومن أجل هذا الإجرام الذي يقترفه بنو آدم في كثير من الأعصار والأمصار؛ كتب الله تعالى العذاب والهلاك عليهم ﴿ **وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴾ [الإسراء: ٥٨-٥٩] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحِّيَ الجبال عنهم فيزْدَرِعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا،

فإن كفروا أُهلِكوا كما أَهلكتُ من قبلهم، قال: «**لا، بل أستأني بهم**»، فأنزل الله تعالى ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾ [الإسراء: ٥٩] رواه أحمد والحاكم وصححه(٢)، ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾ [محمد: ١٣].

لقد نوع الله تعالى العذاب على المكذبين، كما عذب الذين آمنوا ابتداءً ثم بدلوا إيمانهم كفراً، وطاعتهم عصياناً؛ فأخذهم أخذاً وبيلاً، فلنا فيهم عبرة، قبل أن نكون عبرة لغيرنا، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العافية والسلامة.

أيها الإخوة: إذا تخلى الناس عن دينهم، وانقادوا خلف الشياطين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، فقد استوجبوا نقمة الله تعالى وعذابه، ولا يلزم أن يكون تخليهم عن الدين دفعة واحدة، وإنما يكون ذلك بالمعاصي والفجور حتى ينسلوا من دينهم انسلالاً متتابعاً؛ كما يخلع الرجل ثوبه شيئاً شيئاً؛ فيكونون في عداد المعذبين، وهكذا كان حال بني إسرائيل؛ كما سئل حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «هل تركت بنو إسرائيل دينهم؟! أي: حتى عُذبوا بأنواع العذاب الأليم كمسخهم قردة وخنازير وأمرهم بقتلِ أنفسهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه،

---

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٨) والبزار كما في كشف الأستار (٢٢٢٥) والنسائي في الكبرى (١١٢٩٠) والطبري في تفسيره (١٥/ ١٠٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٣٦٢) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٣٣٣).

وإذا نهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه»(٣). اهـ

فإذا قارف العباد المعاصي، وتمادوا في الطغيان؛ يرسل الله تعالى لهم نذراً قبل أن يهلكهم، وهذه النذر تكون متنوعة متتابعة؛ رجاء أن يفهم العبادُ معانيها، ويدركوا أنها نذير بين يدي عذاب شديد فيعودوا إلى ربهم، ويثوبوا إلى رشدهم، ويجددوا توبتهم، فقد يكون النذير ريحاً عاتية، أو ماءً غزيراً مغرقاً، أو زلزالاً أو فيضاناً، وربما كان وباءً مهلكاً، أو عدواً متسلطـاً، أو فتنة عمياء، يقتل الناسُ فيها بعضهـم بعضاً، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] قال قتادة رحمه الله تعالى: «إن الله تَعالى يَخوف الَناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون أو يذّكرون أو يرجعون، ذُكِر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه»(٤)، وورد أن المدينة زلزلت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر: «أحدثتم والله، لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم»(٥).

---

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٩) والبيهقي في الشعب (٧١٢٣) وانظر: الداء والدواء لابن القيم (٣٣).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩) والدر المنثور (٥/ ٣٠٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢١) برقم (٨٣٣٥) والبيهقي (٣/ ٣٤٢) وابن عبدالبر في التمهيد (٣/ ٣١٨).

فاتقوا الله تعالى - أيها المؤمنون - واحذروا سخط الله وعذابه، واعتبروا بالآيات والنذر، قبل أن يأتي العذاب، فلا ينفع الاعتبار.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤ -٤٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى - عباد الله - فالتقوى آمانٌ من العذاب، وطريق يوصل إلى رضوان الله تعالى والجنان.

أيها الإخوة المؤمنون: لئن كان الطبائعيون وأصحاب النزعات الإلحادية يعزون الرياح الشديدة، والأمطار الغزيرة المغرقة، والزلازل والبراكين والأوبئة، إلى ظواهر الطبيعة، ويجعلون لها أسباباً ماديّة بحتة؛ فإن أهل الإيمان يدركون أن الله تعالى خلقهم كما خلق الطبيعة

معهم، وأنه تعالى يدبر الكون كيف يشاء، لا راد لقضائه، ولامعقب لحكمه، كما يدرك أهلُ الايمان أن في هذه الظواهر الكونية، وتغير الأحوال والأجواء إنذاراً لهم على عصيانهم، وتذكيراً من الله تعالى لهم لما نسوا.

أما الملاحدة والماديون، ومن سار في ركابهم، وآمن بنظرياتهم؛ فلن يعتبروا أو يتعظوا ولو نزل بهم العذاب، وقد كفانا الله تعالى جدالهم بقوله عز وتقدس ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

أيها الإخوة: لاينفع مع عذاب الله تعالى شيء، لا يقي منه حرص ولا احتياط، ومن لم يتوق بطاعة الله سبحانه فما له من واق.

إن الأمم قبلنا كانوا أشد منّا قوة، وأكثر احتياطاً، فلما أراد الله تعالى عذابهم عذبهم وأهلكهم، وإن عالم اليوم بتطوره وتقنياته ومعداته لهو أحقرُ وأصغرُ من أن يخفف عذاب الله تعالى فضلاً عن أن يرده أو يوقفه ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ** ﴾ [الطور: ٧-٨]، ﴿ **وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ [الرعد: ١١].

فلا يردُ عذاب الله تعالى إلا الإيمان الصحيح، لا يرد عذاب الله تعالى إلا تقواه وطاعته، لا الأموالُ تنفع، ولا الصناعاتُ تجدي، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو أعظمُ الناس إيماناً - يدرك تلك الحقيقة، فكان عليه الصلاة والسلام يخاف عذاب الله تعالى، ويحاذر مكره، رغم أنه صفوة الخلق عند الله تعالى، وقد غُفر له ما

تقدم من ذنبه وما تأخر، وأول من تفتح له الجنة، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عُرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يا عائشة، ما يُؤَمِّنني أن يكون فيه عذاب، قد عُذِب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»** رواه الشيخان(٦)، وفي رواية لمسلم: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: **«اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أُرسلت به»** قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مَطَرت سُرِّي عنه فعرفتُ ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته فقال: **«لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾** [الأحقاف: ٢٤]»(٧).

أيها الإخوة: يجب أن لاتمر علينا الآياتُ والنذر من غير اتعاظ ولا اعتبار، يقودنا إلى التوبة والإنابة.

إن ما حدث قبل أيام نذيرٌ من الله تعالى، ومع أنه لم يستمر إلا

(٦) أخرجه البخاري في التفسير «سورة الأحقاف» باب قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ...﴾ [الأحقاف: ٢٤] (٤٨٢٩) ومسلم في الاستسقاء باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر (٨٩٩).

(٧) هذه الرواية لمسلم (٨٩٩) وأخرجها الترمذي (٣٤٤٩).

دقائق معدودات فإنه أفزع الناس، وكان تأثيره وضرره ظاهراً للعيان، ترى كيف تكون الحال لو استمر أياماً، بل يوماً واحداً، بل ساعات معدودات؟! والله تعالى قادر على ذلك، بل وقادر على أن يكون أشد مما رأينا وأعنف، وهو على كل شيء قدير، وقد أرسل الريح على عاد ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧-٨] ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ونحن - معشر المؤمنين - حقيقون بالعقوبة إلا أن يتغمدنا الله تعالى برحمته؛ فمعصية الله تعالى أصبحت ظاهرة بيننا، وقليل منا من ينكرها، قد أصبح بين كثير من الناس وبينها أُلفة ومودة، وهي الموجبة لغضب الله تعالى، الجالبةُ لعذابه؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار. .

اعتبروا يا أهل الإسلام قبل أن تكونوا أثراً يذكر، وتاريخاً يتلى، اعتبروا قبل أن تكونوا عبرة. . اعتبروا قبل أن تنتهي مهلة الله تعالى لكم؛ فالله شديد العقاب، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم. . .

١١٧- التخويف بالزلازل

١٠/ ١١/ ١٤٢٤هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وبآياته الشرعية، ودلائله الكونية؛ سببٌ للإيمان به، والقيام بحقه، وعبادته وحده لا شريك له.

من نظر في الكون وما فيه من عجائب الخلق، ودقةِ الصنع، وحسن التدبير والتصريف، وله عقل لم تفسده الشياطين بالكفر والجحود؛

علم أن للكون خالقاً مدبراً، وأيقن بأنه لم يخلق سدى وعبثاً، فهو يرى سماءً رفعت، وجبالاً نصبت، وأرضاً سُطحت، ويشاهد شمساً تشرق وتغرب، وقمراً يكبر ويصغر، ويوماً يقبل ويدبر، ويبصر كل مخلوق مرزوق، وكلّ حي يموت، وسنوات تدور إلى أجل محتوم، لكل أجل كتاب، ولكل بداية نهاية.

والفِطَرُ التي فُطر الناس عليها تدلهم على خالقهم ورازقهم بما يرونه من الآيات في أنفسهم وفي السموات والأرض، فلا يحتاجون معه إلى أدلة المتفلسفين، أو براهين المتمنطقين، أو تكلفات المتكلمين، التي تزرع الشكوك والظنون الفاسدة أكثر من أن تحقق التوحيد واليقين.

لقد كان الأعرابي الذي عاش في الصحراء بعيداً عما يُسمى بمنافذ العلم والمعرفة، والتجربة والخبرة يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم فيحاوره قليلاً ثم يسلم، بل كان وجه النبي صلى الله عليه وسلم علامة واضحة تدل على صدقه؛ ولذلك لما رآه عبدالله بن سلام رضي الله عنه، وقد كان على اليهودية أسلم، يقول رضي الله عنه: «لما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم استشرفه الناس فقالوا: قدم رسول الله، قدم رسول الله، قال: فخرجت فيمن خرج فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. . .» رواه أحمد والدارمي وصححه الترمذي والحاكم[1].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٤٨) برقم: (٢٥٧٤٠)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب (٤٢)، وقال: هذا حديث صحيح (٢٤٨٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في قيام الليل (١٣٣٤)، والدارمي (١٤٦٠)، والبيهقي (٢/ ٥٠٢)، =

وروى الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه قال: «نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقلُ فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد؛ أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: **صدق**، قال: فمن خلق السماء؟ قال: **الله**، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: **الله**، قال: فمن نصب الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: **الله**، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: **نعم**[٢]». ثم سأله عن بعض شرائع الإسلام، ثم أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام.

إن خلق الله عزَّ وجلَّ للسموات والأرض وما بث فيهما من دابة، وما جعل فيهما من عجائب المخلوقات لمن أكبر الدلائل على قدرته سبحانه؛ ولذلك كثر في القرآن الاستدلال بهما على قدرة الخالق، وأنه المستحق للعبادة دون ما سواه، وهل يوجد برهانٌ أعظم من برهان يشاهده الناس بأعينهم، ويدركونه بعقولهم، وتدلهم عليه فطرهم؟! ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢].

وفي محاورة المشركين ومناظرتهم، والاستدلال عليهم يكثر في

= والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣/ ١٣).

(٢) أخرجه البخاري في العلم باب ما جاء في العلم (٦٣)، ومسلم في الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢).

القرآن ذكر السموات والأرض، وما فيهما من عجائب الخلق ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥] ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].

فالسموات يشاهدها الناس بأبصارهم قد رفعت بلا عمد، والأرض يدبون عليها، ويمشون في مناكبها، وينعمون بخيراتها ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢١] خلقها الباري جل وعلا، واستخلف البشر فيها، وأرساها بالجبال، وذللها بالسبل والمهاد، واستودع فيها من الأرزاق والخيرات، والكنوز والبركات ما يكفي الأحياء، ويفيض عن حاجتهم، وجعل ذلك متاعاً لهم، وبلاغاً لهم في حياتهم، ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩-١٠] ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

ويتكرر في القرآن امتنانُ الله تعالى على خلقه بأن ذلّل لهم الأرض، وجعلها مهاداً، وأرسالها بالجبال، ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه: ٥٣] ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ [نوح: ١٩-٢٠]، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً

وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧] ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٦-٧]، والأعرابي لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن رسالته أقسم عليه بالذي خلق السموات والأرض، ونصب هذه الجبال هل أرسله الله؟! وما ذاك إلا لعظيم هذا الخلق، ودقة ذلك الصنع، وتمام تلك النعمة بخلق السماء والأرض، وإرسائها بالجبال، فإن كان الذي خلق ذلك أرسله ليتبعنَّه، فلما أجابه بالإيجاب أسلم ودعا قومه إلى الإسلام.

إن كثيراً من الناس قد لا يفهم معنى هذا الكلام، ولا يدرك حجم هذه النعمة، ولا يعرف دلالتها على القدرة، فهو يأكل ويشرب ويمشي على الأرض، ولا يتفكر في عجيب خلقها، وتدبير المخلوقات عليها؛ ولكن حين تقع كارثة من الكوارث، أو تسلب نعمة من النعم؛ يكون الحال غير الحال، ويتفكر الناس فيما كانوا عنه من قبل غافلين، ويعرفون نعمة الله تعالى التي أنكرها كثيرون.

إن قراءة الآيات القرآنية التي تبين أن الله تعالى خلق الأرض، وامتن على العباد بأن ذللها لهم، وجعلها بساطاً ومهاداً وكفاتاً، وسلك لهم فيها السبل والفجاج، وأرساها بالجبال والأوتاد، ولولا ذلك لمادت بهم، وتعذَّر فيها عيشهم، أقول: إن قراءة هذه الآيات القرآنيـة لا تُحرك قلوب كثير من الناس، ولا يدركون معانيها إلا عندما تتحرك الأرض في بقعة من البقاع؛ فتطمر مدناً كاملة، وتدمر عمراناً كثيراً، وتهلك خلقاً لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، حينها تتيقظ القلوب، وتُفهم الآيات،

وتُعرف أقدار النعم عند من وفقه الله عزَّ وجلَّ، ومنّ عليه بحياة القلب، ونعمة الاستدراك والاستعتاب.

ولقد رأينا فيما وقع من زلزال قبل أيام(٣) قدرة القدير جلَّ جلاله، وعرفنا نعمته العظيمة بإرساء الأرض بالجبال، ولولا ذلك لمادت بنا فكان الهلاك والخراب. والبشر كلهم بما أوتوا من قوة، وما وصلوا إليه من علوم واكتشافات؛ يقفون عاجزين أمام حدث كهذا، فلا يملكون تخفيفه فضلاً عن دفعه ومنعه.

إن من البشر من قد غرتهم قوتهم، وأعجبوا بقدراتهم، واستعلوا على غيرهم بصناعاتهم ومدمراتهم، وأشعلوا حروباً على مدى أشهر وسنوات، أمطروا بنيرانهم القرى والمدن، وأبادوا من أبادوا، وأفسدوا في الأرض ما أفسدوا، وظنوا أن قدرتهم فوق كل قدرة، وأن قوتهم لا تغلب، فإذا القوي القاهر القدير الجبار يريهم ويُري غيرهم من البشر - ممن خافوهم من دون الله تعالى - شيئاً من قدرته، بهزةٍ يسيرة في جزء قليل من الأرض، وفي ثوان أو أقل من ذلك؛ فتحدث هذا الخراب الهائل، والتدمير العظيم الذي تُنتدبُ له الدول، ويتقاطر له البشر من كل حدب وصوب؛ لتخفيف آثاره، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه،

(٣) المقصود به الزلزال الذي وقع في مدينة (بام) الإيرانية يوم الجمعة الماضي ٣/ ١١/ ١٤٢٤هـ، وأحدث خسائر كبيرة ويتوقع أن يزيد عدد الضحايا على خمسين ألف قتيل سوى من جرحوا وشردوا، نسأل الله أن يعفو عنا، ولا يعذبنا بذنوبنا، ولا بما فعل سفهاؤنا.

ويقفون على المدنِ الخراب، والعمران المدمر عاجزين أمام قدرة الخالق القاهر جل في علاه.

إن حرباً مدمرة تمتد لسنوات، وتستخدم فيها الأسلحة التقليدية وغير التقليدية؛ لا تحدث مثل ما تحدث الزلازل المدمرة، والقدير جلَّ جلاله يأمر الأرض فتضطرب لحظة واحدة؛ فيحصل ما تشاهدون من دمار هائل في مثل ما وقع من زلزال، فأين قوة البشر من قوة الله عزَّ وجلَّ؟ وأين قدرتهم من قدرته؟ وأين من يقرأ الآيات القرآنية، ويتدبر الدلائل الكونية؛ فيعرف الله تعالى حق المعرفة، ويقدره حق قدره، ويشكره على نعمته، ويخاف عذابه ونقمته؟!

انظروا إلى البشر وقد تقاطروا من كل دول العالم على موقع الزلزال في بام بطائراتهم ومعداتهم ومستشفياتهم، فلم ينقذوا من تحت الأنقاض إلا عدداً قليلاً من الناس، وقد أيسوا من الكثرة الكاثرة التي تحت الركام، وعجزوا عن استيعاب الأحياء ممن تهدمت دورهم، وربما انتشرت الأمراض والأوبئة، بسبب تعفن الجثث، وفساد الهواء، حتى قال بعض الإخباريين يصف الحال: إن للموت رائحة قوية في تلك الديار(٤).

فبالله عليكم لو حدثت زلازل في أماكن عدة فماذا يفعل البشر؟ ولو أنها كانت أشدّ تدميراً، وأكثر إهلاكاً، فكيف يواجهون ذلك؟

---

(٤) قال ذلك بعض المراسلين الإخباريين الغربيين بسبب تعفن الجثث تحت الأنقاض، وانبعاث روائحها في منطقة الزلزال مما يهدد بانتشار الأمراض والأوبئة المهلكة.

ولو أن الزلازل امتدت لدقائق عدة بدل الثواني وأجزاء الثواني فكيف سيكون تدميرها؟ ولو أنها امتدت على رقعة كبيرة من الأرض لتشمل مدناً أو دولاً أو قارات فكيف سيكون حجم الدمار؟ ما أضعف البشر! وما أقل حيلتهم! وما أعجزهم أمام الله تعالى وقدرته! وإن بطرت بهم نعمتهم، وغرتهم قوتهم؛ فإنهم أعجز من أن يمنعوا عذابه، أو يعطلوا أمره، فتبارك الله رب العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [لقمان: ١٠-١١]، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا غضبه فلا تعصوه، واعلموا أنه شديد العذاب، وأن أخذه أليم شديد ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢].

أيها الناس: في التوبة والاستغفار نجاةٌ من العذاب في الدنيا والآخرة،

والهلاكُ من الدنيا، والعـذابُ في الآخرة يستوجبه العباد بإصرارهم على عصيانهم، وبعض الناس إذا رأوا الآيات والنذر تذكروا فتابوا، وآخرون لا تزيدهم الآيات إلا استكباراً في الأرض، وعلواً على الناس، وكفراً بالله عـزَّ وجلَّ، كما قال الله عزَّ وجلَّ عنهـم ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦٠].

إن من الخطأ البيّن أن يرى المسلم الحوادث والكوارث، وأنواعـاً من العذاب والمصائب، ثم لا يزيده ما يرى إلا غفلة إلى غفلته، وصدوداً إلى صدوده، والله تعالى لما أهلك أمة من الأمم، وأرسل عليهم سيلاً أفسد زروعهم، واجتاح ديارهم، وخرب ممالكهم، قال سبحانه فـي بيان السبب ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧].

وإن من أعظم الظلم، وأشنع الاستكبار أن يشرك مع الله تعالى في قَدَره وقُدرته، ولا سيما في مثل هذه الكوارث، فتجد ممن لا خلاق لهم في نقل أخبار هذا الزلزال أو الكتابة عنه ينسبونه للطبيعة فيقول قائلهم: «غضبت الطبيعة» أو «زمجرت الطبيعة» أو نحو ذلك من العبارات التي سمعناها وقرأناها، وهي من امتدادات مذاهب الملاحدة من الدُّهريين والطبائعيين الذين ينكرون الخالق جلَّ في علاه، وينسبون الأقدار لغيره سبحانه.

وبعض من يستعرض مثل هذه الحوادث ينسبها إلى أسباب فـي باطن الأرض من تصدعات وتشققات ونحو ذلك، وعندهم من تعظيم لما يسمى بعلم (الجيلوجيا) وعلمائه أكثر من تعظيمهم لله تعالى!! ولا

يجوز لمسلم أن يغفل أو يتغافل عن قَدَرِ الله تعالى وقُدرته؛ فهو سبحانه الذي خلق الأرض وما في بطنها، وهو القادر وحده على سكونها واضطرابها؛ فالأرض لا تخضع إلا لحكمه، ولا تأتمر إلا بأمره؛ فهي خلق من خلقه.

ومن شنيع العبارات، وقبيح الأوصاف: أن يُوصف ضحايا الزلازل وغيرها من الكوارث الكونية بالأبرياء، ولازم ذلك أنهم لا يستحقون ما جرى عليهم، وأن من فعل ذلك بهم قد ظلمهم، وهذا من أعظم الاعتداء على جلال الله تعالى وقدسيته.

فالله تعالى منزهٌ عن الظلم، فإن عفا عن عباده فبرحمته وفضله، وإن عذبهم فبعدله، ولو أهلك أهل الأرض جميعاً بمؤمنيهم وصالحيهم، وكفارهم وفجارهم، وأطفالهم ونسائهم لما كان ذلك إلا عدلاً منه.

وكل عذاب يقع على البشر فهو بسبب ذنوبهم، وما يتجاوز عنه الرب جلَّ جلاله أكثر مما يأخذ به؛ فهو عفو كريم يعفو عن عباده ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠].

رويَ أن الأرض تحركت في عهد عمر رضي الله عنه فقال: «أيها الناس: ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبداً»(٥).

---

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢١) برقم: (٨٣٣٥). والبيهقي (٣/ ٣٤٢)، ولا يصلى للزلزلة على الصحيح خلافاً لما نقل عن الشافعي رحمه الله تعالى، قال الحافظ ابن عبد البر: «لم يأت عن النبي صلى الله عليه وسلم من =

وقال كعب: «إنما تُزلزل الأرض إذا عُمل فيها بالمعاصي فترعدُ فرقاً من الرب جلَّ جلاله أن يطلع عليها»[٦].

ألا فاتقوا الله ربكم، وتوبوا من ذنوبكم، واعتبروا بما حلَّ بغيركم قبل أن يصل إليك؛ فإن السعيد من اتعظ بغيره، وإن الشقي من كان عظة وعبرة، وعذاب الله تعالى إذا وقع فليس يرده شيء، ولا يخففه حرص حريص ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧-٨].

وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم ،،،

= وجه صحيح أن الزلزلة كانت في عصره، ولا صحت عنه فيها سنة، وقد كانت أول ما كانت في الإسلام على عهد عمر فأنكرها، فقال: أحدثتم، والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم» رواه ابن عيينة عن عبد الله بن عمر عن نافع عن صفية قالت: «زلزلت المدينة على عهد عمر حتى أصطكت السرر، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أسرع ما أحدثتم والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم» اهـ من التمهيد (٣/ ٣١٨).

(٦) الداء والدواء لابن القيم (١٣٨).

١١٨- فضيلة طول العمر مع حسن العمل

٢٨/ ٨/ ١٤٢٤هـ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١- ٢]، أحمد ربي وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وفق من شاء من عباده لما يرضيه، فكان سعيهم مشكوراً، وجزاؤهم موفوراً، وضلّ كثير من خلقه عن الصراط المستقيم؛ فكان سعيهم مردوداً، وعملهم هباءً منثوراً، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ خيره ربه بين أن يكون عبداً نبياً، وبين أن يكون ملكاً نبياً فاختار عبداً نبياً[1]، فأعرض عن الدنيا وزينتها، ونصب في عبادة ربه عزَّ وجلَّ، حتى توفاه الله تعالى، صلى الله وسلم

(١) جاء ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند النسائي في السنن الكبرى (٦٧٤٣)، والبيهقي (٧/ ٤٩). وله شواهد مرسلة عن عطاء رحمه الله تعالى عند عبد الرزاق في مصنفه (٥٢٤٦). وعن قتادة رحمه الله تعالى عند الطبري في تفسيره (١٥/ ١٤٥) وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٦٥). وعن الشعبي رحمه الله تعالى عند ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٨٥).

وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فإن الأيام تتسارع، والحوادث تتابع، والفتن تتعاظم، ولا منجاة من غلوائها وشرها إلا بتقوى الله عزَّ وجلَّ في الأقوال والأفعال، والاجتهاد في العبادة، وكثرة الذكر، والدعاء بالثبات على الحق إلى الممات، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أيها الناس: من توفيق الله تعالى للعبد أن يملأ قلبه بالإيمان واليقين، ويهديه لما يرضيه، ويستعمله في طاعته، فيقضي العبد حياته في طاعة الله عزَّ وجلَّ، ويصرف أوقاته فيما يرضيه سبحانه وتعالى. ومن كان كذلك فإن طول عمره يزيد في عمله، وعمله الصالح يزيد في حسناته، ويرفع درجاته، فهنيئاً لمن عُمِّر طويلاً، وقضى حياته في طاعة الله تعالى.

وإن من الخذلان والخسارة أن يُمدَّ للعبد في عمره، ويرزق عافية في جسده، فتمضي حياته في المعصية والخسران.

كم رأينا من عبادٍ لله صالحين، من آباءٍ وأمهات، وأجدادٍ وجدات، وجيران وقرابات، شابت رؤوسهم في الإسلام، ونصبت أركانهم في طاعة الله عزَّ وجلَّ، لا يفارقون أماكن صلواتهم إلا لحاجاتهم، ولا تفتر ألسنتهم عن الذكر إلا إجابة لسائل، أو لحديث لابد منه. يقومون الليل، ويصومون النفل، ويبكرون إلى المساجد، ويلهجون بالذكر والدعاء، قد أعرضوا عن الدنيا، وتركوها لأهلها، وأوقفوا نفوسهم لله تعالى؛ منهم أبناء سبعين، ومنهم من جاوز الثمانين، ومنهم من

قارب المئة. أعمارٌ مديدة، وأيام كثيرة قضوها في طاعة الله عزَّ وجلَّ؛ فيالله ما أحسن سعيهم! وما أعظم فوزهم! جعلنا الله تعالى منهم، وألحقنا بهم.

وكم رأينا وسمعنا عن شيب وعجائز، شابت رؤوسهم في معصية الله تعالى، ونصبت أجسادهم لأجل الدنيا ومتاعها، قد بلغوا الستين والسبعين والثمانين وفيهم صبوة الشباب وغفلتهم!! ترى عجوزهم متصابية في لباسها وأصباغها، وهيئتها وأفعالها، تُضيِّع مشيبها وقد أضاعت بالأمس شبابها، أفسدتها الجِدَةُ، وأبطرتها النعمة، فكأنما خلقت للدنيا وفيها تعمر، وهذا الصنف من الشيب والعجائز إذا دهمهم الموت، أو طرحهم المرض، أو أثقلهم الكبر؛ عرفوا أن أعمارهم ضاعت سدى، وأن أوقاتهم صرفت للدنيا، وها هم عن الدنيا التي عمروها يرحلون، وإلى الآخرة التي أهملوها يفدون، فما أشد ندمهم، وما أفدح خسارتهم!!

إن طول العمر مع حسن العمل نعمةٌ من الله تعالى يهبها من شاء من عباده، وإن العمر المديد إذا صاحبه سوء عمل كان نقمةً على صاحبه؛ كما جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: **من طال عمره وحسن عمله**، قال: فأيُّ الناس شر؟ قال: **من طال عمره وساء عمله**» رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن(٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠ ـ ٤٣ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠)، والطيالسي (٨٦٤)،=

وفي حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: **طوبى لمن طال عمره وحسن عمله**، قال: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: **أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله عزَّ وجلَّ**» وفي رواية: «قال الأعرابي: ويكفيني ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **نعم ويفضل عنك**» رواه أحمد والترمذي(٣).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **ألا أنبئكم بخياركم؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً**» رواه أحمد والبزار وصححه ابن حبان(٤).

= وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٩٠) برقم: (٣٤٤٢٤)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في طول العمر وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٣٠)، والدارمي (٢٧٤٢)، والبيهقي (٣/ ٣٧١)، والطبراني في الصغير (٨١٨)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٣٣٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٨ ـ ١٩٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٨٩) برقم (٣٤٤٢٠)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٥٠٩)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في طول العمر، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٢٣٢٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٤٣١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٥٦)، والطبراني في الأوسط (١٤٤١)، والرواية الثانية للبغوي وابن أبي عاصم.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥ ـ ٤٠٣)، والبزار (١٩٧١)، وصححه ابن حبان (٢٩٨١)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧٢١١).

إن طول العمر مع حسن العمل قد يُدرك العبد به درجة المجاهد الذي قتل في سبيل الله تعالى؛ بل قد يتجاوزه، فيكون له من الفضل ما ليس للشهيد الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ ذلك أن عمله الصالح المتتابع في عمره المديد الطويل فاق أجر الشهادة في سبيل الله تعالى.

وقد جاء ما يشهد لذلك في السنة النبوية، فقد روى عبدالله بن شداد مرسلاً: «أن نفراً من بني عذرة ثلاثةً أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من يكفنيهم؟** قال طلحة: أنا، قال: فكانوا عند طلحة، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثاً فخرج أحدهم فاستشهد، قال: ثم بعث بعثاً فخرج فيه آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالث على فراشه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك له، فقال: **وما أنكرت من ذلك؟ ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يُعمَّر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله**» رواه أحمد(٥).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٦٣)، وعبد بن حميد (١٠٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٩٠) برقم: (٣٤٤٢٣) من حديث عبدالله بن شداد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مرسل؛ لأن عبد الله بن شداد لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نقل الحافظ في تهذيب التهذيب (٣/ ١٦٥) أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى سئل: «أسمع عبد الله بن شداد من النبي صلى

وفي المسند أيضاً من حديث طلحة رضي الله عنه: «أن رجلين قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إسلامهما جميعاً، وكان أحدهما أشدَّ اجتهاداً من صاحبه، فغزا المجتهد منهما فاستشهد، ثم مكث الآخر بعده سنة، ثم توفي، قال طلحة: فرأيت فيما يرى النائم كأني عند باب الجنة إذا أنا بهما وقد خرج خارج من الجنة، فأذن للذي توفي الآخر منهما، ثم خرج فأذن للذي استشهد، فرجعا إلي فقالا لي: ارجع فإنه لم يأنِ لك بعد، فأصبح طلحة يحدث به الناس، فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **من أيِّ ذلك تعجبون**؟ قالوا: يا رسول الله، هذا كان أشدَّ اجتهاداً ثم استشهد في سبيل الله، ودخل هذا الجنة قبله!! فقال: **أليس قد مكث هذا بعده سنة**؟ قالوا: بلى. **وأدرك رمضان فصامه**؟ قالوا: بلى. **وصلى كذا وكذا سجدة في السنة**؟ قالوا: بلى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فلَمَا بينهما أبعد مما بين السماء والأرض**» وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: «**أولم يكن يصلي**؟ فقالوا: بلى، وكان لا بأس به يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما يدريكم ما**

= الله عليه وسلم شيئاً؟ قال: لا» وأخرج الحديث البزار في البحر الزخار (٩٥٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦٣٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، كلهم من حديث عبد الله بن شداد عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه متصلاً، وصحح المرسل الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٤٠١) ولعل تصحيحه له باعتبار الروايات الأخرى المتصلة.

بلغت به صلاته»[٦].

(٦) أخرجه أحمد (١/ ١٦٣)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا باب تعبير الرؤيا (٣٩٢٥)، والبيهقي (٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٢٢٢)، وصححه ابن حبان (٢٩٨٢)، من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢١٨ ـ ٢١٩): «هذا إسناد رجاله ثقات وهو منقطع، قال علي بن المديني وابن معين: أبو سلمة لم يسمع من طلحة بن عبيد الله شيئاً» ا هـ.
وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٢٢٣): «هو عند أبي سلمة عن أبي هريرة عن طلحة» وساق ابن عبد البر الحديث بسنده في ذلك (٢٤/ ٢٢٥).
وله شاهد مرسل من حديث سعد بن أبي وقاص أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٤)، قال ابن عبد البر: «أما قصة الأخوين فليست تحفظ من حديث سعد ابن أبي وقاص إلا في مرسل مالك هذا، وقد أنكره أبو بكر البزار، وقطع بأنه لا يوجد من حديث سعد البتة، وما كان ينبغي له أن ينكره؛ لأن مراسيل مالك أصولها صحاح كلها، وجائز أن يروي ذلك الحديث سعد وغيره، وقد رواه ابن وهب عن مخرمة بن بكير عن أبيه عن عامر بن سعد عن أبيه مثل حديث مالك سواء» ا هـ (٢٤/ ٢٢٠) وأخرجه أحمد مسنداً (١/ ١٧٧) وصححه الشيخ أحمد شاكر (١٥٣٤) ورد قول من جزم بعدم سماع أبي سلمة بن عبد الرحمن من طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فقال رحمه الله تعالى: «وأنا أرى أن الجزم بعدم سماعه من طلحة لا دليل عليه؛ فإن طلحة قتل يوم الجمل سنة ٣٦هـ، وكان سن أبي سلمة إذ ذاك ١٤ سنة؛ لأنه مات سنة ٩٤ عن ٧٢ سنة على الصحيح الذي رجحه ابن سعد؛ بل لعله كان أكبر سناً من ذلك ففي ابن سعد: «أن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية لما ولي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان في المرة الأولى استقضى أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف على المدينة، فلما عزل سعيد بن العاص وولى مروان المدينة المرة الثانية عزل أبا سلمة بن عبدالرحمن عن القضاء وولى القضاء وشرطه أخاه مصعب=

. . . .

= ابن عبدالرحمن بن عوف» وولاية سعيد بن العاص الأولى على المدينة كانت في شهر ربيع الآخر سنة ٤٩ هـ وعزله وولاية مروان الثانية كانت سنة ٥٤ هـ كما في تاريخ الطبري (٦/ ١٣٠ ـ ١٦٤)، وقد نص الطبري أيضاً على استقضاء سعيد أبا سلمة في سنة ٤٩هـ. فكانت سن أبي سلمة حين مقتل طلحة سنة ٣٦ هـ أربعة عشر عاماً أو أكثر، وكانا مقيمين بالمدينة، فأنى لأحد أن يدعي أنه لم يسمع منه؟! اهـ من شرح الشيخ أحمد شاكر على المسند (٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

وقال ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٢٢٠): «تحفظ قصة الأخوين من حديث طلحة بن عبيد الله، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث عبيد بن خالد، ومن حديث سعد هذا من رواية مالك هذه، ومرسل حديث مالك هذا أقوى من مسند بعض حديث هؤلاء».

وحديث عبيد بن خالد الذي ذكره ابن عبد البر أخرجه أبو داود في الجهاد باب في النور يرى عند قبر الشهيد (٢٥٢٤) بلفظ: «آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين، فقتل أحدهما، ومات الآخر بعده بجمعة أو نحوها، فصلينا عليه فقال رسول الله: **ما قلتم؟** فقلنا: دعونا له، وقلنا: اللهم اغفر له وألحقه بصاحبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فأين صلاته بعد صلاته، وصومه بعد صومه** ـ شك شعبة في صومه ـ **وعمله بعد عمله؟! إن بينهما كما بين السماء والأرض**»، وأخرجه أحمد (٣/ ٥٠٠)، والنسائي في الجنائز باب في الجنازة (٤/ ٧٤)، وفي السنن الكبرى (٢١١٢).

فإن كانت القصة في هذه الأحاديث واحدة كما يفهم من كلام ابن عبد البر ففي متنها اضطراب من وجهين:

الأول: اختلاف المدة التي بين استشهاد الأول ووفاة الثاني، ففي حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه أنها كانت أربعين ليلة، وفي حديث طلحة أنها كانت سنة، وفي حديث عبيد بن خالد أنها كانت جمعة، وهذا اختلاف كبير=

. . . .

= لم أجد من أجاب عنه، ولا مخرج منه إلا باحتمال تعدد القصة، أو توهيم بعض الرواة.

الثاني: أن حديث طلحة جاء عند الإمام أحمد بروايات ثلاث:

١ ـ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً ويذكر قصة رجلين مثل حديث عبيد بن خالد السلمي وحديث سعد بن أبي وقاص.

٢ ـ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن طلحة بن عبيد الله وفيه قصة رجلين أيضاً.

٣ ـ عن عبد الله بن شداد مرسلاً، وذكر ابن عبد البر: عن عبد الله بن شداد عن طلحة رضي الله عنه، وفيه ذكر قصة ثلاثة من بني عذرة.

فإما أن يكون الوهم من عبد الله بن شداد أو من أبي سلمة بن عبد الرحمن، ويبعد أن تتعدد القصة في حديث طلحة إن كان عبد الله بن شداد قد رواها عن طلحة، كما ذكر ابن عبد البر؛ لأن موردها واحد، والله أعلم.

إشكال وجوابه:

قد يفهم من هذه الأحاديث الثلاثة في قصة الرجلين أن الجهاد ليس أفضل الأعمال بدليل تقديم من مات على فراشه على من استشهد؛ لأنه فضل عليه بأعمال صالحة أداها في أسبوع أو أربعين يوماً أو سنة؛ كما جاء منوعاً في الأحاديث، مع أن الأدلة متظافرة على فضيلة الجهاد وأنه أفضل الأعمال، كما هو ظاهر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: **لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر**، قال: ومن يستطيع ذلك؟» أخرجه البخاري في الجهاد والسير باب فضل الجهاد والسير (٢٧٨٥).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وهذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل الله تقتضي أن لا يعدل الجهاد شيء من الأعمال» اهـ من الفتح (٦/ ٧)، ويجاب عن هذا الإشكال من وجهين:

....

= **الوجه الأول:** أنه لا يوجد في الأحاديث ـ التي عرضت لقصة الرجلين أو الثلاثة ـ ما يدل على نفي الجهاد عمن مات على فراشه، وغاية ما تدل عليه أن صاحبه استشهد وهو مات على فراشه، فيكونان مشتركين في الجهاد، واختص أحدهما بالشهادة، وفُضِّل الثاني عليه بأعمال صالحة سبقه بها؛ لأنه مكث عقبه مدة يعبد الله عزَّ وجلَّ.

وما نقل من أحوال الصحابة رضي الله عنهم يدل لذلك؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم إذا نادى بالنفير خرجوا إلا أهل الأعذار وأهل النفاق، فالأصل أن الذي مات على فراشه كان مجاهداً يخرج للغزو، ولا دليل على خلاف ذلك. والشهيد له منزلته العالية، وما اختصه الله تعالى به من الفضل والكرامة، لكن صاحبه سبقه بأداء صلوات وصيام وأعمال صالحة أخرى انقطع عنها الشهيد منهما؛ وذلك فضل يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الوجه الثاني: لو قُدِّر أن من مات على فراشه منهما لم يكن يغزو ـ وهو بعيد ـ فيحمل سبقه لصاحبه المجاهد الشهيد على ما ورد في فضل الذكر، وأنه كان ذاكراً لله تعالى أكثر من صاحبه الشهيد، وقد جاء في السنة ما يدل على أن الذكر أفضل الأعمال؛ كما روى أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم**، قالوا: بلى، قال: **ذكر الله تعالى**» أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢١١)، وأحمد (٥/ ١٩٥)، والترمذي في الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في فضل الذكر (٣٣٧٧)، وابن ماجه في الأدب باب فضل الذكر (٣٧٩٠)، والحاكم وصححه (١/ ٦٧٣).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الجواب عن الأحاديث المتعارضة في أفضلية الجهاد أو أفضيلة الذكر: «وطريق الجمع ـ والله أعلم ـ أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء الذكر الكامل وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب=

أسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يبلغنا رمضان، وأن يعيننا على أداء حقه فيه، وأن يتقبل منا صالح الأعمال إنه سميع قريب. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ربكم، وتزودوا من دنياكم لأخراكم، ومن صحتكم لمرضكم، ومن حياتكم لموتكم؛ فإن السعيد من عمر وقته بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وإن الشقي من ضاع عمره في اللهو والغفلة.

أيها الناس: الأيام والليالي هي مستودع الأعمال، فمن كان يعمل صالحاً فإن طول عمره لا يزيده إلا خيراً، قال الطيبي رحمه الله تعالى: «إن الأوقات والساعات كرأس المال للتاجر، فينبغي أن يتجر فيما يربح

= بالتفكر في المعنى، واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلاً من غير استحضار لذلك، وأن فضيلة الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، فمن اتفق له أنه جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو قتاله للكفار مثلاً فهو الذي بلغ الغاية القصوى» اهـ من الفتح (١١/ ٢١٣).

فيه، وكلما كان رأس ماله كثيراً كان الربح أكثر، فمن انتفع من عمره بأن حسن عمله فقد فاز وأفلح، ومن أضاع رأس ماله لم يربح وخسر خسراناً مبيناً» ا هـ[٧].

ولأهمية العمر بالنسبة للمسلم، وانتفاعه بطوله؛ جاء النهي عن تمني الموت؛ لأنه يقطع وقت العمل، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يتمنى أحدكم الموت ولا يَدْعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**» رواه الشيخان واللفظ لمسلم[٨].

وفي رواية للبخاري: «**إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب**»[٩].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت، والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت؛ فإن الحياة يتسبب منها العمل، والعمل يُحصِّلُ زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرارُ التوحيد فهو أفضل الأعمال....»[١٠] ا هـ.

وروى الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

---

(٧) تحفة الأحوذي (٦/ ٦٢٢).

(٨) أخرجه البخاري في المرضى باب تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب كراهة تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٣١٦).

(٩) هذه الرواية للبخاري (٥٦٧٣).

(١٠) فتح الباري (١٠/ ١٣٦).

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تتمنوا الموت فإن هول المُطَّلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة**»(١١)، قال الساعاتي رحمه الله تعالى: «المطلع: ما يطلع عليه العبد من أحوال البرزخ، ثم من أحوال القيامة بعد الموت، فليس في تمني الموت إلا تمني الشدائد، فالخير في طول العمر، والرجوع إلى طاعة الله تعالى، لا في تمني الموت الذي يُضيِّع هذا الخير الذي هو سبب لرفع الشدائد فيما بعد الموت»(١٢).

أيها الإخوة: وها هو ذا رمضان قد أقبل، وكم فيه من خير عظيم، وأجر كثير، فمن أدركه فليحمد الله تعالى على ذلك، وليعمر وقته بطاعة الله عزَّ وجلَّ؛ فكم في القبور من أناس ضيعوا رمضانات كثيرة، وقضوا أعمارهم في المعاصي، قد ندموا أشد الندم على تفريطهم، ويتمنون الرجعة إلى الدنيا للتزود من الخير، ولكن هيهات أن يعودوا.

إن كثيراً من الناس قد اعتادوا في رمضان على اتباع الشيطان وأعوانه وجنده فيما يأمرونهم به من المعصية، ولاسيما في هذا الزمن الذي

---

(١١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٢)، والبزار كما في كشف الأستار (٣٢٤٠)، وعبد ابن حميد (١١٥٥)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٨٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٢٤٠)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٩٣١)، والهيثمي في الزوائد (١٠/ ٢٠٣)، والساعاتي في الفتح الرباني (٧/ ٤٧)، وقد ذكر الألباني في السلسلة الضعيفة أنه مضطرب وبيّن أوجه الاضطراب في إسناده وضعفه (٤٩٧٩).

(١٢) الفتح الرباني (٧/ ٤٧).

كثرت فيه الملهيات من المحرمات والموبقات، ووصل إلهاء الناس في رمضان عن عبادة ربهم، وإفساد قلوبهم بالمنكرات حداً عجيباً، تتنافس الفضائيات وغيرها في ذلك أشد التنافس، والمشاهد المسلم المسكين يصوم نهاره عن الطعام والشراب والنكاح، ويقضي ليله على مشاهدة ما حرم الله عليه في رمضان وفي غير رمضان، وهذا والله من قضاء العمر في سوء العمل، نسأل الله العافية والهداية.

ألا فاتقوا الله ربكم، واعمروا أوقاتكم بذكر الله تعالى، واقضوا أعماركم في التزود من الباقيات الصالحات؛ فإن خيار الناس من طالت أعمارهم وحسنت أعمالهم، وإن شرار الناس من طالت أعمارهم وساءت أعمالهم.

وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمر بذلك ربكم،،،

١١٩- الاستقامة على دين الله تعالى

٤/ ١٠/ ١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من توفيق الله تعالى للعبد أن يلهمه رشدَه، ويكفيَه شرَّ نفسِه، ويدلَّه على ما يرضيه، ويرزقه الثبات على الدين.

وجماعُ ذلك: الإيمانُ بالله تعالى، والعلمُ بدينه، والاستقامةُ عليه إلى الممات؛ فمن حقق ذلكَ كان له الأمنُ الدائم، والنعيمُ المقيم الذي

لا يحول ولا يزول، ونالَ رضوانَ الرحمن، والخلود في الجنان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤].

ولأهمية الاستقامة وشرفها أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بها؛ فعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدك، قال: **قل آمنت بالله فاستقم**» رواه مسلم(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» رواه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم(٢).

إنه طريق واحدٌ، من استقام عليه نجا، ومن حاد عنه هلك، وكل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣)، ومسلم في الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام (٣٨)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٠)، والنسائي في الكبرى (١٤٨٩)، وابن ماجه في الفتن باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٢)، والدارمي (٢٧١٠)، وهذا اللفظ لمسلم، وجاء في الروايات الأخرى: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» وفي بعضها: «**اتق الله ثم استقم**»، وفي أخرى: «**قل ربي الله ثم استقم**».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، والطيالسي (٢٤٤)، والدارمي (٢٠٢)، والبزار (٢٤١٠)، وصححه ابن حبان (٧)، والحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٣١٨).

ما جاءَ في الشريعة إنما هو لأجلِ هذا الطريق الأوحد الذي يرضي الله تعالى، وبسلوكه تكون نجاة العباد. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

وتجاوزُ حدود الله تعالى هو الطغيان الذي نهى الله تعالى عنه لما أمر بالاستقامة فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، والطغيان هو مجاوزة الحد.

والاستقامةُ على أمر الله تعالى فيها مخالفةٌ لرغبات النفوس، وأهواء الناس، ولا يقدر على ذلك إلا من أعانه الله تعالى على نفسه الأمَّارة بالسوء، وعلى غيره ممن يُزين له ما يخالف الاستقامة أو يُنقصها، فلا يُساوِم على استقامته، ولا يتخلى عن دينه، مهما كانت المغريات والتبعات؛ كما أمر الله تعالى نبيه بذلك فقال سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وإذا كانت الاستقامة لا تكمل إلا بمخالفة الأهواء والشهوات، فهي حينئذ درجةٌ بها كمالُ الأمور وتمامها، وبوجودها حصولُ الخيراتِ وانتظامُها؛ ولذلك قال من قال من العلماء: «الاستقامةُ لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيامُ بين يدي الله على حقيقة الصدق»[٣].

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: «فالخصلةُ التي بها كملت المحاسنُ،

---

(٣) الديباج على مسلم (١/ ٥٦)، وشرح النووي (٢/ ٩).

وبفقدها قبحت المحاسن: الاستقامة»(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «غاية الكرامة: لزوم الاستقامة»(٥).

ولأن تحقيقها كاملةً عزيزُ المنال، لا يقدرُ عليه إلا الكُمَّل من الناس؛ أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمقاربتها عند الضعف عن تحقيقها فقال عليه الصلاة والسلام: «**سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل**»(٦)، وفي حديث ثوبان رضي الله عنه: «**استقيموا ولن تحصوا**»(٧)، أي: لن تطيقوا الاستقامة.

قال ابن عبد البر: «قوله في هذا الحديث: «**سددوا وقاربوا**» يفسر

---

(٤) المصدران السابقان.

(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٩٨).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ١٢٥) والبخاري في الرقاق باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤ ـ ٦٤٦٧)، ومسلم في المنافقين باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (٢٨١٨).

(٧) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٣٤)، وأحمد (٥/ ٢٧٦)، والطيالسي (٩٩٦)، والدارمي (٦٥٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها باب المحافظة على الوضوء (٢٧٧)، والحاكم وصححه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولست أعرف له علة يعلل بمثلها مثل هذا الحديث إلا وهم من أبي بلال الأشعري وهم فيه على أبي معاوية» وقال الذهبي في التلخيص: «على شرطهما، ولا علة له سوى وهم أبي بلال الأشعري» (١/ ١٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٥٢).

قوله: «**استقموا ولن تحصوا**»، يقول: سددوا وقاربوا فلن تبلغوا حقيقة البر، ولن تطيقوا الإحاطة في الأعمال، ولكن قاربوا؛ فإنكم إن قاربتم ورفقتم كان أجدر أن تدوموا على عملكم»[٨].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال، وأخبر في حديث ثوبان رضي الله عنه أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض، وإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فقد أخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يومَ القيامة، فلا يركنُ أحدٌ إلى عمله، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاتُه برحمة الله وغفرانه وفضله، فالاستقامةُ كلمةٌ جامعةٌ آخذةٌ بمجامعِ الدين، وهي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقةِ الصدقِ، والوفاء بالعهد، والاستقامةُ تتعلق بالأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ والنياتِ، فالاستقامةُ فيها وقوعُها لله وبالله وعلى أمر الله» اهـ[٩].

أيها الإخوة: ولا تستقيمُ جوارحُ العبدِ حتى يستقيمَ قلبه، وترجمانُ ذلك اللسان، فمن صان لسانَه عمَّا حرَّم الله تعالى من الفحش والغيبة والنميمة وغيرها من المحرمات فحري أن يستقيم قلبُه وجوارحه؛ كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه**

(٨) التمهيد (٢٤/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).
(٩) مدارج السالكين (٢/ ١٠٣).

حتى يستقيمَ لسانُه» رواه الإمام أحمد[١٠].

وجاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: **«إذا أصبح ابنُ آدم فإن أعضاءَه تُكفِّر اللسان** - أي تَذِلُ له وتخضعُ لأمره - **تقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»** رواه أحمد والترمذي[١١].

---

(١٠) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٨٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٩) والطبراني في الأوسط (٦٥٥٩)، والصغير (٩٦٤)، وأخرجه الطبراني في الكبير بنحوه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (١٠/ ٢٨٠) برقم: (١٠٥٥٣).

(١١) أخرجه أحمد (٣/ ٩٥)، وعبد بن حميد (٩٧٩)، والطيالسي (٢٢٠٩)، وأبو يعلى (١١٨٥)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٧)، وابن أبي الدنيا في الورع (٩١).

واختلف في رفعه ووقفه، وقد ساقه الترمذي مرفوعاً من حديث محمد بن موسى البصري، حدثنا حماد بن أبي زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه، فذكره وقال عقب ذلك: «حدثنا هناد، حدثنا أبو أسامة عن حماد بن زيد نحوه ولم يرفعه، وهذا أصح من حديث محمد بن موسى».

ثم قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه» اهـ من جامعه (٤/ ٥٢٣ ٥٢٤).

وفي المنتخب من مسند عبد بن حميد (٩٧٩) أورده مرفوعاً من حديث سليمان ابن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد به.

وفي مسند أحمد (٣/ ٩٥) أورده مرفوعاً من حديث عفان، حدثنا حماد بن زيد... إلخ.

=

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «فمتى استقام القلبُ على معرفةِ الله وعلى خشيته وإجلاله، ومهابته ومحبته، وإرادتِهِ ورجائه، ودعائه والتوكل عليه، والإعراض عمَّا سواه، استقامت الجوارحُ كلها على طاعته؛ فإن القلب هو مَلِكُ الأعضاء وهي جنودُه، فإذا استقام الملك استقامت جنودُه ورعاياه ـ إلى أن قال ـ وأعظم ما

= وفي مسند أبي يعلى (١١٨٥) أورده مرفوعاً أيضاً من حديث زهير حدثنا محمد بن الفضل حدثنا حماد بن زيد . . . إلخ.

والطيالسي كذلك أورده مرفوعاً من حديث حماد بن زيد به.

وأخرجه ابن عبدالبر في التمهيد مرفوعاً من حديث عبدالرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن زيد به، ثم أورد قول ابن مهدي: «رأيت سفيان الثوري جالساً عند حماد بن زيد يكتب هذا الحديث» (٢١/ ٤).

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد موقوفاً (٢١/ ٤١) من رواية إسحاق بن إسرائيل حدثنا حماد بن زيد به.

وقوله في الحديث: «**تُكَفِّر اللسان**» جاء في بعض الروايات: «**تكفر للسان**»

قال ابن الأثير: «التكفير هو أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريباً من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه» ا هـ من النهاية (٤/ ١٨٨).

وقال الخطابي: «تكفر: أي تواضع وتذلل، وأصله أن يومئ الرجل برأسه وينحني إذا أراد تعظيم صاحبه» ا هـ من الغريب (٢/ ٤٤٢).

وقال في اللسان (٥/ ١٥٠): «تكفر للِّسان: أي تذل وتقر بالطاعة له، وتخضع لأمره».

قلت: الظاهر من معنى الحديث: أن الأعضاء تخضع للسان وتناشده وترجوه أن يتقي الله فيها؛ وقد جاء في بعض روايات الحديث أن الأعضاء تقول للسان: «**أنشدك الله فينا**».

يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح: اللسانُ فإنه ترجمانُ القلبِ والمعبِّـرُ عنه» اهـ[١٢].

ولعظيم شأن الاستقامةِ، وأهميتها في حياة المسلم، وكونها سبب سعادته وفلاحه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم علَّم علياً رضي الله عنه سؤالها من رب العالمين، فعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسدادِ سَدادَ السهم»** رواه مسلم[١٣].

وقوله: **«سددني»** أي: على الصراط المستقيم، والمعنى: وفقني واجعلني منتصباً في جميع أموري مستقيماً، وأصل السداد: الاستقامةُ، والقصدُ في الأمور.

قال النووي رحمه الله تعالى: «ومعنى: **«اذكر بالهدى هدايتَك الطريق، والسدادِ سدادَ السهم»** أي: تذكر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين؛ لأن هادي الطريقِ لا يزيغُ عنه، ومسدِّد السهم يحرص على تقويمه، ولا يستقيمُ رميُه حتى يقومَه، وكذا الداعي ينبغي أن يحرصَ على تسديدِ علمه وتقويمه ولزومهِ السنة»[١٤].

---

(١٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٦).

(١٣) أخرجه أحمد (١/ ١٥٤)، ومسلم في الذكر والدعاء والاستغفار باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٥)، وأبو داود في الخاتم باب ما جاء في خاتم الحديد (٤٢٢٥)، والنسائي في الزينة باب النهي عن الخاتم في السبابة (٨/ ١٧٧)، وأبو يعلى (٤١٨).

(١٤) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٦٧).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأطيعوه، واستقيموا على دينه إلى أن تلقوه؛ ففي ذلك الفوز العظيم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

أيها المسلمون: في رمضان استقام كثيرٌ من الناس على أمر الله تعالى، وجانبوا نهيه، وسعوا في إصلاح قلوبهم، وتزكية أعمالهم، ومحاسبة أنفسهم على أوقاتِهم وألفاظهم؛ فتراهم لا يسعون إلا في طاعة، ولا تلهجُ ألسنتهم إلا بذكر الله تعالى واستغفارِهِ وشكرِهِ.

كان لهم وردٌ من القران، ونصيبٌ من نوافل الصدقات، وتطوعٌ بالصلوات، مع محافظةٍ على الفرائض، وتبكير إلى المساجد، والإتيانِ بالسنن الرواتب، والمداومةِ على أذكار الصباح والمساء، وأدبارِ الصلوات،

واجتهادٍ في التدبر والخشوع أثناء الصلاةِ، وقراءةِ القرآن وسائر الذكر، فوجدوا في العبادة لذة لا يعدلُها لذة، وسعـادةً بطاعةِ الله تعالى لم يجدوها لا في تحصيل الأموالِ، ولا في الأُنس مع الأهل والأولاد، ومنهم من عاهد الله تعالى ـ وهو يجد لذة هذه الطاعات ـ ليدومـنَّ عليها بعد رمضان، وليكونـنَّ له نصيبة من الصلاة والذكر والقرآن، وقد انتهى رمضان فهل استمروا على عملهم، ووفوا بعهدهـم؟! أم تراهم نسوا لذة ذلك كله، وأقبلوا على الدنيا وملذاتها وشهواتها!!

إن الإنسان سمي إنساناً لأنه ينسى، وآدمُ عليه السلام نسي فنسيت ذريته، وأخطأ فأخطأت ذريته كما جاء في الحديـث(١٥)، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل هذه المواسم المباركة تذكرة لعباده، تنبههـم من غفلتهم، وتوقظهم من رقدتهم، وتقربهم من ربهم، وتثبت لهم بالممارسة العملية، والتجربة الفعلية أن بإمكانهم السعي في الدنيا مع المحافظة على عمل الآخرة، على وفق قول الله تعالـى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص: ٧٧].

لقد جمع كثير من المسلمين في رمضان بين هذين العملين، فحافظوا على أعمالهم الدنيوية، وفرغوا جزءاً كبيراً من وقتهم للآخرة، يتمثل

---

(١٥) هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة المعوذتين، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣٣٦٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٦)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٧)، والطبري في تفسيره (١/ ٩٦)، والحاكم وصححه (١/ ٦٤)، وصححه ابن حبان (٦١٦٧).

في صلاة الضحى، وقدر من صلاة الليل في أوله أو آخره، وقـراءة القرآن، وسائر أنواع الذكر، فماذا عليهم لو حافظوا على ذلك بعـد رمضان، ولم يقطعوا الأعمال الصالحة إلى رمضان القابل فلعلهم لا يدركونه.

إن استعمال العبد نفسه في طاعة الله عزَّ وجلَّ نعمة يَمنُّ الله تعالى بها على من شاء من عباده؛ فتراه يعيش مع الناس، ويواكلهم ويشاربهم، بل وينافسهم في دنياهم، ويعمل بأعمالهم، ولكن له أعمال أخـرى تبني حياته الأخرى قد حافظ عليها، والتزم بها في بيته ومسجده؛ فلا فاتته الدنيا، وقد ظفر بالآخرة إن قبله الله تعالى.

ألا فاتقوا الله ربكم، وإياكم وتعطيل الأعمال الصالحة بعد رمضان، واحذروا التفريط في نوافل العبادات، فما أحوج العبد إليها يوم القيامة! وأتبعوا رمضان ستاً من شوال؛ ليكون لكـم كصيـام الدهـر؛ كما روى أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستـاً من شوال كان كصيام الدهـر**» رواه مسلم[(١٦)].

وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم ربكم بذلك..

---

(١٦) أخرجه مسلم في الصوم باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (١١٦٤)، وأبو داود في الصيام باب في صوم ستة أيام من شوال (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال (٧٥٩)، وابن ماجه في الصوم باب صيام ستة أيام من شوال (١٧١٦).

١٢٠- حسن الخاتمة (١) العلامات والأسباب

الجمعة ٢٠/ ٥/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم، واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عزوجل، والتمسكِ بالدين، والثبات عليه إلى الممات، فتلك وصية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٢].

أيها الإخوة المؤمنون: الموتُ ثم الحساب فالجزاء غاية كل حي، والموتُ يعرفه الناس كلُّهم، ويخافونه ويهربون منه، ثم هو ملاقيهم ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجمعة: ٨].

ورغم أن الموت مصيبة كما سماه الله تعالى بذلك ﴿**فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ**﴾ [المائدة: ١٠٦] إلا أن المصيبة العظمى، والأمر الأدهى من الموت هو الحالُ التي يموت عليها العبد، من حسن الخاتمة أو سوئها، ومن محبة لقاء الله أو كراهيته، ومن حسن الظن بالله أو عدمه.

ومن حكمة الله البالغة: أن أخفى أمر الخاتمة، فلا يعلم أحد أيختم للعبد بالخير أو الشر؟ حتى يجتهدَ العبدُ في تحصيل أسباب حسن الخاتمة، ويُلحَّ على الله تعالى في نيلها، ويُكثر التعوذ بالله من سوئها، قال ابنُ بطال رحمه الله تعالى: «في تغييبِ خاتمة العمل عن العبد حكمةٌ بالغة، وتدبيرٌ لطيف؛ لأنه لو علم وكان ناجياً أُعجب وكسُل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً، فحُجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء».[(١)]

أيها الإخوة: ولحسن الخاتمة علامات يُرجى لمن اتصف بها مع إيمانه خيراً كثيراً، ولا يلزم من توافر هذه العلامات أو بعضها في عبدٍ أن يُقطع له بالرحمة أو الجنة ولو كان مؤمناً، إذ القلوبُ لايعلم حالها صلاحاً وفساداً إلا خالقها ومقلبها، تبارك وتعالى.

ومن تلك العلامات: النطقُ بالشهادة عند الموت؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[(٢)]، كذلك من علامات حسن الخاتمة الموتُ برشح الجبين؛ لحديث بريدة رضي الله عنه: «أنه كان بخراسان فعاد أخاً له وهو مريض، فوجده بالموت وإذا هو يعرق جبينه، فقال: الله أكبر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **يموت المؤمن**

---

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر (١١/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣ - ٢٤٧) وأبوداود في الجنائز باب في التلقين (٣١١٦) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٥١) وعزاه الألباني في الإرواء لابن منده في التوحيد وحسنه (٦٨٧).

بعرق الجبين» أخرجه أحمد والترمذي(٣).

والموتُ ليلةَ الجمعةِ أو نهارها يقي فتنة القبر؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما من مسلم يموت يومَ الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر**» أخرجه أحمد والترمذي(٤).

والموت غازياً في سبيل الله تعالى، أو مرابطاً على ثغر من الثغور دليل على حسن الخاتمة؛ إذ ينال صاحبه فضل الشهادة؛ كما أخرج أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من فَصَلَ في سبيل الله فمات أو قتل فهو شهيد، أو وقصه فرسُه أو بعيره، أو لدغتهُ هامة، أو مات على فراشه بأي حتف**

---

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٠) وأبونعيم في الحلية (٩/ ٢٢٣) والترمذي في الجنائز باب ماجاء في أن المؤمن يموت بعرق الجبين وحسنه (٩٨٢) والنسائي في الجنائز باب علامة المؤمن (٤/ ٥) وابن ماجه في الجنائز باب ماجاء في المؤمن يؤجر في النزع (١٤٥٢) وصححه ابن حبان (٣٠٠٠) والحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٣٦١).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩) والترمذي في الجنائز باب ماجاء فيمن مات يوم الجمعة (١٠٧٤) قال الترمذي: وهذا حديث ليس إسناده بمتصل، ربيعة بن سيف إنما يروي عن أبي عبدالرحمن الحبلي عن عبدالله بن عمرو ولانعرف لربيعة بن سيف سماعاً من عبدالله بن عمرو، وقد أعله بهذا الانقطاع الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٦٥٨٢) قال السخاوي: «وقد وصله الطبراني وأبويعلى من حديث ربيعة عن عياض بن عقبة الفهري عن عبدالله بن عمرو وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق والطبراني من رواية بقية...» انظر: المقاصد الحسنة (١١٨٦) وحاشية الأرناووط على جامع الأصول (٩/ ٢٧٢) وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٣).

شاء الله فإنه شهيد وإن له الجنة»(٥)، وروى فضالةُ بن عبيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كلُّ ميتٍ يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر**» أخرجه الترمذي وصححه(٦).

وأعظم من ذلك أن يقتل شهيداً في سبيل الله تعالى ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ من فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بهم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفَّعُ في سبعين من أقاربه**» أخرجه أحمد والترمذي وصححه(٧).

---

(٥) أخرجه أبوداود في الجهاد باب ماجاء فيمن مات غازياً (٢٤٩٩) والبيهقي (٩/ ١٦٦) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم (٢/ ٧٨) وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (٣٧) وصحيح الجامع (٥٧٧٣).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠) وأبوداود في الجهاد باب في فضل الرباط (٢٥٠٠) والترمذي في فضائل الجهاد باب ماجاء في فضل من مات مرابطاً وصححه (١٦٢١) والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٤٤).

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ١٣١) والترمذي في فضائل الجهاد باب ثواب الشهيد وقال: حسن صحيح غريب (١٦٦٣) وابن ماجه في الجهاد باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٧٩٩).

ويلحق به في حسن الخاتمة بقيةُ الشهداء ممن مات بالطاعون أو بالهدم أو الغرق، أو داء البطن أو الحرق، أو ذات الجنب أو السِّل، أو المرأةُ تموت في نفاسها، كل أولئك جاءت النصوص بأنهم شهداء، والشهادة من أحسن الخواتم، روى جابر بن عتيك مرفوعاً «**الشهداءُ سبعةٌ سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرِق شهيد، وصاحبُ ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحَرِق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بُجمعٍ شهيدة**» أخرجه مالك وأبو داود والحاكم وصححه(٨)، وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «**القتل في سبيل الله شهادة، والطاعون شهادة، والغرق شهادة، والبطن شهادة، والحرق شهادة، والسلُ والنفساء يجرها ولدها بسرها إلى الجنة**»(٩).

وكذلك من قتل دون دينه أو نفسه أو ماله أو عرضه أو مظلمته؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه**

(٨) أخرجه مالك في الجنائز باب النهي عن البكاء على الميت (٣٦) وأحمد (٥/ ٤٤٦) وأبوداود في الجنائز باب في فضل من مات في الطاعون (٣١١١) والنسائي في الجنائز باب النهي عن البكاء على الميت (٤/ ١٣) وابن ماجه في الجهاد باب ما يرجى فيه الشهادة (٢٨٠٣) والطبراني في الكبير (٢/ ١٩١) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٦٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٥٢) وصححه ابن حبان (٣١٧٩) قال النووي: وهو صحيح باتفاق وإن لم يخرجه الشيخان: انظر: الموارد للهيثمي (٥/ ٢٠٤) وقال الهيثمي في الزوائد: ورواته محتج بهم في الصحيح (٥/ ٣٠٠).

(٩) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠١) والطيالسي (٥٨٢) والدارمي (٢/ ٢٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٣٩).

فهو شهيد» أخرجه أبو داود والنسائي[١٠]، وفي حديث آخر **«من قتل دون مظلمته فهو شهيد»**[١١].

والموت على عمل صالح يختم للعبد به يدل على حسن الخاتمة؛ كما في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: أسندت النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدري فقال: **«من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بالجنة، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة»** أخرجه أحمد[١٢]، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله** فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: **يوفقه لعملٍ صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه»** أخرجه أحمد والترمذي[١٣].

---

(١٠) أخرجه الترمذي في الديات باب ماجاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد وقال: حسن صحيح (١٤١٨) وأبوداود في السنة باب في قتال اللصوص (٤٧٧٢) والنسائي في تحريم الدم باب من قاتل دون ماله (٧/ ١١٥) وابن ماجه في الحدود باب من قتل دون ماله فهو شهيد (٢٥٨٠).

(١١) أخرجه النسائي في تحريم الدم باب من قاتل دون مظلمته من حديث سويد ابن مقرن (٧/ ١١٧) والطبراني في الكبير (٧/ ١٠٢) برقم (٦٤٥٤) وله شاهد عند أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (١/ ٣٠٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٧٨٠).

(١٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩١) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير عثمان بن مسلم البتي وهو ثقة، انظر: مجمع الزوائد (٧/ ٢١٥) وصححه الألباني في أحكام الجنائز (٤٣).

(١٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٦-١٢٠-٢٣٠) والترمذي في القدر باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (٢١٤٢) والبغوي في شرح السنة (٤٠٩٨)=

وثناءُ المؤمنين على العبد مؤذن له بالخير، فقد روى أنس رضي الله عنه قال: «مُرّ بجنازة فأُثني عليها خيراً، فقال نبيُ الله صلى الله عليه وسلم: **وجبت وجبت وجبت**، ومُرّ بجنازة فأُثني عليها شراً، فقال نبيُ الله صلى الله عليه وسلم: **وجبت وجبت وجبت**، قال عمر: فدىً لك أبي وأمي، مُرّ بجنازة فأثني عليها خيراً فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُرّ بجنازة فأثني عليها شراً فقلت: وجبت وجبت وجبت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداءُ الله في الأرض، أنتم شهداءُ الله في الأرض**» أخرجه الشيخان(١٤).

وعن أبي الأسود الديلي قال: أتيت المدينة وقد وقع بها مرض وهم يموتون موتاً ذريعاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمرت جنازة، فأُثني خيراً فقال عمر: وجبت، ثم مرُّ بأخرى فأثني عليها خيراً فقال: وجبت، ثم مرُّ بالثالثة فأُثني عليها شراً فقال: وجبت، فقلت: وما وجبت ياأمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة، قلنا:**

= والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٤/ ٣٤٠) وصححه ابن حبان (٣٤١).

(١٤) أخرجه البخاري في الجنائز باب ثناء الناس على الميت (١٣٦٧) ومسلم في الجنائز باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى واللفظ له (٩٤٩) والبغوي في شرح السنة (١٥٠٨).

وثلاثة؟ قال: **وثلاثة**، قلنا واثنان، قال: **واثنان**، ثم لم نسأله في الواحد» أخرجه البخاري[١٥].

وكثرة المصلين على جنازة المؤمن، والمشيعين لها دليل على الخيرية، وسبيل إلى كثرة الشفعاء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ما من رجل يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه**» رواه مسلم[١٦].

أيها الإخوة: هذه بعضٌ من دلائل البشرى، وأنواعٌ من الميتات الحسنة، أسأل الله تعالى أن يجعل خير أعمارنا آخرها، وخير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم لقائه، وأن يتوفانا وهو راض عنا، إنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الختام الحسن يناله من صلح ظاهره وباطنه، وأخلص

---

(١٥) أخرجه البخاري في الجنائز باب ثناء الناس على الميت (١٣٦٨) وفي الشهادات (٢٦٤٣) والبغوي في شرح السنة (١٥٠٦).

(١٦) أخرجه مسلم في الجنائز باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه (٩٤٨) وأبوداود في الجنائز باب فضل الصلاة على الجنائز وتشييعها (٣١٧٠).

لله في قوله وعمله، وثبت على الإيمان والتقوى، ولم يكن للعجب أو الرياء إلى قلبه سبيل، مع الاجتهاد في الدعاء، والإلحاح على الله تعالى.

أيها الإخوة: من رام حسن الختام لزمه الثباتُ على الإيمان، ثباتاً لا تزعزعه الشبهات، ولا يتغير بالشهوات، حتى يلقى الله تعالى بإيمانه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٠٢) ﴾ [آل عمران].

والمتعلق بالدنيا يخشى عليه أن يموت يوم يموت وهو في غفلة عن الله والدار الآخرة، وإقبال على الدنيا وزخرفها، وإن أكثر الناس في هذا الزمن إنما يخشى عليهم من فتنة الدنيا، التي من أجلها قصروا في المأمورات، وارتكبوا المحظورات، وغفلوا عن ذكر الله تعالى، والتفكر في خلقه ونعمه، وصار همُّ الكثيرين: كم يملكون؟ وكيف يستزيدون؟ وماذا يشتهون؟

والأمنُ من مكر الله تعالى مؤذن بسوء الخاتمة، وشؤم العاقبة، يرى العبد أعماله الصالحة، وأعمالَ غيره السيئة، فلا يحمد الله تعالى ويسأله الثبات، بل يغتر بعمله، ويعجب بصلاحه، ويأمن من مكر الله، ولربما ختم له بالسوء، قال حفص بن حميد: «قلت لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا، فقال: أمنك على نفسك أشدّ من ذنبه» قال الطبري: «لأنه لا يدري ما يؤول

إليه الأمر لعل القاتل يتوب فتقبل توبته، ولعل الذي أنكر عليه يختمُ له بخاتمة السوء»[١٧].

ومن أعظم ماينفع لتحصيل الخاتمة الحسنة: حسنُ الظن بالله تعالى، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني**» أخرجه مسلم[١٨]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى**» أخرجه مسلم[١٩].

كذلك من أسباب الخاتمة الحسنة كثرةُ الدعاءِ بالثباتِ على الدين، وسؤالِ الله تعالى الميتة الحسنة، وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء**» أخرجه الترمذي[٢٠]، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**واجعل**

---

(١٧) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٨).

(١٨) أخرجه البخاري في التوحيد باب قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] (٧٥٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٧٥) والترمذي في الزهد باب ماجاء في حسن الظن بالله (٢٣٨٩) وجمله «**وأنا معه إذا دعاني**» لمسلم والترمذي دون البخاري.

(١٩) أخرجه مسلم في صفة الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) وأبوداود في الجنائز باب ما يستحب من الظن بالله تعالى عند الموت (٣١١٣).

(٢٠) أخرجه من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما الترمذي في الدعوات باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي، وهو ضعيف في الحديث ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه (٣٥٤٨) والحاكم وضعفه الذهبي بعبدالرحمن ابن أبي بكر (١/ ٤٩٣) وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها عند الطبراني =

الموت راحة لي من كل شر»(٢١)، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل ربه الوفاة إذا كانت الوفاة خيراً له(٢٢)، وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ بالله من أن يتخبطه الشيطان عند الموت(٢٣)، وفي كل صلاة كان يتعوذ بالله من فتنة المحيا والممات(٢٤)، وروى النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»** قال:

= في الأوسط (٢٥١٩) وفي الدعاء (٣٣) والبزار كما في كشف الأستار (٢١٦٥) وشاهد آخر من حديث معاذ رضي الله عنه عند أحمد (٥/ ٢٣٤) والطبراني في الكبير (٢٠/١٠٣) برقم (٢٠١) وشاهد ثالث عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار كما في كشف الأستار (٢١٦٤) وكلها شواهد ضعيفة وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٩).

(٢١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ماعمل (٢٧٢٠).

(٢٢) أخرجه النسائي في السهو باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٤) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٥٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

(٢٣) كما في حديث أبي اليسر رضي الله عنه عند أبي داود في الصلاة باب الاستعاذة (١٥٥٢) والنسائي في الاستعاذة باب الاستعاذة من التردي والهرم (٨/ ٢٨٢) والحاكم وصححه (١/ ٥٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٢).

(٢٤) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في صفة الصلاة باب الدعاء قبل السلام (٨٣٢) ومسلم في المساجد باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٩) وأبي داود في الصلاة باب الدعاء في الصلاة (٨٨٠) والنسائي في السهو باب نوع آخر من التعوذ في الصلاة (٣/ ٥٦).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول: «**يا مقلب القلوب ثبـت قلوبنا على دينك**»(٢٥).

﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨] ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ [آل عمران: ١٣-١٩٤] اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

---

(٢٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢) والآجري في الشريعة (٣١٧) وابن ماجه في المقدمة (١٩٩) والبغوي في شرح السنة (٨٩) وصححه ابن حبان (٩٤٣) والحاكـم ووافقه الذهبي (١/ ٥٢٥) وصححه البوصيري في الزوائد (١/ ٨٧) والألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٨).

١٢١- حسن الخاتمة (٢)
أخبار صالحين حسنت خواتمهم

الجمعة ٢٣/ ٣/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من نعمة الله تعالى على عبده أن يهديه صراطه المستقيم، ويستعمله فيما يرضيه؛ حتى يأتيه اليقين. ومن خسارة العبد أن يُصرف قلبُه عن الآخرة، ويتعلق بالدنيا، فيشقى بجمعها وحفظها، ثم يرحلُ ويتركها لوارثه، فعليه غُرمها، ولغيره غُنْمها. ولا يدري أيذكره من جمع الدنيا لهم، ويدعون له، أم ينشغلون عنه بما خلفه لهم!!

ولو قيل للواحد من الناس: إنك تموت غداً أو بعد شهر أو بعد سنة، لانقطع في مسجده لعبادة ربه، وترك الدنيا وراءه ظهرياً. وهو يعلم أنه قد يموت في الغد؛ بل ربما فاجأته المنية قبل غده.

وكثيراً ما يُذكَّر الناس بذلك؛ ولكنهم ينسون، فالدنيا بزخارفها تنسيهم، فإذا ما مات أحدهم تذكروا قليلاً ثم نسوا.. وهكذا حتى يرد كل واحد منهم مورد غيره.

ومن حكمة الله تعالى أن غيّب خاتمة العمل عن الإنسان، فقد يُختمُ له بخير ما كان يعمل، ثم يُبعث على ذلك، ويكون من الناجين. وقد يختم له بأسوأ عمله فيحق عليه العذاب؛ حتى يكون العبد على حذر وترقب، يُحسن عمله، ويخافُ ذنوبَه، ويتقلب بين الخوفِ والرجاء.

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: «في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمةٌ بالغة، وتدبير لطيف؛ لأنه لو علم وكان ناجياً أُعجبَ وكسُلَ، وإن كان هالكاً ازداد عتواً، فحُجِبَ عنه ذلك؛ ليكون بين الخوف والرجاء»[1].

وقد نقلت إلينا كتب التاريخ، وتراجمُ الرجال أخبارَ أقوام أحسنوا عملهم، فأحسن الله تعالى خواتمهم، وآخرين أساؤوا فساءت خواتمهم، وفي ذلك أبلغ عظة، وأعظم عبرة.

منهم من مات متشحطاً في دمه، مخلصاً لربه، مقبلاً غير مدبر،

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٨).

قد فاز بالشهادة، يُبعث يوم القيامةِ وجرحه يدمى: اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

ومنهم من مات محرماً يبعث يوم القيامة يلبي بالتوحيد لله تعالى.

ومنهم من مات وهو يصلي، ومنهم من مات وآخر عهده كان بطاعة الله عزّ وجلّ.

هذا عبدُالله بنُ سعدٍ بن أبي سرحٍ رضي الله عنه، كان من كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فاستجار له عثمان رضي الله عنه[٢]، ثم تاب وصدق في توبته، وجاهد في سبيل الله تعالى، واعتزل الفتنة، ومات على أحسن حال. قال يزيد بن أبي حبيب: «لما احتُضر ابن سرح وهو بالرملة، وكان خرج إليها فارّاً من الفتنة، فجعل يقول من الليل: آصبحتم؟ فيقولون: لا. فلما كان عند الصبح قال: يا هشام، إني لأجد برد الصبح فانظر، ثم قال: اللهم اجعل خاتمة عملي الصبح، فتوضأ ثم صلى، فقرأ في الأولى بأم القرآن والعاديات، وفي الأخرى بأم القرآن وسورة، وسلم عن يمينه، وذهب يسلم عن يساره فقبض رضي الله عنه»[٣].

ومن العلماء أبو بكرٍ الإسماعيلي الشافعي رحمه الله تعالى،

---

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود باب الحكم فيمن ارتدّ (٤٣٥٨)، والنسائي في تحريم الدم باب الحكم في المرتد (٧/ ١٠٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥).

مات في صلاة المغرب وهو يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قالها، ثم فاضت روحه رحمه الله تعالى(٤).

وحكى نصر الله المصيصي: أنه حضر عند شيخه أبي الفتح النابلسي قبل موته فسمعه يقول: يا سيدي أمهلوني، أنا مأمور وأنتم مأمورون، قال: ثم سمعت المؤذن بالعصر، فقلت: يا سيدي، المؤذنُ يؤذن، فقال: أجلسني، فأجلسته، فأحرم بالصلاة، ووضع يده على الأخرى وصلى، ثم توفي من ساعته رحمه الله تعالى(٥).

ومن عجيب ما يروى في حسن الخاتمة: ما نُقِلَ عن أبي حاتم وأبي زرعة الرازيين رحمهما الله تعالى، فقد كانا من أئمة الحديث، ورجاله الكبار الذين يذبون عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانا صديقين حميمين، اجتمعا على العلم، وشرفا بحفظ السنة وتعليمها، وأمضيا عمرهما في ذلك. ثم ماتا وهما يعلمان العلم؛ فختم لهما بذلك.

وكان أولهُما موتاً أبا زرعة رحمه الله تعالى؛ إذ حضرته الوفاة، فأراد الحاضرون تلقينه الشهادة، فتهيبوا أن يلقنوا عَلَماً من أعلام الحديث، فاحتالوا على ذلك.

قال محمد بن علي ورّاقُ أبي زرعة: حضرنا أبا زرعة وهو في السَّوْقِ وعنده أبو حاتم وابنُ وارة والمنذرُ بن شاذان وغيرهم، فذكروا

(٤) تاريخ جرجان (١/ ١٤٨)، والبداية والنهاية (١١/ ٣٣٦)، وشذرات الذهب (٢/ ١٤٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٩/ ١٤٢).

حديث التلقين: «**لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله**»(٦)، واستحيوا من أبي زرعة أن يلقنوه، فقالوا: تعالوا نذكر الحديث. فقال ابن وارة: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدُ الحميد بن جعفر ،عن صالح، وجعل يقول: ابن أبي، ولم يجاوزه. وقال أبو حاتم: حدثنا بُنْدارٌ، حدثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة وهو في السَّوْق: حدثنا بُنْدارٌ، حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدالحميد، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرّة، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٧)، فكانت آخر كلمة قالها ثم توفي رحمه الله تعالى(٨).

وأما أبو حاتم فقال ابنه عبدالرحمن: حضرت أبي وكان في النَّزْعِ وأنا لا أعلم، فسألته عن عقبة بن عبد الغافر يروي عن النبي صلى الله

(٦) أخرجه مسلم في الجنائز باب تلقين الموتى: لا إله إلا الله (٩١٦)، وأبو داود في الجنائز باب في التلقين (٣١١٧)، والترمذي في الجنائز باب ما جاء في تلقين المريض عند الموت والدعاء له (٩٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٩١٧).

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣)، وأبو داود في الجنائز باب في التلقين (٣١١٦)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣١٥)، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البزار (١/ ١٠) برقم (٣)، وصححه ابن حبان (٧١٩)، وأخرجه عبد الرزاق موقوفاً على أبي هريرة (٦٠٤٥) قال البزار: ورفعه أصح.

(٨) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/ ٣٤٥)، وتاريخ بغداد (١٠/ ٣٣٥)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٧٧).

عليه وسلم: له صحبة؛ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه، فقلت: فهمتَ عني: له صحبة؟ قال: هو تابعي، ثم مات عقب ذلك.

قال ابنه عبدالرحمن: «فكان سيدُ عمله معرفة الحديث، وناقلة الآثار، فكان في عمره يُقتبس منه ذلك، فأراد الله أن يُظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته»(٩).

والأخبار في ذلك كثيرة جداً، ، وبطون الكتب بها مليئة، وما من أحد من الناس إلا وقد حضر أو علم أحوال أقوامٍ ختم لهم بصالح أعمالهم، وأقوامٍ ختم لهم بسيئ أعمالهم.

والعبد مأمور أن يجتهد في عبادة ربه، مع رجائه له، وخوفه منه، وحسن ظنه به، ويسأل الله الخاتمة الحسنة. وعليه أن يحذر من الغرور بعمله؛ فإن الغرور معصية، إن ختم له بها فقد ختم له بسوء عمله.

روى الطبري عن حفص بن حميد قال: قلت لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا، فقال: أمنُك على نفسك أشد من ذنبه. قال الطبري: «لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، لعل القاتل يتوب فتقبل توبته، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء»(١٠).

أسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يتوفانا على الإسلام والسنة، وأن يجعل خير أعمارنا أواخرها، وخير أعمالنا خواتمها، وخير

---

(٩) الجرح والتعديل (١/ ٣٦٨).

(١٠) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٨).

أيامنا يوم نلقاه إنه سميع مجيب. . وأقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ أيها الناس ـ وخذوا من دنياكم لأخراكم، ومن حياتكم لموتكم؛ فإن العمل جليسُ العبد في القبر، وسببٌ لإعتاقه أو إيباقه يوم النشر ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ [المدثر: ٣٨].

أيها المؤمنون: كما حُفِظَت سيرُ من حسنت خواتمهم، وختم لهم بخير أعمالهم، مما هو من مقدمات البشارة؛ فإن أقواماً ساءت أعمالهم، وساءت خواتمهم، فختم لهم بسوء ما عملوا. رغم أن ظاهرهم كان صلاحاً، وأعمالهم كانت جليلة، إلا أنها لم تكن خالصة لله تعالى.

روى سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله رجلٌ لا يدع شاذة إلا اتّبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أما إنه من أهل النار**» فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبداً، قال:

فخرج معه، كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه. قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم**» رواه الشيخان(١١).

تأمّلوا حال هذا الرجل، عاش بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وشرف برؤيتهم وصحبتهم، وقاتل قتالاً شديداً؛ حتى احتقر الصحابة قتالهم بالنسبة لما عمل؛ لكن فساد نيته أحبط عمله، وأدى به إلى خاتمة السوء.

فإذا كان مثل هذا حصل في الصدر الأول من الإسلام، وفي خير القرون، فما ظنكم بالقرون المتأخرة؟!

إن العاقل ليجتهد في العمل، ويخاف سوء العاقبة، ولا يأمن مكر

---

(١١) أخرجه البخاري في الجهاد باب لا يقول فلان شهيد (٢٨٩٨) ومسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١٢).

الله؛ بل هو في خوف دائم، ودعاء مستمر يسأل الله أن يختم له بخير، وأن يجعل عمله متقبلاً. ومن أمن في الدنيا خاف يوم القيامة، ومن خاف في الدنيا أمن يوم القيامة..

وصلوا وسلموا على نبينا محمد كما أمركم بذلك ربكم.

١٢٢- سوء الخاتمة وختام العام

الجمعة ٢٧/ ١٢/ ١٤١٨هـ

الحمد لله؛ يقلب الليل والنهار، ويجري الدهور والأعوام، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره؛ يُعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويبسط ويقبض، ويعطي ويمنع، وكل شيء عنده بمقدار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ عزَّ في العالمين سلطانه، وعمّ المخلوقات إفضالُه وإنعامه، ووسع كلَ شيء عفوُه وغفرانه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ كان لربه عبداً شكوراً، وفي الدنيا زاهداً صبوراً. بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ شكروا في السراء، وصبروا في الضراء، وجاهدوا الأعداء، ونشروا دين الله ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦] والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى في كل الأحوال والأزمان؛ فإن في التقوى مخرجاً من الضيق، ويسراً من بعد العسر، ورزقاً من حيث لا يحتسب العبد ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ، ٣].

أيها المؤمنون: الأيام تُطوى، والأهلة تتابع، والأكفان تنسج،

والأعمال تدون، والموعد يقترب. أجيال تفد إلى الدنيا كل يوم، وأجيال ترحل عنها. ولا تزال الغفلة تستحكم على كثير من القلوب؛ حتى غدا أكثر بني آدم يبنون دنياهم ويهدمون أخراهم.

ها هي جموع المسلمين لا تتمعر وجوههم إذا انتهكت محارمُ الله تعالى؛ لكنهم يغضبون إذا انتقص شيء من دنياهم، إلا من رحم الله وقليل ما هم.

التاجرُ منهم ينظر إلى الربح ولاينظر إلى طريقة التحصيل أَحرامٌ هي أم حلال؟! والموظف يستيقظ فزعاً لعمل الدنيا؛ لكنه ينام عن عمل الآخرة!! والمرأة تخلت عن كثير من حجابها، وارتكبت كثيراً مما يسخط ربها. والأسرةُ المسلمة همها أن لا يُنتقص شيء من وسائل عيشها الكريم، ولا أن تمسَّ رفاهيتها بسوء. وأما همُّ الإسلام وهمُّ الآخرة فليس في الحسبان، وكثير من أعمال الخير ما كانت لأجل الله تعالى والدار الآخرة؛ وإنما هي لأجل الدنيا. ومن الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وقليل ثم قليل أولئك المخلصون الصادقون.

أيها الإخوة: ينقضي هذا العامُ وكأن أيامه لم تكن شيئاً مذكوراً، اثنا عشر شهراً، بدأ هلالُ الواحدِ منها ضعيفاً، ثم أخذ يكبر حتى صار بدراً، ثم أخذ في الضعف حتى تلاشى، ثم تبعته الشهور الأخرى حتى تم ميقاتها، وانقضى أجلها، وتمت السنة، وهذه آخر جمعة.

الله أكبر، ما أسرع الأيام! وما أكثر العصيان! وما أقل الاعتبار! والإنسانُ يمضي في هذه الدنيا كما مضت تلك الشهور. لو سألت

الشيخ الكبير عن شبابه وطفولته لحدثك عنها، وأخبرك أنها مرت سريعاً، وتجد أن أمله لايزال طويلاً. والشاب نسي طفولته وأمّل في مزيد من العيش، وإن طال به العمر ليبكين شبابه. وهكذا الدنيا ولكن أين العقلاء والمعتبرون؟!

إن العبرة ليست بطول العمر؛ وإنما هي بحسن العمل، هل صحب الجاهُ أهلَ الجاه إلى قبورهم؟ وهل كان المال مع أهل المال في لحودهم؟ يا لفوز من صلح ظاهره وباطنه؛ فختم له بحسن عمله، ويالخسارة من فسد باطنه فختم له بالسوء. ذلك أن من مات على شيء بعث عليه كما روى جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يبعث كلُ عبدٍ على ما مات عليه**» أخرجه مسلم[(١)].

وفي قصة الرجل الذي سقط عن راحلته في عرفة أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه يبعث يوم القيامة ملبياً[(٢)]، وأخبر أن الشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يدمى اللون لون الدم، والريح ريح المسك[(٣)]، وما كان موت الفجأة مذموماً إلا لأنه يفجأ صاحبه قبل التوبة من المعاصي.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٨).

(٢) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في الجنائز باب كيف يكفن المحرم (١٢٦٧-١٢٦٨) ومسلم في الحج باب مايفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦).

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الجهاد باب من يجرح في سبيل الله عزوجل (٢٨٠٣) ومسلم في الإمارة باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦).

لقد كان خوف السلف من سوء الخاتمة عظيماً؛ بكى سفيان الثوريُ ليلة إلى الصباح فقيل له: أبكاؤك هذا على الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال: «الذنوب أهون من هذه، إنما أبكي خوف الخاتمة»(٤).

قال عطاء الخفاف: «ما لقيت سفيانَ إلا باكياً فقلت: ما شأنك؟ قال: أتخوف أن أكون في أم الكتاب شقياً»(٥)، وقال سهل التُستَريُ: «خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله إذ قال: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾»[المؤمنون: ٦٠](٦).

وأعظم سبب لسوء الخاتمة: فسادُ القلب بفساد الاعتقاد حتى ولو صلَح الظاهر، وأقبح ذلك: التلبسُ بالشرك أو شيء منه، أو الاستمرار على البدعة. والشركُ منع عمَ النبي صلى الله عليه وسلم أبا طالب أن يشهد شهادة الحق حالَ احتضاره، وكم من مبتدع ختم له بالسوء.

ومقارفة الكبائر، والإصرارُ على الذنوب مفسدٌ للقلب، مؤذنٌ بشؤم العاقبة، وسوء الخاتمة. والمحتضر يردد حال احتضاره ماكان يكثر من قولٍ وعمل، خيراً كان أم شراً، وواقع المحتضرين يدل على ذلك. فأهل الصلاح يختم لهم في الغالب بصالح أعمالهم، وأهل الفساد يختم لهم بفسادهم. وكم من عاص مات وهو يغني أو وهو يشرب الخمر أو انعقد لسانه عن شهادة الحق فلم يستطع نطقها.

---

(٤) العاقبة في ذكر الموت والآخرة للحافظ عبدالحق الإشبيلي (١٧٥).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٦٦).

(٦) إحياء علوم الدين (٤/ ١٧٢).

قال مجاهد رحمه الله تعالى: «ما من ميت يـمـوت إلا مُثّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم» اهـ[٧]

وقد ذكر العلماء أن سوء الخاتمة على رتبتين إحداهما أعظم من الأخرى. فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فهي أن يَغلبَ على القلب عند سكرات الموتِ، وظهور أهواله إما الشكُ وإما الجحود؛ فتقبضُ الروح على تلك الحالة فتكون حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعدَ الدائم، والعذاب المخلد. والثانيةُ وهي دونها: أن يغلبَ على القلب عند الموت حبُ أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتهـا، فيتمثلُ ذلك في قلبه، ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسعٌ لغيره، فمهما اتفق قبضُ الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه وعند ذلك تعظم الحسرة. اهـ[٨].

فيا ترى: كم مقدارُ الدنيا في قلوبنا؟! وماذا قدمنا لآخرتنا؟!

إن عملَ كثير منا ولهاثهم خلف المتاع والمال ليدل على أن الدنيا استمكنت من قلوبهم، أو على الأقل غلبت عليها فأفسدتهـا وصدتها عن الآخرة؛ حتى أصبحوا لا يجدون لذة العبادة. بل لذتهم وسعادتُهم في منصبٍ يبلغونه، أو مـالٍ يكسبونه، أو مجدٍ يحققونه، ولو كان بعيداً عن ذكر الله تعالى وشكره وحسن عبادته.

---

(٧) الأعمال بالخواتيم لسعد بن سعيد الحجري (٣٢) ونسبه للكبائر (١٠٠).

(٨) بتصرف من إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٦٢) وانظر: القيامة الصغرى للدكتور عمر الأشقر (٣٥) ويقظة أولي الاعتبار لصديق خان (٢١٦).

ومن أعظم الشؤم وأسوأ العاقبة: أن يعملَ العبدُ في الصالحات وقد كتبَ في أم الكتاب من الأشقياء. يراه الناسُ فيغبطونه على صالح عمله؛ لكن لايعلمون فساد نيته، وخبث طويته، ومراءاته في عمله، وما اطلعوا على أسراره وخفاياه؛ فلا يعلم ذلك إلا الله تعالى.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ لايدع شاذَّةً إلا اتَّبَعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أما إنه من أهل النار**» فقال رجل من القوم: أنا صاحبهُ أبداً، قال فخرج معه، كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، فقال: فجرح الرجلُ جُرحاً شديداً، فاستعجل الموت فوضع نَصْل سيفه بالأرض وذُبَابَه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله قال: «**وما ذاك؟**» قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار. فأعظَمَ الناسُ ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه حتى جرح جُرحاً شديداً؛ فاستعجل الموت، فوضع نَصْل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار**

فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم» أخرجه الشيخان[٩].

أسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يحسن ختامنا ومآلنا، ونعوذ به تعالى أن يتخبطنا الشيطان حال احتضارنا، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها المؤمنون؛ فمن لازم التقوى حياته كلها نطق عند الموت بالشهادة؛ فحسنت له الخاتمة، وسعد في الدار الآخرة ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٥٢) ﴾ [النور].

أيها الإخوة: مكانُ الدفن، وساعةُ الموت، وكثرةُ المشيعين، ليست تزيد في الحسنات أو تنقصُ السيئات. وقد يكون منها ماهو علامةُ خير، ودليلُ فوز؛ كشهادة الصالحين للعبد بالخير، فهم شهداء

---

(٩) أخرجه البخاري في الجهاد باب لا يقال فلان شهيد (٢٨٩٨) ومسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... (١١٢).

الله في أرضه. بيد أن العبرةَ بصلاحِ القلوب، وقبولِ الأعمال. والناس يحكمون بمقتضى الظاهر، وأما القلوب فلا يعلم مكنونها إلا الله تعالى، وقد مر بعض الصالحين بيهودي ميتٍ قد أوصى أن يدفن ببيت المقدس، فقال: «أيكابر هؤلاء الأقدار؟ أما علموا أنهم لو دفنوا في الفردوس الأعلى لجاءت لظى بأنكالها حتى تأخذه إليها وتنطلق به معها»(١٠).

وقال آخر: «من حكم له بالسعادة لا يشقى أبداً، وإن ألحّ غاويه، وكثر معاديه، وأحيط به من جميع نواحيه. ومن حكم له بالشقاوة لا يسعد أبداً، وإن عُمِر ناديه، وأخصب واديه، وحسنت أواخره ومباديه. كم من عابد ظهرت عليه أنوارُ العبادة، وآثار الإرادة، وبدت منه مخايل السعادة، وارتفع صيته، وانتشر في الآفاق ذكره، وعظم في النـاس شأنه جمحت به الأقدار جمحة ردته على عقبيه فختم له بالسوء»(١١).

ومن المعلوم أن سوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه. وإنما يكون ذلك لمن كان له فسادٌ في القلب، وإصرار على الكبائر؛ فربما غَلبَ ذلك عليه حتى ينزل به الموتُ قبل التوبة، ويثبَ عليه قبل الإنابة. وربما غلبَ على الإنسان ضربٌ من الخطيئة، ونوعٌ من المعصية، وجانبٌ من الإعراض، ونصيب من الافتـراء؛ فملك قلبه، وسبى عقله؛ فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فيتخبطُه الشيطانُ عند موته، ويسلبُه إيمانه(١٢).

(١٠) العاقبة في ذكر الموت والآخرة (١٧٨).
(١١) بتصرف من المصدر السابق (١٧٨).
(١٢) المصدر السابق (١٨٠).

والعبد المؤمن مأمور بأن يجتهد في إصلاح قلبه، ويسارعَ في مرضاة ربه، وأن يسأل الله الثبات إلى الممات؛ فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وبعد - أيها الإخوة - ففي ختام هذا العام، هل نعتبر بما مضى من الأيام؟! هل نخاف من سوء الختام؟! هل يبادر العاصي منا إلى ربه فيتوبَ من معصيته، ويسارعَ إلى طاعته؟! فلعل الله يقبل توبته ويكتبُ له بها سعادة لا يشقى بعدها أبداً. فاتقوا الله ربكم، وأحسنوا ختام عامكم، واعتبروا قبل أن تكونوا معتبراً، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

المغازي والتاريخ

١٢٣- قصة المولد والمبعث
١٢٤- الإسراء والمعراج
١٢٥- الابتلاء والفتنة
١٢٦- غزوة بدر (١)
١٢٧- غزوة أحد (١)
١٢٨- غزوة أحد (٢)
١٢٩- سرية بئر معونة
١٣٠- غزوة بني المصطلق
١٣١- حادثة الإفك
١٣٢- إجلاء بني النضير
١٣٣- غزوة خيبر
١٣٤- رمضان ومواقف من الفتح المبين
١٣٥- غزوة تبوك (١)
١٣٦- غزوة تبوك (٢)
١٣٧- غزوة تبوك (٣)
١٣٨- غزوة تبوك (٤)
١٣٩- أحداث توبة صادقة
١٤٠- غزوة مؤتة
١٤١- فضائل بيت المقدس
١٤٢- الفتح الأول لبيت المقدس
١٤٣- فتح الأندلس
١٤٤- بداية الحملات الصليبية
١٤٥- سلب الأقصى واسترداده
١٤٦- مذابح الصليبيين في القدس
١٤٧- معركة حطين
١٤٨- معركة الزلاقة
١٤٩- اجتياح المغول لبغداد
١٥٠- قهر التتار في رمضان
١٥١- فتح القسطنطينية
١٥٢- تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق
١٥٣- سقوط بغداد

١٢٣- قصة المولد والمبعث

الجمعة ٩/ ٣/ ١٤١٩هـ

الحمد لله؛ منَّ على المؤمنين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره؛ أرسل الرسل ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله تعالى حق جهاده؛ حتى قضى على الشرك والوثنية، وأقام الملة الحنيفية، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، ونصرة دينه، فكانوا خير صحب وأنصار، المهاجرين منهم والأنصار، والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فهي العصمة من الضلال، والنجاة من التخبط في الظلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

أيها الإخوة المؤمنون: الإنسان من غير وحي يهديه، ولا عقل ينتفع به أشبه ما يكون بالحيوان، بل الحيوان أحسن حالاً منه؛ لأنه لم يؤت

عقلاً فعطله، ولم يكلف بشرع يلتزمه ويدعو إليه فأهمله؛ ولذا كان من لم يهتد بوحي الله تعالى، ويلتزم شريعته، أضل عقلاً من البهيمة السائمة ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

ولم تكن فترات البشرية التي كانت قبل مبعث النبيين إلا تاريخاً من الجاهلية، وضروباً من المعيشة البهيمية. ومكةُ كانت كذلك قبل البعثة، ومظاهر الجهل، ومصادرة العقل، تعز على العد والحصر، أوثان تعبدُ وتسأل، وشيوخ تركع وتسجد، لأصنام لا تضر ولا تنفع، والعقل إذا تاه عن الوحي أتى بالعجائب من الضلال، حتى يتخذ أحدهم صنماً من تمر إذا جاع أكله، وحتى كان صنمُ قبيلة مصنوعاً من طعام عبدوه دهراً طويلاً، فأصابتهم مجاعة فأكلوه، فجاء من يعيرهم بأكل آلهتهم!![1].

وقوم بلغ ضلالهم في العبادة هذا المبلغ فحدث ولا حرج عن ضلالهم الاجتماعي والأخلاقي؛ حيث النعرات العشائرية، والثارات القبلية، تدوم الحرب سنين عدداً، تفتك بهم فتك الوباء المهلك، وتطحنهم طحن الرحا للحب، وما كانت حروبهم إلا في سبيل فرس سُبقت، أو ناقة عُقرت، أو وشاية سَرت، أو إشاعة انتشرت. والانحطاط الاجتماعي بلغ حضيضه من الانغماس في الخمور، ولعب الميسر، والزواج بلا

---

(١) انظر: المعارف لابن قتيبة (٦٢١) والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٧٠).

عدد، وقتل الأولاد من أجل الفقر، ووأد البنات خشية العار، إلى أنواع الأنكحة الفاسدة، وتفشي الظلم والطبقية.

ومن الخطأ الظن أن مكة يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق، كلا، إنها شبعت حتى بطرت، وتنازعت الكبرياء حتى تطاحنت عليها، وبلغ فيها غرور الفرد مداه، ووجد فيها من يسابق فرعون في عتوه وطغواه[٢].

في هذه الحقبة الزمنية حيث بلغ الضلال منتهاه، وساد الظلام أرجاء المعمورة، أذن الله تعالى بصبح قريب، ببعثة نبي كريم، ينقذ البشرية من ضلالها، وينبهها من غفلتها، ويوقظها من رقدتها، وكان أهلُ الكتاب يتحدثون عن قرب زمنه، وكلُ حَبْر من أحبارهم يرجو أن يكون هو النبي المنقذ، وكان أهم حدث في ذلك الزمن غزو أبرهة للكعبة يريد هدمها حتى يحج الناس إلى كعبته، فأخزاه الله تعالى وهزم جيشه ﴿**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾ [الفيل: ٥].

ولد اليتيم الهاشمي كما ولد غيره من بني البشر، ولدتهم أمهاتهم آنذاك من مختلف الأجناس وشتى البقاع، منهم من ولدوا في قصور مصر والشام وفارس والروم، ومنهم من ولدوا في مجاهل القفر، ونجوع البوادي، وأدغال الغابات، وكهوف الجبال. تباعدت بهم الأصول والأنساب، وتفاوتت الألوان والأجناس، وتناءت الطبقات والأعراق،

(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي (٢٣).

وجمعتهم بنوتهم للبشر، وتماثلت فيهم آية الخلق، وتشابهت مخاطر الحمل، وآلام المخاض[٣]، وكل أم منهم تأمل مجداً عظيماً، ومستقبلاً مشرقاً لوليدها. وما علم أحد من البشر أن عصر الظلام بدأ بالزوال، وأن إشراق الأرض بنور السماء آخذ في الاقتراب، بعد انقطاع دام طويلاً، وأن مجداً سيكون لأهل مكة بل للعرب جميعاً لم ينالوه مذ خلقوا. كل ذلك وغيره كثير ما علم أحد أنه سيكون على يد ذلك اليتيم الهاشمي الذي كان مثار الشفقة والرحمة بيتم الأبوة، ثم يتم الأمومة، ثم يتم الجدودة، حتى كان في كفالة عمه العائل الفقير.

كابد لأواء الحياة، وعانى شظف العيش، يشبع يوماً ويجوع أياماً، ويأكل من عمل يده، بل عاون عمه برعي الغنم. والزمن يطوي أيامه وذلك الغلام يكبر شيئاً شيئاً، والحديث عن ظهور نبي منتظر ينتشر بين الناس، حتى بلغ الأربعين سنة ، وعندها فقط آن لليل الجاهلية أن ينقشع بفجر الإسلام.

لقد حبب إليه عليه الصلاة والسلام الخلو بنفسه، واعتزال الجاهلية وأهلها، والتعبد لربه، على غير عادة أترابه وأقرانه آنذاك، وما هو إلا أن خلا يتحنث لربه في الغار، ومع نور الفجر من الليلة الغراء كان نزول الوحي برسالة يحملها جبريل الأمين، نزل بها من السماء بأمر رب العالمين، ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)

(٣) مع المصطفى عليه الصلاة والسلام للدكتورة عائشة بنت عبدالرحمن (٢٦).

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] فكانت نبوءته بإقرأ.

عاد إلى بيته خائفاً مذعوراً، وحكى لزوجه خديجة ما رأى؛ فقالت قولتها المشهورة: «كلا والله، ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتُكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قارئاً يكتب الإنجيل بالعربية، فأخبره بما رأى؛ فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أوَمخرجيَّ هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي» متفق عليه(٤).

فتر الوحي فترته، وحزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك أشد الحزن(٥)، ثم عاد الوحي مرة أخرى يخبره بالتكليف، بالبلاغ والنذارة، وحمل أعباء الرسالة **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾** [المدثر: ١-٥] ثم تتابع الوحي(٦)، وأمر

---

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي وفي التفسير باب تفسير **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾** (٤٩٥٣) ومسلم في الإيمان باب بدء الوحي (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) كما في رواية الإمام أحمد في المسند (٦/ ٢٣٣).

(٦) انظر: صحيح البخاري كتاب بدء الوحي مع الفتح (١/ ٢٧) وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي (١٦١).

بالجهر بالدعوة في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤][٧]. فبلغ وأنذر، ورغب ورهب، دعاهم فرادى ومجتمعين؛ فآمن من آمن، وكفر من كفر.

داخل الوحي قلوباً ما عرفت الرحمة، فألانها القرآن، واستضاءت به عقول كان يُظن جمودها على جاهليتها، إلا أن فريقاً من أهل الجاهلية بقوا على جاهليتهم، وحسبوا أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من قبيل التفاخر في المعالي، والتنافس على الشرف؛ كما قال أبو جهل معللاً كفره بالرسالة المحمدية: «تنازعنا نحن وعبدُمناف الشرفَ، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه»[٨].

وقال الوليد بن المغيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأني أكبرُ منك سناً وأكثر منك مالاً»[٩].

---

(٧) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في التفسير باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٤٧٧٠) ومسلم في الإيمان باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٨).

(٨) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة لابن هشام (١/ ٣٤٢) وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٩١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٦) وصحح إسناده الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٥٢) وهو من مراسيل سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى.

(٩) فقه السيرة للغزالي (٢٣).

هكذا فكرت عقول أهل الضلال والجاهلية، وظنت أن النبوة تشترى بالمال، وأن الاصطفاء يكون بالقوة. فلما لم يوافق ذلك هواهم عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآذوا أتباعه؛ ولكن الله تعالى نصر عبده، وأعز جنده، وهزم أهل الشرك والأوثان، ومكّن لدينه في الأرض، وكتب بقاءه إلى قيام الساعة.

هذا ملخصُ قصة النور الذي نزل من السماء، ومقتضب خبر مولد ومبعث حامل هذا النور صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك آيات للمعتبرين، ومِنَّة وفضل من الله تعالى على عباده المؤمنين ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة: ٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظمة سلطانه، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - في شؤونكم كلها، وراقبوه الأحيان كلها، ثم اعلموا أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم هي في طاعته، واتباع سنته، وعلى قدر القرب من سنته؛ تعظم المحبة له، التي بها تنال محبة الله تعالى ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**

ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولن تكون الاحتفالات بمولده أو بعثته، أو إسرائه أو هجرته دليلاً على المحبة، بل هي عين المخالفة؛ إذ لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا فعلها أهل الصدر الأول من الإسلام مع بلوغهم المنتهى في المحبة والتوقير والتعزير.

إن من الناس من ظنوا أن الإسلام تجرد من معانيه السامية، وأهدافه العالية، في إصلاح البشرية، فاختزلوه في احتفالات بدعية، وطقوس متنوعة، يقودهم فيها مشايخ الضلال، من زعامات الطرق الخرافية، يأكلون فيها أموال العامة والرعاع بالباطل، ويوردونهم موارد الشبهات والشهوات، بأذكار وأوراد شركية وبدعية، تتمتم بها شفاههم، وحداء وغناء ترتفع به أصوات مُجانهم وفسّاقهم، ويحيون به مناسباتهم، تحفهم فيها شاطين الجن قبل شياطين الإنس.

ولا تعجب - أيها المسلم - حينما تشاهد فضائية بل فضائيات كانت تغزو القلوب بالشبهات، وتداعب الغرائز بالشهوات، وما عرف عنها إلا أنها حرب على قيم الإسلام وشريعته! لا تعجب حينما تشاهدها تغطي تلك الاحتفالات البدعية بالصوت والصورة الحية.

كذلك لا تعجب حينما تشاهد علمانياً غالياً في علمانيته لا يهتم لأمر الدين من قريب ولا بعيد يلقي كلمة ضافية في مناسبة المولد، أو حينما تقرأ قصيدة لحداثي موغل في حداثته يمدح فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم، أو حينما تدير الأثير على إذاعة تعلم أنها تنصيرية؛ فإذا هي تتباكى في مناسبة المولد، وتحتفل مع المحتفلين، أو حينما تطالع

مقالة أدبية معبرة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، كتبها كاتب كان لقدمه رسوخٌ في حرب الإسلام، وتشويه صورته الناصعة. لاتعجب من ذلك كله؛ لأن هؤلاء القوم وإن كانوا يحاربون الإسلام وشعائره وأهله فإنهم لا يمانعون من اختصار الإسلام في تلك الشعائر البدعية، والطقوس المحدثة، ويرون أن في ذلك اقتراباً من أهل الحضارة والتقدم حيث احتفالات الغرب بأعياد ميلاد المسيح عليه السلام. ويعجبهم جداً أن يختصر الإسلام في تلك الاحتفالات البدعية، وأن يحجر عليه في المساجد والزوايا، ولكن أن يُعمل بالإسلام، وتكون شريعته حاكمة على الجميع؛ فذلك ما لا يريدون.

إن أعداء الإسلام لا يخشون هؤلاء السذج والرعاع من المبتدعين؛ لأن احتفالاتهم لن تبني مجداً، ولن تحق حقاً، ولن ترد عدواً غاشماً، وإنما هم يخشون من يدعو إلى الإسلام بنقائه وصفائه، ويريد العودة بالناس إلى الكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة؛ فذلك الذي يُخشى، وذلك الذي يوصم بالأصولية والتطرف. ولكن لا يحق إلا الحق، ولا يبقى إلا الصحيح، ويوشك صاحب الباطل أن يندحر بباطله، فاتقوا الله ربكم، واستمسكوا بالسنة، واحذروا البدعة، ولا تغتروا بجهل الجاهلين، وزخرف المبتدعين، ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم. . . .

١٢٤- الإسراء والمعراج

٣٠/ ٧/ ١٤٢١هـ

الحمد لله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل، فإنها نعم العدة ليوم تشخص فيه الأبصار، وتوجل القلوب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أيها المسلمون: من فضل الله تعالى على هذه الأمة المباركة أن جعلها آخر الأمم وأفضلها، واختار لها خاتم النبيين وأفضل المرسلين، سيد ولد آدم محمداً صلى الله عليه وسلم الذي قال عن أمته: «**أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**» أخرجه أحمد والترمذي وحسنه[١].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٥) والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران وحسنه (٣٠٠١) وابن ماجه في الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (٣٢٨٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٨٤).

لقد اصطفاه الله تعالى من البشر، واصطفى أمته من بين الأمم، وأكرمه بالآيات، وأيـده بالمعجزات، وحفظـه من عداوة المشركين، وكيد المنافقين، ومكر اليهود.

وأعظم مقام ناله النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا أن أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِج به إلى السماء، حتى بلغ سدرة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، وكلمه الـرب تبارك وتعالى من غير واسطة.

أسري به صلى الله عليه وسلم في وقتٍ اشتدَّ فيه أذى المشركين، وعظم ظلمُهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم.

مات عمه أبو طالب وقد كان يحامي عنه، وتوفيت زوجُه خديجة رضي الله عنها وقد كانت تواسيه، فذهب المحامي والمواسي، وقلّ النصير، وضعفت الحيلة، وضاق الصدر، وانقطع الرجاء إلا من الله تعالى، الذي جعل مع العسر يسراً، وبعد الضيق فرجاً؛ فبعد أن عاد النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف وقد دعا أهلها إلى الإسـلام فأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، فقذفوه بالحجارة، وأدموه صلى الله عليه وسلم؛ شرّفه الله تعالى - عقب ذلك - بهذه الرحلة المباركـة ليطمئن قلبه، ويزداد إيمانه.

أسري به ليرى جزءاً من ملك الله تعالى فيحتقر الدنيا وما فيها، فيتعلق قلبُه بما عند الله تعالى، وما عنده خير وأبقى من الدنيا وزخرفها.

أسري به ليرى طرفاً مما يدل على عظمة الله تعالى وقدرته وكبريائه، فيَجِدَّ في الدعوة، ويصبر على أذى المشركين؛ تعبداً لصاحب هذه العظمة والكبرياء.

أسري به من مكة إلى الشام، ثم عرج به إلى ما فوق السماء السابعة في ليلة واحدة؛ ليزداد إيماناً إلى إيمانه بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قدير، فيطمئن قلبُه بهذه القدرة والقوة التي لا تساوي معها قوة المشركين شيئاً ولو اجتمعوا وتآمروا على كبت الدعوة، وقتل صاحبها، وأذية أتباعه، ولو اجتمع معهم الشيطان، ومكر لهم، ودلهم على السوء، فإن قوتهم ومكرهم لا يكون إلا بتقدير من الله تعالى لحكمة يريدها، وليس ما يملكون من قوة شيئاً مذكوراً أمام قدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قدير.

فلما أذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الكرامة بعد شدة شديدة، وعسر عظيم، وأذىً من المشركين؛ هيأه لذلك، فجاءه ملك فشق صدره من ثُغْرَة نحره إلى أسفل بطنه، قال عليه الصلاة والسلام يخبر عن ذلك: «**فاستخرج قلبي ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغُسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد**» أخرجه الشيخان(٢)، قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: «الحكمة في شق قلبه - مع القدرة على أن يمتلىء قلبُه إيماناً وحكمة بغير شق - الزيادة في قوة

---

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب المعراج (٣٨٨٧) ومسلم في الإيمان باب حديث الإسراء (١٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

اليقين؛ لأنه أُعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمِن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهـم حـالاً ومقالاً»(٣).

فلما غُسل قلبه بماء زمـزم، وحُشي إيماناً وحكمة، أسرى الله تعالى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماء بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم، في حال اليقظة؛ كمـا دل على ذلك القرآن الكريم، وتواترت به السنة النبوية، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «والحق أنه أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق - وهو دابة بين البغل والحمار ينتهي خطوها عند انتهاء بصرها - فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، وصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتـي بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلّم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرَّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلـى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام - أي أقلام القدر بما هو كائـن - ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة مـن فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالـك

(٣) فتح الباري للحافظ ابن حجر (٧/ ٢٤٥).

جبريل على صورته وله ستمئة جناح، قد ملأ ما بين السماء والأرض، ورأى رفرفاً أخضر قد سدَّ الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله تعالى عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها صلاة الصبح من يومئذ. . ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق، وعاد إلى مكة بغلس»(٤) اهـ.

ولم ير الله تعالى بعينه في هذه الرحلة السماوية بل حجبه النور؛ لأن الله تعالى قد قضى أنه لا يُرى بالعين في الدنيا، وإنما يُرى في الآخرة؛ كرامة لأهل الجنة، وزيادة في النعيم؛ ولذلك لما سأل موسى عليه السلام ربه أن يكشف له الحجب ليراه، قال الله تعالى: ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣].

---

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨-٣٩) وعنه الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٣٥٨-٣٥٩) أول سورة الإسراء.

قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنّى أراه**» وفي رواية «**رأيت نوراً**» أخرجه مسلم(٥).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**سُبْحَانَ الذي أَسْرَىٰ بعَبْده لَيْلاً مّنَ المَسْجد الحَرَام إلَى المَسْجد الأَقْصَى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لنُرِيَهُ منْ آيَاتنَا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ**﴾ [الإسراء: ١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه، يليق بجلال ربنا وعظيم سلطانه، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: لقد انطوت حادثة الإسراء على معان عظيمة، وحصل فيها مواقف كثيرة تدل على شرف محمد صلى الله عليه وسلم، ومكانة أمته من بين سائر الأمم، فهو صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء،

---

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٧١-١٧٥) ومسلم في الإيمان باب قوله عليه السلام: «**نور أنّي أراه**» (١٧٨).

ودينُه دينُهم الذي غايته تحقيق العبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له، وهو عليه الصلاة والسلام رسول الله تعالى إلى الناس أجمعين، عرباً وعجماً، سوداً وبيضاً وحمراً، في كل الأرض وإلى آخر الزمان.

لقد كان بالإمكان أن يُعرج به من المسجد الحرام إلى السماء مباشرة دون الذهاب إلى بيت المقدس، ولاسيما أن المسجد الحرام أعظم شرفاً من المسجد الأقصى، ولكن كانت هذه الرحلة الأرضية مقصودة، وفيها إيماء إلى أن الله تعالى جعل هذا الإسراء دليلاً على أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم عليه السلام، الصادر من المسجد الحرام، إلى ما تفرع منه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس، ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكة أيضاً، فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام، وتفرعت في المسجد الأقصى؛ ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سُرىً يعقبه تأويب(٦).

وسلامه على الأنبياء في السماء فيه تصديق النبوات بعضها لبعض، وأن دين الأنبياء عليهم السلام واحد، ثم هبوطه والأنبياء إلى البيت، وإمامته لهم في الصلاة تسليم بأنه عليه الصلاة والسلام إمام الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين، وأنه واجب على كل نبي لو أدرك بعثة محمد ﷺ أن يتبعه، ويلتزم شريعته؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ**

---

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/ ١٥).

لَمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**»(٧) ولذلك لا يقبل الله تعالى من أحد ديناً بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلا دين الإسلام؛ كما قال سبحانه: **﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾** [آل عمران: ٨٥]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**» رواه مسلم(٨).

وبهذا نخلص إلى نتيجة شرعية مهمة في هذا العصر كثر فيها الجدال والكلام، واختصمت فيها الطوائف والأمم، كل يدعي أن الحق له فيها دون غيره، ومقتضاها: أن أمة الإسلام أولى ببيت المقدس من اليهود وإن زعموا أن لهم فيه هيكلاً، ومن النصارى وإن ادعوا أنها مولد عيسى ومهده وموضع قتله، بل المسلمون أولى بالأرض كلها من كل الأمم؛ لأن دينهم هو دين الأنبياء، وأما دين غيرهم فإما مخترع

---

(٧) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٤٢١) وأحمد (٣/ ٣٣٨) وأبو يعلى (٢١٣٥) وفي سنده مجالد بن سعيد وهو ضعيف.

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم في الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

وإما محرَّف، فإن كان اليهود يريدون بناء هيكل سليمان، وإعادة مملكة داود عليهما السلام، والنصارى يرون أحقيتهم ببيت المقدس؛ لأنها بلد عيسى عليه السلام؛ فإن المسلمين أولى بداود وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام من اليهود والنصارى؛ لإمامة النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم السلام، وتسليم الأنبياء له بالإمامة.

فيجب أن يرتفع المسلمون عن مجادلة أهل الكتاب على بيت المقدس من الحجج الواهية كزعمهم حق كنعان واليبوسيين إلى الحجة الشرعية الدامغة؛ ولكن مع الأسف أن الممسكين لزمام المجادلة عليه قوم علمانيون لا يعنيهم إلا التراب والوطن، ولا تعنيهم الأرض المقدسة بمسجدها الأقصى الذي باركه الله تعالى، وبارك حوله بصلاة الأنبياء فيه عليهم السلام، يؤمهم فيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولن يكون غريباً لو باعها الوطنيون والقوميون بثمن بخس، وهم سيفعلون ذلك لولا ردة فعل الشعوب الغاضبة التي تنظر إلى تلك الأرض المباركة نظرة عقائدية.

ولن يكون تحرير بيت المقدس من عصابات اليهود المدعومة من قبل النصارى بالشعارات الوطنية الجوفاء، أو المضامين القومية المنهزمة، أو المشاريع العلمانية الفاشلة، كذلك لن تحرر بالابتداع في دين الله تعالى بالاحتفال بليلة الإسراء، وإنشاد القصائد والمدائح، وكل ذلك لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا صحابته الكرام رضي الله عنهم، ولا سلف هذه الأمة الصالح، بل هو محدث في دين الله

تعالى، وإنما يُحَرَرُ بيت المقدس بالإيمان بالله تعالى، واتباع سـنـة رسوله صلى الله عليه وسلم، والحذر من العصيان والبدع، وإحيـاء شعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى الذي هو ذروة سنام الإسلام ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠].

ألا وَصلوَا وسَلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم....

١٢٥- الابتلاء والفتنة سبب الهجرة

الجمعة ٥/ ١/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فإنها وصية الله للأولين والآخرين ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)**﴾ [النساء].

أيها الإخوةَ المؤمنون: جعل اللهُ هذه الدار ابتلاءً لعباده، ومقراً لامتحان أوليائه، يبتليهم بالخير وبالشر، بالسراء وبالضراء؛ حتى يميز الخبيث من الطيب، ويتميز المؤمن من المنافق، ويبين الصادقُ من الكاذب ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)**﴾ [العنكبوت] ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)**﴾ [الأنبياء].

وطريقَ الابتلاء هي طريق الأنبياء وأتباعهم من السابقين والحاضرين واللاحقين إلى قيام الساعة ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ**

آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة].

والابتلاءُ بالخيرِ والسراء أعظمُ فتنة، وأشدُّ بلاءً على المكلف من الابتلاء بالضراء. فالابتلاء بالضراء يزيد العبد قوةً وصلابة، ويقربه من ربه، ويضعف هواه. وأما الابتلاء بالسراء فكثيراً ما يُضْعِفُ إيمان العبد، ويزيد من تعلقه بالدنيا وأمله فيها؛ حتى يضع له فيما يهوى الأعذار والمسوغات، مما يجعله عرضة للذوبان في سياسات التمييع والاحتواء؛ فيتنازل عن المبادئ والقيم التي كان يهتف بها، ويدعو إليها، بحجة المصلحة والحكمة، والنظر الأبعد.

والله تعالى سمى فتح النعم على عبده ابتلاءً كما قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) ﴾ [الفجر] وجعل ما في الأرض من خيرات اختباراً لعباده فقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) ﴾ [الكهف] وفي هذا المعنى قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون»[1].

وقال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: «ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[2].

والدليلُ المحسوس على أن الابتلاء بالضراء أهون من الابتلاء بالسراء أن المرضى أقرب إلى الله من الصحاح، والفقراء أكثر تعبداً من الأغنياء

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (٨٨).

(٢) المصدر السابق (٨٨).

في الجملة، وإذا شبعت البطون تحركت الفروج، وازدانت الشهوات، فيوشك المبتلى بالسراء مواقعة الحرام، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها»(٣). ولذا فإن أكثر ابتلاء الأنبياء وأتباعهم كان بالضراء، من الجوع والخوف واضطهاد الكبراء والمشركين، والتضحية بالأهل والأولاد والأموال، ومفارقة البلدان والأوطان، والفرار بالدين؛ هجرةً إلى الله تعالى.

هذه سيرة خاتم النبيين، وإمام المرسلين، صلى الله عليه وسلم، تزخر بالابتلاء. مسته البأساء والضراء؛ فما نال شرف الإمامة، ولا بُعثَ بالنبوة والرسالة، إلا بعد أن تقاذفته الأيدي في الولاية.

عاش يتيماً فقيراً؛ فقد ولد يتيم الأب، ولا يعرف اليتم إلا من شرب كأسه، وذاق مرارته. حضنته أمه بعد أن فقد رعاية الأبوة، وتولت عنه المراضع ليتمه وفقر أهله، حتى أخذته من لم تجد وليداً؛ فكان بركة عليها وعلى أهل بيتها، ثم عاد إلى حضانة أمه، فما كاد قلبه يتعلق بها حتى فاضت روحها أمامه وهو أحوجُ ما يكون إلى حنانها وعطفها؛ إذ كان عمره ست سنوات فقط، فزاد يتمه يتماً، فأصبح فاقد الأبوين، كسير الجناحين، ولكن الله تعالى يحوطه برعايته وعنايته، ويتولاه وينصره ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

---

(٣) المصدر السابق (٨٩).

ولم يزل عليه الصلاة والسلام متذكراً أمه، لم ينسها قلبُه؛ حتى بعد كبره ومبعثه وهجرته، وتحمله أعباء دعوته؛ فقد مـرّ على قبرها عام الحديبية فزارها، قال أبو هريرة رضي الله عنه : زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال : **«استأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»** أخرجه مسلم(٤).

ثم بعد موت أمه كان في رعاية جده عبدالمطلب فلم يلبث سنتين حتى مات، ثم انتقل إلى ولاية عمه أبي طالب العائل الفقير، فرعى صلى الله عليه وسلم الغنم لأهل مكة على قراريط حتى يعين عمـه على النفقات، ثم مات عمه أبو طالب، وزوجه وسنده خديجة رضي الله عنها في عام واحد، قبل الهجرة بثلاث سنوات، في وقت اشتداد أذى المشركين.

إنها بدايةُ حياة شاقة، مليئة بالأحزان والضراء، تلك هي بداية حياة خاتم النبيين، وأفضل الخلق أجمعين عليه الصلاة والسلام، ثم لما بعث بالنبوة، وأمر بتبليغ الرسالة، ونشر الدعوة؛ كان ما أصابه في طفولته

---

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عزوجل في زيارة قبر أمه (٩٧٦) وأبو داود في الجنائز باب في زيارة القبور (٣٢٣٤) والنسائي في السنن الكبرى كتاب الجنائز وتمنى الموت باب زيارة قبر المشرك (٢١٦١) وابن ماجه في الجنائز باب زيارة المشركين (١٥٧٢) والبغوي فـي شرح السنة (٥/ ٤٦٣) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٧٠).

وصباه من شدة وبأس لايكاد يذكر مع ما أصابه من أذى المشركين وتسلطهم وبغيهم. ناصبوه العداء، وأعلنوا عليه الحرب الشعواء. اتهموه بالسحر والكهانة، والكذب والجنون، ووصفوا ما جاء به بالأساطير والضلال وقالوا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] استهزؤوا به وبما جاء به، وشتموا القرآن ومن أنزله ومن جاء به.

ولما لم يثنه ذلك عن دعوته ساوموه وقالوا: اعبد آلهتنا يوماً ونعبد إلهك يوماً؛ فأنزل الله سورة (الكافرون)(٥)، وحسم هذه المساومة الهزلية، ثم رغبّوه فعرضوا عليه زوجاً ومالاً وملكاً، وهل هو يريد الدنيا بدعوته حتى يقبل عرضهم؟! كلا، إنما أراد أن يستنقذهم من النار لو كانوا يعقلون. وهل يعقلون وقد عشعش في عقولهم، وران على قلوبهم جيوشٌ من الأصنام؛ أصنامِ العادات والتقاليد ومجد الآباء والأجداد، وشرف الحروب والثارات، مع أصنام حجارتهم التي لها يركعون ويسجدون، ويخضعون ويعبدون، والتي أعمتهم عن الحق وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون؛ حتى آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته وفي نفسه وفي أتباعه، وفي أهله وعشيرته.

ولقد سجلت سيرته صوراً من صبره عليه الصلاة والسلام وتحمله

---

(٥) روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما كما أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم. وعن وهب كما أخرجه عبدالرزاق. وعن سعيد بن ميناء، كما أخرجه ابن أبي حاتم. وانظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (٢١٨) والدر المنثور (٦/ ٦٩٢).

وحلمه على قومه يقف القارئ أمامها مشدوهاً يتملكه العجب والإعجاب من تحمله وصبره على أذى قومه ثم رحمته وحلمه وعفوه.

أخرج الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخُذُه فيضَعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كان لي منعةٌ طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه؛ حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمُهُم، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم - وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً - ثم قال : **اللهم عليك بقريش** ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته. . . - وسماهم واحداً واحداً - قال عبدالله: فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر»[٦].

---

(٦) أخرجه البخاري في الصلاة باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى (٥٢٠) وكذلك في مناقب الأنصار باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى المشركين (٣٨٥٤) ومسلم في الجهاد والسير باب ما لقي=

وأخرج البخاري عن عروة قال: «سألت عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رأيت عقبة ابن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صلى الله عليه وسلم، فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»(٧).

وعند أبي يعلى والبزار بسند صحيح عن أنس قال: «لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة حتى غشي عليه. . .»(٨)

وما كان الله تعالى ليضيع نبيه صلى الله عليه وسلم بل كان يدفع عنه ويحوطه بعنايته ورعايته، وما أصاب نبيه من الضراء هو اقتضاء حكمته في ابتلاء أحبابه، ولو شاء لأهلك أعداءه ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

= النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤) واللفظ له، وأحمد كما في الفتح الرباني للساعاتي (٢١٨/٢٠) ومابين المعترضين هكذا - - من كلامي وليس من الحديث.

(٧) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذاً خليلاً (٣٤١٧) وانظر: سيرة ابن هشام (٣٥٨/١).

(٨) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢١٨) وأبو يعلى في مسنده (٣٦٩١) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للبزار وقال: ورجاله رجال الصحيح (١٧/٦) وذكره الحافظ في المطالب العالية وعزاه لأبي يعلى وقال: صحيح وله شاهد في البخاري (٣٩/٤- ٣٩/٥).

أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : «قال أبو جهل: هل يعفر محمدٌ وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»[(٩)].

وجاء في حديث آخر عن أنس رضي الله عنه: «أن جبريل عليه السلام جاء ذات يوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة فقال له: مالك؟ قال : **فعل بي هؤلاء وفعلوا** - فجعل جبريل يسليه -» أخرجه أحمد ورجاله رجال الصحيح.[(١٠)]

---

(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٠) ومسلم في صفات المنافقين باب قوله تعالى ﴿**كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ**﴾ [العلق: ٦] (٢٧٩٧) والبيهقي في الدلائل (١/ ٤٣٨).

(١٠) أخرجه أحمد (٣/ ١١٣) وأبو يعلى (٣٦٨٥) وابن أبي شيبة (٣٢/ ٣١٧) وابن ماجه في الفتن باب الصبر على البلاء (٤٠٢٨) والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٢٦) والدارمي (٢٣) قال الساعاتي في الفتح الرباني: لم أقف عليه لغير الإمام أحمد ورجاله من رجال الصحيحين (٢٠/ ٢٢٠) وما بين المعترضين هكذا - - من كلامي وليس من الحديث. وتمام الحديث: «قال: فقال له جبريل: **أتحب أن أريك آية؟** قال: **نعم**، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: **ادع بتلك الشجرة**، فدعاها، فجاءت تمشي حتى=

ومع كل هذا الأذى الذي ناله منهم فإنه صلى الله عليه وسلم كان رؤوفاً رحيماً، عفواً كريماً، ليس في قلبه مكان للحقد والانتقام، وما عرف عنه صلى الله عليه وسلم انتصار لنفسه.

ولا أدل على ذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك؛ قال: **وتفعلون؟** قالوا: نعم، قال: فدعا؛ فأتاه جبريل فقال: **إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة،** فقال: **بل باب التوبة والرحمة**، فأنزل الله تعالى ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء] أخرجه أحمد بسند صحيح[(١١)].

ما أعظم هذا الحلم وتلك الرحمة منه صلى الله عليه وسلم لقومه! وقد جاءه الفرج من السماء بعذابهم ولكنه يعفو ويصفح ويرجو توبتهم وعودتهم إلى الحق؛ حتى يَفْتكوا أنفسهم من عذاب الله تعالى، فهل

= قامت بين يديه، قال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبي».

(١١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٨) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٣٦٢) وجوّد إسناده ابن كثير في البداية (٣/ ٥٢) وفي السيرة (١/ ٤٨٣) وذكر الهيثمي روايتي أحمد وقال: ورجال الروايتين رجال الصحيح... (٧/ ٥٠) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٣٣٣).

عرفت البشرية أخلاقاً مثل هذه الأخلاق، وحلماً مثل هذا الحلم من غير محمد صلى الله عليه وسلم وإخوانه المرسلين؟!

ولما اشتد أذاهم عليه هاجر إلى المدينة وأقام دولة التوحيد، ونشر دين الله في الأرض، ثم لما فتح مكة واستمكن من رقابهم عفا عنهم، وهكذا كانت الهجرة سبباً في إقامة الدولة، كما كانت الحديبية سبباً في فتح مكة. وما كان الفتح إلا بعد الهجرة، وما كانت الهجرة إلا بسبب الابتلاء والمحنة. فالتمكين لأولياء الله لايكون إلا بعد التمحيص والابتلاء ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمدلله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون: كانت الهجرةُ حدثاً مهماً في تاريخ الإسلام؛ إذ بها قامت دولة الإسلام، وأصبح للمسلمين المستضعفين ملاذٌ آمنٌ يعبدون ربهم دون أذى، كما كان مهاجره مركزاً لانطلاق الجيوش الجرارة للجهاد في سبيل الله تعالى حتى تم نشر الدين في جهات الأرض كلها.

ورغم ضخامةِ حدث الهجرة وأهميتـهِ في تاريخ المسلمين، فإن

كثيراً من المسلمين لا يعرفون من معاني الهجرة إلا إحياء ذكراها والاحتفال بها مبتدعين في دين الله تعالى، مخالفين أمر رسولهم صلى الله عليه وسلم.

إن الهجرة ما كانت إلا فراراً من الفتنة في الدين، وهي باقيةٌ إلى قيام الساعة، والمسلمُ المعاصر يواجه إعصاراً من البلايا والفتن، فتن السراءِ والضراء، فتن الاحتواء والاضطهاد.

فالجاه فتنة، والمال فتنة، والإعلام العالمي بفضائياته مليء بالفتن، فتن الشبهات والشهوات، وسهولةُ الاتصال بالعالم، والاطلاعُ على سائر الثقافات، مكّن لفتنٍ أخرى تتسرب إلى قلوب بعض المسلمين فتفسدها؛ حيث تلاقح الأفكار، وتبادلُ الثقافات. وكثرةُ المخالطة والمشاهدة تكسر حاجز الخوف، وتهدم سد الحصانة، وتقود إلى المتابعة والتقليد، تحت تأثير المحبة والإعجاب، ثم قل السلام على ركن الولاء والبراء، وتلك والله من أعظم الفتن. هذه بعضٌ من فتن السراء.

وأما فتن الضراء فإن المسلم المستمسك بدينه يواجه مكراً كباراً، وبلاءً ماحقاً من أعداء الإسلام، اليهودِ والنصارى والملاحدة والمنافقين وغيرهم، ممن أخذوا على عواتقهم حرب الإسلام وأهله بلا هوادة، فالمسلم في النظر العالمي متهم حتى آخر قطرة من دمه بالتطرف والإرهاب والأصولية، والإعلامُ العالمي يحاول إقناع العالم أن شعائر الإسلام الظاهرة من إكرام اللحى، وتقصير الثياب، وارتياد المساجد، وإقامة الدين، ما هي إلا دلائل على التطرف والإرهاب!!

ومن جراء هذه الفتن نكص أقوام من المسلمين على أعقابهم مدبرين؛ فانحرفوا بعد الاستقامة، وضلوا بعد الهداية، وداخل كثيراً من القلوب الشكُ في وعد الله ونصره، بل أصبح الشك عند البعض في الدين كله ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

فكم نحتاج ـ ونحن نذكر الهجرة، ونـطَّلع على موجات البلاء التي مرّ بها خير البشر صلى الله عليه وسلم ـ إلى الهجرة!! كم نحتاج إلى الهجرة إلى الله تعالـى، الهجرة بقلوبنا من علائق الدنيا وفتنتهـا وسرائها وضرائها إلى الخالق سبحانه، وإلى الدارِ الآخرة!!

كم نحتاج إلى تحقيق الهجرة بهجر المعاصي، والإقبال على الطاعات؛ فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام «**المهاجرُ من هجر ما نهاه الله عنه**» أخرجه البخاري(١٢)، وفي لفظ النسائي «**والمهاجر من هجر ما حرم الله عليـه**»(١٣)، وفي حديث آخر قـال : «**والمهاجر من هجر الخـطـايـا والذنوب**» أخرجه أحمد(١٤).

فهل نهاجر إلى الله تعالى بفعل الطاعات واجتناب المحرمـاتِ، والابتعاد عن مواطن الفتن، وكثرةِ الدعاء بحسن الاختيار في البلاء، والثبات على الدين إلى الممات.

---

(١٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠) وأبوداود في الجهاد باب في الهجرة (٢٤٨١).
(١٣) أخرجه النسائي في الإيمان باب صفة المسلم (٨/ ١٠٥).
(١٤) أخرجه أحمد (٦/ ٢١).

فالهجرة طريق المرسلين: هاجر محمد صلى الله عليه وسلم وقبله هاجر موسى بن عمرانَ صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، هاجروا من بطش فرعون وجبروته؛ حتى أنجاهم الله تعالى وأغـرق فرعون وجنده. وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وجد يهود يصومون عاشوراء شكراً لله تعالى على نجاة موسى والمؤمنين وغرقِ فرعون والكافرين، فقال: «**نحن أحق بموسى منكم**» فصامه وأمر بصيامه وصيام يوم قبله أو يوم بعده مخالفـةً لهم؛ فاحرصوا على صيامـه، وصيام يوم قبله أو يوم بعده اقتداء بسنة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

١٢٦- غزوة بدر (١)
حال المسلمين وحال المشركين

١٧/ ٩/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله؛ منَّ على عباده المؤمنين بالنصر المبين، ودحر الكافرين والمنافقين، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ من استنصر به نصره، ومن اعتصم بـه عصمه، ومن استعان به أعانه، ومن توكل عليه كفاه ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣].

وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله؛ أيده الله تعالى بنصره، وأمده بجنده، فقاتل معه الملائكة في بدر، وحرسوه من المشركين في أحد، يقودهم جبرائيل وميكائيل؛ حتى أظهره الله تعالى، وأعز دينه، وأعلى كلمته، فما مات عليه الصلاة والسلام إلا وقد دانت جزيرة العـرب بالإسلام، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبـه ﴿**آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فإن الأيام تمضي، والأعمارَ تنقضي، والناسُ في غفلة وسكرة، وبالأمس كان رمضانُ يأتي، واليوم ينتصف، وغداً ينتهي، والسعيد من عمـر أيامه ولياليه بطاعة الله تعالى، والمغرور من غرته النعم فرتع فيها كما ترتع الأنعام، ثم كفرها بالعصيان، ومن لم يحقق التقوى في رمضان

فمتى يتقي؟! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أيها المؤمنون: في مثل هذا اليوم الأغر، يوم الجمعة السابع عشر من رمضان(١)، وقبل ألف وأربعمائة وثنتين وعشرين سنة(*)؛ أذن الله تعالى بأول نصر في تاريخ هذه الأمة المباركة، وأمد المؤمنين بجنده، وربط على قلوبهم، وثبت أقدامهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان؛ فركبوا المشركين يقتلون فيهم ويأسرون، حتى قتلوا منهم سبعين، فيهم الكبراء والصناديد، وأسروا سبعين، وفر الباقون.

إنه انتصارٌ عظيمٌ في أول منازلة بين الحق والباطل في تاريخ هذه الأمة الخاتمة، وكان لهذا النصر المبين عوامله وأسبابه التي أخذت بها الطائفة المؤمنة؛ فلم يضرهم قلتهم وكثرة المشركين. كما كان لهزيمة المشركين أسبابها، ولم تنفعهم فيها كثرتهم البالغة ضعفي عدد المسلمين.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٨٩): «وأما غزوة بدر في الثانية فمتفق عليه بين أهل السير: ابن إسحاق وموسى بن عقبة وأبي الأسود وغيرهم، واتفقوا على أنها كانت في رمضان، قال ابن عساكر: والمحفوظ أنها كانت في يوم الجمعة، وروي أنها كانت في يوم الاثنين وهو شاذ، ثم الجمهور على أنها كانت سابع عشرة، وقيل: ثاني عشرة، وجمع بينهما بأن الثاني ابتداء الخروج والسابع عشر يوم الوقعة»، وانظر: مصنف ابن أبي شيبة باب غزوة بدر، ومتى كانت، وأمرها (٧/ ٣٥٢) وتحفة الأحوذي (٨/ ٣٧٣).

(*) على الخطيب أن ينتبه لفارق السنوات؛ لأنها هنا وضعت بما يوافق هذه السنة (١٤٢٣هـ) وينتبه أيضاً لليوم السابع عشر.

وبنظرةٍ فاحصة لحال الفريقين يتبين لنا كيف انتصر المؤمنون، وانهزم الكافرون.

أما المؤمنون فقد صدقوا مع الله تعالى، وبرهنوا على صحة إيمانهم، وأثبتوا أنهم اشتروا رضى الله تعالى بأنفسهم وأموالهم؛ إبقاءً على دينهم، وهجرة إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، والأنصار تآخوا في الإسلام، وألقوا شعارات الجاهلية وثاراتها عنهم؛ طاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ثم آسوا إخوانهم المهاجرين، وقاسموهم أملاكهم وأموالهم، ومزارعهم ودورهم حتى همّوا أن يقاسموهم أزواجهم؛ بل وآثروهم على أنفسهم!

إنها تضحيات كبيرة قدمتها الطائفة المؤمنة من مهاجرين وأنصار، ما كانت إلا لغاية واحدة هي: ابتغاء رضوان الله تعالى. والنصر لا يكون إلا من عند الله عزَّ وجلَّ، وهم قد قدموا ثمنه فاستحقوه، وإن كانوا أقل عدداً وعتاداً من عدوهم.

وأمَّا المشركون فقد كذَّبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآذوه، وعذبوا أصحابه، وصدوا عن سبيل الله تعالى، وعادوا أولياءه، حتى اضطروهم إلى الهجرة عن ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم، فكانوا ظالمين معتدين، محاربين لله تعالى، مستجلبين لغضبه وسخطه، وما استفادوا من الآيات، ولا اعتبروا بالنذر التي جاءتهم قبل هلاكهم؛ بل زادتهم الآيات والنذر عتواً ونفوراً وسخريةً بالنبي صلى الله عليه وسلم. فقبل غزوة بدر بأيام رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها،

كان مفادها: أن أشراف قريش وسادتها يقتلون، فتحدثت بها، فسمع بذلك فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام فقال للعباس ابن عبدالمطلب ساخراً: «يا بني عبد المطلب، متى حدّثت فيكم هذه النبيَّة .. ثم قال: أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم!!»(٢).

فما لبثوا إلا ثلاثة أيام حتى جاءهم الصريخُ بأن المسلمين يعترضون أبا سفيان في قافلة لقريش؛ فجمعوا جموعهم، وخرجوا لإنقاذ القافلة التي سلمت، ولكن الله تعالى أراد أن لا يسلم المشركون، فقادهم غرورهم إلى الإصرار على محاربة أولياء الله تعالى؛ كما قال الله تعالى في وصفهم ﴿**خَرَجُوا من ديَارهم بَطَرًا وَرئَاءَ النَّاس وَيَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللَّه وَاللَّهُ بمَا يَعْمَلُونَ مُحيطٌ**﴾ [الأنفال: ٤٧].

وفي مقابل هذا الغرور، والاستكبار عن الحق، والإصرار على القضاء عليه من قبل المشركين؛ كانت الثقة بالله تعالى تملأ قلوب الطائفة المؤمنة حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم من ثقته بربه يحدد مصارع

---

(٢) قصة رؤيا عاتكة في سيرة ابن هشام بإسناد مرسل (١/ ٦٧) وأخرجها الحاكم (٣/ ١٩)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥) برقم: (٨٥٩)، وفي الأحاديث الطوال برقم: (٣٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٠٣ ـ ١٠٥)، وأسانيدها مرسلة، والموصول منها ضعيف، ويرى أحمد باوزير في جمعه لمرويات غزوة بدر ودراستها أن مجموع الأسانيد الموصولة الضعيفة تتقوى بالمراسيل حتى ترفع درجة القصة إلى الحسن لغيره، انظر: مرويات غزوة بدر (١٢٨) وانظر أيضاً: تاريخ الطبري (٢/ ٢٤)، والخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ٣٢٦)، والسيرة الحلبية (٢/ ٣٦٧).

المشركين، ويقول لأصحابه: «**هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله**، قال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه مسلم(٣).

لقد كان المؤمنون متوكلين على الله تعالى، مستعينين به وحده دون من سواه، ورغم أن عدد المشركين يفوقهم بالضعفين بالإضافة إلى التفوق في العتاد والسلاح والمراكب فإن النبي صلى الله عليه وسلم رفض الاستعانة بالمشركين على المشركين مع مسيس حاجته لأي معين؛ ولكنه ما كان ليعصي الله تعالى وهو يطلب عونه، قالت عائشة رضي الله عنها: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَلَ بدر، فلما كان بحرةِ الوَبَرَة أدركه رجل قد كان يُذكر منه جرأةٌ ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تؤمن بالله ورسوله؟**» قال: لا، قال: «**فارجع فلن أستعين بمشرك**» قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة، قال: «**فارجع فلن أستعين بمشرك**»، قالت: ثم رجع فأدركه بالبيداء، قال له كما قال أول مرة: «**تؤمن بالله ورسوله**»، قال: نعم،

---

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه أحمد (٣/ ٢١٩)، ومسلم في الجهاد والسير باب غزوة بدر (١٧٧٩)، وأبو داود في الجهاد باب في الأسير ينال ويضرب ويقرر (٢٦٨١)، والنسائي في الجنائز باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فانطلق**» رواه مسلم(٤).

وحينما كان الشيطان يؤز المشركين على المؤمنين، ويزين لهم أعمالهم، ويقودهم إلى مصارعهم، ويقول لهم: إني جارٌ لكم؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في الخروج، ويكرر فيهم: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**»(٥)، حتى أشاروا عليهم بالخروج، فسر بذلك وبشرهم بنصر الله تعالى لهم.

لقد خرج المشركون يفاخرون بخيلهم، وركابهم، وأعدادهم، وسلاحهم، يرومون زرع المهابة في قلوب غيرهم منهم؛ كما قال أبو جهل لما سلمت القافلة، وهموا بالرجوع إلى مكة، قال: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا،

---

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر إلا لحاجة أو كونه حسن الرأي في المسلمين (١٨١٧)، والترمذي في السير باب ما جاء في أهل الذمة يغزون مع المسلمين هل يسهم لهم (١٥٥٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٠٠).

(٥) روى حديث مشاورته صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم في الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطبراني كما ذكر ذلك الهيثمي في الزوائد وحسنه (٦/ ٧٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٢)، وابن هشام في السيرة (١/ ٦١٤).

فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا»[٦].

بينما خرج المسلمون في غاية الذل لله تعالى، والتواضع والتآخي واقتسام المراكب القليلة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وكانت عَقْبَة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال عليه الصلاة والسلام: **ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**» رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه[٧].

ولما تقابل الجيشان، والتقى الجمعان؛ جاءت النَذارةُ الأخيرةُ للمشركين على يد رجل من أشرافهم وساداتهم وهو عتبة بن ربيعة، فنهاهم عن القتال وقال: «يا قوم، إني أرى قوماً مستميتين، لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جَبُنَ عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم، فسمع ذلك أبوجهل فقال: أنت تقول هذا،

---

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٠/ ١٦)، وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٦).

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٤١١)، وأبو يعلى (٥٣٥٩)، والبزار (١٧٥٩)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٨٦)، والبيهقي (٥/ ٢٥٨)، وصححه ابن حبان (٤٧٣٣)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (٣/ ٢٠)، وقال الهيثمي في الزوائد: «رواه أحمد والبزار وفيه عاصم بن بهدله وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح» (٦/ ٦٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٩٠١).

والله لو غيرك يقول لأعضضته قد ملأتْ رئتك جوفك رعباً، فقال عتبة: إياي تعير يا مُصَفِّر أُسته، ستعلم اليوم أينا الجبان»[٨].

(٨) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه أحمد (١/ ١١٧)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٦٢)، وأبو داود في الجهاد باب في المبارزة (٢٦٦٥)، والبزار (٧١٩)، والبيهقي (٣/ ٢٧٦).
وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٧٧): «هذا سياق حسن، وفيه شواهد لما تقدم ولما سيأتي. . .» وقال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة» مجمع الزوائد (١٦/ ٧٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٩٤٨).
وقول عتبة: «اعصبوها برأسي» يريد الحرب، وهي تؤنث، أو يكون أراد السبة التي تلحقهم بالفرار من الحرب، والجنوح إلى السلم، فأضمرها في الكلام اعتماداً على معرفة المخاطبين بها» اهـ من غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٩٨).
وقول أبي جهل: لأعضضته، أي قلت له: اعضض بأير أبيك، قال في اللسان: «العض باللسان أن يتناوله بما لا ينبغي» (٩/ ٢٥٦) مادة (عضض)، ومنه حديث: «**من تعزى بعزاء أهل الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا**» أي قولوا: اعضض بأير أبيك، ولا تكنوا عن الأير بالهن؛ تنكيلاً وتأديباً لمن دعا بدعوى الجاهلية.
وقول عتبة لأبي جهل: «يا مُصَفِّر أسته»، قال الزمخشري في الفائق (٢/ ٣٤٥): هي عبارة عن الترفه. اهـ.
وقال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٣٦ ـ ٣٧): «رماه بالأبنة، وأنه كان يزعفر استه، وقيل: هي كلمة تقال للمتنعم المترف الذي لم تحنكه التجارب والشدائد. وقيل: أراد يا مضرط نفسه، من الصفير، وهو الصوت بالفم والشفتين، كأنه قال: يا ضراط نسبه إلى الجبن والخوار» اهـ من النهاية، وقال في الدر النثير: «زاد ابن الجوزي: وقيل: كان به برص فكان يردعه بالزعفران» أ هـ.
وقد عير العباس أيضاً أبا جهل بذلك في حديث رؤيا عاتكة لما استهزأ أبو جهل به وبالنساء الهاشميات فقال العباس له: «مهلاً يا مصفر أسته» كما في=

وقال أبو جهل في غرور واستكبار: «انتفخ والله سَحْرُه حين رأى محمداً وأصحابه، إنما محمد وأصحابة كأكلة جزور ولو قد التقينا، فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسدُ لقومه، أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجوههم السيوف» رواه البزار[٩].

= رواية الطبراني في الكبير من حديث عروة مرسلاً (٢٤/ ٣٤٦) برقم: (٨٦٠)، ونقل الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٤٣) عن صاحب الروض قوله: «سادة العرب لا تستعمل الخلوق والطيب إلا في الدعة والخفض، وتعيبه في الحرب أشد العيب، وأحسب أن أبا جهل لما سلمت العير، وأراد أن ينحر الجزور، ويشرب الخمر ببدر استعمل الطيب أو همَّ به فلذلك قال له عتبة هذه المقالة، ألا ترى قول الشاعر في بني مخزوم:

ومن جهلٍ أبو جهل أخوكم ... غـزا بـدراً بمجـمرة وتـور

وقوله: «مصفـراً استه» إنما أراد مصفراً بدنه، ولكنه قصد المبالغة في الذم فخص منه بالذكر ما يسؤوه أن يذكر» قال الصالحي: وهذا الذي قاله مع مخالفته لظاهر اللفظ سبق رده.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه مرسلاً عن عكرمة مولى ابن عباس به (٧/ ٣٥٥) برقم: (٣٦٦٧٨)، والبزار كما في مختصر زوائد البزار للحافظ ابن حجر (١٣٤٩)، من حديث يزيد بن هارون، أنبأنا جرير بن حازم، عن أخيه يزيد بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس.
ونقل الحافظ ابن حجر عن البزار قوله: «ما له إلا هذا الطريق، ولا أسنده إلا يزيد، وحدث به مرة أخرى مرسلاً، ويزيد بن حازم لم يسند إلا هذا الحديث.
وانظر: كشف الأستار (١٧٦٢)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٦) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.
وقول أبي جهل: «انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه»، قد تصحف =

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في غاية الذل والاستكانة لله تعالى، كان ليلة المعركة يلح في دعائه ويناجي ربه ويقول: «**اللهم أنجز**

= في مجمع الزوائد إلى (شجره) وهو خطأ بيّن رواية ومعنى. فالصواب كما في المصنف ومختصر زوائد البزار وكتب السيرة بلفظ: «سحره».

وأما المعنى فلا يستقيم إلا بلفظ (سحره) ويعد كناية عن الخوف والرعب، والسحر هو: الرئة، وقيل: ما لصق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن، وقيل: سواد القلب، انظر: سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٤٢)، وقال الزمخشري في الفائق (٢/ ٣٤٥): «السحر: الرئة، يقال للجبان: انتفخ سحره».

ونقل الخطابي في غريب الحديث (١/ ٣٩٨) عن أبي زيد قوله: «يقال للرجل إذا جبن وانكسر: قد انتفخ سَحْره، قال: والسَحْر: ما تعلق بالحلقوم والرئة».

وقول أبي جهل: «إنما محمد وأصحابه كأكلة جزور»، المعنى: هم قليل يشبعهم جزور واحد.

وقد نقل الصالحي في سيرته (٤/ ٣١) أن المشركين بعثوا عمير بن وهب الجمحي ليحزر لهم عدد المسلمين، فرجع إلى قومه فقال لهم بعد أن أخبرهم بعددهم: «ولكن رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي»، وبعث المشركون أيضاً أبا سلمة الجشمي فطاف بالمسلمين ثم رجع إلى المشركين فقال: «والله ما رأيت جَلَداً ولا عِداداً ولا حَلْقه ولا كُراعاً ولكن رأيت قوماً لا يريدون أن يؤوبوا إلى أهليهم، قوماً مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنها الحصى تحت الحَجَف فروا رأيكم».

وعتبة ما قال لأبي جهل ما قال إلا بإشارة من حكيم بن حزام رضي الله عنه، وكان مشركاً آنذاك، وكان عتبة بن ربيعة كبير قريش وسيدها وهو المطاع فيها، ولكن غلب غرور أبي جهل وإصراره على القتال قول عتبة بن ربيعة فكان من أمرهم ما كان والحمد لله.

لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه، مستقبل القبلة؛ حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سيُنجز لك ما وعدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩](١٠). **فأمدهم الله تعالى بجند من الملائكة يقودهم جبريل وميكائيل**(١١).

---

(١٠) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحمد (١/ ٣٠)، ومسلم في الجهاد باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)، والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨١).

(١١) روى الطبري في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: «نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة».
قال ابن كثير: «وهذا يقتضي إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها؛ ولهذا قرأ بعضهم (مردَفين) بفتح الدال، والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «وأمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمئة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمئة مجنبة» تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩).
قلت: روى الإمام أحمد بسند صحيح (١/ ١٤٧) والبزار (٧٢٩)، والحاكم وصححه، وقال الذهبي: على شرط مسلم (٣/ ١٤٣) من حديث علي رضي الله عنه قال: «قيل لعلي ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو قال: يشهد الصف» هذا لفظ أحمد.

في مقابل هذا الدعاء، والالتجاء إلى الله تعالى؛ كان دعاء المشركين ينضح بالتحدي، ويدل على العلو والاستكبار، قال أبو جهل داعياً: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]» رواه الشيخان(١٢).

وكان استفتاحُ أبي جهل بالدعاء في ذلك اليوم العظيم قوله: «اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لم يُعرف فأَحِنْه الغداة، فبينما هم على تلك الحال خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقةً في العريش ثم انتبه فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل مُعتجرٌ بعمامته، آخذٌ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع، أتاك نصرُ الله وَعِدتُه**» رواه أحمد والحاكم(١٣).

لقد تتابعت النذرات على المشركين فما اعتبروا ولا اتعظوا !! حتى

---

(١٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه البخاري في التفسير باب: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] (٤٦٤٩)، ومسلم في صفة القيامة باب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] (٢٧٩٦).

(١٣) أخرجه من حديث عبد الله بن ثعلبة أحمد (٥/ ٤٣١)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٣٢٨)، ومثله حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**» أخرجه البخاري في المغازي باب شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٥)، وقول أبي جهل (فأحنه الغداة) بفتح الهمزة وكسر الحاء المهملة وسكون النون، أي: أهلكه، وهو من الحين وهو الهلاك. قال في اللسان: والحين بالفتح: الهلاك، وقد حان الرجل: هلك. اهـ من مادة (حين) (٣/ ٤٢٤) وانظر: سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٤١).

كانت النذر تنذرهم إلى آخر لحظة قبل بدء المعركة؛ ولكنهم أصـروا على محادة الله تعالى، ومعاداة دينه، ومحاربة أوليائه، وقد حضرت ساعةُ الحسم، واقترب خـلاصُ المؤمنين، وأوشك هـلاكُ المكذبين، وبدأت المعركة، فعملت سيوفُ المؤمنين مدعومة بمدد الملائكة عملها في رقاب المشركين، وما هي إلا ساعاتٌ حتى تنزل نصر الله تعالى، وقُتل أكثر أئمةِ الكفر والطغيان، وأولهم أبو جهل بن هشام.

عن أبي طلحة رضي الله عنه: «أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يومَ بدرٍ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في طويٍ من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلتِهِ فشُدت عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلقُ إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفى الرَّكي - أي شفير القليب - فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماءِ آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجـدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **والذي نفسُ محمد بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم**. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله؛ توبيخاً وتصغيراً ونقيمة وحسرة وندماً» رواه الشيخان(١٤).

---

(١٤) أخرجه البخاري في المغازي باب قتل أبي جهل (٣٩٧٦)، ومسلم في الجنة وصفتها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٤ ـ ٢٨٧٥).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩ - ١٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشكره على نعمه، شكراً يستجلب رضاه، ويدفع نقمته، وأتوب إليه وأستغفره من كل ذنب يغضبه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أيها الناس: من طبيعة البشر إذا لم يهتدوا بهُدى الله تعالى: العلو والفساد والطغيان، فإذا ما ملكوا قوة من مال واقتصاد، أو سلاح وعتاد؛ بغوا بها على الناس، وأفسدوا في الأرض، ولم يرعوا لله تعالى حرمة، أو يعظموا له شعيرة، وإذا ذُكِّروا لا يتذكرون؛ لأن طغيانهم قد حجب عقولهم عن التذكر؛ كما قال الله تعالى عن المشركين واصفاً حالهم في بدر ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ولكن ما إن ابتدأ القتال، وتنزلت الملائكة، ورآهم الشيطان حتى فرَّ من أرض المعركة، وتبرأ منهم ﴿فَلَمَّا

تَرَاءَت الفِئَتَان نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْه وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾ [الأنفال: ٤٨].

إنها حالة من الغرور بالقوة، والاستضعاف للقلة المؤمنة، تلازم الكافرين المعتدين عبر الزمان وفي كل مكان.

وفي عصرنا هذا تتكرر نفس الصورة التي دائماً ما تحصل بين المؤمنين والكافرين؛ فالكافرون من صهاينة اليهود والنصارى ظلوا عقوداً من السنين يبنون قوة ضاربة؛ ليحكموا بها السيطرة على العالم، وكدسوا في خزائنهم من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي لتدمير الأرض عشرات المرات؛ وذلك لردع كل من يعترض على قانونهم الجائر، ويخرج عن سلطانهم القاهر؛ ولكي يحققوا مشاريعهم الطاغوتية الكبرى، ولو كان ذلك على حساب دماء المسلمين وأموالهم وأراضيهم.

فاليهود يريدون بناء إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، وطرد أهل الأرض منها، وهدم المسجد الأقصى، والاستحواذ على المنطقة فيما يعرف بمشروع الشرق أوسطية.

والقوى الصهيونية الليبرالية النصرانية تريد الاستحواذ على ثروات العالم، وفرض نظامها الرأسمالي الإلحادي على البشر كلهم، وإلغاء دياناتهم، وخصوصيات أخلاقهم وأعرافهم، فيما يعرف بمشروع العولمة والنظام العالمي الجديد.

وكلا القوتين ومن ساندها في بغيها وظلمها قد جاءتهم النذر من بين أيديهم ومن خلفهم، في أكناف بيت المقدس، وفي غيرها من

أرض الله تعالى، ولكن هذه النذر ما نفعتهم؛ لأن غرورهم بقوتهم، واعتدادهم بسلاحهم وكثرتهم قد حجب عقولهم عن التفكر، وكان حالهم كحال مشركي قريش حينما لم تنفعهم النذر، فهل يودون أن يكون مصيرهم مصير صناديد قريش في بدر؟!

إن الصورة تشبه الصورة، والحال مطابق للحال، إلا أن الطائفة المؤمنة في بدر كان عندها من اليقين والإيمان، والتوكل على الله تعالى؛ ما استجلب نصر الله تعالى ومدده بملائكة يقاتلون مع المؤمنين، بعكس حال كثير من المسلمين في هذا العصر؛ إذ ركنوا إلى الذين ظلموا، وضعف يقينهم بالله تعالى، وتوكلهم عليه، وجزعوا على دنياهم، ولم يخافوا على دينهم أن يُبَدّل؛ فوكلهم الله تعالى إلى أنفسهم، وإلى من ركنوا إليهم، فأذلوهم واستضعفوهم، ولم يرقبوا فيهم إلاًّ ولا ذمة. ولا مخرج للمسلمين من هذه الأزمة العظيمة، وهذا التهديد الكبير الذي يهدد دينهم وأخلاقهم ووجودهم إلا بصدق اللجوء إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والتعلق به، وبدايات ذلك التوبة من الذنوب، ومجانبة العصيان.

وإنكم ـ أيها المسلمون ـ تستقبلون عشراً مباركة هي فرصة لتجديد العهد مع الله تعالى، والتوكل عليه، وكثرة دعائه، والالتجاء إليه، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل في بدر.

وهي عشر كان يعتكف فيها النبي صلى الله عليه وسلم، ويجتهد في العبادة فيها أكثر من غيرها؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها:

«كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»[١٥].

ألا فاتقوا الله ربكم، وأروه من أنفسكم خيراً، وألحّوا عليه بالدعاء لإخوانكم المستضعفين، واسألوه الثبات على الدين، وأن يرد كيد الكائدين.

وصلوا وسلموا على خير خلق الله،،،

(١٥) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

١٢٧- غزوة أحد (١) الآيات، والكرامات، والمعجزات

٢٠/ ١٠/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله؛ مالكِ الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء. لا يذل من والاه، ولا يعزُّ من عاداه، وهو على كل شيء قدير. أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا يخرج شيء عن أمره، ولا يعجزه أحد من خلقه، وله الحكمة البالغة في أمره وشرعه، ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ**﴾ [القصص: ٨٨].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبدالله ورسوله؛ في غزوة أحد جرح وجهه، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله**»(١).

(١) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه البخاري معلقاً في المغازي في ترجمة باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، انظر: الفتح (٧/ ٣٦٥)، ومسلم في الجهاد والسير باب غزوة أحد (١٧٩١).
ونحوه حديث سهل رضي الله عنه عند البخاري في المغازي باب ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٤٠٧٥)، ومسلم (١٧٩٠). ومثله أحاديث أخرى عن أبي هريرة وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم.

صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ قوم بذلـوا لله نفوسهم وأموالهم، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فنعم العدة للشدة تقوى الله تعالى، وهي المخرج من الفتن، وهي المنجاة من عذابه تبارك وتقدس ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١]، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١, ٧٢].

أيها المسلمون: كانت غزوة أحد غزوة عظيمة في أحداثها ومجرياتها، عجيبة في آياتها ومعجزاتها، شديدة في ضرائها وابتلاءاتها، غزيـرة في عبرها ودروسها.

وقعت في مثل هذه الأيام في شوال من السنة الثالثة من الهجرة، بعد عام واحد من غزوة بدر التي غشي المشركين فيها ما غشيهم من هزيمة جيشهم، وقتل سادتهم، وذهاب هيبتهم؛ فأجمعوا أمرهم، وجمعوا حلفاءهم، وأعدوا عدتهم، وعزموا على غزو المسلمين في المدينـة، والثأر لما أصابهم في غزوة بدر الكبرى؛ فجرت أحداث عظام في هذه الغزوة المباركة، وظهر صدق الإيمان والتضحية والفداء، وابتلي المسلمون ابتلاءً عظيماً؛ حتى رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وصل إليه المشركون، ونالوا منه، وكانت الصاعقة الكبرى ما أشيع من قتله عليه

الصلاة والسلام؛ ولكن الله تعالى حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم، وثبت قلوب المؤمنين، وتلك من أعظم النعم، وأكبر الآيات والمعجزات التي زخرت بها هذه الغزوة!

لقد أكرم الله تعالى الطائفة المؤمنة في غزوة أحد بآيات عظيمة، وخص نبيه صلى الله عليه وسلم بمعجزات باهرة، كانت معيناً للمؤمنين على ثباتهم رغم هزيمتهم، ومقوية لهم في محنتهم رغم قلتهم وكثرة عدوهم. ولما اشتد الكرب على المؤمنين، وقوي كَلَبُ الكافرين، وتمكنوا من رقاب المؤمنين، وعظم خوف الصحابة رضي الله عنهم من نتائج هذه الغزوة، ودبت الفوضى في أوساطهم، ونالهم من التعب ما نالهم، وعلاهم من الغم ما علاهم، وغشيهم من الكرب ما غشيهم؛ ألقى الله تعالى عليهم النعاس وهو النوم الخفيف؛ لينسيهم غمهم، ويزيل تعبهم، ويجدد نشاطهم، فكان ذلك كرامة من الله تعالى لهم، وسكينة عليهم ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتدَّ علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه في صدره...»(٢).

---

(٢) عزاه البوصيري في مختصر اتحاف السادة المهرة إلى إسحاق بن راهويه (٥٢١٠)، و(٥٢١١)، وسكت عنه، وسكت عنه الحافظ أيضاً في المطالب العالية (٤٢٥٩).

وقال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه» رواه البخاري(٣).

وفي رواية قال أبو طلحة: «رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ من أحد إلا يميد تحت جحفته من النعاس؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ رواه الترمذي(٤).

كان من آيات الله تعالى في هذه الغزوة، وإكرامه لعباده المؤمنين: استجابته تبارك تعالى لدعاء بعضهم، وإعطاؤهم ما سألوا؛ كما روى سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه: «أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله، فخلوا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو، فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حَرَدُه ـ أي غضبه ـ أقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله بن جحش، ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً حَرَدُه، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: يا عبدي، فيم جُدِعَ أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: يا بني، كانت دعوة

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤] (٤٠٦٨)، والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران (٣٠٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٩).

(٤) هذه الرواية للترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران (٣٠٠٧).

عبدالله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط» رواه الحاكم وقال الذهبي: صحيح مرسل(٥).

ولما دعا أحد المشركين على نفسه بالسوء استجاب الله دعاءه، فأصابه العذاب كما روى بريدة رضي الله عنه: «أن رجلاً قال يوم أحد: اللهم إن كان محمداً على الحق فاخسف بي، قال: فخسف به» رواه البزار(٦).

ومن الآيات العظيمة في غزوة أحد: أن الملائكة حضروها، ودافعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما روى الشيخان من حديث سعد رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشدِّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد»(٧).

وقد ذكر العلماء أن الملائكة كانوا لحراسة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى قد وعد المؤمنين بأنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة

---

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، وابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ١٩٥)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٦٣)، والحاكم مرسلاً وقال: صحيح على شرطهما لولا إرساله، وقال الذهبي: صحيح مرسل (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٩/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

(٦) أخرجه البزار كما في كشف في الأستار (١٧٩٩)، وقال الهيثمي في الزوائد: ورجاله رجال الصحيح (٦/ ١٢٢).

(٧) أخرجه البخاري في المغازي باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، (٤٠٥٤)، ومسلم في الفضائل باب قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٢٣٠٦).

آلاف من الملائكة مسومين، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم، وتركوا مصافهم، وترك الرماة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يبرحوا منازلهم رفع الله عنهم مدد الملائكة، فصدقهم الله وعده، وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء[٨].

وبقي من بقي من الملائكة للدفع عن النبي صلى الله عليه وسلم وحفظه من العدو.

ومن أعمال الملائكة في أحد: أنهم غسلوا من كان جنباً من الصحابة رضي الله عنهم؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن حنظلة ابن أبي عامر: «**إن صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا صاحبته**»، فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لذلك غسلته الملائكة**» رواه الحاكم[٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أصيب حمزة بن عبدالمطلب وحنظلة بن الراهب وهما جنب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(٨) رواه البيهقي عن عروة، وقال مجاهد: «لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر» قال البيهقي: «مراده لم يقاتلوا يوم أحد عن القوم، عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يصبروا على أمرهم به». انظر: الدر المنثور للسيوطي (٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، وسبل الهدى والرشاد للصالحي (٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٩) أخرجه من حديث عبد الله بن الزبير البيهقي (٤/ ١٥)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، والطبراني في الكبير بنحوه، وحسنه الهيثمي في الزوائد (٣/ ٢٣).

«**رأيت الملائكة تغسلهما**» رواه الطبراني بإسناد حسن[١٠].

وأظلت الملائكة عبد الله بن حرام رضي الله عنه؛ كما روى ابنه جابرٌ رضي الله عنه قال: «لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهوني عنه وهو لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**تبكين أو لا تبكين، فما زالت الملائكة تُظلُّهُ بأجنحتها حتى رفعتموه**» رواه الشيخان[١١].

وكان رضي الله عنه حريصاً على الشهادة، طالباً لها، صادقاً في طلبه إيَّاها، قال جابر: «لَمَّا حضر أحدٌ دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإني لا أترك بعدي أعزَّ عليَّ منك، غير نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن عليَّ ديناً فاقض، واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هُنَيَّةً غير أذنه» رواه البخاري[١٢].

---

(١٠) أخرجه الطبراني في الكبير، وحسنه الهيثمي (٣/ ٢٣).

(١١) أخرجه البخاري في الجنائز باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (١٢٤٤)، ومسلم في الفضائل باب من فضائل عبدالله بن عمرو بن حرام (٢٤٧١).

(١٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلة؟ (١٣٥١)، و (١٣٥٢)، والحاكم (٣/ ٢٠٣).

وقد أكرمه الله تعالى بكرامة عظيمة، قال جابر رضي الله عنه: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا جابر، مالي أراك منكسراً؟** قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً وديناً، قال: **أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟** فقال: بلى يا رسول الله. قال: **ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي، تمن عليَّ أعطك. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية، فقال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب، فأبلغ من ورائي، قال الله تعالى:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ رواه الترمذي وابن ماجه[١٣].

ومن أعظم الآيات في هذه الغزوة: مصير قتلى الصحابة رضي الله عنهم، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله عزَّ وجلَّ أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيِّبَ مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يُبلِّغ إخواننا عنَّا أنا أحياءٌ في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله عزّ وجلَّ: أنا أبلغهم عنكم؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

---

(١٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران وحسنه (٣٠١٠)، وابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية واللفظ له (١٩٠)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٠٤٣)، والطبري في تفسيره (٤/ ١٧٣).

قُتلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح(١٤).

أيها الإخوة: كانت تلك بعض الآيات والكرامات التي منَّ الله تعالى بها على المؤمنين في هذه الغزوة العظيمة. وآياتها عظيمة، وكراماتها كثيرة، وما لا نعلمه منها أكثر وأكثر. ورغم مصاب المسلمين فيها فإن فيها خيراً عظيماً لهم بما ناله الشهداء منهم من الدرجات والمنازل العالية عند ربهم، وبما استفاده الأحياء منهم من الدروس والعبر، وفي مقدمة ذلك: التزام الطاعة، والبعد عن المعصية التي كانت من أهم أسباب الهزيمة.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يعزَّ دينه، ويعلي كلمته، وينصر عباده المؤمنين، إنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك

---

(١٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٥)، والآجري في الشريعة (٣٩٢)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٦٦٧) وأبو داود في الجهاد باب فضل الشهادة واللفظ له(٢٥٢٠)، والطبري في تفسيره (٤/ ١١٣)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/ ٨٨).

عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، واستقيموا على أمره، ولا تغرنكم الدنيا وزخرفها، ولا يغرنكم بالله الغرور.

أيها المؤمنون: من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يجعل المحن والابتلاءات فرصة لمراجعة أنفسهم، وتصحيح أخطائهم، وتجديد العهد مع ربهم؛ فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

ولقد كانت معصية الرماة سبباً للهزيمة في أحد؛ إذ أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بعدم مبارحة أماكنهم مهما كان الأمر، فتركوا مواقعهم، ورأوا أن النصر تحقق، واشتغلوا بجمع الغنائم؛ فجاءهم عدوهم من حيث لم يحتسبوا، وانقلب ميزان المعركة، وتحول النصر إلى هزيمة؛ ليعلم المسلمون خطورة المعصية، وخطورة الأثرة بالرأي والفعل.

وعزا الله تعالى هذه المصيبة التي أصابتهم إلى أنفسهم؛ لأنها كانت بسبب ما كسبوا من العصيان الذي هو أكبر سبب للهزيمة في المعارك فقال سبحانه: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فهو سبحانه وتعالى كان قادراً على نصرهم، بدليل إنزاله الملائكة معهم للقتال، وبدليل نصرهم على المشركين في بدر ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ولكن طائفة منهم - هي طائفة الرماة - رضي الله عنهم، غيروا وبدلوا، وعصوا

أميرهم الذي ثبت في نفر قليل، وكان ينهاهم عن ترك مواقعهم، فزال بمعصية الرماة سبب من أسباب تنزل نصر الله تعالى، وهو الطاعـة، وحلَّت محله المعصية، فتخلف النصر، وأحجم الملائكة عن القتال مع المؤمنين بسبب هذه المعصية، فكانت الهزيمة.

فإذا كان النصر قد تخلف في غزوة أحد بسبب معصية واحدة؛ فهل يستحق المسلمون النصر على أعدائهم، وتأييد الله تعالى لهم وفيهم من العصاة ألوف بل ملايين، وفيهم من أنواع المعاصي والموبقات ما لا يعلمه إلا الله تعالى؟! معاص في البيوت والأسواق، معاص في الرجال والنساء، معاص في الشيب والشباب، معاص في الإعلام والتعليم والسياسة والاقتصاد، وفي كثير من شؤونهم.

إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، ولن يحابـي أحداً من خلقه مهما عظمت منزلته، فعدله ـ وهو العدل تبارك وتعالى ـ يأبى ذلك، وقد جعل في الكون سنناً لا تحابي أحداً من الناس، وقوانين لا تجامل كائناً من كان، ومن هذه السنن: أن المستحق لنصر الله تعالى هو من يقيم دينه، وينصر شريعته، ويلتزم طاعته؛ ويباعد عن معصيته، فمن حقق ذلك نصره الله تعالى سواء كان شريـفـاً أم وضيعاً، قريباً كان أم بعيداً، وسواء كان جيشه كثيراً أم قليلاً.

وكم تحتاج الأمة المسلمة في هذا العصر الذي تكالبت فيه عليها اللأواء والمحن، واجتمع الشر كله من كفار ومنافقين؛ لإنهاء حياتها بإقصاء دينها، وفرض الكفر والنفاق عليها، تحتاج إلى صدق التوجه

إلى الله تعالى، وترك المعاصي والمحرمات، والاجتهاد في الطاعات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى؛ حتى لا نكون نحن سبباً في تخلف نصر الله تعالى عن الأمة المسلمة، فمن نصر دين الله تعالى، استحق النصر العظيم، والفتح المبين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وإن اختار المسلمون طريقاً غير ذلك، فبقوا على عصيانهم، وتخلفوا عن طاعة ربهم؛ فإن العاقبة ستكون أليمة، والمصيبة عظيمة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

فانصروا الله ـ عباد الله ـ بإقامة دينه، والتزام طاعته، والبعد عن معصيته؛ ينصركم على أعدائكم. أصلحوا بيوتكم وأولادكم، وانشروا الصلاح فيما بينكم فإنكم إن حققتم ذلك نصرتم على عدوكم، وإن حققه بعضكم، وتخلف الآخرون؛ فقد برئت ذمة الذين أصلحوا أنفسهم، ولن يعذبهم الله في الآخرة بذنوب غيرهم.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد، كما أمركم بذلك ربكم..

١٢٨- غزوة أحد (٢)
الابتلاءات والمصائب

٢٣/ ١٠/ ١٤٢٣هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: لم يجعل الله تعالى الدنيا دار نعيم لأوليائه، ولا مستقراً دائماً لعباده؛ ولكنه أرادها بحكمته دار ابتلاء واختبار وتمحيص، يمحصُ عباده بالبلايا، ويختبرهم بالمحن، ويبتليهم بالضراء؛ ليظهر الصادقُ من الكاذب، ويتمايز الخبيث من الطيب، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن

يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١].

إنها ابتلاءات ومحن ذاق مصيبتها وألمها خير الناس، وأفاضل الخلق من النبيين والمرسلين، وأتباعهم المؤمنين المستضعفين، ولم يسلم من البلاء والمحنة خيارُ هذه الأمة الخاتمة: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وكان من عظيم ما مرَّ بهم من بلاء، وما أصابهم من مصيبة: ما وقع عليهم في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة[1]، حينما تسلط كفارُ مكة وحلفاؤهم عليهم، وغزوهم في ديارهم؛ فكانت وقعة أحد التي كانت مصيبتها شديدة، ومحنتها أليمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم.

سمى الله تعالى ما أصابهم في هذه الغزوة من قتل وجراحات مصيبة، ونسب سبب هذه المصيبة إلى أنفسهم؛ لأن الرماة عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ما كان من قدر الله تعالى الذي قدَّره على عباده المؤمنين، وكان في هذا الابتلاء من الخير العظيم ما

(١) كانت غزوة أحد يوم السبت النصف من الشوال في السنة الثالثة من الهجرة، انظر: مغازي الواقدي (١/ ١٩٩)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٦)، وتاريخ خليفة (٩٧)، وسيرة ابن إسحاق (٣٢٤)، وتفسير الطبري (٤/ ٧٠)، والمعجم الكبير للطبراني (٣/ ١٤١)، برقم: (٢٩٢٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٢٤)، ورجاله ثقات.

كشف نفاق كثير من المنافقين، قال الله تعالى في شأن هذه المصيبة التي نزلت بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضي الله عنهم: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: ١٦٥ -١٦٧].

كانت بوادر المصيبة قبل وقوعها في رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم قبل الغزوة، روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**رأيت في سيفي ذي الفقار فلاً، فأولته فلاً يكون فيكم** - أي انهزاماً - **ورأيت أني مردفٌ كبشاً فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة، ورأيت بقراً تذبح، فبقر والله خير، فبقر والله خير**، فكان الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه أحمد والترمذي(٢).

---

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٧١)، واللفظ له، والترمذي في السير باب النفل (١٥٦١) وحسنه، وابن ماجه في الجهاد باب السلاح (٢٨٠٨)، والبيهقي (٧/ ٤١)، والطبري في تفسيره (٤/ ١٦٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ١٢٨)، وحسنه ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١١)، وصححه الساعاتي في الفتح الرباني (٧/ ٢٢١)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٤٤٥)، وكبش الكتيبة المذكور في الحديث هو: عثمان بن أبي طلحة حامل لواء المشركين كما جاء مصرحاً به في رواية الطبري.

وفي الطبقات (٢/ ٤٠)، أنه طلحة بن أبي طلحة، وقد بارزه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح، واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد**» رواه الشيخان[٣].

لقد كان من بدايات ابتلاءات غزوة أحد ومصيبتها ما فعله المنافقون من التخذيل والإرجاف، وانخذالهم من الجيش، ورجوعهم عن الغزو في ساعة حرجة عصيبة، يقودهم في إرجافهم وانخذالهم من الجيش عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي كان يقول وهو يخذل: «ما ندري علام نقتلُ أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن تبعه من قومه من أهل الريب والنفاق، فأتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يناصحهم وينشدهم الرجوع ويقول: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عند من حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكن لا نرى أنه يكون قتال، قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه»[٤].

---

(٣) أخرجه البخاري في المغازي باب من قتل من المسلمين يوم أحد (٤٠٨١)، ومسلم في الرؤيا باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم (٢٢٧٢).

(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ١٠)، والاكتفاء للكلاعي (٢/ ٦٧)، وتفسير الطبري (٤/ ١٦٨)، وتاريخه (٢/ ٦٠)، والبداية والنهاية (٤/ ١٣)، والسيرة الحلبية (٢/ ٤٩٤).

وعلى إثر انسحاب المنافقين كادت أن تنسحب قبيلتان من الأنصار عن القتال؛ ولكن الله تعالى ثبتهم فبقوا. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآية فينا ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا**﴾ [آل عمران: ١٢٢] بني سلمة وبني حارثه، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾» رواه الشيخان(٥).

مضى الجيش بعد انسحاب المنافقين إلى أرض المعركة، ورصَّ النبي ﷺ الصفوف، وقسم المهمات، ووضع الرماة على الجبل وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»(٦).

وبدأت المعركة، والتحم الجيشان، وانتصر المسلمون، ولكن الرماة بارحوا أماكنهم، واشتغلوا بجمع الغنائم، فالتفت خيالة المشركين عليهم من ورائهم، قال الزبير بن العوم رضي الله عنه: «والله إني لأنظر يومئذ إلى خَدَم النساء مشمرات يسعين حين انهزم القوم، وما أرى دون أخذهن شيئاً، وإنا لنحسبهم قتلى ما يرجع إلينا منهم أحد. . فوالله إنا لكذلك

---

(٥) أخرجه البخاري في المغازي باب: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا**﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٤٠٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل الأنصار (٢٥٠٥).

(٦) أخرجه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه البخاري في المغازي باب غزوة أحد (٤٠٤٣)، وأبو داود في الجهاد باب في الكمناء (٢٦٦٢) واللفظ له، وأحمد (٤/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).

قد علوناهم، وظهرنا عليهم؛ إذ خالفت الرماة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون الأمتعة، فأتتنا الخيـلُ فحطمتنا، وكرَّ الناس منهزمين، فصرخ صارخ يرون أنه الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، فأعظم الناس، وركب بعضهم بعضاً، فصاروا أثلاثـاً: ثلثاً جريحاً، وثلثاً مقتولاً، وثلثاً منهزماً»[٧].

ونال النبي صلى الله عليه وسلم نصيبه من ابتلاءاتها ومصيبتها؛ فجرح صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول: «**كيف يفلح قومٌ شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله**، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران:١٢٨]» رواه الشيخان[٨].

(٧) أخرجه إسحاق بن راهويه من حديث وهب بن جرير بن حازم حدثنا أبـي قال: سمعت محمد بن إسحاق يقول: حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فذكره كما في المطالب العالية لابـن حـجـر، وقال: هذا إسناد صحيح له شاهد في الصحيح من حديث البراء (٤٢٥٧)، وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٤٥٦٢)، والمقصود بخدم النساء: خلاخيلهن التي في أرجلهن، وهو جمع (خَدَمَة) ويجمع على (خِدَام) كما في النهاية (٢/ ١٥)، والقاموس (١٤٢١) مادة (خدم).

(٨) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه البخاري معلقاً في المغازي باب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، من حديث حميد الطويل وثابت (الفتح ٧/ ٤٢٢)، وحديث حميد وصله أحمد (٣/ ٩٩) والترمذي في تفسير القرآن باب من سورة آل عمران (٣٠٠٢ ـ ٣٠٠٣)، وابن ماجه في الفتن باب: الصبر على البلاء (٤٠٢٧)، وأما حديث ثابت فوصله مسلم في الجهاد والسير باب غزوة أحد (١٧٩١).

لقد أصاب المسلمين شدةٌ شديدة، وكربٌ عظيم لما سمعوا بإشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، ورأى منهم من رأى وجهه يدمى، واضطربت صفوفهم، وركبهم المشركون يقتلون ويجرحون، وصار المسلمون يضارب بعضهم بعضاً خطأً من شدة ما نزل بهم من ألم المصيبة، وعظيم البلاء.

روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «لما كان يوم أحد هُزم المسلمون فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أي عباد الله، أُخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله، أبي، أبي. قالت: فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم»(٩).

فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَدِيَه فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً(١٠).

وبلغ من شدة مصيبة هذه الغزوة، وما لحق المسلمين فيها من ألم أن علياً رضي الله عنه ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رفع إلى السماء، قال رضي الله عنه: «لما انجلى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نظرت إلى القتلى فلم أر رسول الله صلى الله عليه

---

(٩) أخرجه البخاري في المغازي باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٤٠٦٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٧٤٣)، والبيهقي (٨/ ١٣١).

(١٠) هذه الزيادة لابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢/ ٨٧ ـ ٨٨)، وأخرجها دون الجملة الأخيرة «فزاده ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً» أحمد في المسند (٥/ ٤٢٩)، والحاكم (٣/ ٣٨٠).

وسلم فيهم، فقلت: والله ما كان ليفر، وما أراه في القتلى، ولكن أرى اللهَ غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه صلى الله عليه وسلم، فما فيَّ خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي، ثم حملته على القوم فأفرجوا إلي فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه أبو يعلى بإسناد حسن[(١١)].

ومع إصابة النبي صلى الله عليه وسلم بالجراحات، ومقتل جمع من أصحابه رضي الله عنهم فإنه أصيب أيضاً بمقتل عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، روى كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد: «**من رأى مقتل حمزة؟** فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله، فقال: **فانطلق وأرناه**، فخرج حتى وقف على حمزة، فرآه قد شُق بطنه، وقد مُـثِّل به، فقال: يا رسول الله، مُـثِّل به والله، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينظر إليه، ووقف بين ظهراني القتلى فقال: **أنا شهيد على هؤلاء، كفنوهم في دمائهم، فإنه ليس جرح يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يدمى، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرآناً فاجعلوه في اللحد**»[(١٢)].

---

(١١) أخرجه أبو يعلى (٥٤٦)، وحسنه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٤٥٧١).

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (٥٠٢)، وفي مصنفه (٧/ ٣٧٢)، برقم: (٣٦٧٨٧)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والبيهقي (٤/ ١١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٣)، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٤٥٧٦): رواته ثقات.

اللهم ارض عن شهداء أحد، وعن الصحابة أجمعين، وعن شهداء المسلمين في كل زمان ومكان، واحشرنا في زمرتهم يا رب العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واثبتوا ـ عباد الله ـ على دينكم، واشكروا في النعماء، واصبروا في البلاء.

أيها الإخوة المؤمنون: لقد كان من ابتلاءات غزوة أحد كثرة القتلى وقلة الثياب، قال أنس رضي الله عنه: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة يوم أحد فوقف عليه فرآه قد مُثِّل به، فقال: **لولا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى تأكله العافية حتى يحشر من بطونها،** قال: ثم دعا بنمرة فكفنه فيها فكانت إذا مُدَّت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مُدَّتْ على رجليه بدا رأسه، قال: فكثر القتلى، وقلَّت الثياب،

قال: فكُفن الرجل والرجلان والثلاثة في الثوب الواحد، ثم يدفنون في قبر واحد»[١٣].

وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: «أنه أُتي بطعام، وكان صائماً، فقال: قُتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كفن في بردة، إن غُطي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقُتل حمزة وهو خير مني، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام» رواه البخاري[١٤].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نريد وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير قتل يوم أحد، وترك نمرة، فكنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه، ونجعل على

---

(١٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، وأبو داود في الجنائز باب في الشهيد يغسل (٣١٣٦)، والترمذي في الجنائز باب ما جاء في قتلى أحد وذكر حمزة وحسنه (١٠١٦)، واللفظ له، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٧)، برقم (٣٦٧٥٢)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٤)، والدارقطني (٤/ ١١٦)، والبيهقي (٤/ ١٠)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ١٩٦)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٤٤)، برقم: (٢٩٣٩).

(١٤) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة أحد (٤٠٤٥)، وابن المبارك في الجهاد (١/ ٨٣) برقم: (٩٦).

رجليه شيئاً من الإذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبهـا» رواه الشيخان[١٥].

وبعد انتهاء المعركة، ورغم ما أصابهم فيها من ألم المصيبة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «**استووا حتى أثني على ربي**، فصاروا خلفه صفوفاً، ووقف طويلاً يثني على الله تعالى بما هو أهل له»[١٦].

إن ألم المصيبة، والجراحات التي نالته، وشدة الفاجعة بعمه حمزة وبأصحابه رضي الله عنهم ما أنساه نعم الله تعالى عليه، وعلى البقية الباقية من المؤمنين، وهي نعم كثيرة ليست هذه المصيبة أو غيرها من المصائب توازيها أو تدانيها. ثم إن ما أصابهم كان بمعصية منهم؛ كما قال سبحانه: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وهكذا يجب أن يكون حال المؤمن إذا أحاطت به الابتـلاءات، وعظمت في حقه المصائب والنكبات أن ينظر إلى نعم الله تعالى عليه، ويقارنها بما أصابه؛ حتى يشكر الله تعالى على نعمه، ويصبر علـى مُصابه، ثم ليبحث عن أسباب هذه المصائب والابتلاءات فإنه سيجد

---

(١٥) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة (٣٨٩٧)، ومسلم في الجنائز باب كفن الميت (٩٤٠).

(١٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩)، والنسائـي في عمل اليوم والليلة (٦٠٩)، والطبراني في الكبير (٥/ ٤٧) برقم: (٤٥٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٣٨).

أنها من عند نفسه بسبب ذنوب أصابها، أو حقوق ضيعها؛ فتكون تلك المصائب والابتلاءات تمحيصاً لذنوبه، وتكفيراً لسيئاته؛ كما قال الله تعالى في سياق الحديث عن ابتلاء المؤمنين ومصيبتهم في غزوة أحد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

ألا فاتقوا الله ربكم، واشكروه على نعمه، واصبروا على ابتلاءاته، واعبدوه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون والمنافقون.

وصلوا وسلموا على نبيكم، كما أمركم بذلك ربكم،،،

١٢٩- سرية بئر معونة

١٦/ ٢/ ١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: في زمن الهوانِ والانكسارِ، وعندما تحيط المصائب والنكبات بالمسلمين، ويتسلط عليهم أعداؤهم من كفار ومنافقين؛ فإن الواجب على المسلم في مثل تلك الأحوال أن يعتني بصلاح قلبـه، ورباطةِ جأشه، وثبـاتِه على دينه، وقـوتِه في الحق؛ لئلا يزيـغَ مـع

الزائغين، ويهلك مع الهالكين.

ومما يعين على ثبات القلب، وسلامته من الفتنة، وصبره على البلاء: مطالعة أخبار الثابتين على الحق، المستسلمين لأمر الله تعالى وحكمه، الراضين بقضائه وقدره، المقرين بعلمه وحكمته، الموقنين بوعده ونصره؛ فإن سير هؤلاء الرجال تدفع المسلم إلى التأسي بهم في ثباتهم ويقينهم.

وكم في تاريخ الأمة المسلمة من رجال واجهوا المحن والبلايا بالثبات والصبر، واليقين بوعد الله تعالى ونصره، حتى وافتهم المنايا وهم لم يبدلوا دينهم، أو ينتكسوا على أعقابهم. حالهم كحال الصالحين من أتباع النبيين والمرسلين الذين حكى القرآن قصصهم، وأمر الله تعالى بالتأسي بهم في ثباتهم وصبرهم.

وإن كان المؤمنون يحزنون لما أصاب الأمة المسلمة من الضعف والمهانة، ومن تسلط الكافرين عليها، وشماتة المنافقين بها؛ فإن هذا الحزن قد أصاب خيار الأمة؛ ولكنه ما فتَّ في عضدهم، ولا وهن عزيمتهم، ولا أضعفهم عن القيام بحق الله تعالى عليهم من الإيمان والدعوة ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].

ولما توقف الصحابة رضي الله عنهم عن مقاتلة المشركين في أحد

بعدما سمعوا الصارخ يصيح بأن محمداً قد قتل عاتبهم الله تعالى، وعذلهم على فرارهم وتركهم القتال، فقال سبحانه يخاطبهم: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ثم أخبر سبحانه عن أحوال الأنبياء السابقين، ومدح ثباتهم على الحق رغم ما أصابهم من عظيم المحنة والبلاء، والقتل والتشريد، فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قال قتادة: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي: بقتل نبيهم، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: فما ارتدوا عن نصرتهم، ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله تعالى حتى لحقوا بالله وما ذلوا لعدوهم[1] وما كان قولهم في حال شدتهم: ﴿إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨]، وثواب الدنيا الذي آتاهم الله تعالى إياه هو النصر والظفر وحسن العاقبة، فجمع لهم بين المثوبتين، ونالوا الحسنيين، نسأل الله تعالى أن يجعلنا كذلك، وأن يلحقنا بهم، إنه سميع مجيب.

أيها الإخوة: وكما ثبت قوم صالحون من الأمم الماضية على دينهم فإن رجالاً صالحين من هذه الأمة ثبتوا كذلك؛ ففي شهر صفر من

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦١٥)، عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة آل عمران.

السنة الرابعة للهجرة[٢]، وقعت حادثة لجمع من خيار الصحابة وقرائهم رضي الله عنهم وأرضاهم، لقوا فيها ربهم، وهم ثابتون على دينهم، موقنون بوعد ربهم لهم.

إنهم جمعٌ من الصحابة بلغوا سبعين صحابياً، كانوا من زهَّادِ الصحابة، ومن خيار المسلمين وفضلائهم، كان الصحابة يسمونهم القراءَ؛ لكثرةِ قراءتهم للقرآن، وتهجدهم به في الليل.

كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، ويضعون الماء في المسجد للمسلمين، ويطعمون فقراء الصحابة من طيب كسبهم؛ جرت عليهم محنةٌ عظيمة، وابتلاء كبير، وغدر بهم المشركون، فثبتوا على دينهم حتى لقوا الله تعالى غير مبدلين ولا مغيرين.

وملخصُ خبرهم: أن أبا براء عامر بن مالك المدعو «ملاعب الأسنَّة» قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فأبى أن يسلم ولم يَبْعُد، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ رجوت أن يستجيبوا لك، ويتبعوا أمرك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إني أخاف عليهم أهل نجد**» فقال: أنا جارٌ لهم أن يعرض لهم أحد، فبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين من الأنصار شببةً يسمون القراء، وأمَّر عليهم المنذرَ بن عمرو الساعدي، فلما نزلوا ببئر معونة عسكروا بها، وسرَّحَوا ظهرهم، وبعثوا حرامَ بن ملحانَ رضي الله عنه بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

---

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٤٦).

عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعن حراماً بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه، ورأى الدم، قال حرام: «فـزتُ ورب الكعبة».

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقين فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عُصَيَّة ورِعْلٌ وذكوان، فجاؤوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعبَ بن زيد بن النجار فإنه ارتُثَّ بين القتلى ـ أي حمل من أرض المعركة جريحاً ـ(٣)، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضَمْري والمنذر بن عقبة بن عامر في سَرْح المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذرُ فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأُسر عمرو بن أمية الضَمْري، فلما أخبر أنه من مضر جزَّ ابن الطفيل ناصيته، وأعتقه عن رقبةٍ كانت على أمه(٤).

---

(٣) قال الخطابي في غريب الحديث (٢/ ٢١١): «قوله: ارتث معناه: حمل من المعركة مثخناً»، وقال القاسم بن سلام في غريب الحديث (٤/ ٣٧٨): «هو أن يحمل من المعركة وبه رمق، فإن حمل ميتاً فليس بارتثاث» ا هـ. وانظر: الفائق للزمخشري (٢/ ٣٧)، والنهاية لابن الأثير (٢/ ١٩٦).

(٤) قصتهم أخرجها الشيخان: البخاري في المغازي باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة... (٤٠٨٨ ـ ٤٠٨٩ ـ ٤٠٩٠ ـ ٤٠٩١ ـ ٤٠٩٢ ـ ٤٠٩٣ ـ ٤٠٩٤ ـ ٤٠٩٥ ـ ٤٠٩٦)، ومسلم في الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد (٦٧٧)، والسياق الذي أوردته مأخوذ من مجموع الروايات، بالإضافة إلى زيادات من طبقات ابن سعد (٢/ ٤٠ ـ ٤١)، وزاد المعاد لابن القيم (٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨).

وقد وقعت كرامة لأحد القتلى رآها عدو الله عامر بن الطفيل فقد جاء في صحيح البخاري ان ابن الطفيل لما أسر عمرو بن أمية الضَمْري أشار إلى أحد القتلى فقال: «من هذا؟، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهيرة، فقال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع»[٥]، وجاء في رواية أخرى أن قاتله أسلم وقال: «دعاني إلى ذلك ما رأيت من عامر بن فُهيرة»[٦].

وقد تأثر النبي صلى الله عليه وسلم لمقتلهم حتى قال أنس رضي الله عنه: «فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجَدَ على شيء ما وجد عليهم»[٧]؛ فقد كان عددهم يوازي عدد قتلى أحد، إضافة إلى أنهم من القرّاء العبّاد، وقد قتلوا غدراً وغيلة؛ ولذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم على قَتَلَتهم شهراً كاملاً؛ كما جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه خبر مقتل أصحابه وغدر بني سليم بهم قنت شهراً يدعو في الصبح على أحياءٍ من أحياء العرب، على رِعْلٍ وذكوانَ وعُصَيَّه وبني لِحْيَان»[٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء

---

(٥) هذه الرواية للبخاري برقم (٤٠٩٤).
(٦) فتح الباري (٧/ ٤٥١).
(٧) هذه الرواية للبخاري في الدعوات باب الدعاء على المشركين (٦٣٩٤).
(٨) هو حديث أنس في قصتهم المخرج في هامش (٤).

والصبح، في دبر كل صلاة، إذا قال: سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو عليهم، على حي من بني سليم، على رعل وذكوان وعصيَّة، ويؤمِّن مَنْ خَلْفَه» رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي(٩).

وقد أخذ العلماء من ذلك مشروعية القنوتِ في الصلوات الخمس في النازلة العظيمة تنزل بالمسلمين، كما أخذوا مشروعية الدعاء على المشركين المحاربين.. وهذا فيه ردٌّ على من زعم أن الدعاء للمشركين بالهداية أولى من الدعاء عليهم بالهلاك والعذاب؛ كما يردده بعض من لا علم عنده من الصحفيين وأشباههم، ينتقدون من يدعون عليهم. وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليترك الأولى إلى غيره.

والهَدْيُ النبوي في ذلك هو أكمل الهدي، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم ويدعو عليهم، وموجبات الدعاء عليهم التي وجدت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم موجودةٌ في عصرنا هذا، وهي عداوتهم لأهل الإسلام. وأحكام ديننا ومعاملتنا مع غيرنا قد جاء تفصيلها في الكتاب والسنة، فلا نحتاج في معرفتها إلى آراء جهلة، وأهواءِ ذوي هوىً لا يعرفون شريعة الله تعالى، وقد صح عن النبي

---

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢) واللفظ له، وأبو داود في الصلاة باب القنوت في الصلوات (١٤٤٣) وصححه ابن خزيمة (٦١٨) والحاكم وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي (١/ ٢٢٥)، وصححه النووي في المجموع (٣/ ٤٨٢).

صلى الله عليه وسلم أنه دعا على أهل الأحزاب بالنار وبالزلزلة والهزيمة، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً**»[١٠]، وقال: «**اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[١١]، ودعا على أهل مضر بالجوع فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**اللهم اشدد وطأتَكَ على مضر، اللهم سنين كسني يوسف**»[١٢]، ودعا على أحياء من العرب، ودعا على أشخاص من صناديد المشركين سماهم بأسمائهم ولعنهم في دعائه[١٣]؛ فكل ذلك مشروع ومن هديه وسنته المحفوظة، وقد بوب البخاري رحمه الله تعالى على هذه الأحاديث بقوله: «باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة»[١٤].

(١٠) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه البخاري في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣١)، ومسلم في المساجد باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٧).

(١١) أخرجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى البخاري في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣٣)، ومسلم في المساجد باب استحباب القنوت في جميع الصلوات (٦٧٥).

(١٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣٢)، ومسلم في المساجد باب استحباب القنوت في جميع الصلوات (٦٧٥).

(١٣) وذلك مثل دعائه على أبي جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف... كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند البخاري في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣٤)، ومسلم في الجهاد باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤).

(١٤) وذلك في كتاب الجهاد والسير باب رقم (٩٨)، وفي كتاب الدعوات أيضاً باب رقم: (٥٨).

ولو ظن أنه إن دعا عليهم يدعون على المسلمين فإنه لا يترك الدعاء عليهم لأجل ذلك؛ لما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا**» وفي لفظ: «**يُستجاب لنا فيهم، ولا يُستجابُ لهم فينا**»(١٥)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ففيه مشروعية الدعاء على المشركين ولو خشي الداعي أنهم يدعون عليه»(١٦).

وكما كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسنته الدعاء على المحاربين من المشركين فإن من سنته أيضاً الدعاء للمسالمين منهم بالهداية إذا كان يرجو إسلامهم، ويطمع في هدايتهم؛ كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه دعا لدوس(١٧)، ودعا لأم أبي هريرة رضي الله عنهما(١٨)، وقد بوب البخاري على ذلك بقوله: «باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم»(١٩).

---

(١٥) أخرجه مسلم في السلام باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٦)، وأحمد (٣/ ٣٨٣)، واللفظ الآخر لإسحاق بن راهويه في مسنده (١٦٨٥).

(١٦) فتح الباري (٦/ ١٢٥).

(١٧) جاء ذلك في حديث أبي هريرة عند البخاري في الدعوات باب الدعاء للمشركين (٦٣٩٧)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل غفار وأسلم (٢٥٢٤).

(١٨) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أبي هريرة الدوسي (٢٤٩١)، وأحمد (٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(١٩) وذلك في كتاب الجهاد والسير رقم الباب (١٠٠)، وفي الدعوات الباب (٥٩).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وقوله: «ليتألفهم» من تفقه المصنف إشارة منه إلى الفرق بين المقامين، وأنه صلى الله عليه وسلم كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم؛ فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم، ويكثرُ أذاهم.. والحالة الثانيةُ حيث تُؤمَنُ غائلتهم، ويُرجى تألفهم كما في قصة دوس»(٢٠).

---

(٢٠) فتح الباري (٦/ ١٢٦). وها هنا مسائل عدة يحسن الحديث عنها:

المسألة الأولى: قال بعض العلماء: «إن الدعاء على الكفار منسوخ بقول الله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٩٩): وحكى ابن بطال أن الدعاء للمشركين ناسخ للدعاء على المشركين، ودليله قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]، قال ـ أي ابن بطال ـ والأكثر على أن لا نسخ، وأن الدعاء على المشركين جائز، وإنما النهي عن ذلك في حق من يرجى تألفهم ودخولهم في الإسلام. ويحتمل في التوفيق بينهما أن الجواز حيث يكون في الدعاء ما يقتضي زجرهم عن تماديهم على الكفر، والمنع حيث يقع الدعاء عليهم بالهلاك على كفرهم» اهـ.

وأدلة من قال بالنسخ:

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، فربما قال إذا قال سمع الله لمن حمده: **اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة ابن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف**، يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: **اللهم العن فلاناً وفلاناً** لأحياء من العرب حتى أنزل الله: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ...**﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨]، أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ...**﴾ (٤٨٣)، ومسلم في المساجد ومواضع =

. . . .

= الصلاة باب استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥)، وجاء في رواية مسلم: «ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ » وفي لفظ آخر لمسلم: قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الدعاء بعد، فقلت: أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ترك الدعاء لهم، قال: فقيل: ما تراهم قد قدموا؟».

٢ ـ حديث أنس رضي الله عنه قال: «قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً بعد الركوع يدعو على أحياء من العرب ثم تركه» أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة الرجيع (٤٠٩٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب القنوت في جميع الصلاة (٦٧٧) واللفظ لمسلم.

فهذان الحديثان وما في معناهما تنسخ ما كان جائزاً في أول الأمر من الدعاء على المشركين ولعنهم.

والقول بالنسخ مردود بما يلي:

١ ـ حديث أنس رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: **كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟!** فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»، أخرجه البخاري تعليقاً في المغازي باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] قبل الحديث (٤٠٦٩)، ووصله مسلم في الجهاد باب غزوة أحد (١٧٩١)، وأحمد (٣/ ٩٩).

فإذا كانت الآية قد نزلت في شأن غزوة أحد خاصة، وكان سياقها في الحديث عن تلك الغزوة وما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم ولصحابته رضي الله عنهم من عظيم الابتلاء؛ فإن دعاءه على المشركين وقع بعدها، فغزوة أحد كانت في السنة الثالثة، وحادثة بئر معونة التي كانت سبباً في دعائه على بعض قبائل العرب كانت في السنة الرابعة مما يدل على أنه لا نسخ، وانظر: فتح=

. . . .

= الباري (٨/ ٧٥).
وجمهور المفسرين والعلماء على القول بعدم النسخ هنا، وأن الدعاء على المشركين مشروع.
قال ابن عطية رحمه الله تعالى في المحرر الوجيز (٣/ ٣٢٧): «وما ذكر في هذه الآية من أن هذه الآية ناسخة لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين كلام ضعيف كله، وليس هذا من مواضع الناسخ والمنسوخ».
وقال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره (٤/ ١٢٩): «زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقنوت الذي كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم بعد الركوع». وساق القرطبي حديث أبي هريرة في دعائه ثم نزول هذه الآية ثم قال: «وليس هذا موضع نسخ؛ وإنما نبه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أعلمه، وأن الأمر كله لله، يتوب على من يشاء، ويعجل العقوبة لمن يشاء، والتقدير: ليس لك من الأمر شيء ولله ما في السموات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء، فلا نسخ والله أعلم»، وقد ذكر الطبري معنى الآية بما لا نسخ فيها (٤/ ٨٦).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى (٢١/ ١٥٦): «وليس لأحد أن يحتج على النسخ بما في الصحيحين عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «**اللهم العن فلاناً وفلاناً...**» بعدما يقول: «**سمع الله لمن حمده: ربنا ولك الحمد**، فأنزل الله: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فإن هذا إنما يدل على ترك اللعنة لهم؛ لكونه ليس له من الأمر شيء لجواز توبتهم، وهذا إذا كان نهياً فلا فرق فيه بين الصلاة وخارج الصلاة، والكلام إنما هو في الدعاء الجائز خارج الصلاة كالدعاء لمعينين مستضعفين، والدعاء على معينين من الكفار بالنصرة عليهم، لا باللعنة ونحو ذلك». =

. . . .

= وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى في التحرير والتنوير (٤/ ٨١): «وروى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على أربعة من المشركين، وسمى أناساً، فنزلت هذه الآية لنهيه عن ذلك، ثم أسلموا، وقيل: إنه هم بالدعاء، أو استأذن الله أن يدعو عليهم بالاستئصال فنهي، ويرد هذه الوجوه ما في صحيح مسلم (١٧٩٢) عن ابن مسعود قال: «كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قوم وهو يسمح الدم عن وجهه. . .» ا هـ.
وقال ابن عاشور أيضاً (٤/ ٨٢): «وأغرب جماعة فقالوا: نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ناسخاً لما كان يدعو به النبي صلى الله عليه وسلم في قنوته على ذكوان وعصية ولحيان. . .» ثم قال ابن عاشور بعد أن نقل كلام ابن عطية: «وكيف يصح أن تكون نزلت لنسخ ذلك وهي متوسطة بين علل النصر الواقع يوم بدر، وتفسير ما وقع في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: «أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك الدعاء على المشركين بعد نزول هذه الآية» أخذاً بكامل الأدب؛ لأن الله لما أعلمه في هذا بما يدل على أن الله أعلم بما فيه نفع الإسلام ونقمة الكفر ترك الدعاء عليهم؛ إذ لعلهم يسلموا» ا هـ.

٢ ـ ما رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٥٥) برقم: (١١٠٠) من حديث عروة ابن الزبير أن عبد الرحمن بن عبد القاري وكان في عهد عمر بن الخطاب مع عبد الله بن الأرقم على بيت المال: أن عمر خرج ليلة في رمضان. . . وفيه: «فكان الناس يقومون أوله، وكانوا يلعنون الكفرة في النصف: اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك، ولا يؤمنون بوعدك، وخالف بين كلمتهم، وألق في قلوبهم الرعب، وألق عليهم رجزك وعذابك إله الحق. . .» ورواه البيهقي (٢/ ٤٩٣) دون ذكر اللعن والدعاء على الكافرين. وصحح إسناد ابن خزيمة الألباني.

وعلى هذا كان عمل أهل المدينة كما قال الأعرج عبد الرحمن بن هرمز رحمه الله تعالى: «ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان» أخرجه=

. . . .

= مالك في الموطأ برقم: (٢٥٣)، وعنه عبد الرزاق في مصنفه برقم: (٧٧٣٤).
وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٥/ ١٧٢) : «والأعرج ـ وهو عبد الرحمن ابن هرمز ـ أدرك جماعة من الصحابة وكبار التابعين وهذا هو العمل بالمدينة».
المسألة الثانية: أن الدعاء على الكفار ولعنهم مباح وليس بواجب إن شاء فعله، وإن شاء تركه، والهدى النبوي في ذلك الدعاء للمسالمين منهم والدعاء على المحاربين منهم، كما نقل ذلك ابن عبدالبر رحمه الله تعالى في الاستذكار بعد أن ساق قول الأعرج (٥/ ١٦٥) فقال: «ففيه إباحة لعن الكفرة، كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك بواجب؛ ولكنه مباح لمن فعله غضباً لله في جحدهم الحق، وعداوتهم للدين وأهله، وأما قوله: «في رمضان» فمعناه: أنهم كانوا يقنتون في الوتر في صلاة رمضان، ويلعنون الكفرة في القنوت؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه في القنوت على رعل وذكوان وبني لحيان الذين قتلوا أصحاب بئر معونة».
وقال ابن عبد البر أيضاً (٥/ ١٧٢): «ومن فعل الصحابة وجلة التابعين بالمدينة في لعن الكفرة في القنوت أخذ العلماء لعن الكفرة في الخطبة الثانية من الخطبة والدعاء عليهم» اهـ.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (٢١/ ١٥٤): «وأما الدعاء على أهل الكتاب ـ كما يتخذه من يتخذه سنة راتبة في دعاء القنوت في النصف الأخير من شهر رمضان أو غيره ـ فهذا إنما هو منقول عن عمر بن الخطاب أنه كان يدعو به لما كان يجاهد أهل الكتاب بالشام، وكان يدعو في المكتوبة، وهو موافق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقنت أحياناً يدعو للمؤمنين ويلعن الكافرين، ويذكر قبائل المشركين الذين يحاربونه كمضر ورعل وذكوان وعصية، وعمر لما قاتل أهل الكتاب قنت عليهم في المكتوبة؛ فالسنة أن يقنت عند النازلة، ويدعو فيها بما يناسب أولئك القوم المحاربين».
المسألة الثالثة: حكم الدعاء على معين ولعنه: =

= ظاهر الأحاديث الجواز فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا على قبائل سماها، وعلى أشخاص ذكرهم بأسمائهم. ومن قال بأن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ناسخ لدعائه عليه الصلاة والسلام عليهم بأسمائهم منع ذلك، وبعضهم جعل دعاءه عليه الصلاة والسلام خاصاً به؛ لأن الله تعالى قد علمه أنهم لا يؤمنون، وبعضهم عكس الأمر فجعل منع لعنهم خاصاً به عليه الصلاة والسلام؛ لأنه مجاب الدعوة.

قال ابن العربي رحمه الله تعالى في أحكام القرآن (٤/ ٣١٢): «دعا نوح على الكافرين أجمعين، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على من تحزب على المؤمنين، وألب عليهم، وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكفار في الجملة، فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة للسعادة، وإنما خصَّ النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء على عتبة وشيبة وأصحابه؛ لعلمه بمآلهم، وما كشف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم».

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى (٨/ ٣٣٥): «والدعاء على جنس الظالمين الكفار مشروع مأمور به، وشرع القنوت والدعاء للمؤمنين والدعاء على الكافرين. أما الدعاء على معينين كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يلعن فلاناً وفلاناً فهذا قد روي أنه منسوخ بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. . وذلك لأن المعين لا يعلم أن رضى اللهَ عنه أنَ يهلك؛ بل قد يكون ممن يتوب الله عليه، بخلاف الجنس فإنه إذا دعي عليهم بما فيه عز الدين وذل عدوه وقمعهم كان هذا دعاء بما يحبه الله ويرضاه؛ فإن الله يحب الإيمان وأهل الإيمان، وعلو أهل الإيمان وذل الكفار؛ فهذا دعاء بما يحب الله. وأما الدعاء على المعين لا يعلم أن الله يرضاه فغير مأمور به، وقد كان يفعل ثم نهي عنه؛ لأن الله قد يتوب عليه أو يعذبه».

وقال ابن مفلح رحمه الله تعالى في الآداب الشرعية (١/ ٢٦٩): «ويجوز لعن الكفار عاماً، وهل يجوز لعن كافر معين؟ على روايتين. ونقل عن ابن تيمية=

. . . .

= قوله: «ولعن تارك الصلاة على وجه العموم جائز وأما لعنة المعين فالأولى تركها، لأنه يمكن أن يتوب».
وقال عن ابن تيمية في موضع آخر: «في لعن المعين من الكفار من أهل القبلة وغيرهم ومن الفساق بالاعتقاد أو بالعمل: لأصحابنا فيه أقوال: أحدها: أنه لا يجوز بحال وهو قول أبي بكر عبد العزيز. والثاني: يجوز في الكافر دون الفاسق. والثالث: يجوز مطلقاً».
ونقل ابن مفلح (١/ ٢٧٠) عن ابن الجوزي قوله: «وقد لعن أحمد بن حنبل من يستحق اللعن، فقال في رواية مسدد: قالت الواقفية الملعونة، والمعتزلة الملعونة، وقال عبد الله بن أحمد الحنبلي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: على الجهمية لعنة الله، وكان الحسن يلعن الحجاج، وأحمد يقول: الحجاج رجل سوء. وقال ابن تيمية: ليس في هذا عن أحمد لعنة معين لكن قول الحسن نعم» ا هـ.
وقال ابن مفلح (١/ ٢٧١): «وقال القاضي في المعتمد: من حكمنا بكفرهم من المتأولين وغيرهم فجائز لعنتهم، نص عليه، وذكر أنه قال في اللفظية: على من جاء بهذا لعنة الله، عليه غضب الله، وذكر أنه قال عن قوم معينين: هتك الله الخبيث، وعن قوم: أخزاه الله، وقال في آخر: ملأ الله قبره ناراً، قال الشيخ تقي الدين: لم أره نقل لعنة معينة إلا لعنة نوع، أو دعاء على معين بالعذاب، أو سباً له، لكن قال القاضي: لم يفرق بين المطلق والمعين، وكذلك جدنا أبو البركات.
قال القاضي: فأما فساق أهل الملة بالأفعال كالزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس ونحو ذلك فهل يجوز لعنتهم أم لا؟ فقد توقف أحمد رضي الله عنه عن ذلك في رواية صالح. قلت لأبي: الرجل يذكر عنده الحجاج أو غيره يلعنه؟ فقال: لا يعجبني، لو عم فقال: ألا لعنة الله على الظالمين».
وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٧٢) قال أبو بكر الخلال في كتاب السنة: «الذي ذكره أبو عبد الله في التوقف في اللعنة فيه أحاديث كثيرة لا=

. . . .

= تخفى على أهل العلم، ويتبع قول الحسن وابن سيرين فهما الإمامان في زمانهما.

ويقول: لعن الله من قتل الحسين بن علي، لعن الله من قتل عثمان، لعن الله من قتل علياً، لعن الله من قتل معاوية بن أبي سفيان، ونقول: لعنة الله على الظالمين إذا ذكر لنا رجل من أهل الفتن على ما تقلده أحمد.

قال القاضي: فقد صرح الخلال باللعنة، قال: قال أبو بكر عبد العزيز فيما وجدته في تعاليق أبي إسحاق: ليس لنا أن نلعن إلا من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الإخبار عنه» اهـ.

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٧٢) قال الشيخ تقي الدين: «المنصوص عن أحمد الذي قرره الخلال اللعن المطلق العام لا المعين كما قلنا في نصوص الوعيد والوعد، وكما نقول في الشهادة بالجنة والنار، فإنا نشهد بأن المؤمنين في الجنة، وأن الكافرين في النار، ونشهد بالجنة والنار لمن شهد له الكتاب والسنة، ولا نشهد بذلك لمعين إلا من شهد له النص أو شهد له الاستفاضة على قول. فالشهادة في الخبر كاللعن في الطلب، والخبر والطلب نوعا الكلام؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الطعانين واللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**» أخرجه مسلم (٢٥٩٨)، وأحمد (٦/ ٤٨٨)، وأبو داود (٤٩٠٨)، وابن حبان (٥٧٤٦)، فالشفاعة ضد اللعن كما أن الشهادة ضد اللعن، وكلام الخلال يقتضي أنه لا يلعن المعينين من الكفار فإنه ذكر قاتل عمر وكان كافراً، ويقتضي أنه لا يلعن المعين من أهل الأهواء فإنه ذكر قاتل علي وكان خارجياً، ثم استدل القاضي للمنع بما جاء من ذم اللعن، وأن هؤلاء ترجى لهم المغفرة، لا تجوز لعنتهم؛ لأن اللعن يقتضي الطرد والإبعاد، بخلاف من حكم بكفره من المتأولين فإنهم مبعدون من الرحمة كغيرهم من الكفار، واستدل على جواز ذلك وإطلاقه بالنصوص التي جاءت في اللعن وجميعها مطلقة كالراشي والمرتشي وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه». ا هـ.

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٧٣): «قال الشيخ تقي الدين: فصار للأصحاب في الفساق ثلاثة أقوال: =

. . . .

= أحدها: المنع عموماً وتعييناً إلا برواية النص. والثاني: إجازتها. والثالث: التفريق وهو المنصوص.

وقد نقل عن أحمد لعنة أقوام معينين من دعاة أهل البدع؛ ولهذا فرق من فرق من الأصحاب بين لعنة الفاسق بالفعل، وبين دعاة أهل الضلال إما بناء على تكفيرهم، وإما بناء على أن ضررهم أشد».

ونقل ابن مفلح عن شيخ الإسلام قوله (١/ ٢٧٤): «ومن جوز لعنة المبتدع المكفر معيناً فإنه يجوز لعنة الكافر المعين بطريق الأولى، ومن لم يجوز أن يلعن إلا من ثبت لعنه بالنص فإنه لا يجوز لعنة الكافر المعين. فمن لم يجوز إلا لعن المنصوص يرى أنه لا يجوز ذلك لا على وجه الانتصار، ولا على وجه الجهاد وإقامة الحدود كالهجر والتعزير والتحذير».

وقال ابن مفلح (١/ ٢٧٥): قال شيخ الإسلام: «وكذلك من لم يلعن المعين من أهل السنة أو من أهل القبلة أو مطلقاً، وأما من جوز لعنة الفاسق المعين على وجه البغض في الله عزَّ وجلَّ، والبراءة منه، والتعزير فقد يجوز ذلك على وجه الانتصار أيضاً، ومن يرجح المنع من لعن المعين فقد يجيب عما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بأحد أجوبة ثلاثة:

١ ـ إما بأن ذلك منسوخ كلعن من لعن في القنوت على ما قاله أبو هريرة.

٢ ـ وإما أن ذلك مما دخل في قوله: «**اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته...**» لكن يقال هذا الحديث لا يدل على تحريم اللعنة وإنما يدل على أنه يفعلها باجتهاده بالتعزير فجعل هذا الدعاء دافعاً عمن ليس لها بأهل.

٣ ـ وإما أن يقال: اللعن من النبي صلى الله عليه وسلم ثابت بالنص فقد يكون اطلع على عاقبة الملعون، وقد يقال: الأصل مشاركته في الفعل ولو كان لا يلعن إلا من علم أنه من أهل النار لما قال: «**إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته...**» فهذا يقتضي أنه كان يخاف أن يكون لعنه بما يحتاج أن يستدرك بما يقابله من الحسنات؛ فإنه معصوم، والاستدراك بهذا الدعاء يدفع ما يخافه من إصابة دعائه لمن لا يستحقه وإن كان باجتهاد؛ إذ هو باجتهاده =

. . . .

= الشرعي معصوم لأجل التأسي به.
وقد يقال: نصوص الفعل تدل على الجواز للظالم كما يقتضي ذلك القياس؛ فإن اللعنة هي البعد عن رحمة الله، ومعلوم أنه يجوز أن يدعى عليه من العذاب بما يكون مبعداً عن رحمة الله عزَّ وجلَّ في بعض المواضع كما تقدم، فاللعنة أولى أن تجوز، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما نهى عن لعن من علم أنه يحب الله ورسوله، فمن علم أنه مؤمن في الباطن يحب الله ورسوله لا يلعن؛ لأن هذا مرحوم بخلاف من لا يكون كذلك» ا هـ.

من أدلة جواز اللعن:

١ ـ حديث عائشة في لعن المعين: «استأذن رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم، فقالت: عليكم السام واللعنة. . » أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥)، وللبخاري (٦٠٣٠) قالت عائشة: «عليكم لعنة الله وغضب الله عليكم. . .».

قال ابن تيمية: ـ كما في الآداب الشرعية (١/ ٢٧٦)ـ « والاستدلال بهذا الخبر في جواز لعن المعين وعدمه محتمل».

٢ ـ حديث ابن عمر: أن رجلاً كان اسمه عبدالله، وكان يلقب حماراً جلده النبي صلى الله عليه وسلم. . . فقال رجل من القوم: «اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»** أخرجه البخاري (٦٧٨٠). قال الشيخ ابن تيمية: «فهذا ظاهر الدلالة».

٣ ـ ولمسلم (١٦٩٥) من حديث بريدة أن خالد بن الوليد لما رمى المرجومة بحجر فنضح الدم على وجهه فسبها. .

قال في النهاية: اللعن من الله عزَّ وجلَّ الطرد والإبعاد، ومن الخلق السب والدعاء. فظاهره جواز السب لولا التوبة» ا هـ من الآداب الشرعية (١/ ٢٧٧).

ويحتمل أن منع اللعن للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه مجاب الدعوة، وقد يتوب الله تعالى على الملعونين من المشركين فلذلك نهي عنه. انظر: تفسير الرازي (٨/ ١٩١).

=

. . . .

= قال أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن (١/ ٧٤): «قال لي كثير من أشياخي: إن الكافر المعين لا يجوز لعنه؛ لأن حاله عند الموافاة لا تعلم، وقد شرط الله تعالى في هذه الآية في إطلاق اللعنة الموافاة على الكفر.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم لعن أقوام بأعيانهم من الكفار، وفي صحيح مسلم (٢٠٠٧) عن عائشة رضي الله عنها: «دخل على النبي صلى الله عليه وسلم رجلان فكلماه بشيء فأغضباه فلعنهما»، وإنما كان ذلك لعلمه بمآلهما والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله، كجواز قتاله وقتله».

وفي الصحيحين: «**لعن المؤمن كقتله**» رواه البخاري (٦٦٥٢)، ومسلم (١٧٦)، وكذلك إن كان ذمياً يجوز إصغاره فكذلك لعنه.

فأما العاصي المعين فلا يجوز لعنه اتفاقاً لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم «**جيء بشارب خمر مراراً...**» رواه البخاري (٦٧٨٠) فجعل له حرمة الأخوة، وهذا يوجب الشفقة.

وأما لعن العاصي مطلقاً فيجوز إجماعاً لما روي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لعن الله السارق يسرق البيضة**» رواه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧)، وقد قال بعض علمائنا في تأويل هذه الآية: إن معناه عليهم اللعنة يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً**﴾ [العنكبوت: ٢٥]، والذي عندي صحة لعنه في الدنيا لمن وافى كافراً بظاهر الحال، وما ذكر الله عن الكفرة من لعنتهم وكفرهم فيما بينهم حالة أخرى، وبيان لحكم آخر، وحالة واقعة تعضد جواز اللعن في الدنيا، وتكون هذه الآية لجواز اللعن في الدنيا، فيكون للآيتين معنيان، فإن قيل: فهل تحكمون بجواز لعنة الله لمن كان على ظاهر الكفر، وقد علم الله موافاته مؤمناً؟ قلنا: كذلك نقول، ولكن لعنة الله له حكمه بجواز لعنه لعباده المؤمنين أخذاً بظاهر حاله، والله أعلم بمآله» اهـ من أحكام القرآن (١/ ٧٦).

وقال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره بعد أن نقل كلام ابن العربي السابق (٢/ ١٢٧): «قلت: أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف في ذلك» ثم=

. . . .

= نقل القرطبي كلام الأعرج. . ثم قال القرطبي: «قال علماؤنا: وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك بواجب، ولكنه مباح فعله؛ لجحدهم الحق، وعداوتهم للدين وأهله، وكذلك كل من جاهر بالمعاصي كشراب الخمر، وآكلة الربا، ومن تشبه بالنساء. . . إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه».

وقال القرطبي (٢/ ١٢٧): «ليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر؛ بل هو جزاء على الكفر، وإظهار قبح كفره، كان الكافر ميتاً أو مجنوناً. وقال قوم من السلف: إنه لا فائدة في لعن من جن أو مات منهم لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر فإنه لا يتأثر به».

وتعقب القرطبي (١/ ١٢٧) ابن العربي في تقريره الاتفاق على عدم جواز لعن العاصي، وذكر حديث (شارب الخمر): «**لا تكونوا عوناً للشيطان**» فقال القرطبي: «وقد ذكره بعض العلماء خلافاً في لعن العاصي المعين، قال: وإنما قال عليه السلام: «**لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم**» في حق نعيمان بعد إقامة الحد عليه، ومن أقيم عليه حد الله تعالى فلا ينبغي لعنه، ومن لم يقم عليه الحد فلعنته جائزة سواء سُمّي أو عين أم لا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للعن، فإذا تاب منها وأقلع وطهره الحد فلا لعنة تتوجه عليه، وبيّن هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب**» فدل هذا الحديث مع صحته على أن التثريب واللعن إنما يكون قبل أخذ الحد، وقبل التوبة. والله أعلم» اهـ.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره (١/ ٢٩٩) عند تفسير الآية (١٦١) من سورة البقرة: «لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره. فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن؛ لأنا لا ندري بما يختم الله له، واستدل بعضهم بالآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ**...﴾ [البقرة: ١٦١].

وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر ابن =

. . . .

= العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله عليه السَّلام في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحد. . . «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**» (٤/ ٣٢٢) اهـ من ابن كثير.

وقال الألوسي رحمه الله تعالى في روح المعاني (٩/ ٣٢٤): «واعلم أنه لا خلاف في جواز لعن كافر معين تحقق موته على الكفر إن لم يتضمن إيذاء مسلم أو ذمي إذا قلنا باستوائه مع المسلم في حرمة الإيذاء، أما إن تضمن ذلك حرم».

وقال أيضاً: (٩/ ٣٢٤): «ثم إن لعن من يجوز لعنه لا أرى أنه عبادة إلا إذا تضمن مصلحة شرعية، وأما لعن كافر حي فالمشهور أنه حرام، ومقتضى كلام حجة الإسلام الغزالي أنه كفر؛ لما فيه من سؤال تثبيته على الكفر الذي هو سبب اللعنة، وسؤال ذلك كفر، ونص الزركشي على ارتضائه حيث قال عقبه: فتفطن لهذه المسألة فإنها غريبة، وحكمها متجه، وقد زل فيها جماعة، وقال العلامة ابن حجر في ذلك: ينبغي أن يقال: إن أراد بلعنه الدعاء عليه بتشديد الأمر أو أطلق لم يكفر، وإن أراد سؤال بقائه على الكفر والرضى ببقائه عليه كفر، ثم قال: فتدبر ذلك حق التدبر فإنه تفصيل متجه قضت به كلماتهم» اهـ.

وروى مسلم في صحيحه في البر والصلة والآداب باب من لعنه النبي صلى الله عليه وسلم أو سبه أو دعا عليه وليس أهلاً لذلك كان له زكاة وأجراً ورحمة. . . (٢٦٠٠) عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباه فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله: من أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان، قال: **وما ذاك؟** قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: **أوما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً**» وله شاهد عن أبي هريرة أيضاً عند مسلم (٢٦٠١) وعن جابر (٢٦٠٢).

قال النووي رحمه الله تعالى: (١٦/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩): «إنما يكون دعاؤه عليه رحمة وكفارة وزكاة ونحو ذلك إذا لم يكن أهلاً للدعاء عليه، والسب واللعن ونحوه، وكان مسلماً، وإلا فقد دعا صلى الله عليه وسلم على الكفار والمنافقين ولم=

. . . .

=يكن ذلك لهم رحمة. فإن قيل: كيف يدعو على من ليس هو بأهل للدعاء عليه، أو يسبه، أو يلعنه ونحو ذلك، فالجواب ما أجاب به العلماء، ومختصره وجهان:

أحدهما: أن المراد ليس بأهل لذلك عند الله تعالى، وفي باطن الأمر؛ ولكنه في الظاهر مستوجب له، فيظهر له صلى الله عليه وسلم استحقاقه لذلك بأمارة شرعية، ويكون في باطن الأمر ليس أهلاً لذلك، وهو صلى الله عليه وسلم مأمور بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

الثاني: أن ما وقع من سبه ودعائه ونحوه ليس بمقصود؛ بل مما جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نية، كقوله: «تربت يمينك...» لا يقصد بشيء من ذلك حقيقة الدعاء، فخاف صلى الله عليه وسلم أن يصادف شيء من ذلك إجابة، فسأل ربه سبحانه وتعالى، ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقربة وطهوراً وأجراً، وإنما كان يقع هذا منه في النادر الشاذ من الأزمان.. ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا منتقماً لنفسه...» اهـ وبنحو ذلك كان جواب القرطبي في المفهم (٦/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥).

وقال الألوسي أيضاً (٩/ ٣٢٤): «وكلعن الكافر الحي المعين بالشخص في الحرمة لعن الفاسق كذلك، وقال السراج البلقيني بجواز لعن العاصي المعين، واحتج على ذلك بحديث الصحيحين: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح**» وهو ظاهر فيما يدعيه، وقول ولده الجلال البلقيني في بحثه معه: يحتمل أن يكون لعن الملائكة لها ليس بالخصوص بل بالعموم بأن يقولوا: لعن الله من دعاها زوجها إلى فراشه فأبت فبات غضبان بعيد جداً. ومما يؤيد قول السراج خبر مسلم أنه صلى الله عليه وسلم مرَّ بحمار وسم في وجهه فقال: «**لعن الله من فعل هذا**» وهو أبعد عن الاحتمال الذي ذكره ولده. وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم لعن قبائل من العرب بأعيانهم،... وذكر حديث لعن رعل وذكوان...، ثم قال: وفيه نوع تأييد لذلك أيضاً، لكن قيل: إنه يجوز أن يكون قد علم عليه الصلاة والسلام موتهم، أو موت أكثرهم على الكفر فلم يلعن صلى الله عليه وسلم إلا من علم موته عليه، ولا يخفى عليك الأحوط في هذا الباب، فقد صح «من=

. . . .

= **لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه**» وأرى الدعاء للعاصي المعين بالصلاح أحب من لعنه على القول بجوازه، وأرى لعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوصف أو بالشخص عبادة من حيث إن فيه اقتداءً برسول الله عليه الصَّلاة والسلام، وكذا لعن من لعنه الله تعالى على الوجه الذي لعنه به» ا هـ وانظر: أيضاً (٨/ ١٠٢ ـ ١٠٣)، تفسيرسورة الإسراء: قول الله تعالى: ﴿**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ** ...﴾ [الإسراء: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [البقرة: ١٦١].

قال الرازي: «في الآية دلالة على أن على المسلمين لعن من مات كافراً، وأن زوال التكليف عنه بالموت لا يسقط عنا لعنه والبراءة منه؛ لأن قوله: ﴿**وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [البقرة: ١٦١] قد اقتضى أمرنا بلعنه بعد موته، وهذا يدل على أن الكافر لو جُنّ لم يكن زوال التكليف عنه بالجنون مسقطاً للعنه والبراءة منه» اهـ من تفسير الرازي (٤/ ١٥١).

وقال الشيخ بكر أبو زيد في المناهي اللفظية (٤٧١): «فلا يلعن إلا من استحق اللعنة بنص من كتاب أو سنة وهي في الأمور الجامعة الآتية:

١ ـ اللعن بوصف عام مثل: لعنة عامة على الكافرين أو على الظالمين والكاذبين.

٢ ـ اللعن بوصف أخص منه مثل: لعن آكل الربا، ولعن الزناة، ولعن السراق والمرتشين، ونحو ذلك.

٣ ـ لعن الكافر المعين الذي مات على الكفر مثل: فرعون.

٤ ـ لعن كافر معين مات، ولم يظهر من شواهد الحال دخوله في الإسلام فيلعن. وإن توقى المسلم، وقال: لعنه الله إن مات كافراً حسن.

٥ ـ لعن كافر معين حي؛ لعموم دخوله في لعنة الله على الكافرين، ولجواز قتله، وقتاله، ووجوب إعلان البراءة منه.

٦ ـ لعن المسلم العاصي ـ معيناً ـ أو الفاسق بفسقه، والفاجر بفجوره، فهذا اختلف أهل العلم في لعنه على قولين، والأكثر بل حكي الاتفاق عليه، على عدم جواز =

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الفقه في الدين، وأن يثبتنا على الحق المبين، وأن يكفينا شر الكافرين والمنافقين، إنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،

= لعنه؛ لإمكان التوبة وغيرها من موانع لحوق اللعنة والوعيد مثل ما يحصل من الاستغفار، والتوبة، وتكاثر الحسنات وأنواع المكفرات الأخرى للذنوب، وإن ربي لغفور رحيم».

وقال ابن عبدالبر (٥/ ١٦٦): «قد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه... إلى أن قال: ولعن جماعة يطول ذكرهم قصداً إلى لعنهم، وليس لعنه هؤلاء، ولا من استحق اللعنة من باب من لعنه رسول الله وشتمه عند غضب يغضبه وهو يظنه أهلاً لذلك، ثم تبين له ـ إذا كان من البشر ـ غير ذلك، بل يكون لعنه له صلاة ورحمة؛ كما قال عليه السَّلام: «**إني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة**» أخرجه مسلم من حديث أنس في البر والصلة والآداب برقم: (٢٦٠٣).

وقال ابن عبدالبر في التمهيد (١٣/ ٤٤ ـ ١٤٥): «وفي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم النباش دليل على أن كل من أتى المحرمات، وارتكب الكبائر المحظورات في أذى المسلمين وظلمهم جائز لعنه والله أعلم».

وقال في التمهيد (١٧/ ٤٠٥): «وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، آكل الربا وموكله، واليهود وغيرهم، ومحال أن تكون لعنته لهؤلاء رحمة عليهم، فمن لعن من يستحق أن يلعن فمباح، ومن لعن من لا يستحق اللعن فقد أثم، ومن ترك اللعن عند الغضب ولم يلعن مسلماً ولم يسبه فذلك من عزم الأمور».

أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واثبتوا على دينكم حتى تلقوا ربكم؛ ففي ذلك النجاة من عذاب الآخرة، والفوزُ بالنعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ﴿ **وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [الزمر: ٦١].

أيها الإخوة المؤمنون: تنطوي حادثة سرية بئر معونة، وما حصل للمسلمين فيها من عظيم الابتلاء على دروس مهمة، جديرٌ بالمسلم أن يتأملها، ويستفيدَ منها، ولاسيما في وقتٍ تعظم فيه المحن، وتشتد الأزمات.

فهذه الحادثة تبين بجلاء حقيقة المشركين، وشدة عدواتهم للمؤمنين، وغدرهم بهم حينما تسنح فرصة للغدر، كما تبرز حجمَ الابتلاء الذي ابتلي به هؤلاء النخبة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد خرجوا يُعلمون الناس القرآن، فقُتلوا خيانةً وغدراً.

وما كاد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يكفكفون دموعهم على شهداء أحد حتى ابتلوا بقتل سبعين آخرين في هذه الحادثة المؤلمة، وليس بين الحادثين إلا قريباً من ثلاثة أشهر(٢١)؛ فابتلاء يعقبه

---

(٢١) وذلك أن غزوة أحد كانت في النصف من شوال سنة ثلاث، وسرية بئر معونة كانت في صفر سنة أربع، فيكون بينهما ثلاثة أشهر ونصف.

ابتلاء، وامتحان في إثر امتحان للطائفة المؤمنة، وليس المسلمون في هذا العصر بأكرم على الله تعالى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم الذين ابتلوا أشدَّ الابتلاء، ومن أراد ثواب الآخرة صبر على ابتلاءاتِ الدنيا. والابتلاءُ سنة ماضية يجريها الرب تبارك وتعالى على الأنبياء وأتباعهم.

ومن أهم الدروس التي يحتاجها المسلم في هذا الزمن من تلك الحادثة: ثباتُ هذه العصابة المؤمنة على دينهم حتى لقوا الله تعالى، وكان أشدَّ شيء حرصوا عليه وهم يلقون الله تعالى أن يبلغوا النبي صلى الله عليه وسلم، ويبلغوا إخوانهم رضاهم عن الله تعالى بما أكرمهم به من الكرامة والشهادة، وبما أسبغ عليهم من الرضى عنهم حتى قالوا: «اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا»[٢٢]، وفي رواية قالوا: «ربنا أخبر إخواننا بما رضينا ورضيت عنا فأخبرهم عنهم»[٢٣].

إنهم ما نالوا هذا الرضى عن الله تعالى إلا لأنه سبحانه أرضاهم، وقد استحقوا هذا الرضى برحمة الله تعالى، ثم بسبب ثباتهم على دينهم رغم المحنة والبلاء، حتى بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل ذلك، وما كان لهم من همٍ إلا أن يعلم إخوانهم مصيرهم، ورضى الله تعالى عنهم؛ حتى يثبتوا على دينهم مهما كانت الصوراف والتبعات؛ ذلك أن رضى الله تعالى يستحق كل تضحية.

---

(٢٢) هذا اللفظ لمسلم، وانظر الحديث مخرجاً في هامش (٣).

(٢٣) هذا اللفظ للبخاري في المغازي (٤٠٩٣).

وثمة ملاحظة لابد أن نفطن لها، وهي أن الخوف على الأنفس لا يُسوِّغ وقف الدعوة إلى الله تعالى؛ فإذا ما عظُم مكرُ الكافرين، وافتراء المنافقين على عباد الله المؤمنين، وآذوهم بسبب دعوتهم إلى الله تعالى؛ فإن ذلك ليس عذراً صحيحاً لتعطيل الدعوة، حتى ولو كان في ذلك مظنة ذهاب النفوس، فقد رأينا النبي صلى الله عليه وسلم كان خائفاً في بداية الأمر من إرسال هذه السرية، وصرح بخوفه عليهم من الغدر؛ ولكنه غلَّب جانب مصلحة الدعوة، وتبليغِ الدين للناس على جانب الخوف على أصحابه، فكان ما كان من أمر الله تعالى وقدره.

فإذا كان الخوف على النفوس لا يسوِّغُ وقف الدعوة إلى الله تعالى وتعطيلها فما دونه من باب أولى كالخوف على الجاه والمال وغيره.

ألا فاتقوا الله ربكم، واثبتوا على دينكم، وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة؛ حتى تلقوا الله تعالى فيرضى عنكم وترضوا عنه، وذلك الفوز العظيم.

وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم،،،

١٣٠- غزوة بني المصطلق

١٢/ ٨/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: من سماتِ المخلوقين طمعُ أقويائهم في ضعفائهم، وظلمهم لهم، وتعديهم عليهم، وسلبهم حقوقهم. وهذه الصفة توجد في البشر أفراداً ودولاً وأمماً؛ ولهذا جاءت الرسالات بالشرائع التي تهذب أخلاق الناس، وترتقي بهم عن الشهوات والغرائز الحيوانية إلى مقامات العبودية لله رب العالمين؛ ليتحقق الأمن والعدل في الأرض.

ومن طبائع الظالمين طمعهم في المظلومين إذا ضعفوا أمام الظلم

وأهله، واستكانوا للقهر والبغي، وتشربوا الذل والمهانة، وما عـرف التاريخ ظالمين يتركون ظلمهم أو يخففونه رحمة بالمظلومين؛ بل يزدادون في ظلمهم وقهرهم لهم كلما خضع المظلومون واستكانوا لهم. وإذا حلت بأمة هزيمة من الهزائم كثر شامتوها، وقوي أعداؤها، وقلّ أنصارها؛ مما يجعل المهزومين يعانون أضعاف ما كانوا يلقون قبل هزيمتهم.

والهدي النبوي في مثل هذه الحالة هو: الثبات على الحق، والإصرارُ على الانتصار، وعدم الاستكانة والخضوع للعدو مهما كلف الأمر.

وقد مرَّت بالنبي ﷺ وبأصحابه رضي الله عنهم أيام عصيبات، وأزمات عسيرات، اشتد فيها كَلَب المشركين، وعظم أذى المنافقـين، وتحركت يهود بدسائسها ومؤامراتها.

ومن تلكم الأيام العصيبة ما حصل بعد غزوة أحد التي قتل فيها سبعون من خيار الصحابة وشجعانهم رضي الله عنهم وأرضاهم، فكان من نتائج ما أصاب المسلمين في أحد من الهزيمة والمصيبة أن طمع فيهم الطامعون، واشرأبت أعناق الظالمين، وظهر نفاق بعض المنافقين، وعزمَ جمعٌ من المشركين على غزو المدينة، منهم: بنو المصطلق، وهم بطنٌ من بطون خزاعة كانوا يسكنون قديـداً وعُسْفان بين مكة والمدينة[1]، وقاتل من قبائلهم رجال مع المشركين في أحد، وشجعتهم هزيمة المسلمين في أحد على تجميع الجموع، وتجهيز الجيوش للإغارة على المدينـة،

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية للدكتور مهدي رزق الله أحمد (٤٣١).

فابتدرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالغزو، وفاجأهم في ديارهم في أوائل شعبان من السنة الخامسة[٢]؛ فكتب الله له النصر والغلبة عليهم، كما جاء في الصحيح أن ابن عون قال: «كتبتُ إلى نافعٍ فكتب إليَّ أن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون ـ أي

---

(٢) وقع خلاف بين المؤرخين وأهل السير في وقت هذه الغزوة على أقوال:
الأول: أنها في أوائل شعبان سنة خمس، وقال به الزهري، وابن سعد، والبلاذري، والواقدي، وابن قتيبة، وابن حبان، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وابن حجر، وغيرهم.. انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٥٤)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٦٣)، والمغازي للواقدي (١/ ٤٠٤)، وأنساب الأشراف للبلاذري (٣٤٢)، والمعارف لابن قتيبة (١٦١)، وزاد المعاد (٣/ ٢٥٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٧٢)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٤٢ ـ ١٥٦)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٤٩٥)، والسيرة النبوية لابن حبان (٢٥٣).
الثاني: أنها في سنة ست، وهو قول ابن إسحاق، وعنه ابن هشام، وخليفة خياط، والطبري، وابن العربي، وابن عبد البر، وابن حزم، وابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الربيع الكلاعي الأندلسي. انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٢)، وتاريخ خليفة (٨٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٠٤)، وجوامع السيرة لابن حزم (١٦١)، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر (٢٠٠ ـ ٢٠١)، والاكتفاء للكلاعي (٢/ ٢١٦)، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٩٢)، وعارضة الأحوذي شرح جامع الترمذي لابن العربي (١٢/ ٤٩)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ١٩٢).
الثالث: أنها في سنة أربع، ونقله البخاري تعليقاً عن موسى بن عقبة، وتعقبه الحافظ في الفتح بقوله: «كذا ذكره البخاري، وكأنه سبق قلم أراد أن يكتب سنة خمس وكتبه سنة أربع، والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري والبيهقي في الدلائل وغيرهم: سنة=

غافلون ـ وأنعامُهم تسقي على الماء؛ فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية، حدثني به ابـنُ عمر وكان في ذلك الجيش» رواه الشيخان وهذا لفظ البخاري[٣].

وأخذ الفقهاءُ من هذه الحادثة جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة من المشركين دون سابق إنذار[٤]، ولا سيما إذا كانوا محاربين للمسلمين، ممالئين لأعدائهم.

وأصاب المسلمون في هذه الغزوة سبياً كثيراً، ووقعت جويريةُ بنت الحارث ابنةُ سيد قومها في السبي، فكاتبت على نفسها بمال لتتخلص

= خمس» انظر: الفتح (٧/ ٤٩٥).
والراجح أنها سنة خمس، ودليل ذلك: تنازع سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما في أصحاب الإفك، وسعد بن معاذ مات في غزوة قريظـة التي بعد الخندق وهي كانت في شوال سنة خمس، وحادثة الإفك كانت في غزوة بني المصطلق، فلو كانت سنة ست لما كان سعد بن معاذ رضي الله عنه حاضراً فيها، انظر: الفتح (٧/ ٤٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في العتق باب من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية (٢٥٤١)، ومسلم في الجهاد باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام (١٧٣٠)، وأبو داود في الجهاد باب في دعاء المشركين (٢٦٣٢)، وأحمد (٢/ ٣١) وغيرهم.

(٤) ملخص الأقوال في مسألة دعوة الكافرين إلى الإسلام قبل قتالهم ثلاثة هي:
الأول: وجوب دعوتهم مطلقاً.
الثاني: لا يجب مطلقاً.
الثالث: يجب إن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم لكن يستـحـب.
وهو قول أكثر أهل العلم فيما حكاه ابن المنذر عنهم.
قال النووي: «وهذا هو الصحيح وبه قال نافع مولى ابن عمر والحسن البصري=

. . . .

= والثوري والليث والشافعي وأبو ثور وابن المنذر والجمهور، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه، فمنها هذا الحديث، وحديث قتل كعب بن الأشرف، وحديث قتل أبي الحقيق» اهـ من شرح النووي على مسلم (١٢/ ٥٤).

ويدل على ذلك أيضاً رواية مسلم (١٧٣٠) لحديث ابن عمر في ذلك وهي أن ابن عون قال: «كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال؟ فكتب إليّ: إنما كان ذلك في أول الإسلام قد أغار النبي صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون. . .».

ولا يفهم من هذا الحديث النسخ؛ بل يفهم منه تفصيل حال المدعوين؛ فإنه في أول الإسلام كان الدين ضعيفاً، والإسلام غير معروف، وبعد الهجرة وغزوتي بدر وأحد عرف الإسلام في جزيرة العرب، فلم تكن دعوة الناس واجبة، قال أبو عثمان النهدي: «كنا نغزو فندعو ولا ندعو» أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١٠٩٣). وسعيد بن منصور في سننه، وصححه الحافظ في الفتح (٦/ ١٢٧).

قال الطحاوي بعد أن ذكر جملة من الآثار في ذلك: «فبين ما روينا من هذا أن الدعاء إنما كان في أول الإسلام؛ لأن الناس حينئذ لم تكن الدعوة بلغتهم، ولم يكونوا يعلمون على ما يقاتلون عليه، فأمر بالدعاء؛ ليكون ذلك تبليغاً لهم، وإعلاماً لهم ما يقاتلون عليه، ثم أمر بالغارة على آخرين، فلم يكن ذلك إلا لمعنى لم يحتاجوا معه إلى الدعاء؛ لأنهم قد علموا ما يُدعون إليه لو دُعوا، وما لو أجابوا إليه لم يقاتلوا، فلا معنى للدعاء، وهكذا كان أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد رحمة الله عليهم أجمعين يقولون: كل قوم قد بلغتهم الدعوة فأراد الإمام قتالهم فله أن يغير عليهم، وليس عليه أن يدعوهم، وكل قوم لم تبلغهم الدعوة فلا ينبغي قتالهم حتى يتبين لهم المعنى الذي عليه يقاتلون، والمعنى الذي إليه يدعون» أ هـ من شرح معاني الآثار (٣/ ١١٠)، وانظر: شرح السير الكبير (١/ ٧٧)، والمبسوط (١٠/ ٣١).

وقال الشافعي بعد أن ساق الأدلة التي أشار إليها الطحاوي آنفاً: «وفيما وصفنا

. . . .

= من هذا كله ما يدل على أن الدعاء للمشركين إلى الإسلام أو إلى الجزية إنما هو واجب لمن لم تبلغه الدعوة، فأما من بلغته الدعوة فللمسلمين قتله قبل أن يدعى، وإن دعوه فذلك لهم من قبل أنهم إذا كان لهم ترك قتاله بمدة تطول، فترك قتاله إلى أن يدعى أقرب، فأما من لم تبلغه دعوة المسلمين فلا يجوز أن يقاتلوا حتى يدعوا إلى الإيمان إن كانوا غير أهل الكتاب أو إلى الإيمان أو إعطاء الجزية من أهل الكتاب، ولا أعلم أحداً لم تبلغه الدعوة اليوم إلا أن يكون من وراء عدونا الذين يقاتلونا أمة من المشركين فلعل أولئك أن لا تكون الدعوة بلغتهم» أ هـ من الأم (٤/ ٢٥٣).

وقال أبو بكر ابن العربي من المالكية: «لما أقام النبي ﷺ يدعو عشرة أعوام أو ثلاثة عشر عاماً أو خمسة عشر عاماً على اختلاف الروايات في مدة مقامه بمكه، ثم تيقن القتال بعد ذلك سقط فرض الدعوة إلا على الذين لم تبلغهم، وبقيت مستحبة، فأما الآن فقد بلغت الدعوة وعمّت وظهر العناد ولكن الاستحباب لا ينقطع» ا هـ من أحكام القرآن (١/ ١٤٧).

وذكر ابن قدامة في أهل الكتاب والمجوس «أنهم لا يدعون قبل القتال؛ لأن الدعوة قد انتشرت وعمت، فلم يبق منهم من لم تبلغه الدعوة إلا نادر بعيد».

وعلق على قول الخرقي: «يدعى عبدة الأوثان قبل أن يحاربوا» فقال: «فليس بعام، فإن من بلغته الدعوة منهم لا يدعون، وإن وجد منهم من لم تبلغه الدعوة دعي قبل القتال، وكذلك إن وجد من أهل الكتاب من لم تبلغه الدعوة دعوا قبل القتال».

ونقل عن الإمام أحمد قوله: «إن الدعوة قد بلغت وانتشرت ولكن إن جاز أن يكون قوم خلف الروم وخلف الترك على هذه الصفة لم يجز قتالهم قبل الدعوة». المغني (٩/ ١٧٢)، وانظر: كشاف القناع (٣/ ٤٧ ـ ٤٨)، ومطالب أولي النهى (٢/ ٥١٥).

وقال ابن القيم في أحكام أهل الذمة (١/ ٨٨): «ومنها أن المسلمين يدعون الكفار قبل قتالهم إلى الإسلام، وهذا واجب إن كانت الدعوة لم تبلغهم=

من السبي، وطلبت معونة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقضى ما عليها وتزوجها برضاها.

قالت عائشة رضي الله عنها: «وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما بأيديهم ـ أي من سبي بني المصطلق ـ قالت عائشة: فلقد أُعتق بتزويجه إيَّاها مئةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلمُ امرأةً أعظمَ بركةً على قومها منها» رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد(٥).

وفي هذه الغزوة حاول المنافق عبدالله بن أبي بن سلول أن يشعل نار الفتنة بين المسلمين، ويفرق بين المهاجرين والأنصار بعد أن تآخوا في الله تعالى، واجتمعوا في الإسلام إخوة متحابين؛ وذلك أن رجلاً من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار ـ أي ضرب قفاه ـ فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذاك رسول الله صلى

= ومستحب إن بلغتهم الدعوة، هذا إذا كان المسلمون هم القاصدين للكفار» وانظر: زاد المعاد (٣/ ٤٢٢).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٧٧)، وأبو داود في العتق باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة (٣٩٣١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٧٢٥)، وابن الجارود في المنتقى (٧٠٥)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٦٠)، والبيهقي (٩/ ٧٤ ـ ٧٥)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٦ ـ ١١٧)، والحاكم وسكت عنه الذهبي (٤/ ٢٦)، وصححه ابن حبان (٤٠٥٤ ـ ٤٠٥٥)، وقال الساعاتي في الفتح الرباني: سنده جيد (١٤/ ١٠٩ ـ ١١٠).

الله عليه وسلم فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟** قالوا: يا رسول الله، كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: **دعوها فإنها منتنة**»[٦].

فغضب عبدُالله بنُ أبي وعنده رهْطٌ من قومه وقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعدُّنا وجلابيبَ قريش - يعني المهاجرين - إلا كما قال الأول: سمن كلبكَ يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مر به عبادَ بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذِّنْ بالرحيل**»، وذلك في ساعة لم يكن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يرتحلُ فيها، فارتحل الناس، وجاء أسيد بن حضير إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا نبي الله، والله لقد رحلت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال رسول الله صلى الله

---

(٦) أخرجه البخاري في التفسير باب قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (٤٩٠٥ - ٤٩٠٧)، ومسلم واللفظ له في البر والصلة باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (٢٥٨٤)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة المنافقين (٣٣١٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٦٣)، وأحمد (٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣)، وغيرهم.

عليه وسلم: **أوما بلغك ما قال صاحبكم؟!** قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: **عبدالله بن أبي،** قال: وما قال؟ قال: **زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل،** قال أسيد: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومَه لينظمون له الخرز ليتوجوه؛ فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنَّما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان من عبدالله بن أبي، فلا تقع فتنة بين الصحابة رضي الله عنهم(٧).

وكان لذلك المنافق ابن صالحٌ يُدعى عبدَالله، فلما بلغه ما قاله والده أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتلَ عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمرَ به غيري فيقتله، فلا تَدَعُني نفسي أنظرُ إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس، فأقتلَ رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخلَ النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(٧) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٥) وجامع البيان للطبري (٢٨/ ١١٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ١١٠)، والاكتفاء (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥٩٨).

«بل نترفقُ به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»[٨].

إن عبد الله بن عبد الله بن أبي قد ضرب مثلاً عظيماً في ولاء المؤمنين لدينهم، وبراءتهم من المنافقين، ولو كانوا أقرب الناس إليهم؛ إذ عزمَ على قتل والده وهو أبر الناس به؛ لأنه آذى النبي صلى الله عليه وسلم، وكم في مجتمعات المسلمين المعاصرة من منافقين، يرفضون شريعة الله تعالى، ويهزأون بها، ويردون سنة النبي ﷺ، ويقدمون عليها أقوال البشر بل وأقوال الكافرين، ويسخرون ممن يستمسكون بالهدي النبوي بمقولاتهم وكتاباتهم، ولا يحرك ذلك ساكناً عند كثير من المسلمين، بل يواكلونهم، ويجالسونهم، ويقرؤون لهم، ويستمعون إلى أحاديثهم، ولربما أشادوا بهم، وأعلو من قدرهم، وقدموهم في الضيافات، وبوأوهم صدور المجالس، وخلعوا المديح والثناء على فكرهم وثقافتهم التي لا تعدو أن تكون رفضاً لأحكام الإسلام، ودعوة إلى مذاهب أعداء الأمة المسلمة، في تبعية ذليلة، وتقليد أعمى، فأين هي الغيرة لدين الله تعالى من وجوه ما تمعَّرت في وجوه المنافقين، ومن ألسن ما أنكرت مقولاتم، وربما من قلوب ما كرهت بل وافقت ورضيت؟! وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

بل إن هذا الابن البار بوالده، الموالي للمؤمنين، المعادي للكافرين والمنافقين أمسك بوالده وقال: «والله لا تنقلب ـ أي: ترجع إلى المدينة

---

(٨) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ١١٠)، وتفسيره (٢٨/ ١١٦)، والاكتفاء (٢/ ٢١٨)، والبداية والنهاية (٤/ ١٥٨).

- حتى تُقرَّ أنك الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز، ففعل» رواه الترمذي[٩].

وخذل الله هذا المنافق؛ فما أحدث حدثاً بعد ذلك إلا كان قومُه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «**كيف ترى يا عمر؟! أما والله لو قتلتُه يوم قلت لي: اقتله؛ لأرعدت له أُنفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**، فقال عمر: قد والله علمت، لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ بركة من أمري»[١٠].

نفعني الله وإياكم بآي القرآن العظيم، وبهدي سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

---

(٩) هذ زيادة في حديث جابر رضي الله عنه المخرج في الهامش (٦)، وهذه الزيادة أخرجها الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة المنافقين، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٣١٥).

(١٠) انظر: المراجع المذكورة في هامش (٧).

أمَّا بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وتمسكوا بكتاب ربكم جلَّ في علاه، وبسنة نبيكم محمد ﷺ؛ فإن الخير كل الخير في التمسك بالكتاب والسنة.

أيها المؤمنون: ما أصاب الأمةَ المسلمة من عجز وضعف في العصور المتأخرة كان سببه تقديم الدنيا على الآخرة، وما نتج عن ذلك من تفرق واختلاف، وتنافس على الدنيا. كل ذلك أدى إلى طمع الآخرين من كفار ومنافقين في المسلمين؛ فاستباحوا حماهم، واعتدوا على بلدانهم، بل وعلى دينهم وشريعتهم.

إنه واقع مهين يتكرر مع المسلمين على مرِّ الأزمان، واختلاف البلدان، متى ما ضيَّع المسلمون أمر دينهم، واستكانوا لأعدائهم. ويزداد العدوان مع ازدياد الذل والمسكنة والخضوع.

وفي عصرنا هذا يعيش المسلمون ذلاً وخضوعاً ليس خافياً على أحد؛ فإخوانهم يقتلون ويعذبون ويحاصرون في كل مكان ولا يستطيعون نجدتهم فضلاً عن نصرتهم، ويعتدى على مقدساتهم وحرماتهم وهم عاجزون عن صيانتها وحفظها.

ولما انكشف ضعف المسلمين وتفرقهم بانت أطماع الكافرين، وظهر نفاق المنافقين، وتلاشت القيم الحضارية، والقوانين الدولية، التي كان يتشدق بها أعداء المسلمين.

لقد أعلنوا حربهم على الإرهاب، وحشدوا أمم الأرض كلها خلفهم بالرضى أو بالإكراه، وامتنعوا عن تعريف هذا الإرهاب الذي جمعوا العالم كله لحربه؛ ولكن جمعاً من كتابهم وسياسييهم اتهموا الإسلام

بأنه دين التطرف والإرهاب، وأن نصوص الجهاد في الكتاب والسنة هي تكريس للعنف، وطالبوا المسلمين بإعادة النظر في مصطلح الجهاد ومدلولاته ونصوصه[١١]، ثم برز عدد من رهبانهم بالاعتداء على شخص النبي صلى الله عليه وسلم، واتهامه بأنه أول إرهابي في هذه الأمة[١٢].

وظهر بذلك مقصودهم بالإرهاب الذي يريدون حربه وهم لم يُعَرِّفُوه.

إنه دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى، وصدق الله العظيم حينما أخبرنا عنهم فقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم

---

(١١) ومن ذلك أن عدداً من الخبراء والأكاديميين الأمريكان عقدوا اجتماعاً في واشنطن في شهر جمادى الأول من هذا العام لمناقشة كيفية التعامل مع العالم الإسلامي، ومما ألقي في ذلك الإجتماع: إمكانية البحث عن بديل لكلمة الجهاد، وكذلك مطالبتهم بتغيير المناهج الدراسية الدينية، وحذف كل ما يدل على الجهاد من الآيات والأحاديث، ومن عجيب ما يذكر في هذا الشأن: أن طالباً مسلماً أمريكياً اختير في حفل التخرج لإلقاء كلمة الطلاب، فاختارها بعنوان (الجهاد الأمريكي) فمنعوا ذلك الطالب من ذكر هذا المصطلح الشرعي، أو الإشارة إليه؛ لأنه صار عنواناً للتطرف والإرهاب!!.

(١٢) ومن أولئك المتعصبين الأمريكان الذين حاولوا تشويه الإسلام، والهجوم على النبي صلى الله عليه وسلم جيري فالويل الذي وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه (إرهابي) وبات روبرتسون الذي وصفه بأنه (شخص متعصب وقاتل وقاطع طريق)، وفرانكلين جراهام الذي وصف دين الإسلام بأنه (دين شرير ومؤذ) وهذه المقولات كلها كانت قبل أيام في ظل تصاعد الحملة الأمريكية على الإسلام والمسلمين.

﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وأما المنافقون من بني جلدتنا فما بارحت أفعالهم أفعال سالفيهم من ابن سلول وأتباعه؛ فإنهم وقفوا صفاً متراصاً مع حملة الكافرين على الإسلام وتعاليمه وأحكامه، فأعمدتهم في صحفهم تطالعنا كل يوم بالهجوم على مناهج تعليمنا، ومقررات ديننا، مطالبين بتغييرها، وتجاوز هذا التراث القديم كما يقولون، الذي هو شريعة الله تعالى.

ولئن كان ابن سلول يقول في غزوة بني المصطلق: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل) فإن منافقي عصرنا يبشرون بذلة المسلمين، وانتهاء دينهم، وتغيير ثوابتهم مع هذه الحملة الصليبية الظالمة، ويعدوننا بتدمير ما يسمونه بالإسلام السياسي؛ إذ إنهم قسموا الإسلام الشامل الكامل إلى أقسام ينتقون منها ما يشاؤون، ويرفضون ما لا يريدون.

ورغم مظاهر الضعف والذلة التي تحيط بالمسلمين من كل جانب فإن دين الله تعالى عزيز، وإن ما يسوء الكافرين والمنافقين باق رغم أنوفهم، ولن يقضى على الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده مهما كانت قوة الكافرين، ومهما كان ضعف المسلمين، ومهما بلغت مؤامرات المنافقين، وما أصاب المسلمين من ذلة وقهر واستكانة وتسلط أعدائهم عليهم كان بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

وواجب هذه المرحلة يقتضي العودة الجماعية من الأمة المسلمة إلى دين الله تعالى، والاستمساك بأحكام الشريعة، مع كثرة العبادة، والأعمال الصالحة، والدعوة إلى الله تعالى، والتخلص من الذنوب والمعاصي

التي هي سبب الذل والمهانة، والإلحاح على الله تعالى بالدعاء على الكافرين والمنافقين بأن يردَّ كيدهم في نحورهم، ويسلم المسلمين من شرورهم، وما ذلك على الله بعزيز.

وإذا علم الله تعالى صدق عباده في اللجوء إليه، والتوكل عليه، كفاهم أعداءهم كما كفى المسلمين شر الأحزاب في غزوة الخندق، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الذينَ كَفَرُوا بغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْرًا وكَفَى اللَّهُ المؤْمنينَ القتَالَ وكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزيزاً﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم.

١٣١- حادثة الإفك

الجمعة ٢٦/ ٣/ ١٤١٥هـ

الحمد لله؛ يعلم السر وأخفى، ويسمع كلّ نجوى، وإليه ترفع الشكوى. أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ خيره يرجى، وفضله وإحسانه لا يحصى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله العبد المجتبى، والنبي المصطفى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أولي البر والتقى، والصلاح والاقتداء، والتابعين ومن تبعهم وسار على نهجهم واقتفى.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عز وجل، فاتقوه حق التقوى، واستمسكوا بالعروة الوثقى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨].

أيها الإخوة المؤمنون: ما فتئ الكافرون والمنافقون يحسدون أهل الإسلام على إسلامهم، في الغابر والحاضر، حاكوا المؤامرات، ودبروا المكائد، ومكروا مكراً كباراً؛ للقضاء على الإسلام والمسلمين.

وقد سجل التاريخ مكائدهم ومكرهم، وما خلت أمة الإسلام من منافقين يندسون في صفوفها، ويكونون من أبنائها وهم من ألدِّ أعدائها منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا.

وفي حادثة عظيمة: أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد المنافقين، وقذفت زوجه أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها. قذفت في عرضها، واستبيحت

كرامتها، وتولى القرآن العظيم الدفاع عنها بآيات تتلى إلى يوم الدين. وأحداثُ القصة مـدّونة في كتب السنة والسيرة، وهاكم إياها علـى لسان صاحبـة الحادثـة عائـشـة رضي الله عنها .

روى الشيخان واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه. قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي وأُنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين؛ آذن ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش.

فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جَزْع أظفار قد انقطع، فالتمست عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذيـن كانوا يَرحَلون لي، فاحتملوا هودجي فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنت ركبتُ، وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يُثقِلْهُن اللحم، إنما تأكل العُلْقَة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه. وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأَمَمْتُ منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ.

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن

المعطَّل السُلمي من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني، فعرفني حين رآني ـ وكان يراني قبل الحجاب ـ فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك [أي وقع في الإفك من وقع] وكان الذي تولى الإفك عبدُالله بن أبي بن سلول.

فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَرِيْبُني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُسلِّم ثم يقول: «كيف تِيكُم؟» ثم ينصرف. فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نَقَهْتُ، فخرجت معي أم مسطحٍ قِبَلَ المناصع ـ وهو متبرزنا ـ وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تُتَّخذَ الكُنُف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأُوَل في التبرز قِبَلَ الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مِسْطح ـ وهي ابنة أبي رَهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسْطح بن أثاثة ـ فأقبلت أنا وهي قِبَلَ بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبين رجلاً شهد بدراً؟! قالت:

أي هَنْتَاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك؛ فازددت مرضاً على مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم - تعني سلّم - ثم قال: «كيف تِيكم؟» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويِّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، قالت: فأذِن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنيّة هوِّني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأةٌ قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله! أوَلَقَد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرْقأُ لي دمْعٌ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحتُ أبكي.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب وأسامة ابن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يُضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم برَيرة فقال: «أي بريرةُ، هل رأيت من شيء يريبك؟» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغْمِصهُ سوى أنها جارية حديثة

السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدَّاجِنُ فتأكله.

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر يومئذ من عبدالله ابن أبي بن سلول. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: **يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**، فقام سعد ابن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً؛ ولكن احتملته الحمِيَّة ـ فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَفِّضُهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا اكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: **أما بعد: يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرِّئُك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**، قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالتهُ قَلَصَ دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به فلئن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لَتُصَدِّقُنِّي، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مُبَرِّئي ببراءتي؛ ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزلٌ في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن

يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يُبَـرِّئُني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان من العَرَق وهو في يوم شـاتٍ من ثقَلِ القول الذي ينزل عليه، قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُرِّيَ عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلّم بها: **«يا عائشة أمّا الله عزَّ وجلَّ فـقـد بـرّأك»**، فقالـت أمي: قومي إليـه، قالت: فـقلت: والله لا أقـوم إليه، ولا أحمـد إلا الله عــزَّ وجلَّ، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿**إنَّ الَّذينَ جَاءُوا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ**﴾ العشر آيات كلها.

فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديـق رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه وفقره ـ: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فَرَجَعَ إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينبَ ابنة جحش عن أمري فقال: **يا زينب ماذا علمت أو رأيـت؟** فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، وقالت: وهي

التي كانت تساميني من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حَمْنَة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢٠] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه وهذه الرواية في كتاب التفسير، تفسير سورة النور باب: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ (٤٧٥٠)، ومسلم في التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة النور (٣١٨٠)، وأحمد (٦/ ٥٩)، وأبو يعلى (٤٣٩٧ ـ ٤٩٢٧)، وعبد الرزاق (٥/ ٤١٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، لا يذل من والاه، ولا يعز من عاداه. أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلئن كان متولي كبر الإفك: رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وقد ذهب وهلك؛ فإن له خلفاً يوجدون في كل عصر ومصر، ويجتمعون من كل حدب وصوب. جمعتهم عقيدة النفاق، ورابطة التلون، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك. ظاهرهم الإسلام، وباطنهم كفر وأحقاد، اختلطوا بمجتمع المسلمين، هم من جنسنا - عرب لا عجم - ويتكلمون بألسنتنا، يظهرون الدفاع عن الأوطان، ويبطنون العداء لأهل الإيمان، يكيدون المكائد، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [المنافقون: ٤].

يفرحون لظهور الكافرين، ويغتمون لنصر المؤمنين. ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الجهاد الإسلامي ليس جهاداً عندهم؛ وإنما هو اقتتال قبائل، أو تحرير أرض، أو نصر للقومية والوطنية. عندما التقى الجمعان في أحد انسحب منهم ثلاثمئة تخذيلاً وإرجافاً للمؤمنين ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ**

تَعَالَوْاْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧] المجاهدون عندهم ثوار: إما ثـور جوع أو ثوار حرية.

كل إنجاز أو خير يحصل للمسلمين ينسبونه إلى أنفسهم وأفعالهم، وكل مصيبة أو بـلاءٍ ينزل بالمجتمع يفرحون به، ويتبرؤون منه ولـو كانوا هم وراءه.

يريدون من المسلمين أن يثوروا على الإسلام وتعاليمه، ويصفون العلماء والدعاة والمصلحين بأوصاف منفرة، ويرمونهم بتهم باطلة.

يجيدون دس الدسائس، وإلصاق التهم في مظهر الناصح الأمين، وقصدهم خلخلة الإسلام في القلوب، وزعزعة المجتمعات الآمنـة، ونزع الثقة بين العباد؛ إيغالاً للصدور، وتفرقة بين الناس، ويعملون على إيجاد الفجوات بين العلماء والولاة وسائر الناس؛ حتى يتمكنوا، ولفسادهم ينشروا.

ولئن كان رأسهم قد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهله؛ فإن فيهم هذا الزمن من يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، والمؤمنين أجمعين، ويسيؤون للإسلام في مجالسهم ومنتدياتهم، وصحفهم ونشراتهم، ومقالاتهم وقصائدهم. فيهم من يستهزئون بالله وآياته ورسوله، فيهم من يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمـنـوا بقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، واتهام المؤمنين الصادقين، وفيهم

من يشيعون الفاحشة بتسهيل طرقها، وإقرار فعلها، بل والتشجيع على ارتكابها. يدعون إلى الفساد بكل أسلوب، وينشرون الرذيلة في كل مكان، لا يكلون ولا يملون.

وإذا ما افتضح أمرهم، وبان للناس عوارهم ونفاقهم، كتبوا عن محاسن الإسلام مقالاً، أو نشروا في آداب الخلاف بين الأمة بياناً؛ امتصاصاً للغضب، وخداعاً للعامة؛ حتى يقول العامة: ها هم يكتبون عن الإسلام والدعوة، فلماذا يوصمون بالنفاق والعلمنة، وهم يدسون فيما يكتبون حتى عن الإسلام، ويُكَفِّرُون عنه بعشرات المقالات في نقد الإسلام وتعاليمه وحملته.

وعند المنافقين: من دعا إلى خير، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فهو من المجرمين الخارجين المارقين ﴿ **المُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٦٧].

ولشنيع أفعالهم، وقبيح صنائعهم؛ أمر الله بالغلظة عليهم ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾، وأما في الآخرة ﴿ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [التحريم: ٩]، ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٤٥]، ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٦٨].

نعوذ بالله من النفاق وأهله، ونسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا بالإيمان،

وأن يثبتنا عليه إلى أن نلقاه.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

١٣٢- إجلاء بني النضير

الجمعة ١/ ٤/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسنته في أقواله وأفعاله، وأخلاقه وإقرارته. في حله وترحاله، وحربه وسلمه، وفي حياته كلها، ومعاملاته مع المسلمين وغيرهم ترسمُ المنهجَ الصحيح، وتدلُ على الصراط المستقيم الذي لن يحيد عنه من كان مستمسكاً بالأثر، مستناً بالسنة. تلك هي الحقيقةُ التي ضلَّ عنها كثير من المسلمين في عصور الانحراف والانحطاط.

وفي حادثة من حوادث السيرة النبوية وقعت في ربيع الأول من

السنة الرابعة من الهجرة[1] يتبين من خلالها غدرُ اليهود، وعوارُ المنافقين في آيات تتلى إلى يوم الدين، ذلكم هو جلاء بني النضير عن المدينة النبوية.

لقد كان موقف الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد الهجرة على ثلاثة أقسام:

قسمٌ وادعهم على أن لايحاربوه ولايمالئوا عليه عدوه، وهم طوائف اليهود الثلاثة قريظةُ والنضيرُ وقينقاع.

وقسمٌ حاربوه ونصبوا له العداوة وهم قريش.

وقسمٌ تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب.[2]

واليهود لا عهد لهم ولا ذمة ولا أمان؛ إذ نقضوا عهدهم طائفة طائفة. وكذلك فعل بنو النضير فقد روى عبدُالرحمن بنُ كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «أن كفار قريشٍ كتبوا إلى ابن أبيٍّ ومن كان يعبدُ معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لَتُقاتلُنَّهُ أو لتخرجُنَّهُ أو لنسيرَنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقاتلَ مقاتلتكم، ونستبيحَ نساءَكم. فلما بلغ ذلك عبدالله ابن أبيٍّ ومن كان معه من عبدةِ الأوثان اجتمعوا لقتال النبي صلى الله

(١) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٦٣) وطبقات ابن سعد (٢/ ٥٧) وسيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٧) وجوامع السيرة لابن حزم (١٤٤).

(٢) فتح الباري للحافظ ابن حجر بتصرف يسير (٧/ ٣٨٣).

عليه وسلم، فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم فقال: «**لقد بلغ وعيدُ قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم**» فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا.

فبلغ ذلك كفار قريش؛ فكتبوا بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهلُ الحلْقة والحصون، وإنكم لتقاتِلُنَّ صاحبنا أو لنفعلَنَّ كذا وكذا لا يحول بيننا وبين خدَم نسائكم شيء - وهي الخلاخيل - فلما بلغ كتابُهم النبي صلى الله عليه وسلم وأجمعت بنو النضير بالغدر.

فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج ثلاثون حبراً؛ حتى نلتقي بمكان المَنْصَف فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك - فقص خبرهم - فلما كان الغدُ غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: «**إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدونني عليه**» فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك. ثم غدا الغدُ على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه. فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها.

فكان نخل بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، أعطاه الله إياها وخصه بها فقال: ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا**

أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] يقول: بغير قتال، فأعطى النبيُّ صَلى الله عليهَ وسلم أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذَوَيْ حاجة لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في أيدي بني فاطمة رضي الله عنها» أخرجه عبدالرزاق وأبوداود وابن مردويه وصححه الحافظ (٣).

وتذكر كتبُ السير قصة غدرٍ آخر كانت أيضاً من أسباب جلائهم عن المدينة، وهي: «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إليهم ليستعين بهم على دية قتيلين معاهدين، فلما كلمهم قالوا: نعم، فقعد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر وعلي ونفرٍ من أصحابه إلى جدار من جدرهم. فاجتمع بنو النضير وقالوا: من رجل يصعدُ على ظهرِ البيت فيلقي على محمد صخرةً فيقتله، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بنُ جحاشٍ بن كعب، فأوحى الله تعالى بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام ولم يُشعر بذلك أحداً من أصحابه ممن معه. فلما استلبثه أصحابُه رضي الله عنهم قاموا فرجعوا إلى المدينة،

---

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٩٧٣٢) وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء باب في خبر النضير واللفظ له (٣٠٠٤) والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٨) وعزاه الحافظ في الفتح لابن مردويه وصحح إسناده (٧/ ٣٨٥) وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها عند الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٥٢٥) برقم (٣٧٩٧).

وأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه مما أرادته اليهود، وأمر أصحابه بالتهيؤ لحربهم، واستعمل على المدينة ابنَ أمِ مكتوم. ونهض إلى بني النضير فحاصرهم ست ليال، فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخل وإحراقها. ودسَّ عبدُالله بن أبيّ بن سلول ومن معه من المنافقين إلى بني النضير: إنا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فاغتروا بذلك، فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفَّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح فاحتملوا بذلك إلى خيبر ومنهم من صار إلى الشام». أخرجه أهل السير مرسلاً[٤].

وقد كان جلاؤهم من المدينة رحمةً لهم كما قال الله تعالى ﴿**وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا**﴾ [الحشر: ٣] وذلك بالقتل والسبي كما كان مصيرُ إخوانهم بني قريظة.

وقد أخذ الفقهاء من قطع النبي صلى الله عليه وسلم بعض نخيل النضير وإحراقها أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوطٌ بمايراه الإمامُ أو القائدُ من مصلحةٍ في النكاية بالعدو، وأن ذلك من قبيل مايدخل تحت السياسة الشرعية[٥]، قال ابن عمر رضي الله عنهما:

---

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٧) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٨٠) وجوامع السيرة لابن حزم واللفظ له (١٤٤) وفتح الباري (٧/ ٣٨٥).

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ٥٠) وفقه السيرة النبوية للبوطي (١٩٢) =

«حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فنزلت ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] متفق عليه[٦].

وقد استغنى النبيُ صلى الله عليه وسلم والمهاجرون بعد النضير وقريظة بنخلهم عن مواساة إخوانهم الأنصار لهم، كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «أن الأنصارَ كانوا واسوا المهاجرين بنخيلهم لينتفعوا بثمرها، فلما فتح اللهُ النضير ثم قريظة قسمَ في المهاجرين من غنائمهم فأكثر وأمرهم برد ما كان للأنصار؛ لاستغنائهم عنه، ولأنهم لم يكونوا ملكوهم رقاب ذلك»[٧].

وأخرج البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان الرجلُ يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم النخلات حتى افتتح قريظة والنضير فكان بعد ذلك يرد عليهم»[٨].

= والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية للدكتور مهدي رزق الله (٤٢٣) وهذا هو مذهب الجمهور نافع ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم، وعدم جواز قطعها قال به: الليث وأبو ثور والأوزاعي، والأول أرجح للنص، ولعدم الدليل على الخصوصية.

(٦) أخرجه البخاري في المغازي باب حديث بني النضير (٤٠٣١) ومسلم في الجهاد والسير باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها (١٧٤٦) وأبو داود في الجهاد باب في الحرق في بلاد العدو (٢٦١٥) والترمذي في السير باب التحريق والتخريب (١٥٥٢) والنسائي في التفسير (٥٩٣).

(٧) فتح الباري (٧/ ٤٧٤).

(٨) أخرجه البخاري في المغازي باب حديث بني النضير (٤٠٣٠).

وأنزل الله في شأنهم وما حدث لهم من الخوف والرعب والحصار والجلاء سورةً تتلى إلى يوم القيامة هي سورة الحشر، وقد كان ابنُ عباس رضي الله عنهما يسميها: سورة النضير، كما أخرج البخاري من حديث سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: «قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورةُ النضير»[٩]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)** ﴾ [الحشر] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن حادثة النضير وإجلاءَهم عن المدينة تنطوي على

---

(٩) أخرجه البخاري في المغازي باب حديث بني النضير (٤٠٢٩).

آيات وعبر يجب أن يعتبر بها المؤمنون، فعلى الرغم من حصون اليهود المنيعة وكثرة العدد ووفرة العتاد، فإنهم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجوا من حصونهم أذلة، وقبلوا الجلاء!! فما الذي أخرجهم من حصونهم؟

إنه جنديٌ من جند الله الخفية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] إنه الرعب، جُندي الله الخفي، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة، ولا قوة ولا شدة؛ فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخلُ عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها. ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله كان وبالاً عليه، فأتاهم أمرٌ سماوي نزل على قلوبهم التي هي محلُ الثبات والصبر أو الخور والضعف، فزعزعها وهزها، وأزال قوتها وثباتها، وشدتها وبأسها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً وذلاً لا حيلة لهم في دفعه ولا رفعه(١٠)، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر].

نعم والله، اعتبروا؛ لأن الموطن موطنُ اعتبار، اعتبارٍ للمؤمنين أن لايخافوا عدوهم، ولا يرهبوا ترسانته النووية؛ لأن الرعب أمضى، وجند الله أقوى. ووالله ما تترس الأعداء خلف هذه النوويات المخيفة، والكيميائيات المهلكة إلا من رعبٍ في قلوبهم، وهلع في أوساطهم،

(١٠) بتصرف من تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي (٥/٢٠٣).

وخوفٍ يلفهم من كل جانب. وإنك لتشاهد صوراً من هذا الرعب تدعو للاعتبار، حينما ترى اليهود المدججين بالسلاح المتطور يترددون في مواجهة عُزَّلٍ يرشقونهم بالحجارة.

وينبغي أن يزيد اعتبارك حينما تعلم عن تقارير تصف الحالة النفسية السيئة لليهود في فلسطين، وأن الخوف والقلق يصبح معهم ويمسي، ويأكلون معه ويشربون. ويتأكد ذلك أكثر لمن تأمل تصريحات قادتهم، وتقارير منظريهم من المستقبل الغامض لديهم، واحتمالاتِ انفجار الوضع في أي لحظة.

هم لا يخافون الحمائم العلمانية المنافقة؛ لأنها شريكةٌ لهم في فصول المسرحية الهزيلة، وما كان أمنُ اليهود إلا من خلال أفعالها؛ ولكن اليهود يخشون - كما يخشى إخوانهم المنافقون - انقضاضة الصقور الإسلامية الصادقة.

والجميع: اليهود والمنافقون يخشونها أشد خشية؛ حتى إنهم يخشون المؤمنين أشدَّ من خشيتهم لله تعالى، ولكن حين يأذن الله بها فلن ينتفع اليهود بالمنافقين، ولا المنافقون باليهود، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ

شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤)﴾ [الحشر: ١١ - ١٤].

ولئن خذلَ ابن أبيّ ومن معه من المنافقين إخوانهم يهودَ النضير، وتخلوا عنهم لما جدّ الجد، وحصل الحصار، وتم الجلاء؛ فإن يهود اليوم ومنافقيهم سيتخلى كل طرف منهما عن صاحبه، وستلعن كل أمة منهما أختها؛ وذلك حينما يعود المسلمون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويبعثوا شعيرة الجهاد من جديد؛ فيتحقق الوعد الحق بنصر المؤمنين على أعدائهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

١٣٣- غـزوة خـيبر

١٤/ ١/ ١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: تظل السيرة النبوية - وهي تحكي حياة أفضل البشر وأحواله وأيامه - معيناً لا ينضب، وحديثاً لا يُمل، ومصدراً يهدي العباد للتي هي أقوم، في كل أمر يحتاجونه.

إنها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، سيرةٌ فيها أملٌ لليائسين، وسلوان للمغمومين، وعوض للموتورين، تسجل تلك السيرة العطرة أنه كان ليهود خيبر

موعدٌ مع جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم في أول شهر من السنة السابعة من الهجرة المباركة، ويحلو الحديث عن خيبر وأحداثها في محرم؛ لأنها وقعت فيه، وعن اليهود؛ لأن حديث العالم اليوم عن اليهود.

كانت خيبر آنذاك مدينة كبيرة، ذات حصون منيعة، ومزارع مثمرة، وكان يهودُها قد حزّبوا الأحزاب من قبلُ ضد المسلمين، وأشاروا على بني قريظة بالغدر والخيانة، وما زالوا يتصلون بالمنافقين في المدينة لإثارة القلاقل، وبث الشائعات، والإضرار بالمسلمين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرجىءُ قتالهم لانشغاله بكفار مكة عنهم، وكانت الفرصة مواتية لغزوهم حينما تم صلحُ الحديبية، والاتفاق على إيقاف الحرب بين الجيش المدني المؤمن والجيش المكي الكافر، فتفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابتُه ليهود خيبر بعد هذا الصلح مع قريش، وقد وعدهم الله تعالى عقب هذا الصلح مغانم خيبر بقوله تعالى: ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ**﴾ [الفتح: ٢٠] قال المفسرون «فعجل لكم الصلح مع قريش لغزو خيبر وأخذ مغانمها»(١).

---

(١) ورد هذا في حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أنهما قالا: «انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح، فيما بين مكة والمدينة فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر...» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٩٧) وذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٤٦٤) وقاله مجاهد كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٢) وانظر: زاد المعاد (٣/ ٣١٧) وسيرة ابن كثير (٣/ ٢٤٤).

وكعادة المنافقين في كل وقت محاولة قطف الثمار التي لم يزرعوها، وسرقة نتائج جهاد وجهود الآخرين، فأرادوا الانضمام إلى جيش المدينة المؤمن؛ لأنهم علموا أن المؤمنين موعودون بالغنائم من قبل الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد، فتباً للمنافقين كيف يعلمون أن محمداً رسول الله تعالى، وأنه بالنصر موعود، ولم يؤمنوا!! بل لم يدفعوا أذاهم عن المؤمنين؟! لكن المنافقين لم ينالوا ما أرادوا، فقد أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الفتح: ١٥] وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، وأما الغنيمة فلا، فخرج أصحاب الشجرة، وهم ألف وأربعمئة(٢).

وكما هي عادة المنافقين: خيانة المؤمنين في الساعات الحرجة، والمواقف العصيبة؛ فإن رأسهم آنذاك عبدالله بن أبي بن سلول راسل يهود خيبر يخبرُهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المسير إليهم(٣).

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر، قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «خرجنا مع النبي

---

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٠٦) وسبل الهدى والرشاد (٥/ ١١٥).
(٣) الرحيق المختوم (٣٦٥).

صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك - وكان عامرُ رجلاً شاعراً - فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا وألْقِيَن سكينةً علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا إنا إذا صِيح بنا أتينا
وبالصياح عَوّلُوا عَلَينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **من هذا السائق؟** قالوا: عامرُ بن الأكوع، قال: **يرحمه الله**، وفي رواية: **غفر لك ربُّك**، قال: وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان يخصّه إلا استشهد فقال عمر وهو على جمل: وجبت يا رسول الله لولا أمتعتنا بعامر» أخرجه الشيخان(٤). ووقع ذلك فاستشهد عامر رضي الله عنه في هذه الغزوة، وهذه من آيات نبوته صلى الله عليه وسلم.

وأشرف المسلمون على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً**» أخرجه الشيخان(٥).

---

(٤) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (٤١٩٦) ومسلم في الجهاد باب غزوة خيبر (١٨٠٢).

(٥) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (٤٢٠٢) ومسلم في الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ووصل المسلمون قريباً من خيبر فباتوا، وكان من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح، وفي تلك الليلة - ليلة دخول خيبر - قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: **أين علي بن أبي طالب**؟ فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه، قال: **فأرسلوا إليه**، فأتي به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه، ودعا له؛ فبرىء كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: **انفذْ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النِّعم**» أخرجه الشيخان[٦].

فلما أصبح صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون، فلما أشرف على خيبر، تضرَّع إلى الله قائلاً: «**اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير ما فيها، ونعوذ بك من**

---

(٦) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (٤٢١٠) ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل علي رضي الله عنه (٢٤٠٦) وله روايات أخرى في الصحيحين وغيرهما.

شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها» أخرجه الطبراني في الكبير[٧].

ولم يشعر اليهود بمقدم المسلمين، فخرجوا على عادتهم إلى مزارعهم بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد والخميس - أي الجيش - ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»** أخرجه الشيخان[٨].

كانت خيبر محصنة بحصون ثمانية، تساقط بعضها في أيدي المسلمين، وبعضها تماسك وظل منيعاً، فضرب المسلمون الحصار عليها، وطال الحصار حتى جاع المسلمون، وهمّوا بأكل الحمير، قال عبدالله

(٧) أخرج النسائي من حديث صهيب رضي الله عنه في عمل اليوم والليلة من السنن الكبرى (٨٨٢٧-١٠٣٧٧-١٠٣٧٨) والبيهقي (٥/ ٢٥٢) وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ١٨٧) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٣) برقم (٧٢٩٩) وصححه ابن خزيمة (٢٥٦٥) وابن حبان (٢٧٠٩) والحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٤٤٦) و(٢/ ١٠٠) كلهم دون ذكر خيبر بلفظ: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها...» وقال الهيثمي في الزوائد: «رجاله رجال الصحيح غير عطاء بن أبي مروان وأبيه وكلاهما ثقة». وأخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي مروان الأسلمي عن أبي متعب بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أشرف على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم: **قفوا** ثم قال: ...فذكره، وقال البخاري عن تلك الرواية بعد أن ساقها في التاريخ الكبير (٦/ ٤٧١): «ولا يصح هذا» وحسنه الألباني في فقه السيرة للغزالي (٣٤٠) باعتبار حديث صهيب شاهداً له (٢٢/ ٣٥٩).

(٨) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (٤١٩٧) ومسلم في الجهاد باب غزوة خيبر (١٣٦٥).

ابن أبي أوفى رضي الله عنه: «أصابتنا مجاعةٌ ليالي خيبر، فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحُمْر الأهلية، فانتحرناها، فلما غلت بها القدور؛ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أكفئوا القـدور، ولا تأكلوا من لحوم الحُمْر شيئاً» رواه الشيخان(٩).

واشتد الحصار على اليهود، وطال على المسلمين - أربعة عشـر يوماً - حتى همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضربهم بالمنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلـح، فصالحهم على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر بذراريهم، وأما الأرض والأموال - الذهب والفضة، والكراعُ، والحلقةُ، والبز - فللمسلمين إلا ثوبـاً على ظهر إنسان، وفي رواية: أن لهم أن يأخذوا ما تحمل ركابهم، وبعد هـذه المصالحة سلّموا الحصون للمسلمين، وتم فتح خيبر.(١٠)

كان كفار مكة يتحسسون الأخبار لعل جيش الإيمان ينهزم أمـام هذه الحصون المنيعة ولكن الله تعالى أراهم ما يكرهون.

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلي اليهود منـهـا، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقومُ عليها،

(٩) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (٤٢٢١) ومسلم واللفظ له في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسيـة (١٩٣٧).

(١٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٩٩) وزاد المعاد (٣/ ٣٢٥) والسيرة الحلبية (٢/ ٧٤٤).

فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلمانٌ يقومون عليها، ولم يكن هو وأصحابه فارغين حتى يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمر، ومتى أراد المسلمون إخراجهم منها خرجوا[١١]، فبقوا زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خلافة الصديق رضي الله عنه، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه غشوا المسلمين، وألقوا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما من فوق بيت ففدعوا يديه، واتُّهموا بقتل رجل من الأنصار؛ فخطب عمر رضي الله عنه في الناس قائلاً: «إن رسول الله كان عامَل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبدالله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم، مع عدوهم على الأنصاري قبله، لا نشك أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدوٌ غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإني مخرج يهود، فأخرجهم»[١٢].

(١١) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أبو داود في الخراج باب ما جاء في حكم أرض خيبر (٣٠٠٦) والبيهقي في السنن (٦/ ١١٤) وفي دلائل النبوة (٤/ ٢٢٩) وصححه ابن حبان (٥١٩٩) وانظر أيضاً: صحيح البخاري كتاب المغازي باب معاملة النبي أهل خيبر (٤٢٤٨) وصحيح مسلم كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع (١٥٥١).

(١٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أحمد واللفظ له (١/ ١٥) وأخرجه أبو داود مختصراً في الخراج باب ما جاء في حكم أرض خيبر (٣٠٠٧) والبزار في البحر الزخار (١٥٤) وابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٤٦٢) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٩٠) وأخرجه البخاري بنحوه في الشروط باب إذا اشترط في المزارعة: إذا شئت أخرجتك (٢٧٣١-٢٧٣٢).

أيها الإخوة: كانت هذه الغزوة حافلةً بالأحداث الكثيرة المثيرة، ووقع فيها من الآيات والمعجزات ما يزيد إيمان المؤمنين، ومن ذلك: أن امرأة يهودية بعثت بشاة مسمومة مصلية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهس من كتفها نهسة ثم لفظها وقال: «**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**»(١٣).

وفي هذه الغزوة قدم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الأشعريين رضي الله عنهم من أرض الحبشة، وكانوا قد هاجروا إليها زمن إيذاء المشركين في مكة، فأسهم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرح بقدوم ابن عمه ومن معه وقال: «**والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟!**»(١٤)، وقدم كذلك أبو هريرة ومن معه من الدوسيين

(١٣) خبر الشاة المسمومة أخرجه البخاري في الهبة باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٧) ومسلم في السلام باب السم (٢١٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وخبر إخبار العظم له انظره في: تاريخ الطبري (٢/ ١٣٨) وسيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٩) والدرر لابن عبدالبر (١/ ٢٠٤) والسيرة الحلبية (٢/ ٤٤٣) ودلائل النبوة (١/ ١٦٦) والبداية والنهاية (٤/ ٢١١) وزاد المعاد (٣/ ٣٣٥) وسبل الهدى والرشاد (٥/ ١٣٤).

(١٤) أخرجه مرسلاً عن الشعبي ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٢٠٦) وابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٤) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٦٤٠١) والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٨) برقم (١٤٦٩)، وأخرجه مسنداً من حديث الشعبي عن جابر رضي الله عنه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٦٢٤) وأخرجه من حديث أبي جحيفة عن أبيه الطبراني في الكبير (٤/ ١٠٨) برقم (١٤٧٠) وفي الأوسط (٢٠٠٣) وفي الصغير (٣٠) مرسلاً، وحسنه الألباني في فقه السيرة للغزالي (٣٥٠).

مسلمين، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم برضى الغانمين[١٥].

وبفتح خيبر شبع المسلمون من التمر، قالت عائشة رضي الله عنها لما فتحت خيبر: «الآن نشبع من التمر»، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر» أخرجهما البخاري[١٦].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح: ١٨-٢١] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - أيها المؤمنون - فتقوى الله تعالى سبب للتوفيق في الدنيا، والفوز في الآخرة.

---

(١٥) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٥٦٧).

(١٦) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة خيبر (٤٢٤٢) و (٤٢٤٣).

أيها الإخوة المؤمنون: إن اليهود على ما أَلِفَ المسلمون من حروبهم لا يعتمدون على تسيير الجيوش في الفضاء الرحب، تصيبُ ويصابُ منها، إنهم يكرهون اللقاء في تلك الميادين المكشوفة، وديدنهم الذي لا ينفكون عنه هو الكفاح من وراء الجدران(١٧)، كما أخبر القرآن العظيم عنهم ﴿**لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ**﴾ [الحشر: ١٤]. ولا يخرجون للمواجهة إلا حينما تكون أيادي خصومهم مغلولة، حينها تبرز شجاعتهم التي تدكُ الأرض دكاً، وتمزق العهود والمواثيق تمزيقاً، تلك العهود والمواثيق التي ما زالت الأحداث تلـو الأحـداث تثبت أن اليهود ليسوا أهلاً للوفاء بها، وهي الحقيقة التي قررها القرآن قبل أن تقررها الأحداث، وهي حقيقة أمرٌّ من العلقم على نفوس قوم تهاونوا بالقرآن، قولاً وعملاً، ولا زالوا يظنون بأعدائهم خيراً، رغم أن أعداءهم يضمرون لهم الشر والضغينة!!.

وإذا كان اليهود قد استطاعوا أن يبرهنوا للعالم بأن شؤونهم الداخلية التي تخصهم وحدهم مؤثرة في العالم كله، وتهم النـاس كلهم(١٨)؛

---

(١٧) فقه السيرة النبوية للغزالي (٣٤١).

(١٨) هذا إشارة إلى انتخابات اليهود التي تقام هذه الأيام ويتنافس فيها حزب الليكود وحزب العمل، وأكثر العرب يريدون فوز حزب العمل لزعمهم أنه أكثر تفهماً، خاصة ياسر عرفات الذي يتقرر مصيره من خلال تلك الانتخابات، وكذلك الرئيس الأمريكي كلينتون؛ لذا فإن إذاعات العالم وقنواته التلفزيونية والصحف والمجلات ليس لها هم هذه الأيام إلا تلك الانتخابات وانسحب ذلك علـى مجالس العامة والخاصة حتى إنك تسمع هذا الموضوع في كل مكان، فالله المستعان.

فإنهم لن يستطيعوا أن يزيلوا كراهيتهم من قلوب المسلمين، ولن يثبتوا أنهم ليسوا بأعداء؛ لأن القرآن يثبت أنهم أعداء ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة: ٨٢]. وتلك عقيدة يعتقدها المسلم، ودين يدين الله تعالى به في كل ركعة يصليها لله تعالى ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وسيعجز اليهود بقوتهم وأموالهم، ومكرهم ودهائهم عن إزالة هذا القرآن، أو محوه؛ لأنه محفوظ بحفظ رب العالمين، وخالق اليهود والناس أجمعين ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

وضعف المسلمين وعجزهم كان سبباً في قوة اليهود وتسلطهم وبغيهم، وهو من نتائج الذنوب والمعاصي التي تورد كل ذلة، وتسبب كل مصيبة، وحين يرجع المسلمون إلى دينهم أفراداً وجماعات فسوف تُرفعُ الذلة عنهم، وتعود لليهود كما كانت عليهم، حتى يقاتلهم المسلمون فينطق الحجر والشجر يقول: «**يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**» كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٩)، فعوداً إلى الله يا عباد الله عوداً،

---

(١٩) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الجهاد باب قتال اليهود (٢٩٢٦) ومسلم في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل.. (٢٩٢٢) واللفظ له. وأخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٢٩٢٥) ومسلم (٢٩٢١).

أصلحوا أنفسكم وبيوتكم، وانشروا الصلاح بين الناس، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر؛ فإذا تحقق ذلك جاء العز والنصر، ورفع الذل والهوان، وإذا كان غير ذلك فمزيد من الهوان، وعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

١٣٤- رمضان ومواقف من الفتح المبين

الجمعة ١٥/ ٩/ ١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن رمضان يرتبط بمكة حيث كان المبعثُ والرسالة، ونزولُ القرآن، فهي البلد المقدس، وهو الشهر العظيم. فكيف إذا انضم إلى ذلك أن تطهيرها من الرجس والأوثان على يد أهل الإيمان كان في رمضان.

هي البلدُ الحرام، فيها ولد سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام، عاش يتمه فيها، وعرفته جبالها وسهولها زمن صباه راعياً لأغنام قريش على قراريط يعين بها عمه الفقير.

فيها تزوج وأنجب، وكُلِّف وبعث؛ ليخرج الناس من الظلمات

إلى النور، فشهدت مكةُ إيذاءَ المشركين له ولأتباعه الذين آمنوا. كما سجل تاريخها قوة إيمان أتباعه وشدةَ بأسهم، وصلابتهم في الحق، عذبوا فما ارتدوا، وأخرجوا من ديارهم فخرجوا، وخُلِعوا من أموالهم فانخلعوا.

فرقتهم قريش عن آبائهم وأبنائهم ونسائهم فتفرقوا. هاموا في الأرض، وهاجروا إلى البلدان، وهجروا الراحة والأمان، وانتقلوا من الغنى إلى الفقر، ومن الاستقرار إلى التشريد، كلُ ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى، فلله كم ضحوا ؟ وكم صبروا ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** (١٤٦) ﴾ [آل عمران].

خرَج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من بلد الله الحرام التي ولد فيها وشبَّ وترعرع، خرج مهاجراً مستخفياً من قريشٍ وشدتها وبطشها، وماهي إلا رمضانات سبع حتى يعودَ إليها فاتحاً منصوراً مؤزراً، يُطهرها من الشرك والوثنية، ويعلن فيها التوحيد لله رب العالمين.

خرج منها مستخفياً خوفاً من قريش، وعاد إليها وقريشٌ تخافه.

إن هذا الزمن الذي كان بين خروجه شريداً وعودته فاتحاً أشبه ما يكون بأسطورة يتسلى بها أهل الحكايات؛ لكن هذا الزمن حقيقة من الحقائق، جلاّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبُه الكرام، بصدق الإيمان، وصحةِ المنهج، وتحقيقِ الإخلاص، وإيثار الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على كل شيء؛ ولا أدل على ذلك من فعل أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاء أبوها

أبو سفيان لتجديد العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نقضته قريش، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال: «يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش؟ أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراشُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت رجلٌ مشركٌ نجس، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر»(١).

لقد ذُهِل أبو سفيان لما رأى من إيثار ابنته أحداً عليه وهو أبوها؛ لكن هذا المقدَّم عليه ليس كسائر الناس، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام المرسلين وخاتم النبيين.

خرج عليه الصلاة والسلام من المدينة إلى مكة عازماً فتحها لعشرةِ أيام خلت من رمضان في السنة الثامنةِ من الهجرة(٢)، كان صائماً والمؤمنون معه صيام حتى بلغ الكديد فأفطر وأفطر الناس معه(٣) وأوقدت نيران الجيش، عشرة آلاف نار أرهبت قريشاً وأرعبتها.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٥) وانظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٣٢٥) ومغازي الواقدي (٢/ ٧٩٢).

(٢) ورد ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن إسحاق وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع فالحديث صحيح، انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٦٤) وفتح الباري (٤/ ١٨١).

(٣) كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في المغازي باب غزوة الفتح في رمضان (٤٢٧٥) ومسلم في الصيام باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان في غير معصية (١١١٣) وفي رواية أخرى لمسلم أن الإفطار=

وخرج أبو سفيان - سيدُ قريش وكبيرها - ينظر الخبر، فلقيه العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأردفه خلفه على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلب له الأمان؛ فأبصره عمر بن الخطاب وكان قائد الحرس تلك الليلة، فلما رأى أبا سفيان قد أردفه العباس قال عمر: أبو سفيان عدو الله؟ الحمدلله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، قال العباس: ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وركضت البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحدٌ دوني.

فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، قال عمر: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب.

= كان في (كراع الغميم) (١١١٤) وفي سيرة ابن هشام أنه كان في عسفان (٤/ ٦٠) والكديد: عين جارية تبعد عن مكة ستة وثمانين كيلاً، وعن المدينة ثلاثمئة وكيلاً واحداً بين عسفان وقديد، انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٥٦٠) وذكر ابن القيم في زاد المعاد أنه الذي تسميه الناس في زمنه قديداً (٣/ ٤٠٠).

الله أكبر! ما هذه القوة من عمر؟ وما هذا الإيثار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولقرابته على نفسه ووالده؟! فرضي الله عن عمر وأرضاه.

عند ذاك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به**»، قال العباس: فذهبت فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال: «**ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله**»، قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً، فقال العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً قال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**»(٤).

---

(٤) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري (٤٠٠) وقصة إسلام أبي سفيان جاءت بروايات عدة، عزاها الهيثمي في المجمع للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح (٦/ ١٦٤) وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية وقال: أخرجه إسحاق ابن راهويه (٤٣٦٢) وانظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٣٤) والدلائل للبيهقي (٥/ ٣٣) وسيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٩) وصحيح السيرة لإبراهيم العلي (٤٠٦).

وفي صبيحة الثلاثـاءِ السابعِ عشر من رمضـان [٥] سار إلى مكة حتى دخلها، لم يكن صلى الله عليه وسلم منتشياً بالنصر كما ينتشي القادة الفاتحون. يضعفون في تلك اللحظات مهما كانوا قوة وقيادة، فيظهر منهم أثر ذلك في إعمال السيوف في الرقاب، وانتهاب الأموال، وانتهاك الأعراض، أو على الأقل الفرحُ الشديدُ الذي يستخف صاحبَه. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن كذلك؛ بل نهى أن يكون جيشه كذلك، حينما مرّ سعد بن عبادة وكان يحمل راية الأنصار فقال لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم نزع اللواء من سعد وقال: «**كذب سعد** ـ أي أخطأ ـ **ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة**»[٦].

دخلها صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة الفتح [٧] وكان يضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن

---

(٥) الرحيق المختوم (٤٠١) والمتفق عليه عند أهل المغازي أنه خرج في عاشر رمضان، ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٦٠) والمغازي للواقدي (٢/ ٨٠١) والطبقات (٢/ ١٣٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦) والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٥٦١).

(٦) كما في حديث عروة عند البخاري في المغازي (٤٢٨٠).

(٧) جاء هذا في حديث عبدالله بن مغفل عند البخاري في المغازي باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح (٤٢٨١) ومسلم في صلاة المسافرين باب ذكر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة الفتح يوم فتح مكة (٧٩٤) والترمذي في الشمائل (٣١٢).

شعر لحيته ليكادُ يمس واسطة الرحل من شدة طأطأته [٨].

أتى صلى الله عليه وسلم مكة والمهاجرون والانصـارُ بين يديه وخلفه وحولَه حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمئـةٍ وستون صنماً فجعل يطعنها بالقوس ويقـول: «**جاء الحق وزهق الباطـل إن الباطل كان زهوقا**» «**جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**» [٩].

ولم يدخل البيت وفيه أصنامهم؛ بل أمر بها فأُخرجت، فأَخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط**» [١٠]، فأمر بالصور فمحيت، وصلى في البيت، وكبّر نواحيه، ووحد الله تعالى، ثم فتح الباب وخرج وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مالٍ أو دمٍ فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحـاج...** إلى أن قال: **يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلـيـة**

---

(٨) الرحيق المختوم (٤٠٣).

(٩) أخرجه البخاري في المغازي باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟ (٤٢٨٧) ومسلم في الجهاد باب فتح مكة (١٧٨١).

(١٠) أخرجه أحمد (١/ ٣٦٥) والبخاري في المغازي باب: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟ (٤٢٨٨).

وتعظُّمها بالآباء، الناسُ من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات] ثم قال: **يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟** قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: **فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾** [يوسف: ٩٢] **اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[(١١)]. ثم حضرت الصلاة فأمر بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة فأذن وسادة قريشٍ تحته[(١٢)].

الله أكبر!! ما أحسن العزَّ بالإسلام! وما أجمل الدوائر حينما دارت لأهل الإيمان على أهل الأوثان! الأسودُ الحبشي الذي كان يبتلى في دينه ويعذبه سادةُ قريش، اليوم في عز الإسلام يعلو الكعبة وسادة قريش تحته ليعلنَ التوحيد لله تعالى، ويصدعَ بأن الحق يعلو الباطل ولو كان حاملُ الحق عبداً ذليلاً ضعيفاً، ولو كان أهل الباطل سادةً في الناس أهلَ مال ومتاع وبأس وقوة. لكن لابد للحقِ أن يعلوَ لأن الله تعالى مع أهل الحق، ولابد للباطل أن يضمحل مهما بدا للناس قوياً شديداً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم **﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ**

---

(١١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٧٨) وروى بعضه أبو عبيد في الأموال (١٤٣) وابن سعد (٢/ ١٤١) بأسانيد لا تخلو من مجهول أو إرسال، وانظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٥٦٩).

(١٢) الرحيق المختوم بتصرف (٤٠٥).

لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كما أمر، والشكر له وقد تأذن بالزيادة لمن شكر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير من نُصِر وأفضلُ من ظفر، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه السادة الغُرّ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم العرض الأكبر.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله فإنه ﴿ **مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)** ﴾ [الطلاق].

أيها الإخوة المؤمنون: لما تم فتح مكة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بلدُه ومولدُه وموطنه قال الأنصار بعضهم لبعض: «أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته»، قال أبو هريرة: «وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينقضي الوحي فلما انقضى الوحي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا معشر الأنصار** قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: **قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟** قالوا: قد كان ذاك، قال: **كلا، إني عبدالله ورسوله**

هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّنَّ بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم**»[١٣].

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يوماً يغرس معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، ويبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة ونادى مناديه بمكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدعْ في بيته صنماً إلا كسره»[١٤].

أيها الإخوة: كانت تلك مواقف ومواعظ من الفتح المبين، في رمضان العظيم. وأحداثُ الفتح كثيرة، وأخبارُه غزيرة، ودروسه عدة؛ ولكن هل من معتبر؟ في زمنٍ تُنسى فيه سيرةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام؟ الذين كانت حياتهم جدٌ وعمل، وجهادٌ وعبادة.

زَهِدَ الناس في سيرتهم واستبدلوا بها سيرة الساقطين والساقطات الذين يُصورون على أنهم أبطالٌ للحرية، ورموزٌ للفن والإثارة، ورضي الناس عن الجد والعمل والعبادة، وأخبار الجهاد، وسير الأبطال ببرامج الهزل السامج، والتهريج الممقوت، التي تنم عن مدى انحدار العقول

---

(١٣) أخرجه مسلم في الجهاد باب فتح مكة (١٧٨٠)

(١٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٣٧).

والأفئدة. ويكونُ هذا الشهرُ المعظم موسماً للفضائيات تبث هزلها ونتنها على أعين السادرين في غفلتهم.

فرمضانُ شهر الانتصار والكفاح، وشهر التقدم والفتوح، تُخدر فيه أمة الإسلام حتى لاتفقه ذلك ولا تدركه. فلا تزالُ تُجرح وتُقتل وهي تضحك، وتُنتهب وأبناؤها لاهون مرحون. فما عسانا أن نستفيد من أخبار الفتح المبين، وكيف أثرت فينا دروس رمضان الكريم؟!

فاتقوا الله ربكم، واحفظوا صيامكم من الأدناس، واقرؤوا سير الأبطال، وافقهوا منها الدروس، ولا تلهوا مع اللاهين؛ لعل القلـوب تحيا، والعقول تدرك، فترجع إلى ربها، حينذاك يكون المسلم بالنصر حقيقاً، بالنصر على نفسه وهواه والشيطان. وإذا حقق كل مسلم ذلك في نفسه كان النصر على الأعداء قريباً. ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

١٣٥- غزوة تبوك (١)
صور من العسرة

١٠/ ٧/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ بلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله تعالى حتى أتاه اليقين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ هاجروا فراراً بدينهم، وجاهدوا في سبيل ربهم، وبذلوا أرواحهم، وانخلعوا من جُلِّ أموالهم؛ رغبة في رضوان الله تعالى وجنته، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ، فكم كانت التقوى سبباً في تفريج الضوائق، وبسط الأرزاق، وحلول الأمن.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

أيها الإخوة المؤمنون: سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم تزخر بالحكم والأحكام، والدروس والفوائد، ليست قصصاً من نسج الخيال، ولا هي إبداع من لسان متحدث، أو قلم كاتب، يقرؤها من يقرؤها

لجمال في الإنشاء، أو بلاغة في التركيب، أو استفادة من الأسلوب؛ بل هي حق واقع، وأخبارٌ جامعة. فيها الحدث والعبرة، والموعظة الحسنة. تحوي أحكاماً فقهية، ودروساً تربوية، وتنطوي على علوم متعددة، كالسياسة والاقتصاد، وشؤون الحرب والجهاد، وأحكام الهدنة والسلام، وغير ذلك مما يحتاجه المسلمون.

وكان مما وقع في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة من الأحداث الكبرى، والمغازي العظمى: غزوة تبوك، التي كانت آخر مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل أن يتوفاه الله تعالى[(١)] .

كانت غزاة مليئة بالأحداث، فيها أخبار الموسرين الذين أنفقوا، والفقراء الذين عجزوا، وفيها أنباء المنافقين الذين فُضحوا، وحكاية الثلاثة الذين خلفوا، ناهيكم عن أخبار المسير والحصار، وفرض الجزية على أهل الكتاب، وما الحديث عنها تكفيه الساعات؛ ولكن هذه أجزاء ومقتطفات عن العسرة والمشقة التي كانت فيها، حتى سماها القرآن ساعة العسرة؛ لأن العسرة لفتها من كل مكان، وأحاطت بها من كل جانب؛ فوقتها عسرة؛ إذ كانت في حَمَارة القيظ، وشدة الحر، وما أشد المسير تحت وهج الشمس اللافحة، وفوق الأرض الساخنة!! وكانت شدة الحر تدعو إلى المقام في المدينة، ذات الماء الطيب، وثمار الصيف اليانعة، فلا يخرج للغزو في هذا الوقت إلا مؤمن يدفعه إيمانه إلى تقديم رضوان الله تعالى على لذة الحياة، والاستمتاع بطيباتها.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١١٨)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٧١٤).

ومن العسرة فيها: قلة ما يجد كثير من المسلمين للتجهز لها، فلقد جاء أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمل الأشعريين فلم يجد سوى ستة أبعر دفعها إليه ليحمل عليها قومه(٢).

لقد كان الأغنياء من الصحابة يتجهزون ويجهزون، والفقـراء لا يجدون، اشتاقوا للجهاد في سبيل الله تعالى؛ لكن أعجزتهم الوسائل التي تبلغهم الميدان، فسحت أعينهم بالدمع لهذا الحرمان. كان منهم علبة بن زيد قام من الليل يتهجد، فصلى ما شاء الله ثم بكى، وقال: «اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغَّبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض، وأصبح الرجل على عادته مع الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أين المتصدق هذه الليلة؟** فلم يقم أحد، ثم قال: **أين المتصدق؟** فليقم. فقام إليه فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أبشر، فوالذي نفسي بيده لقـد كُتبت في الزكاة المتقبلـة**» ذكره ابن إسحاق ووصلـه الحافظ(٣).

---

(٢) كما في حديث أبي موسى الذي أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (٤٤١٥)، ومسلم في الإيمان باب ندب من حلف يمينـاً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه (١٦٤٩).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات من طريق الواقدي (٤/ ٣٧٠)، وعزاه الحافـظ في الفتح لابن إسحاق في السيرة ولم أجده في المطبوع منها، ولم أعثر عليه =

لقد كان علبة بن زيد واحداً من سبعة رجال من المؤمنين عرفوا بالبكائين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فبكوا لذلك(٤)، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ -٩٢].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته. إنهم لم يبخلوا بمالهم، ولم يفرحوا بتخلفهم؛ حتى كان منهم من تصدق بعرضه على المسلمين،

= في النسخة المطبوعة لدي من سيرة ابن هشام التي حققها الدكتور عمر تدمري إلا أن ابن هشام نقل عن ابن إسحاق أنه عد علبة بن زيد في البكائين، وذكره السهيلي في الروض الأنف (٧/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، وابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩)، وابن كثير في البداية (٥/ ٥)، وقال الحافظ ابن حجر: «وقد ورد مسنداً موصولاً» وعزاه لابن مردويه وابن منده والخطيب وغيرهم وصححه انظر: الإصابة (٧/ ٤٣)، وصححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي (٤٠٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١١٩)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٦١٧).

يبيح كل من تكلم في عرضه بسوء أو ناله بغيبة، ومع أنهم عذروا، ولم يخرجوا للغزو فإن قلوبهم كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسير خبرهم فقال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: **وهم بالمدينة حبسهم العذر**» أخرجه البخاري(٥).

ومن العسرة أيضاً: بُعْدُ المسافة بين المدينة وتبوك، ووعورة الطريق، وقلة الظهر؛ فهي عسرة في كل شيء، فسرها جابر بأنها عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء(٦).

وسُئل عمر رضي الله عنه عن شأن العسرة فقال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه،

---

(٥) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أحمد (٣/ ١٠٣)، وابن أبي شيبة (١٨٨٥٦)، والبخاري في المغازي باب (٨١) (٤٤٢٣)، وأبو داود في الجهاد باب الرخصة في القعود من العذر (٢٥٠٨)، وابن ماجه في الجهاد باب من حبسه العذر عن الجهاد (٢٧٦٤). وأخرجه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مسلم في الإمارة باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر (١٩١١).

(٦) الجامع لأحكام القرآن القرطبي (٨/ ١٧٧) عند تفسير الآية (١١٧)، من سورة التوبة.

ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، قد عوّدك الله في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: **أتحب ذلك؟** قال: نعم، فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعهما حتى أظلت سحابة، فسكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر» رواه البزار وصححه ابن حبان والحاكم(٧).

ويصف العسرة أبو سعيد أو أبو هريرة رضي الله عنهما فيقول: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فأصاب الناس مجاعة وقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **افعلوا**، فجاء عمر وقال: يا رسول الله، إنْ فعلوا قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة، قال: **نعم**، ثم دعا بنطع فبُسط، ثم دعا بفضل الأزواد، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة؛ حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال أبو هريرة: فحزرته فإذا هو قدر ربضة العنز، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم قال:

---

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان (١١/ ٥)، والبزار في البحر الزخار (٢١٤)، وصححه ابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٢٨٣)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (١/ ١٥٩)، وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٤٥٦ ـ ٤٥٧)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٥٧)، وفي دلائل النبوة (٥/ ٢٣١) وجوّد إسناده ابن كثير في السيرة (٤/ ١٦)، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات، انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى والذي لا إله إلا هو ما بقي في العسكر وعاءٌ إلا ملؤوه، وأكل القوم حتى شبعوا، وفضلت فضلة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة»** أخرجه مسلم(٨).

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى يصف العسرة: «كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يتعقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس، والشعير المتغير، والإهالة المنتنة، وكان النفر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك، حتى تأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة، فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم»(٩)، فكان جزاؤهم أن تاب الله تعالى عليهم؛ حيث لم تردهم العسرة التي

---

(٨) أخرجه مسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٦).

(٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/ ١٧٧)، ونحوه عن مجاهد وقتادة كما في جامع البيان للطبري (١١/ ٥٥) عند تفسير الآية (١١٧) من سورة التوبة، ولقد جاء في تفسير القرطبي: «كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يتعقبونه بينهم. . . فلعله تصحف من: كان العشرة من المسلمين. . وعن عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب: أن الرجلين والثلاثة على بعير. . . عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الدلائل، انظر: الدر المنثور (٣/ ٥١٢).

أحاطت بهم من كل جانب عن الخروج في سبيل الله تعالى.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً، مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدرك حجم المشقة التي ستلحق به وأصحابه في غزوة العسرة، فجلّى للناس أمرهم، وأوضح وجهته. قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يعمد له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس؛ لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو»(١٠).

سار عليه الصلاة والسلام إلى تبوك في رجب، وعاد في رمضان، واستغرقت الغزوة خمسين يوماً من العسرة والمشقة، ثلاثون يوماً منها مسير وطريق، وعشرون يوماً أقامها في تبوك، وجبن الروم عن المنازلة،

---

(١٠) سيرة ابن هشام (١١٨/٤).

فضرب الجزية على بعض قرى النصارى، ثم عاد وقد هابت الـروم وحلفاؤها من قبائل العرب قوة المسلمين[(١١)].

لقد وطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي شبه الجزيرة العربية، ومهدت لفتوح الشام التي استعد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعداد جيش أسامة قبيل وفاته، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه، ثم أتبعه بجيوش الفتح الأخرى التي ساحت في بلاد الشام والعراق، وكانت بداية تحرير شعوب تلك المناطق من عبودية القيصرية والكسروية[(١٢)].

وما كان هذا الحديث عن تبوك إلا لبيان حجم المشقة؛ حتى سميت الغزوة غزوة العسرة، وفي ذلك دفع للمؤمنين إلى سبل الطاعة، ولو كان فيها بعض مشقة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق، وصحابته خير الأصحاب عانوا مشقة عظمى في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته، فهل نعمل ما عملوا؟ ونستطيع ما استطاعوا؟ إن واقع الحال ينفي ذلك، وإذا كان كثير من المسلمين يتخلفون عن صلاة الجماعة، أو لا يؤدون الصلاة في وقتها مع أن ما فيها من المشقة لا يساوي عشر معشار مشقة تبوك، فكيف سيطيق المسلمون مشقة جهاد الأعداء، ومقارعة الباطل؟! وما ذلوا ولا انهزموا إلا لما تثاقلوا عن الطاعات، وخلدوا إلى الدعة والراحة.

حضر العسرة من حضر، وتخلف عنها من تخلف، وتحمل أصحاب

---

(١١) انظر: الرحيق المختوم (٤٣٦).

(١٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٦٣٨).

رسول الله صلى الله عليه وسلم المشقة، وذهبت وذهبوا، وبقي الأجر موفوراً للغازين، والوزر مكتوباً على المخلفين، إلا من تاب منهم، وهكذا يفعل الطاعة من يفعلها، ويتخلف عن الصلاة من يتخلف عنها، وسينسى صاحب الطاعة المشقة التي لحقته، كما سينسى المقصر فيها الراحة التي خلد إليها، وسيمضون، وسيبقى الأجر للمسارعين، والوزر على المخلفين، وكل سيجد ما عمل يوم الدين، والجنة حفت بالمكاره، وحفت النار بالشهوات.

وقصة العسرة تثبت أن الإيمان بالله تعالى يفوق كل قوة؛ فرغم قلة الزاد، وقلة الظهر، وبعد المسافة، وشدة الحر إلا أن الصحابة استطاعوا الوصول إلى تبوك، وحاصروا العدو، وجبن العدو المدجج بالأسلحة، والمقيم على أرضه عن ملاقاة أقوامٍ هم أقل منه عدداً، وأضعف عتاداً، وأشدّ جوعاً!! إنه إيمان المؤمنين، والرعب الذي قذفه الله في قلوب الكافرين، فما أحوج المسلمين إلى اليقين بأن الإيمان أقوى من كل قوة، ومن كان الله معه فلن يغلب من ضعف أو قلة، ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: ٢١].

وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم،،،

١٣٦- غزوة تبوك (٢)
الآيات والمعجزات

الجمعة ٢٠/ ٧/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، ﴿**أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ [الفتح: ٢٨]، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ أيَّدَ رسله بالمعجزات، وأنزل عليهم الآيات؛ دلالة على صدقهم، وبرهاناً على رسالاتهم. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله الله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً؛ فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ أمضوا حياتهم في خدمة الإسلام، ونشر شريعته في الأرض؛ فركبوا البر والبحر، وجاوزوا السهل والوعر، منهم من مات في مركبه وسط لجة البحر، ومنهم من قضى تحت أسوار العدو، ومنهم من عاش حيناً من الدهر ﴿**مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٣] والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها المؤمنون ـ ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فنعم المنزلة من نالها، ويا لسعادة من حققها. هي النور والهدى، وبها تنال الدرجات العلى، وبها تكون النجاة من نار تلظى.

أيها المؤمنون: حياة المسلمين وعزهم ورفعتهم تكون في الجهاد في

سبيل الله تعالى؛ به تنال العزة، وتحفظ الكرامة، وتحقن الدماء، وتصان الأعراض، ويهاب الأعداء، فلا تقوم للكفر قائمة في أرض فيها جهادٌ خالص لله تعالى.

الجهاد دليل قوة الإيمان، وصحة اليقين، وصدق التوكل. يبذل المجاهد ماله ودمه وجسده رخيصاً في سبيل الله تعالى. يكابد لأواء السفر، ومشقة السهر، وعنت الطريق، وكَلَبَ العدو، وكل هذا من أجل ماذا؟! إنه من أجل الإسلام، فهل إيمان يعدل هذا الإيمان، متى ما رزق المجاهد الإخلاص؟!

وإن من المغازي المشهورة بعسرتها وشدتها: غزوة تبوك التي سميت غزوة العسرة؛ إذ اجتمع على المسلمين فيها عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء، وعسرة الحر، وعسرة الطريق، وعسرة إيذاء المنافقين وإرجافهم؛ ولكن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم احتملوا في سبيل الله تعالى كل أنواع العسرة.

إن المنافقين ما تركوا سبيلاً للتخذيل والإرجاف في هذه الغزاة إلا سلكوه، ولا عذراً للتخلف عن الغزو إلا اختلقوه. وما كان الله تعالى ليتخلى عن نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابُه بين أنواع من العسرة، وبين شكوك المنافقين وأراجيفهم؛ فجعل الله تعالى له من الآيات والمعجزات في هذه الغزاة ما ثبّت إيمان المؤمنين، ودحر أراجيف المنافقين، وسلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لو قيل: إن هذه الغزوة أكثر غزواته معجزات، لما كان ذلك ببعيد.

قلّت المراكب، وكلّت الرواحل فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ببركة الظهر فبارك الله تعالى في سيرها. قال فضالة بن عبيد رضي الله عنه: «غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك فجهد الظهر جهداً شديداً، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بظهرهم من الجهد، فتحين رسول الله صلى الله عليه وسلم مضيقاً سار الناس فيه وهو يقول: «**مرّوا باسم الله**» فجعل ينفخ بظهورهم وهو يقول: «**اللهم احمل عليها في سبيلك؛ فإنك تحمل على القوي والضعيف، والرطب واليابس، في البر والبحر**»، قال فضالة: فما بلغنا المدينة حتى جعلت تنازعنا أزمتها، فقلت: هذه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القوي والضعيف فما بال الرطب واليابس!! فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرس في البحر، فلما رأيت السفن وما يدخل فيها عرفت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان[1].

إن تبوك كانت في شدة حرٍّ فصل الصيف؛ فاجتمع عليهم مع حَمَارةِ القيظ، ووهج الشمس؛ نـدرةُ الماء، وشدة العطش، فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاستسقى لهم فسقاهم الله تعالى.

روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا عن شأن العسرة، قال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه العطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع، حتى نظن أن رقبته

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠)، والبزار (١٨٤٠)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣١٧)، وصححه ابن حبان (٤٦٨١).

ستنقطع، حتى إن الرجل لينحرُ بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، قد عوّدك الله في الدعاء خيراً فادع، قال: «**أتحب ذلك؟**» قال: نعم، قال: فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعهما حتى أظلت سحابة ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر». صححه ابن حبان والحاكم وقال ابن كثير: إسناده جيد[٢].

لقد أصاب المسلمين في تبوك مجاعـة شديدة حتى همّوا بنحر ما يركبون ليأكلوا، فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم فبارك الله في طعامهم، قال أبو هريرة أو أبو سعيد ـ شك الأعمش ـ «لما كان يوم غزو تبوك أصاب الناس مجاعة في طعامهم، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنَّا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**افعلوا**»، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، وادع الله لهم فيها بالبركة لعلَّ الله عز وجل يجعل في ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نعم**» فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال:

(٢) أخرجه الحاكم وصححه وقال: على شرطهما (١/ ١٥٩)، وصححه ابن حبان (١٣٨٣) وأخرجه البيهقي في السـنن الكبرى (٩/ ٣٥٧)، وفي دلائل النبوة (٥/ ٢٣١)، والبزار (١٨٤١) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للبزار والطبراني في الأوسط وقال: ورجال البزار ثقات (٦/ ١٩٤)، وقال ابن كثير في السيرة: إسناده جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه (٤/ ١٦).

ويجيء الآخر بكسرة؛ حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة، ثم قال: «**خذوا في أوعيتكم**» قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملأوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة**» أخرجه مسلم(٣).

وفي معجزة أخرى حاول أحد المنافقين أن يشكك في نبوته صلى الله عليه وسلم، واستغل فرصة ضياع ناقة النبي صلى الله عليه وسلم فقال هذا المنافق في ثلة من الصحابة: أليس محمدٌ يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمعٍ من أصحابه لا يدري ما قال المنافق، فقال لأصحابه: «**إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاؤا بها**» أخرجه الطبري والبيهقي ورجاله ثقات(٤).

---

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢١)، ومسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٧).

(٤) تاريخ الطبري (٣/ ١٤٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢٣٢)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٣). والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي الأندلسي (١/ ٣٦٨)، وأعلام النبوة للماوردي (١٥٩)، وزاد المعاد (٣/ ٥٣٣)، والسيرة الحلبية (٣/ ١٠٧)، والإصابة (٢/ ٦١٩)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٤٠).

وثبت في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم عن عين في تبوك تبض بشيء من ماء، فغسل وجهه فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس(٥)، وأخبرهم أيضاً بريح شديدة تهب عليهم، وأمرهم بعقل رواحلهم فهبت ريح شديدة كما قال(٦).

وكانت مدة هذه الغزوة خمسين يوماً من العسرة والمشقة؛ ثلاثون يوماً منها قضاها في الطريق ذهاباً وإياباً، وعشرون يوماً حاصر تبوك ثم عاد بلا قتال حيث جبن الروم عن القتال. خرج في رجب وعاد في رمضان سنة تسع للهجرة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك

---

(٥) كما في حديث معاذ رضي الله عنه عند مسلم في الفضائل باب في معجزاته صلى الله عليه وسلم (٧٠٦).

(٦) كما في حديث أبي حميد الساعدي عند البخاري في الزكاة باب خرص التمر (١٤٨١)، ومسلم في الفضائل باب في معجزاته (١٣٩٢).

عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أخبار معجزات النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك كثيرة بالنسبة لغيرها من الغزوات، وذلك يتناسب مع حجم التحدي؛ فإن المنافقين كما هي عادتهم قد أجلبوا بخيلهم ورجلهم في بث الشكوك، واختلاق الأكاذيب؛ تكذيباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرجافاً للمؤمنين، وإرضاءً لمن حارب الله ورسوله.

فإذا ما انضم إلى ذلك أنواع من العسرة والمشقة لحقت بالصحابة رضي الله عنهم؛ فإن تكالب هذا عليهم قد يؤدي إلى الشعور باليأس والإحباط، واستبطاء نصر الله تعالى؛ ولربما وجدت مقالات المنافقين آذاناً صاغية، وما كان الله تعالى ليترك رسوله صلى الله عليه وسلم بل أيده بهذه المعجزات ليحبط كيد المنافقين، ويفضح مكرهم، ويثبت قلوب المؤمنين على الحق؛ ولهذا كان في هذه الغزاة من المعجزات ما يتناسب مع حجم مشقتها، وحجم كيد المنافقين.

وما أشبه الليلة بالبارحة؛ فمنافقو هذا العصر يقومون بذات الدور الذي قام به أسلافهم من التشكيك في الإسلام، وبث الشائعات، وقذف الشبهات، والدعوة إلى غير دين الله. وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المسلمين ليرد كيد المنافقين بما أيده الله تعالى به من معجزات؛ ولكن المؤمنين عندهم كتاب الله تعالى أعظم معجزة، وأكبر آية، وسنه رسوله صلى الله عليه وسلم، هما النجاة لمن تمسك بهديهما، وسار على دربهما، ولن تضره فتنة ما دام على ذلك.

ولكن الديمومة على ذلك عزيزة المنال، في ظل ما تموج به الفتن في هذه الأيام من أنواع الشبهات والشهوات؛ مما يزعزع إيمان ضعفاء القلوب؛ ولذا كان أجر المستمسك بدينه في هذه الأحوال يعادل أجر خمسين من الصحابة رضي الله عنهم مع فضلهم، وقوة إيمانهم، كما ثبت ذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله**» قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**» أخرجه الأربعة إلا النسائي(٧).

وما ذاك إلا لشدة الابتلاء، وعظم الفتنة، وقلة النصير من البشر؛ فكان الأجر مناسباً لعظيم الابتلاء.

فاتقوا الله ربكم، واثبتوا على الحق مهما كثر الزائغون، وعلا صوت المنافقين؛ فإن بعد العسر يسراً، وبعد الشدة فرجاً، ولن يخذل الله تعالى من أخلص له العبودية؛ بل سينصره ويؤيده ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج: ٤٠].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

---

(٧) أخرجه أبو داود في الملاحم باب الأمر والنهي (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة المائدة وحسنه (٣٠٥٨)، وابن ماجه في الفتن باب قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥] (٤٠١٤) وصححه ابن حبان (٣٨٥).

١٣٧- غزوة تبوك (٣)
أفعال المنافقين

الجمعة ٢٣/ ٧/ ١٤٢١هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهـد أن محمداً عبده ورسوله. .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعـة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: كانت غزوة تبوك التي حدثت في رجب من السنة التاسعة من الهجرة فرقاناً بين الإيمان والنفاق؛ إذ كثرت فيها أعمـال المنافقين، وعظمت أقاويلهم، واتسعت أراجيفهم، وعقبها بأسابيع أنزل

الله تعالى سورة كاملة في شأنها فضحت المنافقين، وكشف أفعالهم[١].

لقد كان المنافقون يعيشون بين الصحابة، وجلُّ الصحابة رضي الله عنهم لا يعرفونهم إلا من أسرّ له النبي صلى الله عليه وسلم ببعضهم كحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما؛ ولكن بعد تبوك، وعقب نزول سورة براءة عرف الصحابة كثيراً منهم؛ إذ نصت السورة على أقوالهم وأفعالهم، فعُرِفَ أن أصحاب تلك الأقاويل والأفعال كانوا منافقين.

ولذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يسميها الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة التوبة، قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: «ومنهم» حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها» أخرجه البخاري[٢].

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يسميها الحافرة؛ كأنها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق فأظهرته للمسلمين[٣]، وسماها قتادة: المثيرة؛ لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها[٤].

---

(١) هي سورة التوبة، واتفق المفسرون على أنها نزلت في السنة التاسعة لكن اختلفوا في الشهر، فقيل: نزلت في أول شوال، وقيل: نزلت في آخر ذي القعدة، والجمهور على أنها نزلت دفعة واحدة فتكون مثل سورة الأنعام بين السور الطوال، انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير باب تفسير سورة الحشر (٤٨٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٩٦)، ومحاسن التأويل (٤/ ٨٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٩٦) وعزاه القاسمي لابن أبي حاتم كما في محاسن التأويل (٤/ ٨٠)، ولها أسماء كثيرة سوى المذكورة، عدَّ القاسمي منها أربعة عشر اسماً: وعدّ بعضها ابن عاشور في التحرير والتنوير.

بدأ نفاقهم في هذه الغزوة قبل سير الجيش، فمنذ أن أعلن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عازم على النفير إلى تبوك، وأمر المسلمـين بالصدقة لتجهيز الجيش، جعل المنافقون يلمزون المتصدقين. قال أبو مسعود البدري رضي الله عنه: «لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصـدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صـاع هذا. فنـزلـت: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧٩]، رواه البخاري ومسلم[٥].

ولما أعلن النبي صلى الله عليه وسلم النفير بدأ المنافقون يعتذرون عن المسير معه؛ وذلك لتثبيط همم الناس، وإضعاف معنوياتهم﴿**وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾ [التوبة: ٨١]، فأنزل الله تعالى: ﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة: ٨١][٦].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للجَدِّ بن قيس: «**يا جدُّ هل لك العام في جلاد بني الأصفـر؟**» فقال: يا رسول الله، أوتأذن لـي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر؛ فأعرض رسول

(٥) أخرجه البخاري في التفسير «سورة التوبة» باب الذين يلمزون المطوعين مـن المؤمنين في الصدقات (٤٦٦٨)، ومسلم في الزكاة باب الحمل بأجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل (١٠١٨).

(٦) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، وتفسير الطـبـري (١٤/ ٤٩٩-٤٠٠)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢١٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٤).

الله صلى الله عليه وسلم عنه وقال: «**قد أذنت لك**» وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٤٩][٧].

وتتابعت أعذارهم الكاذبة على النبي صلى الله عليه وسلم فكان يأذن لهم فعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [التوبة: ٤٣][٨].

وقبيل مسير الجيش بنوا مسجد الضرار ليجتمعوا فيه؛ مكايدة للمؤمنين، وتفريقاً لاجتماعهم، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه فنهاه الله عن ذلك، ثم لما عاد من تبوك أحرقه[٩].

وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالإقامة في أهله، وخلّفه عليهم فقال المنافقون: «ما خلّفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه» فأخذ علي رضي الله عنه سلاحه، وخرج من المدينة حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف، فأخبره بما قال المنافقون عنه، وقال: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان»،

(٧) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، وتفسير الطبري (١٤/ ٢٨٧)، وزاد المعاد (٣/ ٥٢٦)، والإكتفاء للكلاعي الأندلسي (٢/ ٢٧١)، والسيرة الحلبية (٣/ ١٠٣) عن ابن عباس وعن مجاهد وعن قتادة رضي الله عنهم ورحمهم.

(٨) قاله مجاهد رحمه الله تعالى، ورواه عنه الطبري (١٤/ ٢٧٣).

(٩) تفسير الطبري (١٤/ ٢٦٨).

فكذَّب النبي صلى الله عليه وسلم مقولة المنافقين وقال لعلي رضي الله عنه: «**ولكني خلَّفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»(١٠).

سار جيش العسرة إلى تبوك، وتخلف عن المسير من تخلف من المؤمنين وهم قلة، وتخلف من المنافقين كثرة، وسار قومٌ من المنافقين مع الجيش؛ ليكملوا مهمتهم في الكيد والتآمر على المؤمنين، والتربص بهم، ولم يتوقفوا عن ذلك أو يخففوه؛ بل عظم شرهم، واستفحل خطرهم، حتى كانوا يوهنون عزائم المؤمنين، ويحطمون معنوياتهم بأقوالهم؛ إذ قال قائل منهم لجمع من الصحابة رضي الله عنهم وهم في الطريق إلى تبوك: «أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنّا بكم مقرنين بالحبال». يقولون ذلك؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين(١١).

وأخذوا يستهزئون بقراء الصحابة رضي الله عنه؛ ففي مجمع لهم قال أحدهم: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً،

---

(١٠) أخرج الحديث البخاري في المغازي باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (٤٤١٦)، ومسلم في فضائل الصحابة باب فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٤)، وليس في رواية الصحيحين ذكرمقولة المنافقين، وإنما هي في سيرة ابن هشام (٣/ ٥١٩)، والثقات لابن حبان (٢/ ٩٢).

(١١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٤)، والاكتفاء (٢/ ٢٧٧)، وزاد المعاد (٣/ ٥٣٦)، والسيرة الحلبية (٣/ ١٠٢).

ولا أجبن عند اللقاء» فقال رجل في المجلس: «كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم»؛ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**»[١٢]، وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن اللعب والجد في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك كما نقله ابن الجوزي[١٣].

وأعظم من ذلك وأشدّ كفراً أنهم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم فقام جماعة منهم ـ وهم ملثمون حتى لا يُعرفوا ـ بمحاولة تنفير دابة النبي صلى الله عليه وسلم لتطرحه من رأس عقبة في الطريق مع عتمة الليل، فعلم عليه الصلاة والسلام بكيدهم، وفطن لهم، وأمر بإبعادهم[١٤].

---

(١٢) تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٣)، والدر المنثور للسيوطي (٣/ ٢٥٤)، والاكتفاء (٢/ ٢٧٧)، وزاد المعاد (٣/ ٥٣٦).

(١٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٦٣٣).

(١٤) مسند الإمام أحمد (٥/ ٤٥٣)، والسنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢) وقال الهيثمي عن إسناد أحمد: ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٩٥).

لقد كان شرهم في تبوك على المؤمنين مع شدة وعسـرة، وحـر شديد، ومفاوز بعيدة؛ لكن الله تعالى ثبت المؤمنين، وفضح المنافقين، ونُهي النبي صلى الله عليه وسلم بعدها عن الصلاة عليهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ [التوبة: ٨٤, ٨٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إلـه الا الله وحـده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله ﴿**يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الأنفال: ٢٩].

أيها المؤمنون: كان المنافقون من أعظم الأعداء الذين ابتليت بهم الأمة المسلمة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنـا هـذا؛ يدسون الدسائس، ويدبرون المؤامرات، ويبثون الشائعات، ويتحالفون مع العدو ضد المسلمين. ولعظيم خطرهم وشرهم صُدِّرت أطول سورة في القرآن ببيان جملة من صفاتهم ومكـرهـم ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ**

آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٩, ١٠].

إنهم أخطر من اليهود والنصارى والوثنيين؛ لأنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾ [البقرة: ١٤].

كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يخفون نفاقهم خوفاً من تنزل الآيات التي تفضحهم ففضحهم الله تعالى، وأما بعد النبي صلى الله عليه وسلم فإن كثيراً منهم أظهروا نفاقهم وأعلنوه.

ولهم في هذا العصر سمات يعرفون بها لا تخفى على أولي الألباب، إنهم يستهزئون بالله تعالى، وبالرسالات، وبالقرآن، وبالصحابة، وبشعائر الإسلام الظاهرة، وبعباد الله الصالحين المتمسكين بالسنة.

إنهم فيما يكتبون يبدون إعجابهم برموز النصارى، وربما بشعائرهم، ويثنون على كل ما جاء من الغرب، ويعتبرونه رقياً وحضارة بخيره وشره، وحلوه ومرّه! لا يفرقون بين شيء من ذلك!! ويطالبون المسلمين بقبول الآخر وعدم كراهيته، وبإلغاء النصوص التي فيها كراهية الآخرين كما يقولون.

إنهم يمدحون هذا الآخر ـ الذي هو الكافر ـ وغيروا اسمه من الكافر إلى الآخر؛ لاعتقادهم أن ما عنده من كفر قد يكون صحيحاً، وأنه لا يوجد حقيقة مطلقة كما يقولون، وأن عصر المعلومات حطم الأيدلوجيات، ويجعلون من ضمن الأيدلوجيات: الإسلام، أخزاهم الله وفضحهم.

وفي الوقت الذي يمدحون فيه الكفر وأهله يشنون فيما يقولـون ويكتبون حرباً لا هوادة فيها على كل من دعا إلى الإسلام، أو طالب بتحكيم شريعة الله تعالى، ويصفونه بأبشع الأوصاف التي تخوف العالمين منه، وياليتهم لما طالبوا المسلمين بقبول الآخر - الذي هو الكافـر - قبلوا هم الصالحين من عباد الله تعالى، وكفوا ألسنتهم وأقلامهم عن أذيتهم؛ ولكن كيف يفعلون ذلك وهم يفرحون بكل مصيبة تقع على المسلمين، ويشمتون بهم، ويغتمون لكل حسنة تصيبهم ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ألا فاتقوا الله ربكم، واحذروا النفاق والمنافقين، ولا يأمنن أحد على نفسه أن يكون فيه شيء من النفاق؛ فإن من أمن النفاق وقع فيه، ومن خافه سلم منه، وقد كان الصحابة يخافون على أنفسهم النفاق.

نعوذ بالله من النفاق وأحوال المنافقين، ونسأل الله تعالى أن يحفظ المسلمين من كيدهم وشرهم إنه سميع مجيب.

وصلوا على النبي المختار من ولد عدنان، محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم..

١٣٨- غزوة تبوك (٤) دعوة أهل الكتاب

الجمعة ١٣/ ٧/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحِدَة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: أرسل اللهُ تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى المكلفين كافة، إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، قريبهم وبعيدهم؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأنزل عليه القرآن مصدر هداية وتذكرة لجميع المكلفين ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧-٢٩].

وقد قضى الله سبحانه بأن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين، وشريعته خاتمة الشرائع، وهي باقيةٌ بحفظ الله تعالى لها إلى قيام الساعة؛ ولذلك أوجب الله تعالى عليه بلاغها للناس، ووجب على من بلغته وآمن بها أن يبلغها من لم تبلغه من الناس ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فمن قبل الدعوة، ودخل في الإسلام صار أخاً للمسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ومن رفض الدعوة، وأبى الدخول في الإسلام فله ما أراد؛ إذ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بشرط أن يخضع لسلطان المسلمين وحكمهم، وذلك بدفع الجزية للمسلمين ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستقامت جزيرة العرب، أمر اللهُ رسولَه بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهَّز رسول الله

صلى الله عليه وسلم لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً»[1].

كان هذا الاستنفار العظيم سنة تسع للهجرة في شهر رجب، والوجهةُ كانت إلى تبوك؛ لإخضاع أهل الكتاب لحكم الإسلام؛ بإسلامهم، أو دفعهم الجزية، أو قتالهم على ذلك؛ ليكون الدينُ كله لله تعالى.

اجتمعت الجموع التي ما جمع في الإسلام قبلها مثلها، وحثَّ النبي صلى الله عليه وسلم الناس على التبرع بالدواب والسلاح والطعام لتجهيز هذا الجيش الكبير وتموينه، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**»، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه[2]، وجاء بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها بيده ويقول: «**ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم**، يرددها مراراً»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٤٢)، عند تفسير الآية (٢٩) من سورة التوبة.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به في الوصايا باب إذا وقف أرضاً أو بئراً. . . (٢٧٧٨)، ووصله الدارقطني (٤/ ١٩٩)، والإسماعيلي كما ذكر الحافظ في الفتح (٥/ ٤٧٧)، وأخرجه أحمد في المسند (١/ ٧٠)، وفي فضائل الصحابة (٧٣٠)، والطاليسي (٢/ ١٧٠)، والبيهقي (٦/ ١٦٧) وغيرهم.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣)، والترمذي في المناقب باب مناقب عثمان بن عفان وحسنه (٣٧٠١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١٠٢).

لما تم تجهيز الجيش سار من المدينة إلى تبوك، وجَهِدَ الصحابة رضي الله عنهم جهداً شديداً في الطريق؛ لبعد المسافة، وشدة الحر، وقلة المؤونة والظهر؛ حتى سميت تلك الغزوة بغزوة العسرة. فلما وصل الجيش إلى تبوك لم يجد جيشاً يواجهه؛ إذ جبن الروم وحلفاؤهم من العرب عن ملاقاة المسلمين، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين ليلة(٤)، أرسل فيها الرسل إلى ملوك النصارى يدعوهم إلى الإسلام، ومن أبى فرض عليه الجزية، وأخضع بلاده لحكم المسلمين.

روى الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث سعيد بن أبي راشد قال: «لقيتُ التنوخي رسولَ هرقلَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص، وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفَنَد أو قرُب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالةِ هرقل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل؟ فقال: بلى، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل، فلما أن جاءه كتابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجلُ حيث رأيتم، وقد أرسل إليَّ يدعوني إلى ثلاث خصال؛ يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه ما لنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نُلقي

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٥)، وأبو داود في الصلاة باب إذا أقام بأرض العدو يقصر (١٢٣٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤٣٣٥)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٥٢)، وصححه ابن حبان (٢٧٣٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

إليه الحرب. والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذن ما تحت قدميّ، فهلم نتبعه على دينه، أو نعطيه ما لنا على أرضنا، فنخروا نخرةَ رجلٍ واحد حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز!

فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفّأهم ولم يكد ـ أي هدأهم ـ وقال: إنما قلت ذلك؛ لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تُجيبٍ كان على نصارى العرب، فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث، عربي اللسان، أبعثه إلى هذا الرجل بجوابِ كتابه، فجاء بي فدفع إليَّ هرقلُ كتاباً فقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل، فما ضيعت من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال: انظر هل يذكرُ صحيفته التي كتب إليَّ بشيء، وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر في ظهره هل به شيء يريبك؟

فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه، محتبياً على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي، فوضعه في حجره، ثم قال: **ممن أنت؟** فقلت: أنا أحد تنوخ، قال: **هل لك في الإسلام الحنيفية ملة إبراهيم؟** قلت: إني رسول قوم، وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فضحك وقال: **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين. يا أخا تنوخ، إني كتبتُ بكتابٍ إلى كسرى فمزقه، والله ممزقُه وممزق ملكه، وكتبتُ إلى النجاشي**

بصحيفةٍ فخرّقها، والله مخرّقه ومخرق ملكه ـ وهذا النجاشي غير النجاشي الذي أسلم ومات وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ـ **وكتبتُ إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناسُ يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير**، قلت: هذه إحدى الثلاثة التي أوصاني بها صاحبي، وأخذتُ سهماً من جعبتي، فكتبتها في جلد سيفي.

ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قال: معاوية. فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سبحان الله! أين الليل إذا جاء النهار؟**» قال: فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جلد سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال: **إن لك حقاً، وإنكَ رسول فلو وجدتُ عندنا جائزة جوزناك بها، وإنا سَفْرٌ مُرْمِلُون**. قال: فناداه رجل من طائفة الناس، قال: أنا أُجوِّزُه، ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلةٍ صفُّوريةٍ، فوضعها في حَجْري، قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أيكم يُنزل هذا الرجل؟** قال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: **تعال يا أخا تنوخ**، فأقبلت أهوي إليه حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحلَّ حبوته عن ظهره، وقال: **هاهنا أمض لما أمرت له**، فجُلتُ في ظهره، فإذا أنا بخاتم في موضع غضون الكتف مثل

الحَجْمة الضخمة»(٥)، وذلك هو خاتم النبوة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله مع المتقين.

أيها الناس: ماثلت غزوةُ تبوك غزوةَ الخندق في شدتها وعسرها، وما حاق بالصحابة رضي الله عنهم من ابتلاءاتها، كما كانت نهايةُ الغزوتين واحدة؛ إذ كفى الله تعالى المؤمنين القتال، فسلط على الأحزاب ريحاً رحلتهم عن المدينة، وقذف في قلوب النصارى رعباً قعد بهم عن ملاقاة المسلمين في تبوك، وكانت تبوكُ نصراً عظيماً للإسلام والمسلمين؛

---

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١ ـ ٤٤٢)، وابنه عبد الله في الزوائد (٤/ ٧٤ ـ ٧٥)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٢٦٦)، وأخرجه مختصراً أبو عبيد في الأموال (٦٢٥)، وابن زنجويه في الأموال (٩٦١)، وعزاه الهيثمي في الزوائد لأبي يعلى وقال: ورجال أبي يعلى ثقات (٨/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به تفرد به الإمام أحمد (٥/ ١٥ ـ ١٦).

إذ أخضع النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من القبائل والبلدان المتحالفة مع الرومان لسلطان المسلمين، وضرب عليهم الجزية، فبعث خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، فأسره خالدٌ وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية[٦]، وأهدى أكيدر حلة من حرير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعجب الناس منها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أتعجبون من هذا، فوالذي نفسي بيده لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسنُ من هذا**» رواه الشيخان[٧].

وأرسل ملك أيلة هدية إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصالحه على الجزية[٨]. وهكذا فعل أهل جرباء وأذْرح فأعطوه الجزية[٩].

---

(٦) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٢)، والإصابة (١/ ٤١٣).

(٧) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٨)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٩)، والترمذي في اللباس باب مس الحرير من غير لبس (١٧٢٣)، وأحمد (٣/ ١١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وجاء أيضاً من حديث البراء رضي الله عنه عند البخاري في مناقب الأنصار باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (٣٨٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٨).

(٨) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة باب إذا وادع الإمام ملك قرية هل يكون ذلك لبقيتهم (١٣٦١)، ونقل الحافظ في الفتح عن ابن إسحاق قوله: «لما انتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه بحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية...» (٦/ ٣٠٨).

(٩) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٠).

وهكذا دانت كثير من البلاد والقبائل المتنصرة لسلطان الإسلام، ودخل كثير من أفرادها في دين الله تعالي، فوطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي الجزيرة العربية، ومهدت لفتوح الشام التي استعد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعداد جيش أسامة قبيل وفاته، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه، ثم أتبعه أبو بكر بجيوش الفتح الأخرى، ثم عمر رضي الله عنه حتى كُسر الرومان في معركة اليرموك، والفرس في القادسية، وعزَّ الإسلام، وانتشر في الأرض، وتحرر الناسُ من ظلم الأكاسرة والقياصرة.

إن ما جرى في غزوة تبوك من مبادأة أهل الكتاب بالغزو لما يرد شبهة أولئك الكتاب المعاصرين الذين أرادوا تزوير مفهوم الجهاد في سبيل الله تعالى، وحصره في الدفع فقط. وهدفهم من هذا الترويج هو: إخضاعُ الإسلام لبنود الحضارة المعاصرة، وتطويعه للقوانين الدولية الجائرة، فما وجدوا سبيلاً لرضى أهل الكتاب عنهم إلا بالتلاعب بأحكام الله تعالى، من تزوير مفهوم الجهاد، وتضييق نطاقه، وإلغاء أحكام أهل الذمة، حتى كتب أحدهم كتابه: «مواطنون لا ذميون»(١٠)، بل وصل الحال ببعضهم إلى إلغاء حدِّ الردة، وبالغ بعضهم فرفض كلَّ الحدود بحجة عدم مناسبتها لهذا العصر.

إن هؤلاء المزورين للدين، المتلاعبين بأحكام الشريعة قد ارتضوا أن يُسخطوا الله تعالى برضى الناس، فهم حريون بسخط الله تعالى عليهم،

---

(١٠) هو الكاتب الصحفي فهمي هويدي، هداه الله تعالى.

وأن يسخط عليهم الناس، وما رأينا من حاولوا إرضاءهم قـد رضوا عنهم ولا عن دينهم، ولا عن أفكارهم التي فيها من بنود الحضارة المعاصرة أكثر مما فيها من الإسلام، بل سخطوا عليهم ورفضوهم ولم يقبلوهم.

أليست القوى الظالمة قد اعتبرت مقاومة المحتل المعتدي إرهابـاً؛ لأنهم يريدون من الضحية أن يذبح ولا يعترض، وأن يُعذبَ فلا يتوجع.

ولن يرضيهم شيء حتى يبدلوا ديننا، وصدق الله القائل: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

ألا فاتقوا الله ربكم، واستمسكوا بدينكم، واثبتوا عليه مهما كانت التبعات؛ فإن حوض النبي صلى الله عليه وسلم لا يَرِدهُ من بدلوا وغيروا، ولسوف يحجبون عنه، ويقول النبي صلى الله عليه وسلـم: «**سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي**»[١١].

وصلوا وسلموا على نبيكم محمد، كما أمركم بذلك ربكم. . .

---

(١١) كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري في الرقاق باب في الحوض (٦٥٨٤)، ومسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته (٢٩٩١).

١٣٩- أحداث توبة صادقة
توبة كعب بن مالك رضي الله عنه

الجمعة ١١/ ٧/ ١٤١٧هـ

الحمدلله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٠٢) ﴾ [آل عمران] ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** (١) ﴾ [النساء] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** (٧٠) **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** (٧١) ﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فقد كان من الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام الواقعة في شهر رجب: غزوة تبوك. تلك الغزوة التي كانت ابتلاءً للعباد، وتمحيصاً للمؤمنين، وفضحاً للمنافقين. وأحداث الغزوة طويلة، ومن أبرز أحداثها تخلفُ الصحابي الجليل كعبِ بن مالك رضي الله عنه، ثم توبته الصادقة التي برهن الابتلاءُ على صدقها. ونحتاج في زمن المعاصي والفتن أن نمعن النظر جيداً في تلك التوبة الصادقة. فعسى أن نتوب إلى الله جميعاً فنكون من المفلحين.

أخرج الشيخان وغيرُهما[١] من حديث عبدالله بنِ كعب بنِ مالك وكان قائد كعبٍ رضي الله عنه من بنيه حين عمي، قال: سمعت كعبَ ابنَ مالك رضي الله عنه يحدّث بحديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، قال كعبٌ: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفتُ في غزوة بدرٍ، ولم يُعاتَبْ أحـدٌ تخلّف عنه؛ إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى كانت تلك الغزوة، ولم يكن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المغازي باب حديث كعب بن مـالـك (٤٤١٨) ومسلم في التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك (٢٧٦٩) والترمـذي فـي التفسير، سورة براءة (٣١٠١) وأبوداود في الجهاد باب إعطاء البشير (٢٢٠٢) والنسائي في الطلاق باب الحقي بأهلك (٦/ ١٥٢) وأحمد (٣/ ٤٥٩) وساق رواياته في الكتب الخمسة ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ١٧١)

في حرٍ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدداً كثيراً؛ فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم؛ فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان - قال كعب: فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمارُ والظلال فأنا إليها أصعر.

فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معه، فأرجعُ ولم أقض شيئاً وأقولُ في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجِدُّ فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جِهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو. فهممت أن أرتحل فأدركهُم، فياليتني فعلت، ثم لم يُقدَّر ذلك لي.

فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى لي أُسوةً إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء. ولم يذكرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغَ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: **ما فعل كعبُ بن مالك؟** فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْداه، والنظرُ في عِطْفيه، فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله

صلى الله عليه وسلم. فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مُبيِّضاً يزول به السراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **كن أبا خيثمة**، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاعِ التمر حين لمزه المنافقون.

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطلُ حتى عرفتُ أني لم أنجُ منه بشيءٍ أبداً؛ فأجمعتُ صدقَه.

وأصبحَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قادماً. وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً؛ فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكَلَ سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت؛ فلما سلمت تَبَسَّم تَبَسُّمَ المُغضَب ثم قال: **تعال**، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: **ماخلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟** قال: قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهلِ الدنيا لرأيتُ أني سأخرجُ من سخطه بعذر، لقد أُعطيتُ جدلاً؛ ولكنني والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليومَ حديثَ كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسخِطَك علـيَّ، وإن حدثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عليَّ فيه إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجل. والله ما كان لي من عذر، والله ماكنت قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك. قال:

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أمّا هذا فقد صدق؛ فقم حتى يقضي الله فيك**. وسار رجالٌ من بني سَلمة فاتَّبعوني فقالوا لي: والله ماعلمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عَـجَزت في أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون؛ فقد كان كافيك ذَنْبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك. قال: فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذِّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معيَ من أحد؟ قالوا: نعم، لقيهُ معكَ رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك؟ قال: فقلت: من هما؟ قالوا: مُرَارةُ بنُ الربيع العَمْريُّ، وهلالُ ابنُ أمية الواقفي؟ قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أُسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه، قال: فاجتنبنا الناس أو قال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القومِ وأجلَدهم، فكنت أخرجُ فأشهدُ الصلاة مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواقِ ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردِّ السلام أم لا، ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر؛ فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُ نحوه

أعرضَ عني.

حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليّ - فسلمت عليه فوالله ماردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة: أنشدك بالله هل تعلمني أحبُ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم؛ ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نَبَطي من نبط أهلِ الشام ممن قدم بالطعام يبيعُه بالمدينة يقول: من يدلُ على كعب بن مالك؟ فطفق الناسُ يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبَكَ قد جفاك، ولم يجعلْك الله بدارِ هوانٍ ولاَ مضْيَعة، فالحق بنا نواسِك، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فيممت بها التنور فسَجَرْتُها.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي، إذا رسولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يأمرُك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أفأطلِّقُها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها فلا تقربنَّها. وأرسلَ إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يارسول الله، إن هلالَ بنَ أمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادم؛

فهل تكرهُ أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنَّك. فقالت: إنه والله مابه من حركةٍ إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك؛ فقد أذِن لامرأة هلالِ بنِ أمية أن تخدمه؟ فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته وأنا رجل شاب!

فلبث بذلك عشر ليال فكَمُلَ لنا خمسون ليلة من حين نُهيَ عن كلامنا. ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت؛ سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْعٍ يقول بأعلى صوته: يا كعبَ بنَ مالك! أبشر؛ فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء الفرج. فآذنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناسُ يُبَشِّروننا فذهبَ قِبَل صاحبيَّ مبشرون، وركَضَ رجلٌ إليّ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم قِبَلي وأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يُبشِّرني نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقتُ أتأممُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة ويقولون لي: لِتَهنِكَ توبةُ الله عليك؛ حتى دخلت المسجد فإذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

جالسٌ حوله الناس. فقام طلحـةُ بن عبيدالله رضي الله عنه يهـرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجلٌ من المهاجرين غيره. فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يَبْرُق وجهُهُ من السرور: **أَبشر بخير يـومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك**. فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: **لا بل من عند الله عز وجل**، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأن وجهَه قطعةُ قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أمسِكْ عليك بعض مالك فهو خيرٌ لك**، فقلت: إني أُمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله تعالى إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحدِّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صـدق الحديـثِ منذُ ذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ مما أبلاني الله تعالى. والله ما تعمدُت كِذْبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي.

قال: فأنزل الله تعالى ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ** ﴾ [التوبة: ١١٧] حتى بلغ ﴿ **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** ﴾

[التوبة: ١١٧, ١١٨] حتى بلغ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة].

قال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كَذَبْتُه؛ فأهلكَ كما هلك الذين كذبوا، إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ماقال لأحد فقال الله تعالى ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. . . الحديث، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ يغفر الذنب، ويقبل التوب، شديد العقاب، ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أصدقُ الناس توبة، وأعلاهم عند ربه منزلة، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال] ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور].

أيها الإخوة المؤمنون: كانت قصة كَعب من أروع القصص التي حُفظت في السنة النبويـة، ودُوِّنت في تاريخ المسلمين. لقد كانت توبته توبةً صادقة؛ ثبت بها كعب أن تميد به الابتلاءات، أو تميلَ به الإغراءات؛ فضحّى تضحية جسيمة حينما صدقَ اللهَ ورسوله، وصبرَ على المقاطعة والهجران.

وكم هو عسير على النفس البشرية أن تعيشَ مع الناس، وفي شدة المحنة واللأواء، يأتيه مـا يُظَنُّ أنه فرج وهو زيادة في البلاء، حيـن يُرسِلُ إليه ملك غسان أن يوافيه، ويتركَ الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لكن كعبـاً صمد ولم يفتن، فسَـجَرَ الكتاب في التنور، وماقاده إلى ذلك إلا قوةُ إيمانه، وصدقُه في التوبة.

فما أحوجنا بعد استعراضِ تلك الحادثةِ أن نعيد النظر في توبتنا. كيف نتوبُ ثم نعصي، ثم نتوبُ ثم نعصي؛ بل ونزداد عصياناً ونفوراً، إن ذلك لمن الكذب في التوبة؛ إذ لوصدقنا مع الله في توبتنا كـمـا صدق كعب، لرزقنا توبة نصوحاً كما رزق كعباً.

هل تحقق الندم على المعصية في توبتنا كما تحقق في توبة كعب؟ وهل أقلعنا عن ذنوبنا؟ وهل عزمنا على عدم الرجوع إليها؟ أم أننـا عند أدنى إغراءٍ نرجعُ إلى المعصية كرة أخرى، وهل نطيـقُ ما طاق كعب من البلاء؟

إننا لانستطيع ذلك لأن إيماننا ليس كإيمان كعب، وصدقُ كعب ليس كصدقنا، فاستحق كعبٌ وصاحباه أن يُعلن قبولُ توبتهم في قرآن

يتلى إلى يوم الدين.

فهل نعتبرُ يا أيها المؤمنون، ونجددُ التوبة، ونصدقُ فيها في كل وقت وحين. وإذا أنسانا الشيطانُ ولهتْنا على الدنيا، وحبُنا للمعصية عدنا من جديد فتذكّرنا ذلك، خصوصاً حينما نتلوا إعلان توبة الله على كعب وصاحبيه في آيات من سورة سميت سورة التوبة؛ لعظم هذه القصة، ولعظم التوبة. وكيف لا تكون التوبة عظيمة وهي رجوعٌ إلى الخالق، وانطراحٌ بين يديه، وندمٌ على العصيان، وإرغامٌ للشيطان. فالتوبةَ التوبةَ يا عباد الله، والصدقَ الصدقَ فيها؛ فمن قُبلت توبتهُ فمع المفلحين، اللهم ارزقنا التوبة الصادقة النصوح، اللهم تب علينا...

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

* * *

١٤٠-غزوة مؤتة : أحداث ودروس

٢٢/ ٥/ ١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: تحتاج أمة الإسلام في حال ضعفها واستكانتها، وتسلطِ أعدائها، وعجز أبنائها؛ من أجل إيقاظها وإحيائها إلى الموعظة والتذكير، ومراجعة حساباتها، والرجوع إلى ربها، والاستمساك بدينها، فهي أمةٌ لا تحيا ولا تقوى إلا بالإسلام؛ فإذا أعرضت عنه عاشت في الدنية والدون.

ومما يسهم في إحيائها، ويعين على نهوضها: مدارسةُ تاريخها،

والتذكيرُ بأمجادها وأيامها، والوقوف على سير أبطالها ورجالاتها، لا اكتفاءً بذكر الأمجاد السالفة، ولا تغنياً بأيامها الخوالي، ولكنه وقوفُ تأملٍ وتدبر، يقود إلى المتابعةِ والاقتفاء، والسعي الجاد إلى الصلاح والإصلاح، ونشر الخير بين الناس، حتى تنهض أمة الإسلام، ويقوى أبناؤها؛ فتكون شريعةُ الله تعالى حاكمة بين العباد.

وهذا حديث عن غزوة مؤتة التي عيّن النبي صلى الله عليه وسلم لها قادة ثلاثة، يعقب أحدهم الآخر إذا استشهد، والتي كانت أول معركة للمسلمين مع النصارى، فخرجت تلك الغزوة عن المعهود؛ إذ كانت حروب المسلمين قبلها مع العرب واليهود.

يُذكر في سبب هذه الغزوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتاب إلى ملك بُصْرى، مع الحارث بن عمير الأزدي، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيلُ بن عمرو الغساني فقتله صبراً - وكانت الرسلُ لا تقتل - فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل رسوله، فأرسل إلى مؤتة ثلاثة آلاف من المسلمين في جمادى الأولى من السنة الثامنة من الهجرة النبوية[١] وأمّر عليهم زيد بن حارثة ثم قال: «**إن قُتل زيدٌ فجعفر، وإن قُتل جعفرٌ فعبدالله بن رواحة**». أخرجه البخاري[٢].

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٨) وسيرة ابن هشام (٥/ ٢٢) والبداية والنهاية (٤/ ٢٤١).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة من أرض الشام (٤٢٦١) وأخرجه من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أحمد (٥/ ٢٩٩-٣٠٠).

فمضى الجيش حتى نزلوا مَعَان من أرض الشام، وكانت أخبارُ هذا الجيش قد وصلت إلى الروم، فجهزوا لملاقاته مئة ألف، وانضم إليهم مئة ألف أخرى من نصارى العرب، فكانوا مئتي ألف كافر، مقابل ثلاثة آلاف من المسلمين، فالمقارنة بينهما ضرب من ضروب الخيال، والدخولُ في القتال مجازفة أيُّ مجازفة، مما جعل المسلمين - فيما يُروى - يترددون في ملاقاة عدوهم، ويقيمون ليلتين يفكرون في أمرهم، فقالوا: «نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، لكن ابن رواحة قطع تفكيرهم، وشجع الناس على المضي في القتال قائلاً: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتلُ الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة»[٣].

فمضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموعُ هرقلٍ من الروم والعرب، فانحاز المسلمون إلى مؤتة، وعبأوا أنفسهم فيها، ثم التحم الفريقان.

وغريبٌ جداً أن ينازل المسلمون عدوهم وهو يزيد عليهم بما يقارب سبعين ضعفاً، إن المقاييس والحسابات ترفض ذلك، لكن تحطمت المقاييس،

---

(٣) سيرة ابن هشام (٥/ ٢٤) وتاريخ الطبري (٢/ ١٥٠) والبداية والنهاية (٤/ ٢٢٣) والسيرة الحلبية (٢/ ٧٨٧) وزاد المعاد (٣/ ٣٨٢).

وألغيت الحسابات؛ فالمقاتلون هنا ليسوا كسائر المقاتلين، بل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، امتلأت قلوبهم إيماناً ويقيناً، وعلموا أن ما عند الله تعالى حق، فلم يحجموا ويعتذروا بكثرة عدوهم وقلتهم، وقوته وضعفهم؛ بل قاتلوا قتالاً مريراً، وعانقوا المنايا، وخاضوا حمام الموت؛ حتى استشهد قائدهم زيد رضي الله عنه، فأخذ الراية القائد الذي يليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فعقر فرسه الشقـراء(٤) وقاتل بالراية فقطعت يمينه، فأمسك الراية بشماله، فقطعت شماله، فاحتضن الراية بعضديه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة(٥)، ولقد أبدله الله تعالى عن يديه جناحين يطير بهما في الجنة كما ثبت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦)، وقيل: إنه ظل

---

(٤) جاء هذا في حديث عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه من الرضاعة وهو من بني مرة بن عوف، وقد حضر الغزوة، وشهد فعل جعفر رضي الله عنه. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٤٠) برقـم (٣٣٦٧٢) وأبو داود وقال عقـب ذكره: «هذا الحديث ليس بالقوي» (٢٥٧٣) والبيهقي (٩/ ٨٧) والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٦) برقم (١٤٩٢) وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٥٨٤)، وانظر كلام الخطابي عن حكم عقر الفرس في خطبة سيرة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ج (٤) ص(٥٢) من هذه المجموعة.

(٥) انظر: الدرر لابن عبدالبر (٢١٠) وزاد المعاد (٣/ ٣٨٢) والسيرة الحلبية (٢/ ٧٨٨).

(٦) جاء ذلك في أحاديث عدة، منها:

أ) حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة»** أخرجه أبو يعلى (٤٩٣٥) والترمذي وقال: هذا حديث غريب (٣٧٦٣) وصححه ابن حبان (٤٠٤٧) والحـاكـم=

محتضناً الراية حتى قُطِع جسده نصفين[٧]، فلله دره ما أثبته، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية»[٨]. وعلى رغم استشهاده لم تسقط الراية بل أخذها القائد الثالث عبدالله بن رواحة فقاتل حتى استشهد.

= وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٢١٢).

ب) حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**رأيت جعفر بن أبي طالب في الجنة ذا جناحين يطير حيث شاء**» أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٩٦) برقم (١٢١١٢).

جـ) ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه كان إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» أخرجه البخاري (٤٢٦٤) والحاكم (٣/ ٤٤).

والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد ذكر كثيراً منها الحافظ في الفتح في مناقب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وحسنها.

(٧) انظر: وسيلة الإسلام لأبي العباس أحمد بن أحمد الخطيب (١٠٨).

(٨) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة من أرض الشام (٤٢٦١) وجاء في حديث آخر عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما أخبره أنه: «وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره» أخرجه البخاري (٤٢٦٠) وهذا تعارض من راوٍ واحد هو ابن عمر رضي الله عنهما، وللجمع بين الحديثين أوجه عدة منها:

الأول: أن العدد قد لا يكون له مفهوم.

الثاني: أن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام؛ فإن ذلك لم يذكر في هذه الرواية؛ بل ذكر «طعنة وضربة» والحديث الآخر قال فيه: «طعنة ورمية».

الثالث: أن رواية الخمسين مقيدة بكونها ليس فيها شيء في ظهره، ورواية التسعين يكون الزائد على الخمسين في ظهره أو جنبيه، ولا يستلزم ذلك أنه ولى الدبر فقد تكون السهام أتته من ظهره وجنبيه.

فمضى الثلاثة الذين عينهم النبي صلى الله عليه وسلم قادة للجيش، فأخذ الراية ثابت بن أقرم وصاح: «يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد»(٩) وثابت بن أقرم رضي الله عنه أبى القيادة لا هروباً من المنية، أو خوفاً من العدو، ولكنه أحس بوجود من هو أكفأ منه، كيف! وقد حمل الراية خشية أن تسقط، وصاح في المسلمين أن يعينوا قائداً والحرب تدور رحاها، إن ذلك لمن آيات الشجاعة والجرأة في هذا الموقف العصيب، وكم هو جميل أن يصيح الناس به ليكون قائدهم فيأبى استصغاراً لنفسه، وهو يرى وجود من هو أولى بالقيادة منه!!

وهذا درس عظيم من هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه في معرفة أقدار الرجال، وإنزالهم منازلهم التي يستحقونها؛ حتى لا نكلف أمتنا أن تحمل عجزنا وأثرتنا(١٠).

= ويؤيد الوجه الأول رواية العمري عن نافع: «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده» بعد أن ذكر العدد بضعاً وتسعين.

ووقع في رواية البيهقي في الدلائل: «بضعاً وتسعين، أو بضعاً وسبعين» وأشار إلى أن بضعاً وتسعين أثبت. انظر: فتح الباري (٧/ ٥٨٥).

(٩) أخرجه ابن إسحاق عن عروة مرسلاً؛ كما في فتح الباري لابن حجر (٧/ ٥٨٤) وأخرجه الطبري في تاريخه عن ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبدالله ابن الزبير عن أبيه من الرضاعة وهو من بني مرة بن عوف وكان في الغزوة (٢/ ١٥١) وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٤٤-٢٤٥) وانظر: سيرة ابن هشام (٥/ ٣٠) والثقات لابن حبان (٢/ ٣٣) والدرر لابن عبدالبر (٢١٠) وزاد المعاد (٣/ ٣٨٣) والسيرة الحلبية (٢/ ٧٨٨).

(١٠) انظر: فقه السيرة للغزالي (٣٦٧-٣٦٨).

لقد اصطلح الناس على خالد بن الوليد، وخالد لها، شجاعة وإقداماً، وخبرة بأمور الحرب وسياستها، فأخذ الراية، وقاتل قتالاً مريراً حتى تكسرت في يده تسعة أسياف من شدة القتال، لا شُلت يمينه، روى البخاري عن خالد رضي الله عنه أنه قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية»[١١].

وكان خالد يُقاتل وهو يحتال للخلوص بالجيش من هذا المأزق المتضايق، وقتال الانسحاب شاق ومرهق، لاسيما وخالد لا يريد إشعار الروم بالحفاظ على الجيش وسحبه.

ودخل الليل على المتحاربين فتوقف القتال، فأعاد خالد تنظيم قواته القليلة، فجعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته؛ فأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من رايات وهيئات المسلمين وقالوا: «قد جاءهم مدد، فرعبوا»[١٢]، وكان هدف خالد مناوشتهم، وإلحاق الخسائر بهم، دون إدخال المسلمين في حرب عامة معهم تكون خطراً عليهم.

واكتفى بذلك، ثم آثر الانصراف بمن معه، وكان من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم أن أخبر أصحابه في المدينة بخبر الجيش. روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعى زيداً وجعفراً

---

(١١) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة من أرض الشام (٤٢٦٥) وابن المبارك في الجهاد (٢١٨) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٤٤٣) وأحمد في فضائل الصحابة (١٤٧٥-١٤٨١) والخرائطي في مكارم الأخلاق (١٧٥).

(١٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧).

وابن رواحة للناس قبل أن يأتِهم خبرُهم فقال: **أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب** - وعيناه صلى الله عليه وسلم تذرفان - **حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**». رواه البخاري[(١٣)].

وعلى الرغم من ضراوة هذه المعركة، وكثرة أعداد جيش العدو؛ فإنه لم يستشهد من المسلمين سوى اثني عشر رجلاً فقط، أما العدو فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن وصف المعركة يدل على كثرتهم، وما انكسرت تسعة أسياف في يد خالد رضي الله عنه عبثاً[(١٤)].

---

(١٣) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة (٤٢٦٢) والنسائي في الجنائز باب النعي (٤/ ٢٦) والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٥) (١٤٦٠).

(١٤) اختلف أهل السير في نتائج هذه السرية هل كانت نصراً للمسلمين أم كانت هزيمة عليهم على أقوال ثلاثة:

القول الأول: أنها كانت هزيمة على المسلمين؛ وهذا اختيار ابن سعد في الطبقات (٢/ ٩٨) إذ قال رحمه الله تعالى: «فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون، فقتل من قتل من المسلمين». ولعل هذا القول مبني على ما حصل للقادة الثلاثة رضي الله عنهم؛ إذ يبعد أن يقتل ثلاثة قادة متتابعين في معركة واحدة دون أن يكون هناك هزيمة!

وجواب ذلك: أن القادة الثلاثة كانوا من فرط شجاعتهم، وحبهم للشهادة في مقدمة الجيش، فكان بدء الرمي والضرب عليهم، أو أن الروم قصدوا الراية؛ لأنها عنوان النصر والهزيمة، فتساقط القادة الثلاثة تحتها؛ حماية لها.

القول الثاني: لم يكن هناك نصر ولا هزيمة بل انحازت كل طائفة عن الطائفة الأخرى؛ كما روى ابن هشام عن ابن إسحاق: «فاصطلح الناس على خالد ابن الوليد فلما أخذ الراية دافع القوم، وخاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه؛ حتى انصرف بالناس» انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٩). =

= وقال ابن إسحاق في موضع آخر (٤/ ٢٣): «وقد قال فيما كان من أمر الناس وأمر خالد، ومخاشاته بالناس، وانصرافه بهم قيس بن المسحر اليعمري يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس:

فوالله لا تنفك نفسي تلـومـنـي ... على موقفي والخيل قابعة قـبـل
وقفت بها لا مستـحـيـزاً فنافذاً ... ولا مانعاً من كان حم له القتـل
على أنني آسيت نفسي بـخـالـد ... ألا خالد في القوم ليس له مثـل
وجاشت إليّ النفس من نحو جعفر ... بمؤتة إذ لا ينفع النابـل الـنـبـل
وضم إلينا حجزتيهم كلـيـهـمـا ... مهاجرة لا مشـركـون ولا عـزل

فبين قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره: أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وحقق انحياز خالد بمن معه» اهـ وانظر: تاريخ الطبري (٣/ ٤٢) والاكتفاء للكلاعي (٢/ ٢٨٣) وقوله: «مخاشاته بالناس» معناه: أنه رضي الله عنه خشي على المسلمين لقلة عددهم وكثرة عدوهم، وقيل: الصواب «حاشى بهم» بالحاء المهملة، ومعناه: انحاز بهم، انظر: الروض الأنف (٤/ ٨١).

وقد أيد قول ابن إسحاق هذا بأنهم انحازوا ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٨٣) فقال: «والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أن كل فئة انحازت عن الأخرى» اهـ.

القول الثالث: أن غزوة مؤتة كانت نصراً عظيماً للمسلمين؛ كما هو قول موسى ابن عقبة والزهري ومن وافقهما؛ فقد نقل ابن هشام في السيرة (٤/ ٢٣) عن الزهري قوله: «أمّر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم». وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٨٦): «وقع في المغازي لموسى بن عقبة - وهي أصح المغازي - ما نصه: ثم أخذه - يعني اللواء - عبدالله بن رواحة فقتـل، ثـم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين» اهـ.

ونصر هذا القول ابن كثير في البداية والنهاية فقال: «هذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مئتا ألف مقاتل: من الروم مئة ألف، ومن نصارى العرب مئة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يقتل من =

. . . .

= المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: «لقد اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها، دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن في ذلك الزمان وفي كل أوان، وهذا مما يدخل في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] اهـ من البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).

والذي يظهر رجحانه القول الثالث لما يلي:

١- حديث أنس رضي الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**» أخرجه البخاري، وانظر تخريجه في هامش (١٣) فسماه النبي صلى الله عليه وسلم فتحاً، والفتح لا يكون إلا عن انتصار.

٢- ما جاء في مغازي أبي الأسود عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: «فحمل خالد على الروم فهزمهم» ذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٥٨٦).

٣- أن رجلاً من المسلمين من أهل اليمن قد قتل فارساً من الروم، وسلبه سرجاً وسلاحاً مذهبين؛ كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه عند أحمد (٦/ ٢٦-٢٨) ومسلم (١٧٥٣) وأبي داود (٢٧١٩) ولا شك في أن السلب غنيمة، والغنيمة تكون عن ظفر بالمعركة.

٤- أنه لم يقتل من المسلمين بإجماع أهل السير والمغازي - فيما وقفت عليه من كتبهم - سوى اثني عشر رجلاً سماهم ابن هشام في سيرته (٤/ ٢٧-٢٨) والهزيمة لا يكون ضحاياها هذا العدد الضئيل؛ بل كثير من المعارك التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً كان عدد قتلاها أكثر من هذا العدد.

٥- الظاهر من حال المعركة أن المسلمين أثخنوا في الروم، ولا يعلم كم كانت خسائر الروم، لكن سياق المعركة يدل على أنها خسائر فادحة، ويتبين ذلك من وجهين:

ولقد كان لشهداء مؤتة مكانة عظيمة عند الله تعالى؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما يسرني - أو قال ما يسرهم - أنهم عندنا**» أخرجه البخاري(١٥).

أم أُسرهم ففي كفالة الله تعالى، وهو نعم المولى ونعم النصير. عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «جاءنا النبي صلى الله عليه

= **الأول**: أن خالداً رضي الله عنه اندقت في يده تسعة أسياف، وهذا عدد كبير في معركة واحدة، ويدل على إثخانه في العدو سوى غيره من أبطال المسلمين وشجعانهم؛ كما هو قول ابن كثير رحمه الله تعالى.

الثاني: أن المسلمين استطاعوا الانسحاب من أرض المعركة بسلام، ولولا أن القتل كان كثيراً في الروم - حتى إنهم كفوا عن المسلمين - لما انسحبوا ولركبوا ظهور المسلمين قتلاً وأسراً، وأطبقوا عليهم من كل جانب، خاصة وأنهم يزيدون على المسلمين بما يقارب سبعين ضعفاً، وهذا عدد كبير جداً - بل لا يكاد يصدق لولا إجماع أهل السير عليه - وما منعهم من ذلك إلا ما رأوه من القتل في قومهم، فتهيبوا من المسلمين فلم يطاردوهم، وكأنهم فرحوا بانحيازهم عنهم. وهذا الانحياز، والخلوص من هذه الجموع العظيمة من الروم بخسائر قليلة من أبين الدلائل على أنه نصر عظيم، وفتح مبين؛ ولذلك اعتبره بعض المحققين علامة على الفتح والنصر؛ كما قال الدكتور أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٦٩): «ويعتبر هذا الانسحاب المنظم الناجح فتحاً عظيماً حيث تمكن خالد من إنقاذ جيشه بخسائر طفيفة مع الإثخان في الروم، وإصابتهم بقتلى وجرحى، ولاشك أن استبسال المسلمين في القتال، وشجاعتهم النادرة، وحرصهم على الشهادة، بالإضافة إلى عبقرية خالد العسكرية هو الذي مكنهم بعون الله تعالى من الخلاص من المأزق» اهـ.

(١٥) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري في الجهاد والسير باب تمني الشهادة (٢٧٩٨) وأحمد (٣/ ١١٣).

وسلم بعد ثلاثٍ من موت جعفر فقال: **لا تبكوا على أخي بعد اليوم، وادعوا لي بني أخي**، قال عبدالله: فجيء بنا كأننا أفراخ، فقال: **ادعوا لي الحلاق**، فجيء بالحلّاق، فحلق رؤوسنا، ثم قال عليه الصلاة والسلام مداعباً: **أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبدالله فشبيه خَلْقي وخُلُقي**، قال عبدالله: ثم أخذ بيدي فأشالها وقال: **اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبدالله في صفقه يمينه**. قالها ثلاثاً، قال عبدالله: فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا، وجعلت تُفْرِحُ له: فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «**العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!**» أخرجه أحمد بسند صحيح[١٦].

ولما جاء نعي جعفر قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم أمر يشغلهم أو أتاهم ما يشغلهم**» أخرجه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح[١٧].

---

(١٦) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٤-٢٠٥) وابن سعد في الطبقات (٤/ ٣-٣٧) والنسائي في الكبرى (٨٦٠٤) والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٥) برقم (١٤٦١) وابن عبدالبر في التمهيد (٢٢/ ١٣٩) وأخرجه مختصراً أبو داود في الترجل باب في حلق الرأس (٤١٩٢) والنسائي في الزينة باب حلق رؤوس الصبيان (٨/ ١٢٨) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٧٥٠) وانظر شرح كلمة (تفرح له) في خطبة سيرة جعفر رضي الله عنه ج(٤) ص(٥٤) من هذه المجموعة.

(١٧) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٥) وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٠) وأبو يعلى في مسنده (٦٨٠١) وعبدالرزاق في مصنفه (٦٦٦٥) وأبو داود في الجنائز باب صنعة الطعام لأهل الميت (٣١٣٢) والترمذي في الجنائز باب ما جاء في الطعام يصنع لأهل الميت (٩٩٨) وابن ماجه في الجنائز باب ما جاء في الطعام يبعث =

اللهم ارض عن شهداء مؤتة، وعن الصحابة أجمعين، واحشرنا في زمرتهم يا رب العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله؛ كتب النصر والفلاح للمؤمنين، وجعل الصغار والذُّل على الكافرين، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ إمامُ المرسلين، وقائدُ الغر المحجلين، والشافعُ المشفعُ يوم الدين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - لعلكم تفلحون ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

أيها الإخوة المؤمنون: كانت غزوة مؤتة مليئةً بالدروس، حافلةً

= إلى أهل الميت (١٦١٠) والدارقطني (١١). وقد جاء من حديث عبدالله ابن جعفر رضي الله عنهما، ومن حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٣٧٢) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٧٥١).

بالبطولات، تعطي البرهان على أن الإيمان إذا استقر في القلوب، وعمل عمله فيها؛ قاد النفوس إلى استقبال المنايا، وتمني الموت؛ ابتغاء رضوان الله تعالى. وهكذا سقط القادة الثلاثةُ في مؤتة الواحد منهم تلو الآخر، ولم يكن همهم أنفسهم والرماحُ والسيوفُ قد خالطت أجسادهم، بل همُهم الإسلام، فلم تسقط رايته من أيديهم رغم ما لاقوه من ألم القتل والتمزيق.

إن طبيعة البشر عدمُ الاهتمام عند الموت إلا بالموت وسكراته، لكن أولئك القادة نسوا ما هم فيه، وقضى كل واحد منهم نحبه وقلبُه مع الإسلام، إن هذه النماذج من البشر إذا وجدت في الأمة تحقق لها النصر بإذن الله تعالى.

أيها الإخوة: إن مجاهدي غزوة مؤتة برهنوا برهاناً واضحاً على أن حروب المسلمين مع عدوهم لاتحسم بكثرة العدد، أو قوة العتاد؛ بل الفيصلُ فيها قوةُ الإيمان، وصدقُ التوكل على الله تعالى، والإخلاصُ في طلب الشهادة. وتلك سنَّةٌ أبدية، وهي مفسرة لأسباب هزائم المسلمين المتتابعة متى ما ضعف الإيمان، أو تخلّف التوكل والإخلاص؛ كما هو حادث في أزمنة الضعف والانحطاط حتى ولو كان المسلمون أعداداً كثيرة، فهم بدون إيمان ويقين وإخلاص وتوكل غثاءٌ كغثاء السيل.

أيها الإخوة: إن كل مسلم في الأرض مسؤول عن الأمة ماذا قدم لها؟ هل حافظ على فرائض الله تعالى حتى لا يتخلف النصر بسببه؟ هل أدى الأمانة فيما استرعاه الله تعالى عليه من أهله وذريته، وفي

عمله ووظيفته؛ لكيلا يتخلف نصر الله تعالى بسببه؟! هل سعى في الإصلاح على قدر استطاعته وجهده؟ هل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأخذ على يد السفيه، وعلم الجاهل؛ حتى يتحقق النصر؟!

إن مشكلتنا - أيها الإخوة - أن كل واحد منا يتنصل من مسؤولياته، ويلقي باللائمة على غيره، بينما في غزوة مؤتة لم تسقط الراية حتى بعد مقتل القادة الثلاثة، وأحس كل فرد من أفراد الجيش المسلم أن الراية لو سقطت فإنه المسؤول عنها دون غيره، إننا نحتاج إلى هذا الشعور بالمسؤولية؛ حتى يأتي نصر الله تعالى.

فاتقوا الله ربكم، واستمسكوا بدينكم، فلا نصر إلا بالاستمساك بالإسلام، والأخذ به قولاً وعملاً، وتقديم حق الله تعالى على أهواء النفوس وشهواتها.

ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

١٤١- فضائل بيت المقدس

١٩/ ٦/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله؛ جعل الدنيا دار بلاء لأوليائه، وامتحان لسائر عباده، فكم نجا في ابتلائها من مرحوم! وكم فتن بها من محروم!! أحمد ربي وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ تفرد بالعزة والجلال، والجبروت والكبرياء. لا يذل من ولاه، ولا يعز من عاداه. ينصر أولياءه، ويكبت أعداءه، وهو عزيز ذو انتقام.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ دعا إلى توحيد ربه، فأوذي وأخرج من بلده، وفي أحد شج رأسُه، وكسرت رباعيته، فما فتَّ ذلك في عضده، ولا زعزع يقينه بربه. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، وتبليغ رسالته، فكانوا على قدر المسؤولية؛ أدو ما حُمِّلوا، وأوفوا بما عاهدوا ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٣]. والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين:

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ، فاتقوه يجعل لكم من ضيقكم مخرجاً، ومن عسركم يسراً، ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٢, ٣].

أيها المسلمون: خلق الله تعالى كل مخلوق، وفاضل بين مخلوقاته؛ لحكمة أرادها سبحانه وتعالى.

خلق الشهور والأيام والليالي ففضل رمضان على سائر الشهور، وفضل عرفة والجمعة والعيدين وأيام التشريق وأيام العشر على سائر الأيام، وليلة القدر على سائر الليالي، وثلث الليل الآخر على سائر الليل، وساعة الجمعة على سائر الساعات.

وخلق البشر وفاضل بينهم، ففضل المؤمن على الكافر، والبر على الفاجر، والنبيين على سائر البشر، والرسل على سائر النبيين، وخاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الرسل.

وخلق البقاع ففاضل بينها، وجعل جزيرة العرب وأرض الشام أفضل البقاع. . ففضل جزيرة العرب بمكة والمدينة، وفضل مكة والمدينة بحرميهما، وفضل الشام بفلسطين، وفلسطين بالقدس، والقدس بمسجدها، مسجد سليمان عليه السلام، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، عرج به إلى السماء من أرضها، وصلى بالنبيين في مسجدها.

إنها ما فضلت بترابها أو بنائها، أو هوائها أو مائها، أو جنس أهلها أو عرقهم أو لونهم أو لسانهم؛ ففي الأرض تراب أخصب من ترابها، وبناءٌ أعلى من بنائها، وهواء أنقى من هوائها، وماء أعذب من مائها.

إنها فضلت مع مكة والمدينة على سائر بقاع الأرض؛ لأن خالقها تبارك وتعالى فضلها، وجعل لمسجدها فضلاً على سائر مساجد الأرض إلا حرمي مكة والمدينة، ومسجدها كان الثاني في تاريخ بناء المساجد عند البشر؛ كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولُ؟ قال: **المسجد**

الحرام، قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال: **المسجد الأقصى**، قلت: كم كان بينهما؟ قال: **أربعون سنة. ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلِّه، فإن الفضل فيه**» رواه الشيخان[(١)].

وهو مسجد مبارك، وأرضه مباركة، وما حوله مبارك أيضاً ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ [الإسراء: ١].

وأسباب بركته كثيرة، ومنها: ما لحقه من البركة بمن صلى فيه من الأنبياء من داود وسليمان ومن بعدهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام، وإعلانه الدعوة إلى الله تعالى فيه وفيما حوله، وأعظم تلك البركات: حلول النبي صلى الله عليه وسلم فيه.. ذلك الحلول الخارق للعادة، وصلاته فيه بالأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام[(٢)].

ووصف الله تعالى أرض الإسراء بالقدسية فقال على لسان موسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ [المائدة: ٢١].

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم مسجدها من المساجد التي تشد الرحال إليه للعبادة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تشد الرحال إلا**

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب (١٠) (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/ ٢٠).

إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى» رواه الشيخان(٣).

وجعل في الصلاة فيه من الفضل ما ليس للمساجد الأخرى إلا الحرمين فقال عليه الصلاة والسلام: «**لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثاً: حكماً يصادف حكمه، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة**» رواه النسائي وابن ماجه(٤).

وأرضه أرض المحشر والمنشر كما جاء في حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: «قلت: يا رسول الله، أفتنا في بيت المقدس، قال: **أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه؛ فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره**» قلت: أرأيت إن لم أستطع أن أتحمل إليه؟

---

(٣) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة باب مسجد بيت المقدس (١١٩٧)، ومسلم في الحج باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٣٨) (٨٢٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) (٥١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في المساجد باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه (٢/ ٣٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنن فيها باب الصلاة في بيت المقدس (١٤٠٨) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/ ١٤٩).

قال: «**فتهدي له زيتاً يسرج فيه، فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه**» رواه ابن ماجه، قال البوصيري: إسناده صحيح[٥].

وجاء في حديث في مسند الإمام أحمد أن الدجال يمنع منها[٦].

وفي حديث آخر عند مسلم أن عيسى عليه السلام يدرك الدجال بباب لُدٍّ فيقتله[٧]، ولُدٌّ: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين[٨].

لقد عرف قادة المسلمين وأئمتهم منزلة بيت المقدس في الإسلام؛ ولذا صرفوا له من الهمِّ والهمة ما يستحقه منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنن فيها باب الصلاة في بيت المقدس (١٤٠٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦١٠) قال الهيثمي في الزوائد: رواه أبو يعلى بتمامه من حديث ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورجاله ثقات (٤/ ٧).
وقد جعله الهيثمي من حديث ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تابعاً في ذلك لأبي يعلى رحمه الله؛ الذي جعله كذلك، والصواب أنه من حديث ميمونة مولاته لا زوجته.
قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٤٥٤): وإسناد طريق ابن ماجه صحيح رجاله ثقات.

(٦) كما في حديث جنادة بن أبي أمية قال: أتينا رجلاً من الأنصار.. وذكر فيه أن الدجال يمنع من أربعة أماكن: المساجد الثلاثة: الحرام والنبوي والأقصى، إضافة إلى الطور.. أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤)، قال الهيثمي في الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٧/ ٣٤٣).

(٧) وذلك في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عند مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

(٨) معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/ ١٥).

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرحل من المدينة إلى الشام ليستلم من النصارى مفاتيح القدس بيده، وليباشر الصلح معهم بنفسه، ولم يجعل هذه المهمة لغيره، وأشهد على هذا الصلح كبار القادة من الصحابة، وقد حفظه التاريخ، وتناقلته كتب المؤرخين من العام الخامس عشر من الهجرة، ونص هذا الصلح:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبدالله، عمرُ أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها، وسائر ملتها أن لا تسكنَ كنائسهم ولا تهدمَ، ولا يُنتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارَ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوت ـ أي اللصوص ـ فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادُهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله، وذمةُ رسوله، وذمةُ الخلفاء، وذمة المؤمنين؛ إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية».

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن ابن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكُتب وحفر سنة ١٥هـ[٩].

وحضر هذا الصلح بلال رضي الله عنه، وأذن في المسجد الأقصى بعد فتحه، كما أذن من قبل في مسجدي مكة والمدينة، وولي القضاء فيها عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وسكنها إلى أن مات ودفن فيها[١٠].

ومن يومها صار الصحابة رضي الله عنهم يتوافدون على بيت المقدس لزيارته، ويشدون الرحال إليه، وأقام بعضهم فيه مجاوراً لمسجده، وسجلت كتب التراجم والتاريخ عدداً من الصحابة ممن ماتوا مجاورين لبيت المقدس، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يأتي إلى بيت المقدس فيصلي فيه، ولا يشرب فيه ماءً حتى تصيبه دعوة سليمان عليه السلام لقوله: «**لا يريد إلا الصلاة فيه**»[١١].

(٩) تاريخ الطبري وذكره فيه بنصه (٢/ ٤٤٩) وأشار إلى هذا الكتاب ابن كثير في البداية (٧/ ٤٩)، في أحداث سنه ١٥هـ، ونقل ابن كثير عن يعقوب بن سفيان أن فتح بيت المقدس كان سنة ١٦هـ وذكر ابن الجوزي في المنتظم (٤/ ١٩٣) فتح بيت المقدس في أحداث سنة ١٥هـ.

(١٠) المذكور في السير أن بلالاً خرج للجهاد في الشام ومات فيها في دمشق سنة عشرين، أي: بعد فتح بيت المقدس بخمس سنوات، وفي بعض الروايات أنه أذن في الجابية من أعمال الشام، فلعله أذن فيها وفي بيت المقدس. انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧). وأما عبادة بن الصامت رضي الله عنه فمات سنة خمس وأربعين، وقبر ببيت المقدس كما في السير (٢/ ١١)، وانظر: ملف «القدس لنا»، إصدار جمعية إحياء التراث الإسلامي في الكويت (٣٤).

(١١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧/ ٦).

ولما انتزع النصارى بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى أصاب المسلمين حزن كبير، وعلاهم كرب شديد، وخطب الخطباء لهذا الأمر الجلل، ورثاه الشعراء، وظلَّ المسلمون أكثر من تسعين سنة ليس لهم همٌّ يشغلهم إلا تطهير بيت المقدس من رجس النصارى. كل واحد منهم يرى أنه المسؤول عن هذا الأمر العظيم أمام الله تعالى، عامتهم وقادتهم في ذلك سواء؛ حتى قيض الله تعالى صلاح الدين الأيوبي لفتحه، وتطهيره من رجس عبدة الصلبان، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً، بل ما حصل إلا بعد إصلاحات كثيرة، وجهاد طويل، وتضحيات جسيمة طيلة تسعين سنة، ونقل من كتبوا سيرة صلاح الدين أنه رحمه الله تعالى كان لا يُرى إلا مهتماً مغتماً، تعلوه كآبة الحزن والأسى.. بل كان عزوفاً عن الطعام، ولا يتناول من الغذاء إلا الشيء اليسير، ولما سُئل عن سبب ذلك أجاب: «كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين(١٢)».

ولما بلغه أن المنجمين يتذاكرونه ويقولون: إن صلاح الدين سيفتح بيت المقدس، وتذهب إحدى عينيه. قال رحمه الله تعالى: «رضيت أن أفتحه وأعمى»(١٣)، وكافأه الله تعالى على همته تلك بأن يسَّر له أسباب الفتح، وأعادها إلى حظيرة الإسلام.

أيها الإخوة: كانت تلك جُمَل من فضائل البقعة المباركة، وجزءٌ

---

(١٢) القدس لنا (٤٠).

(١٣) شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٢٧٥).

يكشف منزلتها عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أسأل الله تعالى أن يحفظها من كيد اليهود والنصارى، وأن يجعلها عامرة بذكره إلى يوم الدين، إنه سميع مجيب.

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده رسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأصلحوا سركم تصلح علانيتكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

أيها الإخوة في الله: كما أن لبقعة بيت المقدس منزلة عظيمة عند المسلمين، فلها كذلك منزلة عظيمة عند اليهود والنصارى، ولهم فيها أحلام ونبوءات، ولن يتخلو عنها إلا مكرهين.

واليهودي يدعو على نفسه بالشلل والخرس إن هو نسي القدس فهو يترنم بالمزامير يقول: «إن نسيتك يا أورشليم فلتشلَّ يميني، وليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أرفع أورشليم على قمة ابتهاجي»(١٤).

ولن يرضيهم ما أخذوه ويأخذونه من الأرض حتى يسيطروا على

---

(١٤) القدس مدينة الله/ د. حسن ظاظا (٣١).

الأرض كلها، وهذا معلوم من طبائعهم، ومن تجارب الأمم معهم كما نص عليه تلمودهم إذ يقول: «أعطني شبراً من الأرض واتركني أجعله لك ألف شبر، ولا تسلني كيف»[١٥].

لقد توحد أكثر اليهود على هدف واحد، وكرسوا جهودهم لمهمة واحدة، هي: الاستيلاء على القدس، ثم التوسع شيئاً فشيئاً، وبسط الهيمنة والنفوذ على كل ما جاورها، وهذه الغاية متفق عليها بين علمانييهم ومتدينيهم، فالمتدينون منهم تدفعهم أحلامهم، وتحركهم نبوءاتهم، والعلمانيون منهم يحدوهم أمل السيطرة على كل الشرق الإسلامي، واستعماره سياسياً واقتصادياً.

وما كان لليهود أن ينجحوا لو أن من أدار الصراع معهم عرفوا لبيت المقدس فضله، وثمنَّوا قيمته في الإسلام، ولتمكن المسلمون من إخراج اليهود منه، كما أخرج النصارى منها صلاحُ الدين رحمه الله، وكما فتحها قبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إن من أداروا الصراع مع اليهود لم تكن علمانيتهم كعلمانية اليهود، تتشبث بالأرض، وتعرف لها قيمتها وميزتها؛ ولذلك اختصروها في تراب وماء وأشجار وبنايات، فلم يكن لديهم مانع من التخلي عنها إذا تم تعويضهم بتراب آخر، وانخدعوا حينما اتخذوا السلام خياراً استراتيجياً؛ لأن اليهود في الأحداث الأخيرة لقنوهم درس السَّلام اليهودي، وأثبتوا لهم أن علمانية اليهود ليست كعلمانية القوميين العرب.

(١٥) اليهود وتذكرة قبل أن نفقد الذاكرة د. رمضان حافظ (١٤٦).

لا تظنوا ـ أيها الأخوة ـ أن أولئك الصحفيين الذين يتباكون على الدم الفلسطيني كل يوم في أعمدة كثير من الصحف العربية، من فلول الماركسيين والليبراليين، لا تظنوهم يبكون الدم الفلسطيني، إنما هم يبكون على أنفسهم، وعلى مشاريعهم الفاشلة، وعلى مشروعهم الاستراتيجي: عملية السلام التي ظلت في غرفة الإنعاش منذ ولادتها في مدريد إلى أن تم قبرها في الانتفاضة الأخيرة.

لقد راهن العلمانيون العرب على السلام، واعتبروا كل معارض له، أو مناقش فيه متطرفاً إرهابياً؛ فإذا باليهود يخذلونهم، ويقولون لهم: إن تخليتم عن دينكم وقدسكم؛ فإن اليهود لن يتخلـوا عـن مشاريعهم الدينية في القدس المباركة.

إن رعب العلمانيين العرب مما يجري أشدُّ من رعب اليهود؛ لأنهم يعلمون أن ما يجري في الأرض المباركة يُحيي الشعور الديني في كل العالم. وإذا ما ظهر الدين، وصار هو المحرك للناس فلا مكان للعلمانية حينئذ، فلابد من أن تنسحب من ساحة الصراع، وهذا ما يخشونـه حينما يحذرون في كل يوم من تنامي الأصوليات المختلفة.

ورغم البؤس الذي لقيه المسلمون على أيدي أولئك المنافقين المخذلين، ورغم ممارسات اليهود العدوانية على أهل الأقصى، وتخاذل أمم الأرض عن نصرتهم ومعونتهم، فإن المقادسة المسلمين أثبتوا أنهم على قـدر المسؤولية، وأنهم أمناء على مقدسات المسلمين، أوفياء في حفظ الأمانة، وأن باستطاعتهم مواجهة اليهود وأسلحتهم، مع مواجهتهم للمكر العلماني

المتربص بهم.

لقد هدمت ديارهم، وقتلت أطفالهم، ورملت نساؤهم، وأتلفت مزارعهم، وهم صامدون، لا يزدادون مع جبروت اليهود وعلوهم إلا صموداً واستبسالاً.

لقد استخدم اليهود الدبابات والطائرات ليواجهوا عزلاً يرمونهم بالحجارة، فما استطاعوا إخمادهم، ولا إطفاء نار الجهاد من قلوبهم. حتى نقلت الأخبار أن أرتالاً من اليهود يهاجرون كل يوم من فلسطين رعباً مما يجري فيها، وحتى صار الواحد من اليهود لا ينام إلا بالمهدئات والمسكنات.

لقد ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم رغم ما يملكونه من أسلحة وجهاز مخابرات، وجيوش من المخبرين، ورغم أن العالم النصراني يقف خلفهم.

إن واجبنا ـ أيها المؤمنون ـ أن نقف مع إخواننا المقادسة في جهادهم، فنمدهم بالمال، ونكثر لهم من الدعاء، حتى يأذن الله تعالى بنصره، ولنكن أهلاً للمسؤولية كما كان المقادسة لها أهلاً.

وبيت المقدس يهمنا أجمعين، ويهم كل مسلم يؤمن بالله والملائكة والنبيين، فأعينوا إخوانكم أعانكم الله، وأحسنوا إليهم ببعض المال كما أحسنوا إليكم بالدفاع عن قدسكم، وإياكم والتخلي عنهم في محنتهم؛ فإنكم والله مسؤولون عن ذلك يوم القيامة، واعلموا أن ما تبذلونه لهم سيصل إليهم بإذن الله تعالى؛ ليخفف معاناتهم، ويضمد

جراحهم، ويكون عوناً لهم في كربهم وشدتهم، ويقوي عزمهم على المضي في طريق الجهاد إلى أن يتم إخراج اليهود الأنجاس من الأرض المباركة.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم.

١٤٢- الفتح الأول لبيت المقدس

الجمعة ١٨/ ٣/ ١٤١٢٠هـ

الحمدلله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن التزم سنتهم، وسار على هديهم إلى يوم الدين. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أيها المؤمنون: قراءة الحوادث، والإلمامُ بالتواريخ، والاطلاعُ على أحوال الدول، ومصير الأمم؛ يقود إلى الاعتبار والادكار، ويكون سبباً للزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة؛ لأن العبد يرى فيما يقرأ أشخاصاً تملّكوا ثم مُلكوا، وأمماً عزت ثم ذلت، ودولاً أقبلت ثم أدبرت، ولا يبقى إلا وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ومما سجله التاريخُ: ما وقع في شهر ربيع[١] من فتح بيت المقدس،

(١) قيل: كان فتحه في ربيع الأول، وذكر الطبري أنه كان في ربيع الآخر، وأما سنته فذكره كل من الطبري وابن الجوزي وابن كثير في حوادث سنة (١٥هـ) وذكره الذهبي في حوادث سنة (١٦هـ) وهو قول ذكره الطبري أيضاً، وذكر البلاذري أنه كان في سنة (١٧هـ)، وانظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٥) والمنتظم=

معدنِ الانبياء من لدن إبراهيمَ الخليلِ عليه الصلاة والسلام، ثم كان مسرى خاتم النبيين محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ إذ جُمع له فيه الأنبياءُ كلُهم عليهم الصلاة والسلام، فأمّهم في محلتِهم ودارهم(٢).

كان هذا الفتحُ العظيمُ في عهدِ الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ ولكن بشائره كانت زمنَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تدين له العرب، وقبل أن تفتح على يده مكة. كانت تلك البشارةُ حينما قابل هرقلُ الرومِ أبا سفيانَ وكفارَ قريش وسألهم جملة من الأسئلة عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تلك المقابلةُ بإيلياء أي (بيت الله) الذي هو بيت المقدس.

فما أن انتهى هرقلُ من أسئلته، والمشركون من إجابة تلك الأسئلة، حتى أطلق هرقلُ تلك البشارة التي أذهلت كفارَ مكة. قالها وهو يتحسر على ملكه، ونفسُه يتنازع فيها داعي الإسلام وداعي الملك، وقلبُه يضطرب بين حظِ الدنيا وفوزِ الآخرة؛ لكنه في نهاية المطاف اختار الملك والدنيا؛ فخسر الملك والدنيا والآخرة.

(٤/ ١٩٣) والبداية والنهاية (٧/ ٤٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ١٦٢) وفتوح البلدان للبلاذري (١٤٤) وفتوح الشام المنسوب للواقدي (١/ ٢٢٨).

(٢) حديث صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في بيت المقدس مخرج في مسند الإمام أحمد (١/ ٢٥٧) وصححه ابن كثير في تفسيره فقال: إسناده صحيح ولم يخرجوه (٣/ ٢٥) عند تفسير أول سورة الإسراء، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٢٣٢٤).

قال هرقلُ لأبي سفيان رضي الله عنه: «فإن كان ما تقولُ حقاً فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلمُ أنه خارج، لم أكن أظنُ أنه منكم، فلو أعلمُ أني أخلصُ إليه لتجشمتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدمه»[٣].

إنها آيةٌ بينة، وبشارةٌ متقدمة، بشارةٌ بفتح بيت المقدس، وإزالة عرش الرومان، وكانت تلك البشارةُ قبل أن تفتح مكة، فما أعظمها من آية !! وما أطيبها من بشارة!!

ودار التاريخ دورته، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كمل به الدين، وتمت به النعمة، ثم تولى خليفتُه الصديقُ الأول فقضى على الردة، وأرسى دعائم الملة، ثم انسابت جيوشُه الفاتحة صوبَ الشام تحقيقاً للبشارة، ومات الصديقُ رضي الله عنه وجيوشُ الإسلام قاب قوسين أو أدنى من تحقيق البشارة، وخَلَفه الفاروقُ عمرُ، وجيوشُ الحق تواصل فتحها؛ حتى بلغت بيت المقدس، فحاصر المسلمون أهلها، ثم تصالحوا بعد الحصار، وقيل: بعد القتال[٤] على أن يقدُم الخليفة

(٣) قصة هرقل مع أبي سفيان مخرجة في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجها البخاري في بدء الوحي باب (٧) حديث (٦)، وانظر: فتح الباري (١/ ٤٢-٤٤) ومسلم في الجهاد باب كتابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) والترمذي في الاستئذان باب ماجاء كيف يكتب لأهل الشرك (٢٧١٨).

(٤) والراجح أنه لم يحصل قتال بل حاصرهم المسلمون فاشترطوا أن يقدم عليهم عمر حتى يباشر الصلح بنفسه لما علموا من عدله رضي الله عنه، وقيل: إن صفة من ينتزع بيت المقدس موجودة في كتبهم؛ فأرادوا قبل تسليمه التحقق=

عمرُ رضي الله عنه من المدينة ليباشرَ الصلح بنفسه؛ لما علموا من سيرته وعدله.

فكتب أبوعبيدةَ إلى عمر يخبره بشرطِ أهل إيلياء، فشاور عمرُ أصحابه في الخروج، ثم انشرح صدرُه إلى القدوم على بيت المقدس، واستخلف علياً على المدينة(٥) وسار إلى حيثُ مدينة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكتب إلى أمراء الأجناد أن يستخلفوا على أعمالهم ويوافوه بالجابية، وفي رواية أخرى: أنه وافاهم عند بيت المقدس(٦).

فلما بلغ الجابية من أعمال الشام نزل بها، وخطب خطبة بليغة طويلة مشهورة كان منها قوله رضي الله عنه: «أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكمُ تكفوا أمر دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أبٌ، ولا بينه وبين الله هوادة، فمن أراد لَحْبَ وجه الجنة- أي طريقها - فليلزم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد...» الخ خطبته البليغة(٧).

= من كون الوصف الذي جاءت به كتبهم منطبقاً على عمر فكان كذلك فسلموه. انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٩) والبداية والنهاية (٧/ ٤٥).

(٥) انظر: الفتوح لابن أعثم (١/ ٢٢٤-٢٢٥) وتاريخ الطبري (٢/ ٤٤٩) والبداية والنهاية (٧/ ٤٥-٤٦).

(٦) وقيل: بل إن أباعبيدة والقادة لما بلغهم مقدم عمر ذهبوا يستقبلونه حال دخوله الشام، وانظر: الفتوح لابن أعثم (١/ ٢٢٦) والبداية والنهاية (٧/ ٤٦).

(٧) البداية والنهاية (٧/ ٤٦) قال الذهبي: «وقدم إلى الجابية وهي قصبة حوران فخطب بها خطبة مشهورة متواترة عنه» انظر: تاريخ الإسلام (٣/ ١٦٢)ومعجم البلدان لياقوت (٢/ ٩١).

وجاءه رجل من يهود دمشق فقال له: «السلام عليك يا فاروق، أنت صاحبُ إيلياء لا والله لا ترجعُ حتى يفتحَ اللهُ إيلياء»[٨].

وصالح عمرُ أهل الجابية ثم سار وقادته إلى بيت المقدس، وكان رضي الله عنه في غايةِ التواضع والاستكانة والذلة لله رب العالمين، قال أبو الغادية المزنيُ: «قدم علينا عمرُ الجابية، وهو على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه عمامةٌ ولا قَلَنْسوة، بين عودين، وطاؤه فرو كبش نجدي، وهو فراشه إذا نزل، وحقيبتُه شملةٌ أو نمرةٌ محشوةٌ ليفاً وهي وسادته، عليه قميص قد انخرق بعضه، ودَسَم جيبُه»[٩].

هكذا نقلوا في وصف مركبه وملبسه، وهيئته وعُدتِه، ولو أراد رضي الله عنه للبس الحرير، ومشى على الديباج، وركب أصيلات الخيل. ولو شاء لحمل معه المتاع الكثير، ولأحاطت به المراكب، وحفّت به المواكب؛ ولكنه رضي الله عنه علم قيمة الدنيا فأعطاها مُستحقها، وعلم قدر الآخرة ففرغ قلبه لها، وعمل عملها، وسعى لها سعيها.

وقد حاول أمراءُ الجيش أن يُحسِّنوا من هيئته المتواضعة أمام الأعداء؛ ولكن مَنْ يقدرُ على مَنْ؟ أيقدِرون على عمرَ الذي كان كبيرُ الشياطين يخافُه، ويسلكُ فجاً غير فجه؟!

قال له أبوعبيدة رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين، لو ألقيت عنك

---

(٨) تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٨) والمنتظم (٤/ ١٩٢).

(٩) تاريخ الإسلام (٣/ ١٦٢) وانظر: الفتوح لابن أعثم (١/ ٢٢٦) والبداية والنهاية، وفيه أطول مما ذكرت، وعزاه لابن أبي الدنيا (٧/ ٤٩).

هذا الصوف، ولبست البياض من الثياب، لكان أهيبَ لك في قلوب هؤلاء الكفار، فقال عمر رضي الله عنه: لا أحبُ أن أعوِّد نفسي مالم تعتده، فعليكم معشر المسلمين بالقصد»(١٠).

وباءت محاولة أبي عبيدة بالفشل فحاول يزيدُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنهما فقال: «يا أمير المؤمنين، إنا في بلد الخَصْب والدَعة، والسعرُ عندنا بحمد الله رخيص، والخيرُ عندنا كثير من الأموالِ والدواب والعيش الرفيع، وحالُ المسلمين كما تحب، فالبس ثياباً بيضاً واكسها الناس، واركب الخيل واحمل الناس عليها؛ فإنه أعظمُ لك في عيون الكفار، وألْقِ عنك هذا الصوف؛ فإنه إذا رآك العدو على هذه الحال ازدراك، فقال عمر رضي الله عنه: يا يزيد ما أُريد أن أتزيا للناس بما يشينني عند الله عزوجل، ولا أريد أن يعظم أمري عند الناس، ويصغر عند الله عز وجل، فلا ترادَّني بعدها في شيء من هذا الكلام»(١١).

وواصل عمر رضي الله عنه مسيره إلى بيت المقدس على تلك الحال المتواضعة؛ فعرضت له مخاضة طين فنَزل عن بعيره، ونزع نعليه فأمسكها بيدٍ وخاض الماء ومعه بعيرُه، فقال له أبوعبيدة: «قد صنعت اليوم صُنعاً عظيماً عند أهلِ الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصك في صدره وقال: أولو غيرُك يقولها يا أباعبيدة، إنكم كنتم أذل الناس، وأحقرَ الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزَّ

(١٠) الفتوح لابن أعثم (١/ ٢٢٦).
(١١) الفتوح لابن أعثم (١/ ٢٢٧).

بغيره يذلكم الله»[١٢].

فلما بلغ بيت المقـدس خرجَ إليه بطريركها صفـرونيـوس وكتب عمر رضي الله عنه لهم الأمانَ لأنفسهم وأموالهم وكنائسم وصلبانهم، ولا ينتقص شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم في مقابل أن يعطوا الجزية للمسلمين[١٣] وسلَّم البطريرك مفاتيح القدس لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، ثم بكى البطريرك فقال له عمر: لا تحزن، هونْ عليك، فالدنيا دواليك، يومٌ لك ويومٌ عليك، فقال البطريرك : أظننتني على ضياع الملك بكيت، والله مالهذا بكيت، وإنما بكيتُ لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية، ترق ولاتنقطع، فدولةُ الظلم ساعة، ودولةُ العدلِ إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين تمر ثم تنقرض مع السنين»[١٤].

وتم الفتح، ودخل عمر بيت المقدس من الباب الذي دخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وصلى فيه مستقبلاً القبلة، وجعل يزيح بردائه الأقذار التي رماها النصارى في قبلته. ولمـا رأى

(١٢) البداية والنهاية (٧/ ٤٩) وقصة خوضه رضي الله عنه في الطين أخرجهـا الحاكم بسياق أطول وصححها ، وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. انظر: المستدرك (١/ ٦١ - ٦٢) برقم (٢٠٧).

(١٣) انظر كتابة الصلح في: تاريخ الطبري بأطول مما ذكرت (٢/ ٤٤٩).

(١٤) لم أعثر على هذا فيما وقفت عليه من كتب التاريخ وقد ذكره عبدالله التل في خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية (١٢٩) وانظر: بيت المقدس ومـا حوله للدكتور محمد عثمان شبير (٤٤).

المسلمون فعلَ عمر أخذوا في تنظيف المسجد من أقذار النصارى[١٥]، ثم بعد الفتح عاد رضي الله عنه إلى المدينة على ذات الجمل الذي قدم عليه، وعلى نفس الهيئة التي كان عليها قبل الفتح؛ لأن اهتمامه رضي الله عنه ما كان بالشكليات والمظاهر وإنما كان بأصول الشيء ومعانيه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧, ٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمدلله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: ظلَ بيتُ المقدس عبر تاريخه الطويل حافلاً بالأحداث العظيمة منذ أن سكنه خليلُ الرحمن إلى يومنا هذا، وسيستمر حافلاً

---

(١٥) البداية والنهاية وعزاه ابن كثير للإمام أحمد وللضياء المقدسي وقال: وهذا إسناده جيد (٧/ ٤٨).

بالأحداث الكبرى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ إذ إن الأحداث العظام في آخر الزمان ستكون على أرضه كما صحت بذلك الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

افتتح بيتَ المقدس عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في السنة الخامسة أو السادسة عشرة للهجرة[١٦]، وظل تحت حكم المسلمين خمسة قرون؛ حتى استولى عليه الصليبيون في أثناء حكم العبيديين الباطنيين حينما حكموا الشام، ومكث في أيدي الصليبيين قريباً من تسعين سنة، ثم استرده المسلمون في حكم الأيوبيين، وظل في حوزة المسلمين أكثر من ثمانية قرون، إلى أن جاء الاستعمارُ الظالم فاستولى عليه وسلّمه لليهود في أواسط القرن الهجري الماضي.

إن الملاحظ ـ أيها الإخوة ـ أن المسلمين لما فتحوا بيتَ المقدسِ تحت إمرة عمر رضي الله عنه ما استلموا مفاتيحه من اليهود وإنما من النصارى؛ بل اشترط النصارى على عمر رضي الله عنه أن لا يسمح لليهود بدخوله؛ لأنهم قتلة المسيح حسب زعم النصارى، فكيف يسكنون بلد المسيح عليه السلام؟! ووافق عمر على هذا الشرط. وفي العهد الأموي تسلل إلى بيت المقدس عشرة يهود، واشتغلوا فيه خدماً فطردهم عمرُ بن عبدالعزيز لما تولى[١٧]، ولما استولى الصليبيون عليه أبادوا من كان به من اليهود، واحرقوا عليهم دورهم[١٨]. ثم فجأة إذا بالاستعمار النصراني

(١٦) انظر: هامش (١) في تاريخ فتح بيت المقدس.

(١٧) انظر: القدس مدينة الله، للدكتور حسن ظاظا (٩٧).

(١٨) المصدر السابق (٩٩).

يُسلم القدس لليهود، فلماذا هذا التغير؟ وما الذي دهى النصارى؟!

لقد لعبت العصاباتُ الصهيونية الإنجيلية النصرانية لعبتها، وقذفت في روعِ النصارى أن نزول المخلصِ عيسى عليه الصلاة والسلام الذي سيخلصهم من المسلمين حسب زعمهم لن يكون إلا باستيلاء اليهود على القدس، وتجمعهم فيها، وجعلها عاصمة لليهود، وأن الحروب الصليبية لن تتوقف إلا بذلك؛ فوافقت هذه الفكرةُ هوىً في نفوس النصارى خاصةً بعد أن أنهكوا من جراء الحروب مع المسلمين، وبعد أن فشلت مساعي الاستعمار الحديث بالمقاومة الصامدة من قبل الشعوب الإسلامية المستعمَرة؛ فتآزرت الصهيونية النصرانية مع الصهيونية اليهودية في هذا السبيل؛ تحقيقاً للعقيدة الألفية التي أصلها عقيدة يهودية(١٩).

وملاحظةٌ أخرى جديرة بالتأمل وهي أن اليهود ماحاربوا عبر تاريخهم الطويل ولو مرةً واحدة من أجل الاستيلاء على بيت المقدس؛ ففي تاريخهم الحديث سلّمهم النصارى بيتَ المقدس، وفي تاريخهم القديم دعاهم موسى عليه الصلاة والسلام لمحاربة الكنعانيين ودخولها فامتنعوا ورفضوا(٢٠).

فمتى كان اليهود أهل حرب ومبادأة بها ؟ أيوم قال لهم موسى عليه الصلاة والسلام: قاتلوا، فقالوا : ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا**

---

(١٩) وملخص هذه العقيدة الألفية اليهودية: أن اليهود ينتظرون منتظراً من نسل داود يخرج في آخر الزمان ليحكم العالم ألف سنة يسمى «ملك السلام»، وانسحبت هذه العقيدة على الأصوليين الإنجيليين الذي يحاولون إقناع سائر النصارى بها.

(٢٠) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (٣/ ٩٢-٩٣) والتحرير والتنوير لابن عاشور (٦/ ١٦١-١٦٦) عند تفسير الآيات (٢٢-٢٦) من سورة المائدة.

هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]؟ أم يوم دعاهم عليه الصلاة والسلام إلى الفتح وقد مهّد الله لهم أسبابه، وفتح لهم بابه؛ فارتجفوا كالشياه المذعورة وقالوا: ﴿**إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**﴾ [المائدة: ٢٢].

هذه بطولات اليهود! يريدون من يحارب عنهم، ويُخرجُ لهم العدو من القلعة ليدخلوها فاتحين، وماتبدلت حالهم. إنهم كما كانوا من قبل يقاتلون بسلاح سواهم، ويُلوحون بقوةِ غيرهم(٢١).

فليس بلاءُ المسلمين من قوة اليهود؛ وإنما من ضعفِ المسلمين أنفسهم، حينما انتشرت فيهم العقائد المنحرفة، والأخلاقُ الفاسدة. حينما اعتمدوا على حولهم وطولهم، واغتروا بعددهم وكثرتهم؛ فوكلهم الله إلى أنفسهم. حينما تخلوا عن هدى الله، وركنوا إلى الذين ظلموا، في عصبياتٍ جاهلية، وأحزابٍ ضالة، وقوميات ضيقة، ينفخ فيها دعاةُ كنعان، ودعاةُ العروبة، ودعاةُ التراب والوطن، فما زادهم ذلك إلا ذُلاً وانهزاماً.

أما آن للأمة أن تستفيد من تلك النتائج المرَّة، التي أفرزتها التجارب المخزية، فتعود ـ أفراداً وجماعات ـ إلى كتاب ربها، وسنةِ نبيها بفهم سلفها قولاً وعملاً؟! وبذلك سيكونُ النصر والخير، والصلاح في الدنيا والآخرة، ولن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمة إلا بما صلَحَ به أولها.

ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك رب العزة والجلال.

---

(٢١) بتصرف من: قصتنا مع اليهود للشيخ علي الطنطاوي (٣٧).

١٤٣- فتح الأندلس

الجمعة ٢٦/ ٩/ ١٤٢١هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن رمضان بالأمس أتانا، وهو الآن يودعنا، فأحسنوا وداعه بالأعمال الصالحات، واسألوا الله تعالى قبول الأعمال؛ فإن السعيد من قبله الرحمن، فغفر له ورحمه وأعتقه من النار.

أيها الناس: كان رمضان يحكي أمجاداً للمسلمين ذهبت، وأحداثاً فيه دونت، وبلاداً فيه فتحت، وعزاً حكاه المتأخر عن المتقدم.

حكى بدراً والفتح وعين جالوت وغزو الأندلس وغزوات أخرى كثيرة، عزَّتْ نفوس أسلافنا بالإيمان والعبادة فانتصرت على شياطينها وشهواتها، وعزّت بلادهم بالجهاد فأرهبت كفارها ومنافقيها، وخضعت

الدنيا لحكم الإسلام، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً، وأما في الأزمان المتأخرة فإن كل رمضان يحكي للمسلمين رزية، ويكون موقعاً لمصيبة وبلية؛ فمن البوسنة إلى الشيشان، ومن كشمير إلى كوسوفا، ومن هناك وهنالك إلى بيت المقدس، وما أدراك ما بيت المقدس؟!

لقد ذلت نفوس كثير من المسلمين بالمعصية؛ فذلت ديارهم بتسلط أعدائهم عليهم، وما أصابهم ما أصابهم إلا بما كسبت أيديهم، ولا يظلم ربك أحداً.

لقد أتى على أسلافنا أيام ملأت من الدهر مَسْمَعيه، وضربت كل جبار في أَخدعيه[1]، وفرضت الذلة على جماجم الأكاسرة، وأطارت النُعَرَة من معاطس القياصرة.

قوم ابتسلوا للموت نفوسهم، فرفعوا في الحياة رؤوسهم، يركبون من البر والبحر كلَّ غارب، ويلتمسون بالجيش دار المحارب، أحمت أنوفهم حياة القفر، وأعزت نفوسهم الرمال العفر، فكانت بلادُهم عذارى تُخلف ظن كل فاتح، وعقائل لا ينتهي إليها الطيف فضلاً عن الطائف[2].

---

(١) الأخدعان: عرقان خفيان في موضع الحجامة من العنق، وقيل: هما الودجان، انظر: اللسان (٨/ ٦٥) مادة (خدع). وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم ثلاثاً في الأخدعين والكاهل» أخرجه أبو داود (٣٨٦٠) والترمذي وحسنه (٢٠٥١) وابن ماجه (٢٤٨٣) وأحمد (٣/ ١١٩).

(٢) انظر: الحلل السندسية لشكيب أرسلان (١/ ٧).

جاءهم الإسلام بعزائم القرآن، وعزز ما فيهم من خِيَمٍ كريم[٣]، وطبع سليم. بصلابة الإيمان اندفقت سيولهم من منابعها، وخرجت سنابلُهم من قنابعها، وملكوا ما بين الصين وبحر الظلمات في أقل من مئة عام، وأتوا من الأعمال ما لو حدثوا بها أنفسهم من قبل لقيل: إنه من الأحلام[٤].

وكان من أنفس ما سددهم الله تعالى إلى فتحه: جزيرة الأندلس الخضراء، الدرة الدهماء، والبقعة الجامعة بين الشموس والأفياء، أتوها من كل فج، جيش يتلو جيشاً، وبعثٌ يردف بعثاً؛ حتى ذللوا أعرافها، وألانوا أعطافها، فخيم الإسلام بعُقرتها تخييم من جمع الاعتمار، وأمدتهم جزيرة العرب بأفلاذ أكبادها، ورمت أعداءهم بأنجاد أجنادها[٥].

فتح عقبة بن نافع رحمه الله تعالى أفريقية، فلما انتهى إلى الماء الذي يفصلها عن أوربة دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره ثم قال: «اللهم إني أُشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازاً لجزت»[٦].

وقف عقبة في أفريقية بعد أن فتحها وأقام فيها للإسلام دولة، وبنى القيروان، فأكمل المسيرة عَقِبَه رجال هاماتهم تناطحُ السحاب، وهممهم تدك الجبال، وتتابعت الحروب بين المسلمين والبربر والقوط

(٣) الخيم بكسر الخاء وفتح الياء وضم الميم هو الخلق، وقيل: سعة الخلق، قال أبو عبيد: الخيم الشيمة والطبيعة والخلق والسجية.

(٤) الحلل السندسية مع بعض التصرف (١/ ٧).

(٥) المصدر السابق مع بعض التصرف (١/ ٧-٨).

(٦) الفتوح لابن عبدالحكم (١٩٩) والكامل لابن الأثير (٤/ ٤٢).

إلى عهد التابعي الجليل موسى بن نصير اللخمي رحمه الله تعالى الذي يُعتبر أول رجل قدر أن يجوز الإسلام على يديه للمرة الأولى القارة الأوربية، وأن يكتب فيه صفحة من أمجد صفحاته، فافتتح طنجة، وولى عليها طارق بن زياد الليثي(٧) رحمه الله الذي اهتم اهتماماً كبيراً بنشر الإسلام بين قبائل البربر؛ فأقبلوا على اعتناقه، ثم بنى موسى بن نصير مصنعاً لبناء السفن، وأنشأ أسطولاً ضخماً لحماية الثغور، وأخذت السفن المسلمة تُغير على جزائر القوط الأوربية، وبسط المسلمون سلطانهم على شمالي أفريقية براً وبحراً، ثم أكملوا فتح المغرب الأقصى، واستولوا على طنجة، وأشرفوا على شواطىء الأندلس من الضفة الأخرى من البحر(٨).

فلما رأى موسى أن الوقت قد حان لفتحها كتب إلى الوليد بن عبدالملك يستأذنه في العبور من المغرب إلى الأندلس، فأشار عليه أن يختبر بالسرايا قبل أن يخاطر بالمسلمين كلهم، فعمل بمشورته، وسيّر أول سرية في رمضان عام إحدى وتسعين للهجرة، فغنمت هذه السرية، وجاست في ديار الأندلس الخصبة، ثم عادت تحمل الغنائم، وتزف

---

(٧) اختلف في نسب فاتح الأندلس طارق بن زياد رحمه الله تعالى فقيل: إنه فارسي من همدان، وكان مولى لموسى بن نصير، وقيل: إنه من سبي البربر، وقيل: إنه من بطن نفزة البربري تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبدالله وهو أول اسم عربي إسلامي في نسبه، فالوالد عبدالله يدعى: ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص.. انظر: البيان المغرب (٢/ ٦) وتاريخ ابن خلدون (٤/ ١١٧) ونفح الطيب (١/ ١١٩).

(٨) انظر: دولة الإسلام في الأندلس للمؤرخ عبدالله عنان (١/ ٣٨) وما بعدها.

البشائر بإمكانية الفتح، فجهز موسى بن نصير جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتل تحت قيادة طارق بن زياد، فعبر بهم البحر من سبتة، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي سميت بعد ذلك (جبل طارق) وهزم القوط بها، واستولى عليها؛ فكتب حكام الولايات النصرانية إلى حكومتهم في طُلَيْطِلَة التي كانت عاصمة القوط، فجهز النصارى جيشاً قوامه مئة ألف مقاتل، فأمدَّ موسى طارقاً بخمسة آلاف مقاتل؛ ليكون جيش المسلمين اثني عشر ألفاً مقابل مئة ألف من النصارى(٩).

لقد كان النصارى أضعاف المسلمين، والمسلمون يقاتلونهم في أرضهم، في هضاب ومفاوز شاقة لا يعرفونها من قبل؛ لكن الإيمان عمل عمله في القلوب، وذلل لهم الخطوب، فالتقى المسلمون والنصارى في الثامن والعشرين من رمضان عام ثنتين وتسعين للهجرة، واستمر الاشتباك أربعة أيام كسر المسلمون فيها النصارى، وتنزّل نصر الله تعالى، وأوغل طارق في المسير يفتح الحصون، ويملك المدن إلى أن وصل إلى عاصمة القوط فأخذها منهم(١٠)، وواصل فتوحه.

وبعد عام عبر إليه موسى بن نصير في ثمانية عشر ألف مقاتل، وذلك في رمضان عام ثلاثة وتسعين(١١) ومضى يفتح المدن والقلاع

---

(٩) الكامل (٤/ ٢١٤) ونفح الطيب (١/ ١٢٠).

(١٠) نفح الطيب (١/ ١١٢) وتاريخ ابن عذارى (٢/ ٩)، ونقله عبدالله عنان عن الطبري في تاريخه (٨/ ٨٢) وانظر: دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٤٤).

(١١) دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٥٢) ونقله عن ابن عبدالحكم في الفتوح (٢٠٨) وانظر: جذوة المقتبس للحميدي (٦) ونفح الطيب (١/ ١٢٧).

حتى فتح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس في رمضان أيضاً سنة أربع وتسعين.

وكان موسى عازماً على أن يفتح أوربة كلها ويصل إلى الشام من طريق القسطنطينية، أي: ابتدأ غرباً وأراد أن ينتهي شرقاً، ويكون قد لفَّ القارتين الأفريقية والأوربية، قال ابن خلدون رحمه الله تعالى: «واستجمع - أي موسى - أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصارى مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة»[١٢].

لكن الخلافة الإسلامية في الشام أمرته بالتوقف؛ لئلا يخاطر بالمسلمين[١٣] وأمره الوليد بن عبدالملك أن يعود إلى الشام، فنظَّم إدارة الأندلس، وجعل حاضرتها إشبيلية، وولَّى عليها، ثم عاد إلى الشام في ذي الحجة عام خمسة وتسعين ومعه من الغنائم والسبي ما لا يحصى[١٤]، وذلك بعد أن سطر مع طارق بن زياد تاريخاً مجيداً للإسلام في الجزيرة الخضراء، وكان رمضان المبارك موقعاً لكثير من فتوح بلاد الأندلس.

لقد كان فتح الإسلام لأسبانيا وما حولها فاتحة عصر جديد بزغ فيه النور، وأقيم فيه العدل، ورفع الظلم، ونُشر العلم، وفُتحت المدارس، وهبت هبوب الحضارة والتقدم بشهادة المؤرخين الغربيين؛ إذ يقول أحدهم:

---

(١٢) تاريخ ابن خلدون (٤/ ١١٧) ونفح الطيب (١/ ١٣٠).
(١٣) دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٥٤).
(١٤) المصدر السابق (١/ ٥٥-٥٦).

«في أقل من أربعة عشر شهراً قُضي على مملكة القوط قضاء تاماً، وفي عامين فقط وطِّدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه، ولا يقدم لنا التاريخ مثلاً آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح»(١٥)، ويقول آخر: «أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى، بينما كانت أوربا تتخبط في ظلمات الجهل فلم يكن سوى المسلمين من أقاموا بها منائر العلم والمدنية. . . ويواصل قائلاً: ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال، يتركون وراءهم الخراب والموت، حاشا؛ فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم»(١٦).

وكان هذا الفتح ممهداً لنهضة أوربة كما شهد على ذلك أحد المستشرقين الأسبان فقال: «لقد سطعت في أسبانيا أول شعلة لهذه المدنية التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية. . وإلى حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها»(١٧) انتهى كلامه، وصدق في قوله، لكنهم كانوا عرب الأمس ولم يكونوا عرب اليوم، أصلح الله تعالى الأحوال، وأعز الإسلام.

---

(١٥) قائل ذلك هو المؤرخ الأمريكي (سكوت) ونقله عنه عبدالله عنان في دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٦٥).

(١٦) قائل ذلك هو: لاين بول، عن المصدر السابق (١/ ٦٤).

(١٧) قائل ذلك هو المستشرق الأسباني جاينجوس عن المصدر السابق (١/ ٦٤).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأحسنوا ختام شهركم، وأصلحوا سرائركم تصلح علانيتُكم، واهتموا بشأن آخرتكم تكفوا أمر دنياكم، واصدقوا مع الله تعالى ينصركم على أعدائكم.

أيها المؤمنون: فرض الله تعالى عليكم زكاة الفطر طُهرة للصائم، وطعمة للمساكين، وهي صاع من تمر أو بر أو شعير أو من قوت البلد ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، يخرجها الرجل عن نفسه ومن تلزمه نفقته، ولا تجب على الحمل الذي في البطن إلا أن يتطوع وليه بإخراجها.

ووقتها الفاضل يوم العيد قبل الصلاة، ويجوز إخراجها قبله بيوم أو يومين.

وقد شرع الله تعالى لعباده التكبير من غروب شمس ليلة العيد إلى صلاة العيد ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ﴾ [البقـرة: ١٨٥] يجهر به الرجال في المساجـد والأسـواق والبيوت؛ تعظيماً لله تعالى، وإظهـاراً لشكره، والسنة أن يأكل قبل الخروج لصلاة العيد تمرات ويأكلهن وتراً.

أيها المسلمون: احذروا المنكرات والمعازف والغناء؛ فإن من الناس من يُبدِّل نعمة الله تعالى كفراً والعياذ بالله، واحذروا أن تجوب نساؤكم وبناتكم الشوارع والأسواق والتجمعات وهن سافرات؛ فإن في ذلك فتنة لعباد الله تعالى، وأنتم المسؤولون عنهن أمام الله عز وجل، أشيروا عليهن بلباس الحشمة، ومروهن بالقرار في البيوت؛ فذلك خير لكم ولهن، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وأخلصوا لله عز وجـل أعمالكم، واسألوه القبول؛ فإن ربكم سميع قريب.

ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

١٤٤- بداية الحملات الصليبية

٢٤ /٨/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله؛ أوجد الخلق من العدم، ورباهم بالنعم. أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ أنعم على بني الإنسان بأفئدة وأسماع وأبصار؛ حتى يسمعوا العبر، ويروا الآيات، ويتعلموا العلوم، وقد كانوا لا يعلمون شيئاً، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أكرمه الله تعالى بالرسالة، وأكرم هذه الأمة به؛ فبلغها رسالات ربه، ونصح لها، وقادها في دعوتها وجهادها حتى توفاه الله تعالى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ فتلك وصيةُ الله لنا ولمن كانوا قبلنا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

أيها المسلمون: جرت في الأرض آيات وعبر، وحوى التاريخ أخبار كثير من الأمم، عاشوا كما عشنا، وعمروا الأرض كما عمرنا، ثم صاروا أثراً بعد عين، وخبراً يقرأ في تاريخ الأمم؛ ليتسلى به من يتسلى، ويعتبر به من يعتبر ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ , ١٣٨].

وكما قيل: فالتاريخ يعيد نفسه، والأيامُ تتوالى، والسننُ تتكرر، والحوادث تتشابه. والمفلحُ من فقه سنن الله تعالى فاعتبر، وكرَّس حياته فيما يرضي ربه، واجتنب كل ما يسخطه. والأحمقُ من يرى السنن، ويبصر الآيات والعبر؛ فلا ينتبه ولا يعتبر، بل يأكلُ ويشرب وينام، وينتظر الأجل وهو بلا عمل.

وفي مثل هذه الأيام، أي: قبل رمضان بسبعة أيام، منذ ما يقارب ألف عام انتزع الصليبيون بيت المقدس من المسلمين، ودنسوه زهاء تسعين سنة، وأنشؤوا أربع إمارات صليبية في المشرق الإسلامي، ومكثوا في بلاد المسلمين مئتي سنة، كانت أوروبة خلالها ترسل الحملاتِ في إثر الحملات، والجيوش تردف الجيوش؛ لإحكام القبضة على بلاد المسلمين، ولكنها فشلت وعادت أدراجها من حيث أتت، بعد تضحيات جسيمة من قِبَلِ المسلمين في مصر والشام.

اصطلح على تسمية هذه البعوث الإفرنجية الكاثوليكية بالحملات الصليبية؛ لأن الجيوش جُيشت تحت راية الصليب، وبشعار تخليص قبر يسوع المقدس ـ حسب زعمهم ـ ولهذه الحملات الضخمة التي استمرت قرنين كاملين قصةٌ دينية عند عباد الصليب؛ إذ إن قادح شرارتها راهب يدعى: «بطرس الناسك»، ومسعرَ حربها هو المعتلي على سدةِ عرش البابوية الكاثوليكية آنذاك البابا «أوربان الثاني».

كان بطرسُ الناسكُ منقطعاً للرهبنة والتعبد في مغارة من مغارات أوروبا، وأثناءَ رهبنته طرأ عليه الحـجُ إلى بلد عيسى عليه السـلام، فرحل إليها عام ستة وثمانين وأربعمئة للهجرة، فلما وصل بيت المقدس، ورأى سلطان المسلمين عليها غاظه ذلك، وامتلأ قلبُه حقداً على المسلمين، واجتمع مع بطريرك كنائس فلسطين، وظلا يبكيان وينتحبان ويتذاكران مجد النصارى في تلك الأرض، ثم قطع بطرسُ الناسكُ على نفسه عهداً ليجندن أوربة لانتزاع القدس من المسلمين(١) .

وعاد إلى أوربة للوفاء بوعده، فالتقى بالبابا أوربان في روما، وأخبره بخبره، وكان البابا أشد حماساً من بطرس ليحقق مجداً للنصارى عامة، وللبابوية الكاثوليكية على وجه الخصوص، واتخذ من بطرس وسيلة إعلامية لتأجيج مشاعر الأوروبيين ضد المسلمين، فسار الراهب بطرس يجوب أرجاء أوروبة راكباً بغلته، معتنقاً صليبه، مثيراً لحماسة الناس، داعياً إلى حرب مقدسة ضد المسلمين(٢)، وكان لرحلته تلك أبلغُ الأثر في تهيئة الناس لغزو المسلمين. فلما رأى البابا أوروبان أن الوقت قد حان لقطف ثمرات دعايات بطرس، وأن الحماسة الدينية قد ألهبـت قلوب الأوروبيين عقد مجمعـاً كنسياً ضخمـاً في فرنسا تقاطر عليه النصارى من جميع أنحاء أوروبا حتى امتلأت المدن والقرى والمـزارع

(١) الحروب الصليبية لسيد علي حريري (٢٣)، والحروب الصليبية في المشـرق والمغرب للعروسي المطوي (٤٥).
(٢) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (٤٥ ـ ٤٦).

المحيطة بمكان المجمع.

وفي الجلسة العاشرة من المجمع، افتتح بطرس الخطاب بالأكاذيب والدعاوى ضد المسلمين، معدداً ما زعمه شدائد يعاني منها نصارى الشرق، في بلد يسوع. فلما تهيأ الناس، واشتد غضبهم قام بابا أوروبا ليخطب خطبة مليئة بالشحن ضد المسلمين كان من قوله فيها: «أيها المسيحيون: إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخصها المخلص فيها، وتلك المغارة المريعة المختصة بفادينا، وذلك الجبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا.. كلها أضحت ميراثاً لشعب غريب.. ولم يعد من معبدٍ داخل المدينة المقدسة الخصوصية، والمشرقُ الذي هو المهدُ والينبوع المقدس لإيماننا، لم يعد مشهداً إلا لافتخارات أعمال المسلمين»[٣].

وخاطب الشعوب النصرانية الأوروبية بعامة فقال: «يا شعب الفرنجة شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تُخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباءٌ محزنة، تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين.. إلى أن قال: فليثر همتكم ضريحُ المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيرُه من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست»[٤].

ثم خصص البابا جزءاً من خطابه للأمة الفرنساوية التي ترعى هذا المجمع الهائلَ فقال لهم: «أيها الطائفة الفرنساوية العزيزةُ لدى الله،

---

(٣) الحروب الصليبية للحريري (٢٤ ـ ٢٥).

(٤) قصة الحضارة لديورانت (١٥/ ١٥).

إن كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها مسنـداً على شجاعتكم، فأنا الذي أعرف جيداً تقواكم وكفاءتكم بالشجاعة والغيرة، وقد اجتزت الجبال الألبية وحضرت لكي أنذر بكلام الله في وسط بلادكم..

يا أيها الشجعـان: اذهبوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسيـة، واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملكُ الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً، وأما إذا قُتلتم فلكم المجد؛ لأنكم تموتون في المكان الذي فيه مات يسوع المسيح»(٥).

تعالى الله عن إفكهم وكذبهم علواً كبيراً.

ثم قال: «إن أورشليم أرضٌ لا نظير لها في ثمارها، هي فردوسُ المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات»(٦).

فعلت أصوات الجموع الحاشدة المتحمسة قائلة: «تلك إرادةُ الله»، ثم أمر البابا الذاهبين إلى الحرب أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم، وتقدم جمع من الأساقفة والأمراء والتجـار، وخـروا راكعين أمام البابا معلنين أنهم وهبوا نفوسهم وأموالهم لله، وحذا حذوهم آلاف العامة، وخرج الرهبانُ والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح حسب زعمهم(٧).

---

(٥) الحروب الصليبية للحريري (٢٤ ـ ٢٥).

(٦) قصة الحضارة (١٥/ ١٥).

(٧) المصدر السابق (١٥/ ١٦).

قال المؤرخ الأوربي ديورانت: «وهكذا توحدت أوروبا كما لم تتوحد في تاريخها كله.. وسرت روحُ الحماسة فيها كما لم تسر فيها من قبل في أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة»(٨)، وأصر النساء والأطفال على المشاركة في هذه الحملة ضد المسلمين.

وقد صور المؤرخ المسلم ابن الأثير رحمه الله تعالى الحماسة الدينية لدى الصليبيين لما استرد المسلمون منهم بيت المقدس بقيادة صلاح الدين فقال رحمه الله: «ثم إن الرهبان والقسس، وخلقاً كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم.. وذكر أنهم طافوا في بلاد الإفرنج يستنجدون أهلها، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوا صورة لرجل عربي، والعربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي الإسلام، وقد جرحه وقتله؛ فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء.. ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء». وقال ابن الأثير: «وحدثني بعض الأسرى منهم أن له والدة ليس لها ولد سواه، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه، وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس؛ فأخذ أسيراً. وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حدُّه، فخرجوا على

---

(٨) المصدر السابق (١٥/ ١٧).

الصعب والذلول براً وبحراً من كل فجٍ عميق»[٩] ا هـ.

سارت طلائع الصليبيين يتقدمها بطرسُ الناسكُ، ثم أُردفت بأربعة جيوش ضخمة لا يعلم عددها إلا الله تعالى، وصفها بعضهم فقال: «كانت الجيوش الصليبية عبارة عن شعب كامل يسير»[١٠]، فلما دخلوا القسطنطينية للعبور إلى الشرق فزع أهل القسطنطينية من كثرتهم حتى قالت ابنة إمبراطورها آنذاك: «يخيل لي أن أوربا اقتلعت من أصولها»[١١].

وأعجزت كثرتهم أي جيش أن يقف أمامهم، وما توقفوا إلا في بيت المقدس، وأعملوا القتل في أهله، واستولوا عليه، وذلك في ضحى الجمعة لسبعة أيام بقيت على رمضان من سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة للهجرة[١٢]، واهتزَّ المسلمون لهذه الفاجعة العظيمة، وبكوا بكاءً مراً، وخطب الخطباء، وتراسل الأمراء، واجتمع العلماء؛ لكن الضعف والفرقة قد عملت عملها في المسلمين فما استطاعوا عمل شيء. ورفعت الصلبان في الأرض المباركة، واستباحها همج أوروبا، ومنعوا المسلمين من إقامة شعائرهم فيها، أو الصلاة في المسجد الأقصى، وكان ذلك أمراً عسيراً على أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت

---

(٩) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٩/ ٢٠١).

(١٠) الحروب الصليبية للحريري (٤٤).

(١١) المصدر السابق (٤٥)، والحروب الصليبية في المشرق والمغرب (٣٥).

(١٢) انظر خبر استيلائهم على بيت المقدس في: المنتظم لابن الجوزي (١٧/ ٤٧)، والكامل (٨/ ١٨٩)، والبداية والنهاية (١٢/ ١٣٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٤/ ١٥)، وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٥).

تلك نتيجة تضييع أوامر الله تعالى؛ إذ سلط الله عليهم عدوّهم، ووكلهم إلى أنفسهم، ومن وكل إلى نفسه عجز، ومن وكل إلى الخلق ضيعوه، ومن توكل على الله كفاه..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين..

أما بعد: فاتقوا الله تعالى، واستجلبوا النصر باتباع أمره، واجتناب نهيه، وتعظيم شعائره، ونصرة إخوانكم المستضعفين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أيها المسلمون: لقد كانت الدوافع الدينية عند قادة الحملات الصليبية ومسعريها قوية جداً، وهي التي أججوا بها مشاعر العامة في مختلف أرجاء أوروبا حتى خرجوا بقضهم وقضيضهم، واصطحبوا نساءهم وأولادهم للاستيطان في الشرق الإسلامي. ولا أدل على هذه الحماسة الدينية من المقولة التي أطلقها البابا أوربان أمام ملوك أوروبا حينما قال: «إن تعريض حياتي للخطر في سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل

عندي من حكم العالم كله»[١٣].

ومن أجل هذا الهدف توحدت أوروبا المتفرقة، وتحالف ملوكها المتخالفون؛ لأن هدف الحملة كان مقدساً عند جميعهم.

لقد كانت الحملاتُ الصليبية التي تتباعت على الشرق الإسلامي قرنين من الزمان وصمة عار عيّر بها المنصفون من كتاب أوربة بني جنسهم وملتهم، فما عرفت الرحمةُ إلى قلوبهم سبيلاً في المدن التي استولوا عليها؛ فهذا قس من قساوستهم كان حاضراً معهم، كتب في مذكراته ما شاهده من أفعالهم فقال: «وشاهدنا أشياء عجيبة؛ إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا بالنار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل»[١٤].

ويروي كاتب نصراني آخر ما شاهده فيقول: «إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، ويُقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح السبعون ألفاً الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذي بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء»[١٥].

---

(١٣) قصة الحضارة (١٥/ ١٤).

(١٤ ، ١٥) المصدر السابق (١٥/ ٢٥).

وظلَّ المسلمون طيلة إحدى وتسعين سنة يعدون العـدة لإخـراج الصليبيين من بيت المقدس؛ فأصلحوا أنفسهم، ونشروا الصلاح بينهم، ودخل كثير منهم تحت رايات الجهاد؛ حتى حقق الله لهم النصر في حطين وما تلاها من معارك. فأعادوا بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام، وما عمل صلاح الدين وجيشُه مثل الذي عمل الصليبيون بالمسلمين؛ بل آثر العفو عنهم، وافتدى كثيراً منهم بماله الخاص.

وظلَّ رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى حرَّر بلاداً كثيرة منهم، ثم واصل المسيرة من كانوا بعده من السلاطين حتى تم تحرير الشرق الإسلامي كله من الإمارات الصليبية، وفشلت ثمانُ حملات صليبية كبرى في تحقيق هدف الأوربيين بعد مئتي سنة من الصراع الدامي المرير.

وما أشبه الليلة بالبارحة، والتاريخ يعيد نفسه بعدما يقارب ألف سنة، وما الحملات الإعلامية المسعورة على الإسلام والمسلمين في هذه الأيام من الإعلام الغربي النصراني واليهودي إلا امتداد لحملة بطرس الناسك وأكاذيبه، وما المجمعات الأممية لاتهام كل المسلمين بالإرهاب والتطرف ـ ما داموا يدينون بالإسلام ـ إلا امتداد للمجامع التي دعـا إليها البابا أوربان الثاني قبل ألف عام، والمستهدف منها هم المسلمون في عقيدتهم ودينهم وأخلاقهم.

إن علاقتنا مع أهل الكتاب لا نحتاج في معرفة حقيقتها إلى محلل سياسي، أو كاتب صحفي، أو مذيع إخباري، يتلاعبون بالأخبـار، ويطمسون الحقائق؛ وإنما نأخذها من كتاب الله تعالى الذي بـين الله

تعالى فيه أن أهل الكتاب لن يرضوا عنّا حتى نتبع ملتهم، سواء كانت ملتهم الديانة المحرفة، أم الأيدلوجية المخترعة، أم العلمانية اللادينية، ومشروع العولمة برمته لا يخرج عن خبر هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وإن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وكسره للصليب، وقتله للخنزير لمن أكبر الدلائل على أن الصراع الديني سيظل موجوداً إلى آخر الزمان. وما كسره للصليب، وقتله للخنزير إلا إلغاء لشعائر دين النصارى، ولو لم يستمروا على الاستمساك بها لما كان إلغاؤها من مهمات عيسى عليه السلام.

إن العلمانيين العرب الذين تخلوا عن دينهم، وطالبونا باطراحه، وبتبديل ثقافتنا، وتغيير نصوصنا، ولازالوا يساموننا على ديننا لم يرض عنهم عباد العجل وعباد الصليب، ولن يرضوا عنهم أبداً؛ فلا لدينهم أبقوا، ولا نالوا رضى أعدائهم، وهم في خسران دائم!! وواجب على كل مسلم في مثل هذه الفتن أن يزيد استمساكه بدينه، وأن يكثر من عبادة ربه، وأن يسأل الله الثبات على الحق إلى الممات؛ فإن الزائغين عن الطريق يكثرون في مثل تلك الفتن، والمتخلون عن دينهم تزداد أعدادهم كلما عظم البلاء، واشتدت الفتن، وإذا خسر المرء دينه فقد خسر آخرته، عوذاً بالله من ذلك.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم، ،

١٤٥- سلب الأقصى واسترداده

الجمعة ٢٢/ ٨/ ١٤١٩هـ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس، اتقوا الله ربكم واعملوا صالحاً؛ فلن يخرج العبد من الدنيا إلا بما قدم، ولن ينجو في الآخرة إلا بالإيمان والتقوى ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

أيها المؤمنون: التاريخ مدرسة لمن أحسن قراءته، وتأمل عبره، وأفاد من أحداثه. أحداث السنين، وأنباء السابقين، وتجاربُ الأمم، وتقلباتُ الدول؛ تقرؤها في ساعات معدودات، وتفهمها في أيام قلائل.

عاشت أمم في الأرض ثم أدبرت، وسارت في البشر جحافل من الظلم والكفر، فسبت وقتلت ثم اندثرت. سادت أمم ثم بادت، وقامت للظلم صروح ثم تهدمت. أين عاد وثمود؟! وأين قوم إبراهيم وقوم لوط؟! وأين فرعون ذو الأوتاد ﴿**الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ** ﴿١١﴾ **فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ** ﴿١٢﴾﴾ [الفجر] الكل زال، وزالت ممالكهم وما بقي ولا يبقى إلا ملك الله تعالى ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴿٢٦﴾ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ**

وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن].

والقرآن قص علينا أهم أحداث التاريخ البشري، وأمرنا بالاعتبار والادكار، واليقين بأن العاقبة للمتقين. هذا قرآننا يحدث نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم عن قصة نوح عليه الصلاة والسلام ثم يخاطبه فيقول ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾** ﴾ [هود].

ومن أحداث التاريخ المحفوظة، حدثٌ عظيم، حدث قبل رمضان بسبعة أيام، منذ ما يزيد على تسعة قرون، في وقت كان بنو عبيد الباطنيون يحكمون كثيراً من بلاد الإسلام، فنشروا فيها البدعة، وأماتوا السنة، وظهر عباد القبور والأضرحة. وفي حكمهم تفرق المسلمون، واختلفت كلمتهم، وضعفت قوتهم، فطمع فيهم الطامعون، واشرأبت أعناق الصليبيين لحرب صليبية، فشجعهم ما كان عليه كثير من المسلمين من فساد العقيدة والعبادة والأخلاق، وكثرةِ الاختلاف، وشدة التفرق.

فاندفعت جموع الصليبيين نحو المشرق، تغلي في قلوبها الأحقاد، ويشحن نفوسها الكيد، فاجتاحت حصون أنطاكية الممنعة، ثم انقضت على معرة النعمان فقاومهم سكانها؛ ولكن العدو كان أكثر فدخلوها عند العشاء فأسكتوا أصوات المؤذنين من فوق المنائر، وأعملوا السيوف في الرقاب، فقتلوا كلَ رجل وكلَ امرأة وكلَ طفل، وجعلوا يطؤون جثث القتلى بعد أن ملأت الدروب وسدت المسالك[1].

---

(١) انظر: حدث في رمضان للدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا (١٠٦).

وتابع الجيش الصليبي سيره يحصد المدن والقرى حتى وصلوا بيت المقدس ضحى يوم الجمعة لسبعة أيام بقيت من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة للهجرة، دخلوها بنحو ألف ألف مقاتل، فجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتبيرا.

أعملوا السيوف في الرقاب، وأجروا الدماء في الشوارع، ورفعوا من جثث القتلى تلالاً، وصنعوا من هاماتاهم قباباً، ثم دخلوا الدور فسبوا من فيها وبقروا البطون بحثاً عن الدنانير. ولاذ المسلمون بالمسجد الأقصى فتبعوهم وقتلوا داخله ما يزيد على سبعين ألفاً، فيهم العالم الزاهد، والعابد الراكع، والشيخ الطاعن، والطفل الراضع، والمرأة الثاكل، لم يميزوا مقاتلاً عن غير مقاتل، ولا فرقوا بين عاجز وقادر.

دخلوا بخيلهم بيت المقدس فداست سنابكها على الأشلاء، وتخضبت قوائمها بالدماء[٢]، حتى كتب مؤرخ صليبي حضر هذا الحدث الجلل فقال: «فلما ولج حجاجنا المدينة جدّوا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفضع القتل طيلة اليوم بأكمله حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم»[٣].

فهام الناس على وجوههم من الشام إلى العراق يصحبهم القاضي أبو سعيد الهروي، فحكوا لأهل بغداد ما حل بهم، فبكوا من هول ما أخبروا، ونظم القاضي الهروي كلاماً يصف تلك الكارثة فقرئ في

---

(٢) المصدر السابق (١٠٨) والبداية والنهاية (١٢/ ١٣٨).

(٣) أعمال الفرنجة لمؤرخ غربي مجهول (١١٨-١١٩).

الديوان وعلى المنابر فارتفع بكاء الناس، وندب الخليفة الفقهاء ليحرضوا على الجهاد(٤)؛ ولكن ذلك لم يُجْدِ شيئاً؛ لأن الأوان قد فات، والداءَ قد استمكن. ولم تكن العلةُ في قوة العدو بقدر ما هي في ضعف المسلمين؛ حيث فرطوا في أمر الله وأضاعوه، فوكلهم الله إلى أنفسهم، ومن وكل إلى نفسه عجز، ومن وكل إلى الخلق ضيعوه، ومن توكل على الله كفاه.

لقد استقبل المسلمون ذلك الرمضان الحزين، وجراحهم تنزف، وأجفانهم تحترق، وقلوبهم تشتعل، وما أصابهم ما أصابهم إلا بما كسبت أيديهم.

أيها الإخوة: مكث الصليبيون في بيت المقدس ثنتين وتسعين سنة، عاثوا فيه وأفسدوا، وعلوا وظلموا.

عاش بيت المقدس خلالها قرناً إلا ثماني سنوات، لم يرفع فيه أذان، ولم تقم فيه صلاة، بل رفع فيه الصليب، ورعى في أرضه الخنزير، وعلا شأن الكفر والتثليث، وسمعت من أعاليه الأجراس والنواقيس.

كانت تلك المصيبة بمثابة الرجفة والزلزلة، والهزة العنيفة التي

---

(٤) انظر في سقوط القدس في أيدي الصليبيين: المنتظم (١٧/ ٤٧) ووفيات الأعيان (١/ ١٧٩) ومرآة الجنان (٣/ ١٥٤) وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٥) وتاريخ ابن الوردي (١/ ١١) والكامل في التاريخ (١٠/ ٢٨٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٤/ ١٧) والبداية والنهاية (١٢/ ١٣٨).

نبهت المسلمين من غفلتهم، وأيقظتهم من رقدتهم، فعاد كثير منهم إلى الله تعالى وأصلحوا أنفسهم قبل أن يجاهدوا عدوهم، فقيض الله لهم قادة صالحين، أقاموا علم الجهاد، وحاربوا الباطنية وأهل الفساد، حتى عزموا على غزو الصليبيين، وتخليص الأقصى منهم.

فصنع الإمام العادلُ نور الدين منبراً حلف بالله أن يجعله لبيت المقدس إذا خلصه من النصارى (٥)؛ ولكنه انقطع دون يمينه، وعاجلته المنية قبل تحقيق الأمنية، فخلفه المجاهدُ الصالح صلاح الدين الذي أخذ الدنيا بسيف الظفر ثم جاد بها بيد الكرم، روّع أوربة مرتين، مرة حين قهر جيوشها بسيفه، ومرة حين شدَهَ نفوسها بنبله (٦).

أصلح نفسه ونشر الصلاح في جنده وحفظ أمر الله فنصره الله. أشرب حب الجهاد حتى قضى نحواً من ربع قرن على صهوة جواده، أو في حصار قبالة أعدائه، وفي نحو عشرين سنة، قاد أربعاً وسبعين معركة (٧).

يحكي سيرته من عاصره ولازمه في بعض معاركه، وهو المؤرخ القاضي ابنُ شَدَّاد فيقول: «لو حلف الحالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبر في يمينه.

---

(٥) انظر: نهاية الأرب (٢٨/ ٤٥) وتاريخ الإسلام (٤١/ ٢٧).

(٦) انظر: رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي (١٩١).

(٧) انظر: حدث في رمضان (١١٢) ورجال من التاريخ (١٩٤).

ويحكي عنه مرة أنه قال له: في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت» (٨).

الله أكبر!! هدف نبيل، وغاية سامية، وهمة عالية، استحق بها أن يحقق الله على يديه أعظم منقبة في ذلك العصر ألا وهي فتح بيت المقدس وإخراج الصليبيين منه، وتطهيره من رجسهم.

فلما عزم على ذلك سار إليهم، فضرب الحصار عليهم، واجتهد وجندُه في ضربهم بالمجانيق والعَرَّادات. وكلما فتر حماس الجند أو ضعفوا نظروا إلى الصلبان منصوبة على الجدران، وفوق قبة الصخرة صليبهم الأكبر فالتهبوا وزادهم حنقاً وحماساً لهدمها وكسرها، فضاعفوا الهجوم، واشتدوا في الطلب حتى نقبوا السور من أحد جهاته وأحرقوه، فذعر النصارى لذلك وطلبوا المحاورة، فتراسلوا وتحاوروا ثم استسلموا وسلموها للمسلمين دون قتال على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير وعن المرأة خمسة وعن كل صغير وصغيرة دينارين، وأن تكون الأسلحة والغلات والدور للمسلمين. وتسلمها المسلمون يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة، بعد قرن إلا قليلاً، فدخلوا بيت المقدس مهللين مكبرين، تضج ألسنتهم بالدعاء، وتعلو أصواتهم بالشكر لله والثناء عليه. وأُنزل الصليب

(٨) النوادر السلطانية لابن شَدَّاد (٥٣-٥٥).

الأكبر فهوى على الأرض، فارتفعت أصوات الجند بالتكبير، ومحيت النقوش والتصاوير، وأزيلت الأجراس والنواقيس، ونظف المسجد مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وكان الصليبيون قد جعلوا محراب المسجد مكاناً لقاذوراتهم، فنظفه المسلمون وطيبوه(٩).

قال الحافظ المؤرخ ابن كثير رحمه الله: «لما تطهر بيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان، وقرئ القرآن، ووحد الرحمن، كان أولُ جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فنُصب المنبر إلى جانب المحراب... وامتلأ الجامع، وسالت لرقة القلوب المدامع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال، كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال. ثم ذكر أنه خطبهم القاضي محي الدين ابن الزكي فافتتح خطبته بقول الله تعالى ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام] وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكرَ فضائل بيت المقدس ومنزلته عند المسلمين»(١٠).

وظلت القدس بعد هذا الفتح إسلامية تشد الرحال إلى مسجدها من كل مكان، ويقصدها طلاب العلم لمجاورة كثير من العلماء فيها،

---

(٩) انظر في فتح بيت المقدس: النوادر السلطانية (١٣٥) والكامل في التاريخ (١١/ ٥٤١) وتاريخ الإسلام للذهبي (٤١/ ٢٤) والبداية والنهاية (١٢/ ٢٨٦) والعبر للذهبي (٤/ ٢٤٨) ومشارع الأشواق (٢/ ٩٣٦).

(١٠) البداية والنهاية (١٢/ ٢٨٧ - ٢٨٨).

حتى كان ما كان، وانقلبت الأحوال، ودالت الأيام في القرن الماضي، فاحتلها يهود، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾ [آل عمران] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الحروب والثارات بين اليهود والنصارى كانت على أشدها؛ حتى إن الصليبيين لما دخلوا بيت المقدس أحرقوا من فيه من اليهود، واشترطوا على عمر ألا يسمح لليهود بالسكن فيها؛ ولكن هذه العداوة زالت أو تأجلت لمواجهة ما يسمونه: خطر الإسلام الذي اجتاح الأرض بنوره، فاجتمع المتعادون واصطلحوا، وتآزر أهل الإنجيل المحرف مع أهل التوراة المبدلة ضد أهل القرآن المحفوظ، فأصبحت الحرب ضد الإسلام حرباً صليبية يهودية، رمزُها الظاهر بيتُ المقدس، وإن كانت تعمُّ الأرض كلها.

فالنصارى يرون في القدس مولد نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام،

وموطن كنيستهم الكبرى المسماة بالقيامة وكنيسة البشارة.

واليهودُ يرونها مملكة داوود عليه الصلاة السلام، وفيها هيكلُهم المزعوم الذي يعتقدون في بنائه ملك العالم كله.

والمسلمون يعتقدون أنهم أحق به؛ لأنه مسرى نبيهم صلى الله عليه وسلم، ونبيُهم خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلابد أن يسودَ دينه الأرض كلها، وهم أولى بموسى وعيسى وداوود عليهم الصلاة والسلام من اليهود والنصارى، كما أن الصلاة في بيت المقدس مضاعفةٌ، ولا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد هو منها.

فاتضح بذلك أن الصراع على بيت المقدس صراعٌ عقائدي ديني، وما العلمانية في الصراع عند اليهود والنصارى إلا مرحلةٌ طارئة مؤقتة في طريقها إلى الاضمحلال والزوال؛ حيث قويت الأحزاب الدينية في بلادهم، واكتسحت الأحزابَ العلمانية. بل عادت كثير من شعوبهم إلى كنائسهم ومعابدهم، ورجعوا إلى توراتهم وإنجيلهم.

كما أن العلمانية أيضاً طارئةٌ وفي طريقها للأفول والزوال في البلاد الإسلامية بدليل أن أقطابها ومنظريها يندحرون يوماً بعد يوم، ويعانون قوة المد الإسلامي رغم استماتتهم في تحجيمه؛ مما اضطرهم إلى وقف معارضتهم الصريحة للإسلام وشريعته وهيمنته، والتحول إلى تفسيره بما يوافق العصر ومتطلباته، فكثر حديثهم عن الإسلام العصري، والعقلانية الإسلامية، وما إلى ذلك من الهراء الذي يراد منه تمييع الإسلام، والدعوة إلى وحدة الأديان، وتلاقح الحضارات

والعولمة السياسية والاقتصادية والثقافية.

وكل ذلك في طريقه إلى الأفول والزوال؛ ليتجسد الصراع العقدي، وقد كشف القرآن هذه الحقيقة حتى لا يكون فيها لبس ولا غموض فمن كذبها فهو يجازف بمعارضة القرآن وتكذيبه ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠] ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولأهمية هذه الحقيقة في الإسلام ربطت بأكثر أركان الإسلام تكراراً في اليوم والليلة. فالمسلم يصلي كل يوم خمس مرات على الأقل، يقرأ أو يسمع فيها الفاتحة سبع عشرة مرة، ولا تصح الصلاة دونها، وهي تتضمن الدعاء باجتناب سلوك طريق اليهود والنصارى ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)** ﴾ [الفاتحة].

وفي ظل الوفاق الجديد - الذي أضفى الشرعية على الاحتلال، وسعى لكسر الولاء والبراء تحت مسمى كسر الحواجز النفسية، وصار سيفاً لحماية اليهود في الداخل والخارج - هل سيمنعون المسلم من قراءتها في الصلاة؟ أم سيحذفون منها هاتين الآيتين؟! كلا ويخسؤون.

والواقع يشهد لهذه الحقيقة المتمثلة في أن الصراع عقدي، فالجنديُ الصليبي حينما كان يلبس بزة الحرب إبان مرحلة الاستعمار كان يودع أمه فيقول: «أماه، أتمي صلاتك، لا تبكي بل اضحكي وتأملي أنا ذاهب

إلى المسلمين فرحاً مسروراً، سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، سأحارب الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن»(١١).

وأما اليهود فإنهم لما دخلوا مدينة القدس هتفوا بالأهازيج يقولون: «هذا يوم بيوم خيبر.. يا لثارات خيبر»(١٢) وقالت رئيستهم آنذاك: «إني أشم رائحة أجدادي في خيبر». ألا لعنة الله عليها وعلى أجدادها وقومها.

هذه هي الحقيقة وإن زورها من زورها، وأخفاها من أخفاها، وما حصل للمسلمين من ضعف وهوان هو من عند أنفسهم. فالانحراف والفساد يضرب أطنابه في بلاد المسلمين، انحراف في العقيدة، وتعلق بالمخلوقين، وعبادةٌ للقبور في كثير من البلاد الإسلامية، وتضييعٌ لأمر الله عز وجل، وارتكابٌ لنهيه. وما أشبه الليلة بالبارحة، فأحوال المسلمين اليوم تشبه أحوال المسلمين عندما سلب الصليبيون قدسهم، إن لم تكن أشد سوءاً هذه الأيام. وعليه فلن يتم خلاصه بالشعارات الزائفة، ولا بالحماس المتأجج، ولا بالاندفاع المتهور.

وإنما يكون ذلك بمجاهدة النفوس قبل مجاهدة الأعداء، بإصلاح ما فسد من أحوال المسلمين في اعتقاداتهم وعباداتهم وأخلاقهم، وعودتهم للإيمان والتقوى، والكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة، وحينها يعتزون وينتصرون لأن الله معهم ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١] فيسخر الله الحجر والشجر يعاون المسلم فيقول: «**يا مسلم يا عبدالله**

---

(١١) انظر: القومية والغزو الفكري (٢٠٨).

(١٢) انظر: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله (٣٦).

هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٣).

فأصلحوا أنفسكم وبيوتكم، ومن هم تحت أيديكم، وصلوا أنفسكم بالله وأصلحوا ما بينكم وبين الله إن أردتم نصراً وعزاً ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِند اللَّه العَزِيزِ الحَكِيم**﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(١٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب قتال اليهود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (٢٩٢٥) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٩٢٦) ومسلم في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٩٢٢).

١٤٦- مذابح الصليبيين في القدس

٢٦/ ٨/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من حكمة الله سبحانه وتعالى أن قدَّر الخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وابتلى بحكمته العبادَ بذلك؛ ليتلبس فريقٌ منهم الإيمان، ويلتزموا الطاعة، ويسلكوا طريق الخير، ويتلبس آخرون الكفر، ويعملوا المعصية، ويسيروا في طرق الشر والغواية.

ولكل من الجهتين دعاةٌ يدعون الناس إلى جهتهم، فدعاة يجرون الناس إلى الجنة بالسلاسل، ودعاة يقذفون من اتبعهم في النار قذفاً.

إنه ابتلاءٌ ابتلى به المكلفون من لدن آدم عليه السلام إلى آخر رجل من هذه الأمة، وصراعٌ بين الحق والباطل.

فأهل الباطل يريدون فرضَ باطلهم على الناس، يؤزهم على ذلك شياطينهم، وتدفعهم إليه أهواؤهم، وأهل الحق يودون الحفاظ على حقهم، ويدعون الناس إلى هداهم؛ لاستنقاذهم من عذاب ربهم.

إنه صراعٌ تطاولَ مع تطاول القرون، وتعاقبَ مع تعاقب الأمم والدول، وما خلت الأرض دهراً من دماءٍ تسفك، وأجسادٍ تدفق في حق أو باطل. والسنن الكونيةُ تشهد لذلك، والتاريخ يثبته. بيد أن الغلبة إن كانت لأهل الحق على أهل الباطل فإن نزيف الدماء يتوقف، ولا يُسفك دمٌ إلا بحق؛ لأن أهل الحق يرحمون الخلق، ويخافون فيهم ربهم.

وإذا ما كانت الغلبة لأهل الباطل فإن دماءً غزيرة بالباطل تسفك، وأجساداً بريئة تجرح وتمزق في سبيل الشيطان وأعوانه.

وهذا الحكم لا يقالُ رجماً بالغيب، أو تخرصاً بلا علم، أو توقعاً بلا خبر؛ فتاريخ البشر في قديمهم دالٌ عليه، وواقعهم في حاضرهم يثبته ويؤيده، وما عرف عن نبي من الأنبياء عليهم السلام أنه كان سفاكاً للدماء، معذّباً للناس، بينما كان المعارضون لدعوات الرسل عليهم السلام يسفكون دماء أتباع الرسل بعد ملاحقتهم وتشريدهم

وتعذيبهم؛ لأنه لا دين يردعهم، ولا شريعة تضبطهم.

وهذا ما حدث للمسلمين في بيت المقدس قبل زهاء ألف سنة من الآن؛ إذ اجتاح الصليبيون بلاد الشرق المسلم، واستولوا على ممالكه حتى وصلوا بيت المقدس في أخريات شهر شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة للهجرة[1]، وفعلوا بالمسلمين ما لا يمكن لبشرٍ أن يتصوره، ولولا أن روايات المؤرخين من مسلمين وغير مسلمين، عرب وغير عرب اتفقت على مجمل المذابح التي فعلوها بأهل القدس وأنطاكية ومعرة النعمان وغيرها من البلدان التي أتوا عليها لما كان أحدٌ من الناس يصدق ما فعلوا!!

لقد نقل أخبارهم الشنيعة، وأفعالهم المشينة، ومجازرهم البشعة أقوامٌ منهم، حضروها، وشاركوا فيها، وفاخروا بها، ثم كتبوا ما شاهدوا من أفعال بني دينهم بالمسلمين شيوخاً ونساءً وأطفالاً.

وفي هذا المقام القصير سأنقل إلى أسماعكم وصفاً لبعض ما جرى للمسلمين في بيت المقدس، على أيدي الصليبيين، ولن أنقل عن مسلم واحد؛ بل كلُ ما سأنقله إمَّا عن كتابٍ صليبيين حضروا تلك المذابح وشاركوا فيها، أو عن من نقلوا عنهم من بني دينهم؛ وذلك

---

(١) كان سقوط بيت المقدس في ضحى الجمعة الثاني والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢ هـ، وكان عدد جيشهم فيما ذكر ابن كثير يقارب مليون مقاتل. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٣٨) والكامل (١٠/ ١٩١) وتاريخ ابن خلدون (٤/ ٦٧)، والنجوم الزاهرة (٥/ ١٤٨).

لنفي أي تهمة بالتحامل أو المبالغة لو كان النقل عن مؤرخين مسلمين.

قال المؤرخ الصليبي فوشيه الشارتري «وهرب بعض هؤلاء العرب إلى برج داود، وأغلق آخرون على أنفسهم معبد الرب ومعبد سليمان، وتم شن هجوم وحشي على المسلمين في فناء هذين المعبدين، ولم يكن هناك مكانٌ يمكن أن ينجيهم من سيوف رجالنا... ولو أنك كنت موجوداً هناك لغاصت قدماك حتى العقبين في دماء المذبوحين، ترى ماذا أقول؟ لم نترك منهم أحداً على قيد الحياة، ولم ينج حتى النساء والأطفال، كم سيكون مدهشاً لو أنك رأيت فرساننا ومشاتنا بعد أن اكتشفوا خداعَ المسلمين فشقوا بطونَ الذين ذبحوهم؛ لكي يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملاتِ الذهبية التي كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء!! ولنفس السبب قام رجالُنا بعد أيام قلائل بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رماداً حتى يمكنهم أن يجدوا بسهولة الذهب الذي ذكرنا خبره. عندما جرى رجالنا وسيوفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة، ولم يُبقوا على أحد، حتى أولئك الذين يرجون الرحمة، سقط الجميع كما تسقط التفاحات العفنة جميعاً من الأغصان المهزوزة... وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السكان، واستولوا على كل ما وجدوه فيها، وتم هذا بطريقة جعلت كل من كان يدخل أولاً سواءٌ كان فقيراً أم غنياً لا يجد من ينازعه من الفرنج الآخرين، وكان له أن يحتل المنزل أو القصر، ويمتلكه بكل ما فيه كما لو كان ملكية خالصة له، وهكذا اتفقوا جميعاً على هذا النمط من الملكية،

وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أثرياء»[٢].

وقال المؤرخ الصليبي ريمون الأجوي لري يصف ما شاهد: «بدأ رجالنا يدخلون إلى القدس بجسارة وإقدام، وقد أراقوا من الدماء في ذلك اليوم كمية لا يمكن تخيلها...» وقال: «ما إن استولى رجالنا على السور والأبراج... أطاحوا برؤوس أعدائهم، بينما رشقهم البعض الآخر بالسهام، بحيث سقطوا من الأبراج، على حين عذبهم البعض فترة طويلة بأن قذفوهم في النار أحياء، وكانت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل تسترعي النظر في شوارع المدينة، وكان المرءُ يشق طريقه بصعوبة بين جثث الرجال والخيول، ولكن هذه كانت أموراً صغيرة إذا قورنت بما جرى في معبد سليمان... ترى ما الذي حدث هناك؟! إذا ذكرت الحقيقة فإنها ستتعدى قدرتكم على التصديق؛ ولذا يكفي أن أقول: إنه في معبد سليمان كان الرجالُ يخوضون في الدماء حتى ركبهم وحزام ركابهم، والواقع أنه كان حكماً عادلاً ومحترماً من الرب أن يمتلئ هذا المكان بدماء الكفار؛ لأن هذا المكان طالما عانى من دنسهم، وامتلأت المدينة بالجثث والدماء، والآن تم الاستيلاء على المدينة وهي جديرة بكل أعمالنا السابقة، والمصاعب التي واجهناها؛ لترى إخلاص الحجاج في الضريح المقدس»[٣].

---

(٢) انظر: كتابه: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس (١١٥ ـ ١٢٨)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية لقاسم عبده قاسم (٢٥٤ ـ ٢٥٥).

(٣) انظر كتابه: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ترجمة: جوزيف نسيم يوسف (٢٤٦ ـ ٢٤٧)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق (٢٦٧ ـ ٢٦٩).

وقال المؤرخ الصليبي المسمى بالفارس المجهول: «وطاردهم رجالنا يقتلونهم ويمزقونهم حتى معبد سليمان حيث جرت هناك مذبحة بلغ من عنفها أن رجالنا كانوا يخوضون في دماء أعدائهم حتى أعقابهم... لدرجة أن المعبدَ كلَه كان يفيض بدمائهم... وفي اليوم التالي توجهوا بحذر إلى سطح المعبد، وهاجموا المسلمين نساء ورجالاً، وقطعوا رؤوسهم بسيوفهم، وقذف بعض المسلمين بأنفسهم من أعلى المعبد، ثم تشاور رجالنا، وأمروا بأن يتصدق الجميع، وأن يصلوا للرب؛ لكي يختار بنفسه من يريده أن يحكم المدينة، كما أُمروا بأن تُرمى جميعُ جثث المسلمين خارج المدينة بسبب الرائحة المرعبة؛ لأن المدينة كلها تقريباً كانت ملأى بالجثث».

ثم ذكر أن الجثث كومت في أكوام كبيرة بحجم البيوت، وقال: «لم ير أحد من قبل أو يسمع عن قتلٍ بمثل هذا العدد من الوثنيين؛ لأنهم أحرقوا في أكوام مثل الإهرامات ولا يعرف أحد غير الرب كم كان عددهم»(٤).

وذكر المؤرخ الصليبي ميشو أن المسلمين كانوا يذبحون ذبح النعام في الشوارع والمنازل، وأنهم لم يجدوا مكاناً آمناً يلوذون به(٥).

---

(٤) انظر كتابه: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس الآخرين (٨٤ ـ ٩٢)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية (٢٧٧ ـ ٢٧٨).

(٥) تاريخ الصليبية لميشو (١/ ٢٢٤) والمملكة الصليبية لبويس (٢٠/ ٢١) عن العدوان الصليبي على العالم الإسلامي للدكتور: صلاح الدين محمد نوار (١٢٢).

وذكر المؤرخ النصراني وليم الصوري أن بيتَ المقدس أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين، أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم، وأنه لم يكن من الممكن النظر إلى تلك الأعداد الضخمة من القتلى دون الإحساس بالرعب، ففي كل مكان ترى بقايا جثث القتلى مقطوعي الرؤوس والأيدي، وكانت الأرضُ مغطاةً بدماء القتلى[٦].

ونقل المؤرخ الغربي النصراني ديورانت عمن حضروا تلك المذابح وشاركوا فيها قولهم: «إن النساء كن يُقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، ويُقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد»[٧].

وذكر صاحب كتاب: أعمال الفرنجة: «أن جثث قتلى المسلمين وُضعت في أكوامٍ حتى حاذت البيوت ارتفاعاً»[٨].

وقد اختصر الصليبيون وصف هذه المذابح العظيمة في الرسالة التي أرسلوها إلى البابا يخبرونه بما فعلوا قائلين: «إذا ما أردت أن تعلم ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة فثق أنه في إيوان سليمان أو

---

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار للمؤرخ النصراني وليم الصوري، وقد كتب تاريخه هذا بعد مرور حوالي ثمانين سنة على هذه الحملة الصليبية، وهو مولود في أرض فلسطين لأسرة من الغزاة الصليبيين الذي احتلوا بيت المقدس (٣/ ١٨٥)، وانظر أيضاً: تاريخ الصليبية لميشو (٣/ ٢٢٧)، وتاريخ الحروب الصليبية لزوي أولدينبرج (١٥/ ٢٥).

(٧) انظر كتابه: قصة الحضارة (١٥/ ٢٥).

(٨) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس الآخرين (١١٩ ـ ١٢٠).

معبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء الشرقيين المتدفقة إلى ركبتيها»[٩].

وإزاء هذه المذابح الرهيبة لم يكن كثيراً ما حلَّ بالمسلمين من الحزن والبكاء في كافة البلدان آنذاك، وخاصة في دار الخلافة على مصير إخوانهم في الشام، ولا سيما في القدس وما جاورها، حتى إن بعضهم عجز عن الصيام من شدة البكاء والنحيب فأفطروا[١٠].

رحم الله قتلى هذه المذابح من المسلمين، وعامل الظالمين بما يستحقون، إنه سميع مجيب. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا

---

(٩) كان مُسيّر هذه الحملة الصليبية ومهندسها البابا أوربان الثاني بابا الفاتيكان في وقته، وأرسل القادة الصليبيون هذه الرسالة إليه يبشرونه بأخذهم لبيت المقدس، وذبحهم المسلمين، ولم يفرح بهذا الإنجاز الصليبي الذي جيش أوربة من أجله؛ لأن المنية اختطفته قبل وصول الرسالة؛ بل وقبل سقوط القدس في أيدي الصليبيين بأسبوعين. وانظر: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (١٢٤).

(١٠) انظر في وصف حزن المسلمين في بغداد لما سمعوا بهذه الفاجعة: المنتظم (١٧/ ٤٧)، والكامل (١٠/ ١٩٢)، والبداية والنهاية (١٢/ ١٣٩)، وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٢١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٤/ ١٥)، ومرآة الزمان (١/ ٣٢٣)، والنجوم الزاهرة (٥/ ١٥١).

شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ فإنه لا نجاة للعبد في الدنيا من كوارثها وفتنتها، وفي الآخرة من حسابها وعذابها إلا بتقوى الله تعالى ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

أيها المسلمون: قد كفانا الله تعالى مؤنة البحث في طبيعة أعدائنا، سواءٌ كانوا كفاراً أم منافقين، وسواءٌ كانوا وثنيين أم أهل كتاب.

أما المنافقون فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

وأما أهل الكتاب فقد أبان الله تعالى حسدهم لهذه الأمة المباركة المفضلة على العالمين، فقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وأخبر سبحانه بأنهم لن يرضوا عنا حتى نبدل ديننا، وننسلخ من

عقيدتنا، ونغير شريعتنا، ونتبعهم في شريعتهم سواء كانت شريعتهم يهودية أم نصرانية أم مادية إلحادية ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] وصدق الله العظيم، أوليسوا في هذا العصر يريدون إخراج الناس من دياناتهم وأعرافهم، ويقهرونهم على نماذجهم وتعاليمهم فيما يتعلق بالديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان والمرأة والطفل، وغيرها من المقررات الإلحادية التي لا تحفظ الحقوق؛ بل تدمر الشعوب، تحت مشاريع العولمة والنظام العالمي الجديد.

وأكد ربنا جلَّ جلاله عداوة الكافرين لنا فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]، وعداوة المنافقين فقال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

إننا لا نحتاج في فهم علاقات الآخرين معنا، ومدى حقدهم علينا إلى محللين سياسيين، أو خبراء استراتيجيين، أو إعلاميين بارزين، يتلونون مع تلون السياسات، ويبدلون مواقفهم مع تبدل مصالحهم الشخصية، ويركبون موج الأقوياء، وليس لهم مبدأ ثابت، ولا قاعدةٌ معروفة؟! لا نحتاج إلى كل هؤلاء؛ فشرع الله تعالى قد كفانا ذلك كله، وأبان لنا حقيقة أعدائنا وأصنافهم وأفعالهم، وماذا يريدون منّا، ومتى ستنتهي عداوتهم لنا.

أبان لنا ذلك كله في قرآن يتلى منذ أربعة عشر قرناً، وقرأنا أحداث التاريخ منذ ذلك الزمن إلى يومنا هذا فوجدناها لا تعدو ما ذكره القرآن قيد أنملة، بل ورأينا فيما عشنا من سنوات قلائل حقدهم على الإسلام

والمسلمين، ونُقلت إلينا مذابحهم في البوسنة وكوسوفا وكشمير والشيشان وتيمور الشرقية وأفغانستان والهند، وغيرها، ومنذ خمسين سنة ونحن نشاهد ذلك في فلسطين.

مذابح في الشرق وفي الغرب، ولبشر بيض وحمر وصفر وسود، وأجناس مختلفة، وألسن عدة، لا يجمع بينها كلها إلا كون أهلها اختاروا الإسلام ديناً لهم.

وإذا كانت القوى الظالمة في وقت من الأوقات لا تُظهر عداوتها للإسلام صراحةً، وتتذرع بمصالحها؛ فإن كثيراً من رموزها وشخصياتها وخبرائها يصرحون الآن بأن الإسلام هو عدوهم الأول والأوحد، ويزعمون أن القرآن هو منبع التطرف، ويرمون النبي صلى الله عليه وسلم بالإرهاب.

فهل بقي لمتفلسف حيلةٌ حتى يضحك بها على عقول الناس؛ لينفي عداوة الذين كفروا للذين آمنوا؟!

ألا وإن المتتبع لتاريخ المسلمين يجد أنهم ما أصيبوا عبر تاريخهم الطويل بمصيبة إلا كانت ذنوبهم وعصيانهم سبباً لها، وما ابتعدوا عن دينهم إلا سُلط عليهم أعداؤهم؛ مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠].

وإذا ما أراد المسلمون الخروج من هذه الكروب والشدائد التي تلفهم من كل جانب فعليهم بالأوبة إلى الله تعالى، والعودة إلى دينهم، والتوبة من ذنوبهم؛ فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة. وها هو ذا

شهر التوبة والرحمة والمغفرة والإحسان على الأبواب، وهو فرصة لهذه الأمة في هذه الظروف العصيبة أن تجدد فيه إيمانها، ويجتمع المسلمون على كتاب ربهم سبحانه وتعالى، وسنة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ويتوبوا أفراداً وجماعات لعل الله تعالى أن يرفع البلاء عنهم، وينصرهم على أعدائهم.

ورمضان فرصة للتوبة؛ لأن الشياطين تضعفُ فيه، والخيرَ يزداد، والصلاح يظهر، ويكون إقبالُ الناس على الطاعات كبيراً؛ كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء، وأغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين**»(١١).

ألا فاتقوا الله ربكم، واستقبلوا شهركم بالتوبة النصوح التي لا رجعة فيها إلى الذنوب والعصيان، فإنكم إن فعلتم ذلك كفاكم الله شر أعدائكم، وأمنكم في أوطانكم، وأزال أسباب الخوف والجوع عنكم، ومن كان الله معه فلن يخاف من شيء، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وصلوا وسلموا على نبيكم، كما أمركم بذلك ربكم،،،

---

(١١) أخرجه البخاري في الصوم باب: هل يقال: رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً (١٨٩٩)، ومسلم في الصوم باب فضل شهر رمضان (١٠٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٤٧- معركة حطين

الجمعة ٢٢/ ٤/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: لم يجعل الله تعالى الدنيا دار نعيم لأوليائه، ولا مستقراً لعباده؛ وإنما جعلها دار ابتلاء يُبتلى فيها المكلفون تارة بالسراء وتارة بالضرّاء.

ولم يسلم من ابتلاءات الضراء أفاضل البشر، وخيار الناس: الأنبياءُ والمرسلون، وأصحابهم وأتباعهم والمؤمنون بهم.

قتل زكريا ويحيى عليهما السلام، واستهزئ بنوح عليه السلام والمؤمنين بدعوته، وأخرج لوط عليه السلام من قريته، وطورد موسى عليه السلام وأتباعه، وهاجر محمد ﷺ، وشجّ رأسُه، وكسرت رباعيته، وقُذفَ بالحجارة حتى سال الدم من عقبيه، وأوذي أصحابه رضي الله عنهم، وأخرجوا من ديارهم، وحوصروا وعذبوا، وزلزلوا زلزالاً شديداً.

ولو كانت دعواتُ الأنبياء والمصلحين لا تجد اعتراضاً من الشيطان وأعوانه من الإنس والجن لما تحقق الابتلاء، ولآمن أكثر الناس. ولو كانت طريقُ الجنة محفوفةً بالشهوات، خاليةً من المكروهات؛ إذاً لكثر سالكوها، ولو كانت طريقُ النار خاليةً من الشهوات، محفوفةً بالمكروهات؛ لما رأيت لها سالكاً.

ودوامةُ الابتلاء تدور ما دارت الأيام، والصراعُ بين الحق والباطل قائم ودائم ما دامت الدنيا.

يُدِيْلُ الله تعالى لأهل الحق على أهل الباطل تارةً، وينصرهم عليهم، وتارةً ينتصرُ أهل الباطل لحكمة يريدها الله تبارك وتعالى، ولو شاء لهدى الناس جميعاً، ولو شاء لانتقم من أنصار الشيطان لأنصاره تبارك وتعالى ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ومن المعارك المشهورة في تاريخ الإسلام: معركة حطين[١] التي

---

(١) حطين موضع بين طبرية وعكا بينه وبين طبرية نحو فرسخين بالقرب منه قرية يقال لها: خيارة، يُذكر أن بها قبر شعيب عليه السلام. قال ياقوت الحموي: «وهذا صحيح لا شك فيه». معجم البلدان (٢/ ٢٧٤). والذي عليه المحققون من أهل=

انتصر فيها أهل التوحيد على أهل التثليث، وقعت في العشر الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة للهجرة النبوية(٢).

ذلك أن نصارى أوربا سيروا جيوشاً جرارة سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة للهجرة بقصد كثلكة الشرق الإسلامي، وانتزاع بيت المقدس من المسلمين؛ فحصل لهم ما أرادوا بسبب ضعف المسلمين، وفشو الترف فيهم، واستحكام الجهل عليهم، واختلاف أمرهم، وانتشار البدعة في أوساطهم، وقيام دولة بني عبيد الباطنية في مصر والشام(٣). وظل النصارى في حروبٍ مستعرة مع المسلمين طيلة إحدى وتسعين سنة، حتى كانت موقعةُ حطين التي قاد المسلمين فيها السلطانُ الصالحُ الزاهدُ صلاحُ الدين الأيوبي

= العلم والتاريخ أنه لا يعلم قبر نبي إلا قبر نبينا ﷺ، وسبيل العلم بمكان قبر من قبور الأنبياء السابقين النص، ولا نص في ذلك، أو التواتر وهو غير موجود، وأمَّا ما ينقله المؤرخون فلا يعتمد عليه؛ لأنهم مجرد نقلة ينقلون الأخبار وما يتناقله النَّاس، وكذا الشهرة لا يعتمد عليها؛ لأنها غالباً ما تكون متأخرة عن أصل الحدث، ومثال ذلك: أنه اشتهر عند أهل دمشق أن قبر يحيى عليه السلام في داخل المسجد الأموي مع أن بني أمية ما بنوه على قبر أصلاً؛ وإلا لبطلت الصلاة فيه؛ ولما أقرهم على ذلك من بقي من الصحابة رضي الله عنهم، وكبار التابعين، ومن بعدهم من الأئمة المتبوعين رحمهم الله تعالى، فعلم بذلك أن هذه الشهرة متأخرة، ولا أساس لها من الصحة، وهكذا أكثر ما ينقل ويشتهر في مثله.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٨٠)، والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (٢٣٠)، والنوادر السلطانية للقاضي ابن شداد (١٢٦)، وشذرات الذهب (٤/ ٢٧٤).

(٣) وذلك في الحملة الصليبية الأولى التي كانت عام ٤٩٢ هـ. وانظر تفصيل ذلك في: كتب التاريخ، أحداث هذه السنة.

رحمه الله تعالى.

كان سلطانُ النصارى قد علا، وطغيانهم قد استشرى، وما أكثر ما عاهد ملوكُهم ملوكَ المسلمين ثم غدروا، واستباحوا كثيراً من الديار، وقتلوا النساء والصبيان. وقبل حطين بسنتين مرض صلاح الدين مرضاً شديداً حتى أشار عليه الأطباء بأن يوصي، فحلف بالله لئن شفاه الله تعالى ليصرفن همته كلها إلى قتال الإفرنج، وليجعلنّ أكبر همه فتح بيت المقدس، ولو صرف في سبيل الله تعالى جميع ما يملك من الأموال والذخائر، كما حلف أن يقتل الملك النصراني أرناط ملك الكرك بيده؛ لأنه نقض العهد، وتنقص الرسول ﷺ، واعتدى على قافلة للمسلمين، فأخذ أموالهم، وضرب رقابهم وهو يقول: أين محمدكم؟ دعوه ينصركم[٤].

فشفى الله تعالى السلطان من مرضه، فصرف كل همته لقتال النصارى حتى جمع الله بين جند الإيمان وجحافل الكفر والطغيان في أرض حطين، ذلك أن السلطان صلاح الدين سار بجيشه إلى الإفرنج، وتوافد عليه عسكرُ المسلمين من مصر والشام وغيرها حتى كانوا اثني عشر ألف مقاتلٍ غير المتطوعين. فتسامعت الفرنج بقدومه فاجتمعوا كلهم، وتصالحوا فيما بينهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وجاءوا بحدهم وحديدهم، واستصحبوا معهم صليب الصلبوت، يحمله منهم عباد الطاغوت، وضُلاَّلُ الناسوت، في خلق لا يعلمُ عدتهم إلا الله عزّ وجلّ، يقال: كانوا خمسين ألفاً،

(٤) انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٢٨٠)، والنوادر السلطانية (١١٩).

وقيل: ثلاثاً وستين ألفـاً. . فتقدموا نحو المسلمين، وأقبل السلطـان ففتح طبرية، وتقوى بما فيها من الأطعمة والأمتعة. . وحاز البحيـرة في حوزته، ومنع الله الكفرة أن يصلوا منها إلى قطرة؛ حتى صاروا في عطش عظيم، فبرز السلطـانُ إلى سطح الجبل الغربي من طبرية عند قرية يقال لها: حطين.

وجاء العدو المخذول، وفيه كل ملوك النصارى الإفرنج في الشرق؛ فتواجه الفريقان، وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإيمان، واغبرّ وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان، وذلك عشية يوم الجمعة، فبات الناسُ على مَصَافِّهم.

وأصبح صباح السبت الذي كان يوماً عسيراً على أهل الأحد، وذلك لخمسٍ بقين من ربيع الآخر، فطلعت الشمس على وجوه الإفـرنج، واشتدّ الحرّ، وقوي بهم العطش، وكان تحت أقدامِ خيولهم حشيشٌ قد صار هشيماً، وكان ذلك عليهم مشؤومـاً، فأمر السلطان النـفّاطة أن يرموه بالنفط، فرموه فتأجج ناراً تحت سنابك خيولهم، فاجتمع عليهم حرُّ الشمس، وحرُّ العطش، وحرُّ النار، وحرُّ السلاح، وحرُّ رشق النبال، وتبارز الشجعان، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة، فحملوا وكان النصر من الله عزّ وجلّ فمنحهم الله أكتافهم، فقتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم(٥).

(٥) وذكر الذهبي أن جيش الفرنج كان ثمانين ألفـاً فيما قيل، وقتل منهم خلق كثير؛ حتى قال العماد الكاتب في البرق الشامي: فمن شاهد القتلى يومئـذ=

وكان من جملة من أسر جميعُ ملوكهم إلا واحداً هرب في أول المعركة، واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم، وهو الذي يزعمون أنه صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة، ولم يُسمع بمثل هذا اليوم في عزِّ الإسلام وأهله، ودفعِ الباطل وأهلِهِ؛ حتى ذُكر أن بعض الفلاحين من المسلمين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج وقد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعض المسلمين أسيراً بنعل ليلبسها في رجل، وجرت أمورٌ لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين، فلله الحمد دائما كثيراً طيباً مباركاً»(٦).

فلما تمت هذه الواقعة، ووضعت الحرب أوزارها أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة وعن يمينه أَسِرَّةٌ وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى تتهادى بقيودها، فمن كان فيه شرٌّ على المسلمين، أو نقض العهد ضربت عنقه.

= قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل. وقال الذهبي: ولاعهد للإسلام بمثل هذه الوقعة من زمن الصحابة رضي الله عنهم. ا هـ من تاريخ الإسلام (٤١/ ١٩).

(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥)، وانظر تفاصيل المعركة في: النوادر السلطانية (١٢٦ ـ ١٣١)، والكامل في التاريخ (١١/ ٥٣٤ ـ ٥٨٣)، وتاريخ ابن الوردي (٢/ ٩٦) ومرآة الجنان (٣/ ٤٢٤)، وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٣٠٥)، والفتح القسي في الفتح القدسي (٦١ ـ ٨٤)، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦/ ٢٧ ـ ٣١)، وغيرها من كتب التاريخ في أحداث سنة (٥٨٣هـ).

وأجلس السلطانُ أكبر ملوك الإفرنج عن يمينه على السرير، وسائر الملوك حوله وفيهم ملك الكرك أرناط الذي حلف السلطان في مرضه أن يقتله بيده؛ لغدره بالمسلمين، واستهزائه بالرسول صلى الله عليه وسلم، ثم سقى السلطان كبير ملوكهم، فشرب ملكهم ثم أعطى الملك أرناط ليشرب، فغضب السلطان وقال: إنما ناولتك ولم آذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندي ـ وكان عند العرب أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أَمِن[٧] ـ فقال السلطان: أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته؛ وذلك لئلا يأمن.

ثم تحول السلطان إلى خيمة أخرى وطلب الملك الغادر أرناط، فلما أوقف بين يديه قام إليه بالسيف، ودعاه إلى الإسلام فامتنع، فقال له السلطان: نعم، أنا أنوب عن رسول الله في الانتصار لأمته، فقتله وأرسل رأسه إلى ملوك النصارى في خيمتهم، فخافوا وظنوا أنهم يقتلون، فطمأنهم السلطان وقال: لم تجر عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده، وتعرض لسب رسول الله ﷺ، فجرى ما جرى[٨].

وبات المسلمون تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حبور، ترتفعُ أصواتهم بالحمد لله، والشكر له، والتكبير والتهليل؛ حتى طلع صبحُ يوم الأحد.

---

(٧) انظر: النوادر السلطانية (١٣٠).

(٨) النوادر السلطانية (١٣٠ ـ ١٣١)، والبداية والنهاية (١٢/ ٢٨٥)، والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٠ ـ ٣١).

لقد كان يومُ حطين يومـاً عظيماً في الإسلام، وكانت معركتهـا القاصمة التي قصمت ظهور النصارى، وهي الممهدة لفتح بيت المقدس، وتطهيره من عبّاد الصليب، ورعاة الخنزير؛ إذ بعد ثلاثة أشهر فقـط من معركة حطين تم فتح بيت المقدس، وانتهت إمارة الصليبيين عليه بعد أن دنسوه بكفرهم وتثليثهم إحدى وتسعين سنـة[٩]، كما انتهت إماراتهم في كثير من بلاد الشام بتتابع الفتوح والانتصارات بعد معركة حطين الخالدة على يد صلاح الدين، ثم على يد ملوك بني أيوب ومَنْ بعدهم إلى أن تم طردهم من الشرق الإسلامي، وانتهت الحملاتُ الصليبية بعد أن أيقن ملوك أوربا أنهم لن يستطيعوا إخضاع الشرق الإسلامي لحكمهم، ولم تأت قناعتهم تلك إلا بعد معاناة طويلة، وتضحيـات كبيرة بالأنفس والأموال والمتاع بذلها المسلمون ، ودامت مئتي سنة، فلله الحمد أولاً وآخراً[١٠] .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ

(٩) وذلك في رجب من نفس السنة (٥٨٣هـ) كما في كتب التاريخ المـذكـورة سابقاً.

(١٠) استمرت الحملات الصليبية تفد من أوروبا إلى الشرق الإسلامي قرابة مئتي سنة منذ حملة بطرس الناسك عام (٤٨٩هـ) إلى حملة لويس التاسع وهـي الحملة الثامنة التي هلك فيها وجيشه بوباء الطاعون عام (٦٦٨هـ) وتم إنهاء الإمارات الصليبية التي أسسها النصارى عام (٦٩٠هـ) وذلك بعـد سـقـوط (عكا) وما تلاها من حصون على يد السلطان الأشرف خليل ابن المنـصـور قلاوون. ينظر في ذلك: كتب التاريخ أحداث سنة (٦٩٠هـ).

يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧ - ٩]. .

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ربكم، وأصلحوا سركم وعلنكم؛ فإن الله تعالى يعلم السر وأخفى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أيها المسلمون: لم يكن غريباً على صلاح الدين رحمه الله تعالى أن يعفو عن ملوكِ الإفرنج ويكرمهم بعد أن تمكن من رقابهم إلا من كان غدّاراً ناكثاً للعهد، متربصاً بالمسلمين، كيف يكون ذلك غريباً عليه وقد شَدَهَ أوربة بكريم أخلاقه، وجميل عفوه، وحسن صفاته التي تلقاها من مدرسة الإسلام، كما أدهشها بشجاعته وإقدامه، وحسن قيادته.

ومن حسن قيادته رحمه الله تعالى أنه وجّه قطاع الطريق واللصوص من المسلمين إلى النصارى المحاربين، وجعلهم يعملون فيما يحسنون من السطو عليهم، واختطاف أمرائهم وترويعهم؛ فحوّلَهم من لصوص

قتلة إلى مجاهدين في سبيل الله تعالى.

وذكر القاضي ابن شداد: أنه كان راكباً في خدمة صلاح الدين في بعض الأيام قبالة الإفرنج، فجاءه قائد من قادة جيشه ومعه امرأة نصرانية ترتعد من الخوف، وتبكي بكاءً متواصلاً، وتضرب على صدرها بشدة، فقال القائد لصلاح الدين: إن هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها. فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها فقالت: إن اللصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسرقوا ابنتي، وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار.

فقال لي الملوك ـ أي ملوك النصارى ـ: السلطانُ رحيم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما أعرف ابنتي إلا منك؛ فرقّ لها، ودمعت عينه، وحركته مروءته، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر أن يسأل عن الصغيرة: مَنْ اشتراها ويُدفعُ له ثمنها ويحضرها.. فما مضت ساعة حتى وصلَ الفارس والصغيرةُ على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظر أمها عليها، فخرت إلى الأرض تمرر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول، فسُلمت ابنتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكر النصارى[١١].

الله أكبر، ما أجمل هذا التصرف! وما أحسن هذا الخلق! قارنوا رحمكم الله تعالى هذه الأخلاق العالية، والمروءة الوافية بما يجري للمسلمين

(١١) انظر هذه الحادثة في: النوادر السلطانية (٩٨) وقد حكاها القاضي ابن شداد وذكر أنه شهدها بنفسه ولم ينقلها عن غيره.

على أيدي اليهود في فلسطين تحت سمع وبصر منظمات حقوق الإنسان النصرانية، والقانون الدولي، ورعاة السلام المزعوم من النصارى وأعوانهم.

قارنـوا هـذه الحادثة بما جرى للمسلمين فـي البوسنة وكوسوفا، وما يجري الآن لهم في مقدونيا والشيشان على أيدي عبدة الصليب.

تهدم ديارهم، وتنتهك أعراضهم، وتُباع بناتهم لتجار البغاء والرقيق الأبيض، وفي كل يوم تكتشف مقابر جماعـيـة، دُفِن فيها عشرات المسلمين بعد أن قُطِّعت أطرافهم، ومُثِّل بأجسادهم وهم أحياء؛ تلذذاً بتعذيبهم قبل قتلهم في زمن يقال عنه: إنه زمن حفظ حقوق الإنسان!! فمن هو هذا الإنسان الذي تحفظ حقوقه؟!

إنه كل إنسان سوى المسلم ما دامت الهيمنةُ لعبّاد الصليب الحاقدين، والصهاينة العنصريين، وسيظلُّ الأمرُ على تلك الحالِ إلى أن يمنَّ الله تعالى على المسلمين بعودة جـادّة إلى دينهم؛ فيكتب اللهُ لهم النصر على عدوهم، وتعود السيادة إليهم، كما كانت من قبل لهم؛ ليرفع الظلم عن البشر، ويُبسط العدل كما كان في عصور مضت، وما عصر صلاح الدين رحمه الله إلا مثلاً من أمثلة كثيرة في تاريخ العدل والإحسان في دولة الإسـلام، فالإسـلام خيـر للبشر لو كانوا يعلمون؛ ولكن أكثر النـاس لا يعقلون. سبحان ربك ربّ العزة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١٤٨- معركة الزلاقة

١٥/ ٩/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله؛ أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ امتنَّ على أمة الإسلام بشهر رمضان، وجعل النصر فيه لأهل الصيام والقيام على عباد الأوثان والصلبان.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ كان في بدر يناشد ربه، ويسأله النصر، ويلح في دعائه حتى سقط رداؤه عن منكبيه من شدة إلحاحه؛ فاستجاب الله تعالى دعاءه، وأمده بألف من الملائكة مردفين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ جاهدوا نفوسهم فقهروها عن معصية الله تعالى، وقصروها على طاعته، فاستحقوا نصر الله، فنصرهم الله على أعدائهم، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فإن الدنيا مهما طال أمدُها، وكثرت مسراتُ العبد فيها فهي إلى زوال ونهاية، ولا مستقر للعبد إلا في دار القرار ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ [النساء: ٧٧].

أيها المسلمون: رمضان كما هو شهرُ الغفران والرحمات فهو أيضاً شهرُ العز والانتصارات، شهرٌ علا فيه كعب الإسلام في أكثر البلاد، وانتصرت فيه جيوشه في أكثر المعارك، أثبت فيه عباد الرحمن قوة نفوسهم، بكبح جماح شهواتهم؛ فكان نصرهم على أنفسهم ممهداً لنصرهم

على أعدائهم.

رمضان في أمة الإسلام شهرٌ مليءٌ بالمعارك والفتوح خلال القرون السالفة، والسنوات الماضية، كم ارتفعت فيه من رايات عزٍّ للإسلام؟! وكم عقدت فيه من لواءات تنشر دين الله تعالى؟!.

أول فرقان بين الحق والباطل كان في رمضان، في بدر الكبرى التي لا تنسى، والفتحُ المبين لمكة كان فيه، وفيه أيضاً كُسر التتار في عين جالوت، ووطئت أقدام المسلمين الأندلس، وفتحوها في رمضان.

والحديث عن الأندلس يحتم الحديث عن رجال قطعوا البحر، وجاوزوا السهل والوعر؛ لينشروا دين الله تعالى في فردوس الأندلس، رجالٌ لما رأوا ما في الأندلس من بساتينها وجناتها، ومائها وأنهارها، وجبالها وسهولها الخضراء؛ تذكروا ما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة، فحجزوا نفوسهم عن الشهوات، وأوقفوا أوقاتهم لله تعالى، وبذلوا مهجهم وأرواحهم وأموالهم في مرضاته، وقضوا أعمارهم على صهوات خيولهم يجاهدون في سبيل الله عز وجل؛ طلباً للشهادة في مظانها، فسجلوا صوراً مشرقة في البذل والتضحية والفداء، عجب منها التاريخ، وأدهشت كبار المؤرخين.

كان منهم الملكُ أبو عامر المعافريُّ رحمه الله تعالى، غزا ستاً وخمسين غزاة لم تنتكس له فيها راية، ولا فُلَّ له جيش، جُمع من غبار وجهه في سبيل الله تعالى صرة ضخمة[1].

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (٧٤)، وخلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان (٢٨).

ومنهم سيف الدولة ابنُ حمدانَ العدويُ اجتمع له من غباره في الجهاد لبنة كبيرة[٢]، وهذا يدل على كثرة جهادهم في سبيل الله تعالى؛ إذ لا يمكن جمع هذا الغبار الكثير إلا في معارك كثيرة، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد**» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم[٣]، ورجالاتُ الأندلس كثيرون، وأخبارهم غزيرة، ومعاركُ رمضان في الأندلس مشهورة. كان من أشهرها معركة الزلاقة التي قيل: إنها وقعت في جمعة من جمعات رمضان عام تسعة وسبعين وأربعمئة، وقيل: بل

(٢) خلاصة تاريخ الأندلس (٢٨).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أحمد (٢/ ٣٤٢)، وابن المبارك في الجهاد (٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨١)، وسعيد بن منصور في سننه (٢٤٠١)، والنسائي في الجهاد باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٦/ ١٣-١٤)، والترمذي في فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، وقال: هذا حديث حسن صحيح (١٦٣٣)، وابن ماجه في الجهاد باب الخروج في النفير (٢٧٧٤)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٤٥٩ ـ ٤٦٠)، والبيهقي (٩/ ١٦١)، والبغوي في شرح السنة (٢٦١٩)، والطبراني في الأوسط (١٩١١)، وصححه ابن حبان (٣٢٥١)، والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/ ٧٢) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧٤٧٤).

وله شاهد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٣٤) برقم: (٧٦١٢)، وفي مسند الشاميين (٣٤٤٦).

وشاهد ثان من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند الطبراني في الأوسط (٦٨٩٨)، وفي مسند الشاميين (٣٥٦٢)

كانت في رجب من نفس العام[٤]، بين المسلمين والنصارى، قاد المسلمين فيها يوسفُ بن تاشفين، والمعتمدُ بن عباد رحمة الله تعالى عليهما،

(٤) اختلف في وقت وقوع معركة الزلاقة على النحو التالي:
أ ـ أول جمعة من رمضان عام ٤٧٩هـ كما في العبر للذهبي (٤/ ١٧٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٦٢)، والكامل لابن الأثير (١٠/ ٥٣).
ب ـ وذكر بعضهم أنها كانت سنة ٤٨٠هـ كما في سفر نامة (١/ ١٣٥).
ج ـ وأغرب ابن كثير فذكرها في حوادث سنة٥٩١هـ كما في البداية (١٣/ ٩ ـ ١٠).
د ـ أنها في رجب عام ٤٧٩هـ وهو الصواب. قال ابن خلكان: والصحيح أن هذه الوقعة في منتصف رجب، ويؤرخ بها في الأندلس فيقال: عام الزلاقة.
وهو ما نقله ابن خلكان عن البياسي أنها كانت في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة ٤٧٩هـ.
وقد حقق المؤرخ عبد الله عنان أنها كانت في يوم الجمعة الثاني عشر من رجب عام ٤٧٩هـ. كما ذكره ابن أبي زرع الفاسي في روض القرطاس (٩٦) وهو المثبت في الحلل الموشية في الأخبار المراكشية (٤٠ ـ ٤١).
وذكر عنان أنه المثبت في خطاب يوسف بن تاشفين بعد النصر إلى عدوة المغرب؛ حيث ذكر فيه هذا التاريخ، وهوالموافق لما ذكره مؤرخو الإفرنج، ولعل الذين أخطأوا في التاريخ لم يطلعوا على خطاب ابن تاشفين السابق ذكره. انظر: دولة الإسلام في الأندلس (٣/ ٣٢٣).
وقد ذكر ابن كثير وابن خلكان وابن تغرى في النجوم الزاهرة: أن الزلاقة وقعتان متتاليتان، وأن الأذفونش لما انهزم في الأولى من المعركتين نكس صليبه، وحلق لحيته ورأسه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً حتى يأخذ بالثأر، فاستنجد بملوك أوروبا ورهبانها وبالبابا، وجمع جيشاً كبيراً فهزمه ابن تاشفين مرة أخرى، فخرجت والدة الأذفونش وبناته ونساؤه بين يدي ابن تاشفين، فرقَّ لهن، ومنَّ عليهن وعلى الأذفونش. انظر: النجوم الزاهرة (٦/ ١٣٩).

عليهما، وقاد النصارى (الأذفونش) هكذا يسمى في كتب المؤرخين المسلمين، وفي كتب الإفرنج يسمى (ألفونسو).

كان حالُ المسلمين في الأندلس قبل هذه المعركة ينبئ عن الضعف والذلة، والتفرق والاختلاف، فلم تكن لهم قيادةٌ واحدة، وكل حاكم منهم كان يحكم إقليماً أو مدينة أو قرية، وانغمس كثير منهم في الملذات، وأُهدرت قوتهم في الفتنة بينهم؛ فكلُ إقليم يحارب جاره، وكل حاكم منهم يُضمر الشر لأخيه، وأُزهقت أرواح كثير من المسلمين في الاقتتال من أجل الدنيا؛ حتى سموا بملوك الطوائف من شدة انقسامهم وتفرقهم، فطمع في تفرقهم النصارى، وتسلطوا عليهم.

كان أكبر ملوك الطوائف من المسلمين، وأكثرهم بلاداً؛ حاكم قرطبة: المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى، وقد دفع الجزية لحاكم النصارى الأذفونش، وكان هذا الحاكم النصراني طموحاً طامعاً في بلاد المسلمين، فلما استولى النصارى على طليطلة بدأ يتطلع إلى ما في يد المعتمد بن عباد، فأوجد المسوغات لذلك بعدم قبوله الجزية المفروضة على المسلمين، وطلب منهم التنازل له عن بعض ما في أيديهم من البلاد[٥].

ثم أمعن في طغيانه وبغيه، وطلب من المسلمين السماح لزوجته بأن تلد في جامع الزهراء، بناءً على رأي من القساوسة والأطباء؛ لأن فيه موضع كنيسة كانت للنصارى قبل الفتح الإسلامي[٦]، فرفض ابن

---

(٥) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٢٨).

(٦) انظر: نفح الطيب (٤/ ٣٥٧)، والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ٣٧).

عباد طلبه لما فيه من إهانة للمسلمين.

كان رسولُ الأذفونش إلى ابن عباد يهودياً يشعل فتيل الفتنة، ويحرض على الحرب، وهو الذي دفع الأذفونش إلى الحرب، وأقسم الأذفونش بآلهته ليأخذن ما في أيدي ابن عباد من البلاد(٦).

لقد دفع تفرقُ حكام الأندلس، وتسلط النصارى على المسلمين جماعة من العلماء والفقهاء لأنْ يجتازوا البحر إلى المغرب وفداً بعد وفد، ويطلبوا من قائد المرابطين يوسف بن تاشفين العبور إلى الأندلس لإنقاذها من الهلكة، والسقوط في أيدي النصارى، وكان يوسف متردداً في ذلك(٧)، فلما وقع الشر بين ابن عباد وبين حاكم النصارى الأذفونش؛ رأى المعتمد أن يكتب ليوسف يطلب نجدته، فحذره ملوك الأندلس من أن يوسف لو عبر إلى الأندلس ورآها فإنه سيقضي على ملوكها ويضمها إلى ملكه، حتى قالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد. فقال قولته التي صارت مثلاً: «رعيُ الجمال خير من رعي الخنازير»(٨).

يعني: أنه يفضل أن يكون راعياً للجمال عند يوسف بن تاشفين، على أن يكون راعياً للخنازير عند الأذفونش.

وقال رحمه الله لعُذَّاله لما عذلوه: «يا قوم، إني من أمري على

(٦) نفح الطيب (١/ ٤٣٩)، والاستقصاء (١/ ٣٧).

(٧) وفيات الأعيان (٥/ ٢٨)، ونفح الطيب (٤/ ٣٦٠)

(٨) الروض المعطار (٨٥)، ونفح الطيب (٤/ ٣٥٩)، والاستقصاء (١/ ٣٩).

حالين: حالة يقين، وحالة شك، ولابد لي من إحداهما، أما حالةُ الشك: فإني إن استندت إلى الأذفونش أو إلى ابن تاشفين، فمن الممكن أن يفيَ لي، ويمكن ألا يفعل، وأمَّا حالة اليقين: فإنني إن استندت إلى ابن تاشفين أرضي الله تعالى، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطتُ الله تعالى، وهذه حالة يقين، فلماذا أدع ما يرضي الله إلى ما يسخطه»[٩].

فكان رحمه الله تعالى موفقاً في اختياره، مسدداً في قوله، وقد قضى نحبه، وذهبت مملكته، وعقبته أجيالٌ وأجيال، ولا زال التاريخ يحفظ مقالته تلك، ويحمده المسلمون عليها، ونسأل الله تعالى أن يجد عقبى ذلك في الآخرة.

فلما ورد كتاب ابن عباد على ابن تاشفين عزم على العبور إلى الأندلس وكان الموجُ متحركاً، فسأل ابن تاشفين ربه الخيرة وقال: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا صلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره»، فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت[١٠].

فاستقبل ابنُ عباد وكبار ملوك الأندلس ابنَ تاشفين وجيشه، وتسامع المسلمون بنبأ الحرب، فوفدوا من كل فج عميق، وحرَّضهم الفقهاء والعلماء والخطباء على الخروج في سبيل الله تعالى، فاجتمعت جموعُ المسلمين قبالة جموع النصارى الذين حرضهم القسُس والرهبان

(٩) الاستقصاء (١/ ٣٩).
(١٠) روض القرطاس (٩٣)، والاستقصاء (١/ ٣٤).

على الخروج للقتال المقدس، وكتب ابن تاشفين كتاباً إلى الأذفونش قال فيه: «بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيتَ أن تكون لك سفنٌ تعبر فيها البحر إلينا؛ فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال»(١١).

فاستشاط الأذفونش غضباً، وكتب كتاباً غليظاً يفيض بالوعيد والتهديد، ويدعو بالويل والثبور على المسلمين، فأجابه ابن تاشفين في خلف كتابه بعبارة واحدة: «الذي سيكون ستراه»(١٢).

كان الأذفونشُ معجباً بكثرة النصارى التي تفوق المسلمين، ورأى أن جيش ابن تاشفين لا يعرف أرض الأندلس، وكيفية القتال فيها، فغرَّه ذلك، وخرج بطراً يرائي بجيشه، تعجبه نفسه، وكتب إلى ابن عباد رسالة يستخف به فيها ويقول: «كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتدَّ علي الحرَّ، فأتحفني من قصرك بمروحة أُروِّح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي»، فكتب ابن عباد في خلف رسالته: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مرواح تروح منك، لا تروح عليك إن شاء الله». أي: سيوف من الجلود اللمطية لأنهم كانوا ينقعون السيوف فيها بالحليب فتكون قوية

---

(١١) الاستقصاء (١/ ٣٤)، وانظر: دولة الإسلام في الأندلس (٣/ ٣٢٣)، وقد عزاه للكامل ونفح الطيب، والحلل الموشية (٣٩).

(١٢) انظر: المصادر السابقة، وسير أعلام النبلاء (١٩/ ٦٢)، ووفيات الأعيان (٥/ ٢٩).

قاطعة [١٣].

ورأى الأذفونش في منامه كأنه راكب فيلاً، وبين يديه طبل صغير وهو يُنقر فيه، فقص رؤياه على القسس والرهبان فلم يعرفوا تأويلها، فطلب رجلاً من المسلمين من مملكته كان معبِّراً فقصها عليه، فاستعفاه من تعبيرها، فلم يعفه، فعبرها بسورة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وبقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠]، وأخبره أنه مهزوم، وأن جيشه هالك لا محالة [١٤]، فاستهزأ الأذفونش به وبتعبيره، ونظر إلى جيشه فأعجبته كثرتهم، وقال للمعبر: «بهذا الجيش ألقى إله محمدٍ صاحب كتابكم» [١٥]، «وبهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء» [١٦].

وقبل بدء المعركة قامت الأساقفة والرهبان، ورفعوا صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، وتبايعوا على الموت، وفي الجانب الآخر وعظ يوسفُ وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ، وحضوهم على الصبر والثبات، وحذروهم من الفشل والفرار [١٧].

وكان من دهاء ابن تاشفين أنه أحضر معه إبلاً كثيرة جداً، ولم

(١٣) نفح الطيب (٤/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).
(١٤) الكامل (٨/ ٤٤٦)، والاستقصاء (١/ ٤٣).
(١٥) الكامل (٨/ ٤٤٧)، والاستقصاء (١/ ٤٣).
(١٦) الاستقصاء (١/ ٤٢).
(١٧) المصدر السابق (١/ ٤٢).

تكن الإبل معروفة عند الأندلسيين، ولما بدأت المعركة أخاف رغاؤها وضخامتها خيول الإفرنج، فجفلت منها، وكان ذلك من أسباب هزيمتهم[١٨].

وانكشف المسلمون في أول الأمر لكنهم حملوا حملة قوية على النصارى؛ فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم الجو من اشتداد حمى القتال، وإثارة الغبار، وأدرك جنديٌّ من المسلمين الأذفونش فطعنه في فخذه طعنة منكرة، وانكشف العدو من كل جانب، وفشا فيهم القتل والأسر، وانسحب الأذفونش في خمسمئة من فرسانه في جنح الظلام، وأقام المسلمون أربعة أيام يجمعون الغنائم العظيمة[١٩].

وقد ذكر أبو شامة المقدسي رحمه الله تعالى أن قتلى النصارى يقاربون مئة وخمسين ألف قتيل، والأسرى ثلاثون ألفاً حتى بيع الأسير بدرهم واحد من كثرتهم، وغنموا من الخيل والبغال شيئاً عظيماً[٢٠]، فعفَّ ابن تاشفين وجيشه عن الغنائم، واقتسمها ملوكُ الأندلس فيما بينهم، وحمد المسلمون ربهم على هذا النصر العظيم.

لقد كانت هذه المعركةُ من أكبر معارك الأندلس إن لم تكن أكبرها، وهي تضاهي معركة بلاط الشهداء التي قادها الغافقي رحمه الله تعالى.

---

(١٨) المصدر السابق (١/ ٤١).

(١٩) المصدر السابق (١/ ٤٩).

(٢٠) نقل ابن العماد في شذرات الذهب (٢/ ٣٠٦) عن أبي شامة: أن الإفرنج قتل منهم مئة ألف وستة وأربعون ألفاً، وأسر ثلاثون ألفاً، وغنم المسلمون غنيمة لم يسمع بمثلها قط؛ حتى بيع السيف بنصف درهم، والحصان بخمسة دراهم، والحمار بدرهم. وانظر أيضاً: البداية (١٣/ ١٠).

وعقب هذه المعركة ـ معركة الزلاقة ـ كفَّ النصارى شرَّهم عن المسلمين، ووحد الجهادُ المسلمين بعد أن كانوا مختلفين؛ ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا واقتتلوا، فتمكن منهم عدوهم، وتعاقبت السنون، واشتدَّ افتراقُ المسلمين في الأندلس، مع توحد النصارى ضدهم؛ فسقطت ممالك الأندلسُ الواحدة تلو الأخرى، حتى أجلى النصارى المسلمين منها، ونصَّروا كثيراً منهم، نسأل الله العافية، وما بقي فيها إلا آثار وعمران يدل على شأن عظيم كان للمسلمين في الأندلس السليب، ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٠ -١٤٢] .

بارك الله لي ولم في القرآن العظيم. .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأطيعوه، واحذروا نقمته فلا تعصوه ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [البقرة: ١٩٦].

أيها المسلمون: ما أحوج المَسلمين في خضم هذه الأحداث العظيمة، والفتن الكبيرة إلى أن يتوحدوا على كتاب ربهم تبارك وتعالى، وسنة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، حكاماً ومحكومين؛ فالاختلاف والتفرق شر لا يأتي إلا بالشر والهزيمة، والغربُ النصراني المتصهين قد أعلنها حرباً حضارية، وبدأ إعلامه يهيئ لها بالهجوم على ديننا وقرآننا ومناهجنا، وما ارتضيناه من أحكام الإسلام، نسأل الله تعالى أن يكفي بلادنا وبلاد المسلمين شرهم.

لقد وحدنا رمضان في صومنا وإفطارنا، وفي دخول الشهر وخروجه بالرؤية الشرعية، وكثيرٌ من العبادات سبب من أسباب الوحدة وجمع الشمل، واجتماع الكلمة، وتراص الصفوف، ونبذ الخلاف والتفرق. والانشغال بالخلافات الجزئية يشغل الأمة عن التحديات الكبرى التي يمر بها المسلمون، ويستنزف طاقاتهم ومقدراتهم، والمستفيد من ذلك أعداء الإسلام من كفار ومنافقين.

إن من قرأ تاريخ الأندلس بأحقابه وفتراته ودويلاته بان له أن فترات اجتماع كلمة المسلمين كانت تزخر بالنصر العظيم، وبهيبة النصارى من المسلمين، وأن تفرقهم واختلافهم كان سبباً لضعفهم وتسلط النصارى عليهم، ولما أدرك النصارى ذلك سعوا بالوشايات في أوساط المسلمين، وشحنوا بعضهم على بعض، وفرقوا كلمتهم، وأضعفوا قوتهم؛ فاستمكنوا

منهم حتى أسقطوا ممالكهم مملكة بعد أخرى، ثم قضوا على وجودهم قضاءً مبرماً بالقتل والتهجير والتنصير، وإحراق كتبهم وتراثهم.

وإن المسلمين إذا لم يتنبهوا لخطورة الخلاف في مثل هذه الأوقات العصيبة فإن مصيرهم في كثيرمن الديار سيصير إلى الهلاك والاضمحلال؛ كما حصل للأمة الأندلسية، نسأل الله العافية والسلامة.

أيها المسلمون: ونحن مقبلون على عشر رمضان الفاضلة، وكم فيها من دعوات مجابة، ورقاب معتقة، وعباد مرحومين، فاستقبلوها أحسن استقبال؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخلت العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله، واجتهد في عبادة ربه[٢١]، وأكثروا من الدعاء لإخوانكم المضطهدين في مشارق الأرض ومغاربها، وتحروا أوقات الإجابة؛ فإنكم إن تخليتم عنهم حتى بالدعاء، فيوشك أن يصيبكم ما أصابهم، نسأل الله العافية.

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم،،،

---

(٢١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

١٤٩- اجتياح المغول لبغداد

الجمعة ٢٤/ ٢/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: من سنة الله تعالى في عباده: بيان الحق لهم، ودعوتُهم إليه، وتخويفهم بالآيات والنذر، وترغيبهم بالخير وانفتاح النعم عليهم إن هم أطاعوه، وترهيبُهم بالعذاب والهلاك إذا هم عصوه. وإذا أراد الله تعالى عذاب أمةٍ من الأمم تسلّط فجارها على خيارها؛ فأفسدوا فيها، فحق عليها عذاب الله تعالى، فيهلكهم الله تعالى، ويبدلهم بآخرين يقيمون شريعته، ويعبدونه حق عبادته ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾

[الإنسان:٢٨]، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وعذابُ الله تعالى قد يكون آيةً كونية: ريحاً أو صحيةً أو غرقاً، ونحوه مما جرى ذكره في القرآن. وقد يكون العذابُ تسليط أمةٍ ظالمةٍ غاشمةٍ تستبيحُ الحرمات، وتفتك بالناس.

وكلُ ذلك لا يكون إلا إذا استحق العبادُ الهلاك، وحقت عليهم كلمة العذاب. وقد وقع الثاني لبعض المسلمين في بعض المدن والأمصار؛ وأشهرُ ما وقع من هذا النوع: تسليطُ المغول على الخلافة العباسية، والقضاءُ عليها، وقتلُ الخليفة، وذلك في صفر من عام ستة وخمسين وستمئة للهجرة، وظلّ المسلمون بلا خليفة ثلاث سنوات[1].

لقد طغى المغول على كثير من بلاد المسلمين تحت راية جنكيز خان، ثم هولاكو من بعده؛ أعظم مخرب في الأرض، خرب أقطاراً وأمصاراً، وما عُرف له من غرض في ذلك إلا حبُ التخريب؛ ولذلك قال المؤرخون: «ما دهى الإسلام بمثله، وامتدّت مملكته من بحر الصين إلى البحر الأسود»[2].

وكان ابتداءُ هذا الأمر العظيم أن فتنةً اشتعلت في بغداد بين الرافضة والمسلمين، وقُتل عدد كبير من الفريقين، فغضب لذلك الوزيرُ الرافضيُّ

(١) قال الذهبي: «وانقطعت الإمامة العباسية ثلاث سنين وأشهراً بموت المستعصم» سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٨٤).

(٢) انظر: الإسلام والحضارة العربية لمحمد كردعلي (١/ ٣٠٠).

ابن العلقمي[٣]، فكاتب القائدَ المغولي هولاكو، وطمّعه في العراق، وحثه على غزوها، فسار إليها هولاكو في مئتي ألف مقاتل[٤]، فلما وصل إلى بغداد خرج إليه ابنُ العلقمي للتفاوض ـ وكان وزيراً للخليفة العباسي؛ لكنه خدعه ودبّر لقتله ـ وكان هولاكو راضياً بالمصالحة على نصف خراج بغداد ويتركها لهم، فقال ابن العلقمي لهولاكو: «متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك. وقال: بل المصلحة قتله وإلا فما يتم لكم ملك العراق»[٥].

وكان هولاكو متهيباً من قتل خليفة المسلمين؛ لكن الرافضة المنافقين، وعلى رأسهم ابن العلقمي والمولى نصير الدين الطوسي حسّنوا له قتل الخليفة، وأبانوا له ضعف الجيش والدولة، ثم رجعوا إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله فخدعوه، وأشاروا عليه بالخروج إلى هولاكو، وذكروا له أن هولاكو سيزوج ابنته من ابن الخليفة، وسيترك لهم خلافتهم، فخرج إليهم الخليفة في سبعمئة راكب من القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء والدولة، فلما اقتربوا من هولاكو حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، وأُنزل الباقون عن مراكبهم وقتلوا عن آخرهم[٦].

(٣) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٨)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٨٠)، ومرآة الجنان لليافعي (٤/ ١٠٥)، وشذرات الذهب (٥/ ٢٧٠).
(٤) السير (٢٣/ ١٨٢).
(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٦٨)، والسير (٢٣/ ١٨٣).
(٦) السير (٢٣/ ١٨٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١٦٨).

وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو، واضطرب من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، فوضعوه في كيس ثم أخذوا يرفسونه حتى مات[٧]، وقتلوا معه ابنيه الأكبر والأوسط، وأسروا ولده الأصغر وأخواته الثلاث، وأسروا من دار الخلافة ما يقارب ألفاً من الأبكار[٨]، وقتلوا أكابر الدولة؛ حتى إن الرجل يستدعى من دار الخلافة، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهبون به إلى المقبرة، فيذبحُ أمام أسرته كما تذبح الشاة، ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه[٩]. وأعملوا السيف في الرقاب مدة أربعين يوماً لا يلقون أحداً إلا قتلوه صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً كان أم امرأة، قادراً كان أم عاجزاً، لا يفرقون بين أحد.

فقتلوا العلماء والخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجمعات مدة شهور ببغداد، ومن بقي من الناس اختبؤوا خلال الأربعين يوماً في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الأوساخ؛ حتى لا يعثروا عليهم.

---

(٧) قيل: إنهم وضعوه في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل: بل خنقوه حتى الموت، وقيل: بل أغرقوه. انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٩) والسير (٢٣/ ١٨٣).

(٨) كان عمر الخليفة المستعصم لما قتل ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، وعمر ولده الأكبر أحمد خمساً وعشرين سنة، وعمر ولده الأوسط عبد الرحمن ثلاث عشرة سنة. وانظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٩)، وقد ذكر الذهبي أن للخليفة ذرية في وقته ـ أي وقت الذهبي في القرن الثامن الهجري ـ بآذربيجان، ذلك أنهم أخذوا ابنه الأصغر، انظر: السير (٢٣/ ١٨٤).

(٩) البداية والنهاية (٧/ ١٧٠).

وكان الجماعةُ من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فيفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون منها إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة(١٠).

وما نجا من سيفهم في بغداد إلا اليهود والنصارى، ومن التجأ إلى الخائن ابن العلقمي الرافضي من أهل بدعته، وتراوحت أعداد القتلى بين مليون ومليوني إنسان على اختلاف روايات المؤرخين(١١). حتى إن خطيباً في بغداد استهل خطبة خطبها بقوله: «الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الديار»(١٢).

ولما انقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلال، وقد

---

(١٠) المصدر السابق (٧/ ١٦٩).

(١١) قال الذهبي: «قتل بها ثمانمائة ألف نفس، وأكثر ما قيل: بلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وجرت السيول من الدماء». اهـ السير (٢٤/ ١٨١)، وقال ابن كثير بعد أن ذكرما ذكره الذهبي: وقيل: «بلغت القتلى ألفي ألـف». اهـ البداية والنهاية (٧/ ١٦٩)، وانظر: مرآة الجنان (٤/ ١٠٤).

(١٢) شذرات الذهب (٥/ ٢٧١)، وفيه قول سبط التعاويذي:

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم ... ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم:

يا عصبة الإسلام نـوحي واندبي ... حـزناً على ما تم للمـستعصـم

دست الوزارة كان قبـل زمـانـه ... لابن الفرات فصار لابن العلقـمي

وذكر أبياتاً غير هذه.

سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وانتنت البلاد من جيفهم، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباءُ الشديدُ، وتعدى وسرى إلى بلاد الشام.

ولما نودي في بغداد بالأمان خرج من كانوا تحت الأرض في المقابر والقنى والحشوش كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً؛ فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء فتفانوا ولحقوا من سبقهم من القتلى. وعمّ الطاعون بلاد الشام، فاجتمع على الناس الغلاء والوباءُ والطعن والطاعون(١٣).

وكان ابن العلقمي بعد خيانته للخلافة، وتعاونه مع هولاكو؛ طامعاً في أن يوليه هولاكو الحكم في بغداد مكافأة له، وكان في عزمه أن يجعلها مأوى لأهل البدعة من الرافضة والباطنيين؛ ولكن الله تعالى خيّب ظنه، فلم يحصل على ما أراد؛ إذ إن المغول أهانوه وأذلوه، فذاق خزي الدنيا قبل خزي الآخرة(١٤).

وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان، وهو راكب برذوناً وهو مرسوم عليه، وسائق يسوق به ويضرب الفرس. فوقفت إلى جانبه وقالت له: «يا ابن العلقمي، هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟!»(١٥) فوقعت كلمتها في قلبه، وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وضيقاً،

---

(١٣) البداية والنهاية (٧/ ١٧٠).

(١٤) انظر: مرآة الجنان (٤/ ١٠٥ ـ ١٠٦) والسير (٢٣/ ٣٦٢)، وشذرات الذهب (٥/ ٢٧٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١٦٩).

(١٥) البداية والنهاية (٧/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

وذلك بعد ثلاث أشهر فقط من خيانته الشنيعة، وما مات حتى رأى بعينيه، وسمع بأذنيه ما لا يوصف من الإهانة والذل من المغول ومن المسلمين على حد سواء(١٦).

فتلك عاقبة الخيانة، والله لا يهدي كيد الخائنين.

أسأل الله تعالى أن يحفظنا والمسلمين من الفواجع والفتن، وأن يتوفانا على الإسلام والسنة إنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وتمسكوا بدينكم، واهتدوا بسنة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر؛ حتى لا يصيبكم ما أصاب من كانوا قبلكم **﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [يونس: ١٠١ - ١٠٣].

---

(١٦) البداية والنهاية (٧/ ١٧٨).

أيها الإخوة المؤمنون: كان للتسلط المغولي على المسلمين أسبابٌ عدة منها: ضعف الديانة، وانتشار البدعة، وفشو المنكرات، والانغماس في الترف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «لما كان أهلُ المشرق قائمين بالإسلام كانوا منصورين على الكفار والمشركين من الترك والهند والصين وغيرهم، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور سُلط عليهم الكفار.. وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين: ظهورُ الإلحاد والنفاق والبدع»[١٧]هـ.

ومعلوم أنه في خلافة بني العباس ترجمت كتب اليونان، وانتشرت علومُ الفلسفة، وأظهر الزنادقة زندقتهم، ودعا المبتدعة إلى بدعتهم، فكان من آثار ذلك: تسليط المغول عليهم، فأنهوا دولتهم.

وكان من أعظم أسباب هذه النازلة العظيمة: تقريبُ المبتدعة، واتخاذهم بطانة، وتوزيرُ ابن العلقمي الرافضي الذي لم يكن ناصحاً للخليفة؛ بل حسّن إليه جمع الأموال، والانغماس في الترف، وعدم الاهتمام بالجيش. وقد ذكر المؤرخون أن ابن العلقمي قلّلّ عدد الجيش من مئة ألف مقاتل إلى عشر آلاف فقط، وقطع عنهم رواتبهم؛ حتى إن كثيراً من العساكر افتقروا وصاروا يسألون الناس في الأسواق والمساجد[١٨]. فلما أضعف الجيش، كاتب المغول على القدوم إلى

(١٧) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

(١٨) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٩).

بغداد، فكان ما كان.

والانغماس في الترف من أسباب تسليط العدو، وزوال النعم، وحلول النقم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقد ذكر المؤرخون أن جنود المغول كانت تحاصر قصر الخلافة في بغداد، والخليفة منشغل باللعب مع الجواري، فدخل سهم من إحدى النوافذ فأصاب جارية فقتلها، فانزعج الخليفة من ذلك، وفزع فزعاً شديداً، وأمر بزيادة الاحتراز[١٩]، لكن ذلك لم ينفع؛ لأن من لم يحترز بدين الله تعالى فليس له محترز، ومن لم يتحصن بإقامة شعائر الإسلام فإن حصونه لا تحميه مهما كانت قوتها ومنعتها، ومن لم يتوق من الذنوب والمنكرات فليس له من الله واق.

ومن نظر إلى أحوال المسلمين في هذا العصر، وتسلط اليهود والنصارى والوثنيين والمنافقين عليهم تبين له أن الحال يشبه الحال، وواقع اليوم قريب من واقع الأمس. فعبادةُ القبور منتشرة في كثير من بلاد المسلمين، وأصحابُ البدعة يدعون إلى بدعتهم، والزنادقة قد جاهروا بزندقتهم، واستهزؤوا بالله وبآياته وبرسوله وباليوم الآخر، وبكل مقدسات المسلمين. والواجدُ من جمهور الأمة منغمس إلى أذنيه في أنواع الترف المباح وغير المباح إلا من عصم الله تعالى وقليل ما هم.

---

(١٩) البداية والنهاية (٧/ ١٦٨).

فما أصاب المسلمين من ذل وقهر وظلم على أيدي اليهود وأعوانهم ما حدث إلا بما كسبت أيدي المسلمين، ولن يُرفع ذلك عنهم إلا بالأوبة إلى الله تعالى، والعودة إلى الكتاب والسنة قولاً وعملاً، وإلا كانت الكارثة والعذابُ المهين في الدنيا قبل الآخرة نسأل الله العافية والسلامة.

ألا وصلوا وسلموا على نبينا محمد فقد أمركم ربكم بذلك..

١٥٠- قهر التتار في رمضان

الجمعة ١٤/ ٩/ ١٤١٩هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله لعلكم تفلحون، فلن يردى عبد لازم التقوى. وتعظم أهمية التذكير بالتقوى في زمن قلّ فيه المتقون، وقلّ فيه طلاب الآخرة، وكثر فيه طلاب الدنيا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (١٨)﴾ [الحشر].

أيها المؤمنون: رمضان شهر يقوى فيه الإيمان، ويضعف فيه اعتمادُ العبد على حوله وقوته، ويقوى اتصالُ المؤمن بربه. لذا هو من أكثر الشهور موقعاً لمعارك المسلمين وانتصاراتهم، وحسبك أن أول رمضان فرض كانت فيه أول مفاصلة بين الحق والباطل في بدر الكبرى، ثم كان الفتح الأكبر في رمضان، ومعارك للمسلمين كثيرة دارت رحاها في رمضان.

وما أوقف المسلمون زحف المَغول المهول، ولا كسروهم إلا في رمضان، ففي مطلع القرن السادس الهجري خرج من أطراف الصين شعب مُتَبدٍّ يعزُّ على العدّ، ويستعصي على الحصر، وهبّ على البشرية

هبوب الأعاصير، فاجتاح المدن[1].

ذلكم هو شعب التتار الذي اتسم بالدمار، أنزل ببلاد المسلمين من الدمار ما لم ينزل ببلد سواها، وأحلّ بها من الهول ما اقشعرت له جلود المؤرخين، وارتجفت لكتابته أقلامهم، حتى وصف مؤرخ من الفرنجة ذلك الجيش العاتي وما عمله ببلاد المسلمين فقال: «لم يعرف تاريخ الإسلام على كثرة ما نزل به من الخطوب هولاً أشدَّ من غزوات التتار، فقد انسابت جيوش جنكيز خان في بلاد المسلمين انسياب الثلوج من قُنَنِ الجبال، واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية، وأتت على ما كان فيها من مدنّية وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال»[2].

وفي مدينة بخارى موئل أهل العلم والورع والصلاح مزق التتار المصاحف وفرشوها تحت جيادهم في الاصطبلات لتكون لها وطاءً، وذلك بعدما قتلوا الرجال، وسبوا النساء، وجعلوا المدينة العريقة أثراً بعد عين.

وواصلوا زحفهم يجتاحون المدن الإسلامية مدينة بعد مدينة حتى بلغوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقد سترت بغداد، ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من الآلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً كما

---

(١) حدث في رمضان للدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا (١٣٦).

(٢) المصدر السابق (١٣٨).

ورد في الأثر «**لن يغني حذر عن قدر**» وكما قال تعالى ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ**﴾ [نوح: ٤] وقال تعالى ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)**﴾ [الرعد][٣].

كانت جيوش بغداد في غاية القلة، ونهاية الذلة، بتدبير من الوزير الرافضي ابن العلقمي الذي صانع هولاكو ضد المسلمين وخدع الخليفة العباسي بالخروج إلى التتار طمعاً في أن يقتل ويستبدل به خليفة من الباطنية[٤]. وكان المسلمون على حالٍ من العصيان، وضعفٍ في الإيمان،

---

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٦٨). والأثر الذي ذكره ابن كثير «**لن يغني حذر عن قدر**» جاء من حديث معاذ رضي الله عنه عند أبي يعلى الموصلي وأحمد وإسحاق بن راهويه كما في مختصر إتحاف السادة المهرة للبوصيري (٦٩٠٨) وعزاه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٣٥٨) لإسحاق أيضاً.
وعزاه الهيثمي في الزوائد (١٠/ ١٤٦) لأحمد والطبراني، وقال: وشهر ابن حوشب لم يسمع من معاذ، ورواية إسماعيل بن عياش عن أهل الحجاز ضعيفة.
وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها كما عند الحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: زكريا مجمع على ضعفه (١/ ٤٩٢) وزكريا هو ابن منظور، وعزاه الهيثمي في الزوائد (١٠/ ١٤٦) للطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، وقال: وفيه زكريا بن منظور، وثقه أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات. وجاء أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عزاه الهيثمي للبزار (١٠/ ١٤٦) وقال: وفيه إبراهيم بن خيثم بن عراك وهو متروك.

(٤) البداية والنهاية (١٣/ ١٧٧) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (٣٧٧-٣٧٨) وتاريخ الإسلام لمحمود شاكر (٦/ ٣٥٤-٣٥٥).

فسُلِّط عليهم هذا العدو الغاشم.

كان دخولهم في أواخر محرم، وظل السيف يقتل أهلها أربعين يوماً، وقُتل الخليفة وأولاده، وسبوا بناته الثلاث، وسبوا من دار الخلافة ما يقارب ألف بكر، وكان الرجل من بني العباس يُستدعى من دار الخلافة فيخرج بأولاده ونسائه فيذبحونه أمام ذويه كما تذبح الشاة، ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه. وأعملوا السيوف في الرقاب، وقتلوا الأئمة والعلماء، وحملة القرآن والخطباء، وتعطلت المساجد والجمعات والجماعات. كانوا يتبعون الناس ويذبحونهم في الطرقات، وفي أعالي البنايات حتى تسيل الميازيب بدمائهم، وما انقضت الأربعين يوماً إلا وعاصمة الخلافة خاوية على عروشها ليس بها أحد، والقتلى يملؤون الطرقات.

ولما انجلت الكربة، ونودي بالأمان؛ خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر. خرجوا كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأنزل الله مطراً أنتنت على أثره الجثث فتغيرت الأجواء، وفسد الهواء، وعم الوباء؛ فهلك البقية الباقية من الناس، وانتشر الوباء حتى وصل الشام فهلك خلق كثير. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون»(٥).

---

(٥) البداية والنهاية (١٣/ ١٦٩-١٧٠).

ولقد اختلف المؤرخون في عدد القتلى آنذاك وترددت أقوالهم بين ألف ألف وبين ألفي ألف نفس[٦].

قتل خليفة المسلمين، وخربت عاصمة الخلافة، ثم سارت جحافل التتار نحو الشام تتساقط المدن تحت أقدامهم كما تتساقط أوراق الشجر، وكان الرعب منهم يمشي بين أيديهم فيرهب السكان، ويفتح البلدان، فما تصدى لهم، ولا أوقف زحفهم، ولا كسر جبروتهم إلا ملك كان في أول أمره عبداً مملوكاً، ولله الحكمة البالغة في ذلك، يجعل ذُلَّ الجبابرة على أيدي أضعف عباده، ذلكم الحاكم هو سيف الدين قُطْز[٧].

وقصة ظهوره تتلخص في أن التتار شنوا على بلاده خوارزم حرباً طاحنة امتلكوا ديارهم، ورمَّلوا نساءهم، وسبوا أطفالهم، وكان من ضمن السبي محمود قطز، فتناقلته أيدي النخاسين حتى اشتراه رجل من أعيان دمشق شُهِر بالصلاح والتقوى، فنشأ في كنفه نشأة صالحة، ورباه على حب الجهاد. والتحق هذا الفتى المملوك بعد أن نال حريته بخدمة حكام مصر، وطفق يبدي من ضروب الشجاعة، ويظهر من صنوف الحكمة والحنكة ما مهد السبيل أمامه ليغدو قائداً كبيراً، ثم نائباً

(٦) المصدر السابق (١٣/ ١٦٩).

(٧) انظر ترجمة الملك المظفر سيف الدين قطز الذي قهر الله على يديه التتار في: ذيل الروضتين (٢١٠) والعبر للذهبي (٥/ ٢٤٧) وطبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٢٧٧) وفوات الوفيات للكتبي (٣/ ٢٠١) والبداية والنهاية (١٣/ ٢٢٥) وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٠٠).

للسلطان، ثم ملكاً لمصر حيث لقب بالملك المظفر سيف الدين قطز.

وكان التتار عازمين على غزوه بعد أن خربوا بغداد فأرسلوا خمسة رسل بكتاب كان فيه: «إن لكم بسائر البلاد معتبراً، وعن عزمنا مزدجراً، فاتعظوا بغيركم، وأسلِموا إلينا أمركم، وقد سمعتم أنا فتحنا البلاد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال»(٨).

فلما قرأ محمود قطز الرسالة شاور أعوانه في ملاقاة التتار فعزم على ذلك، ودعا الناس إلى الجهاد فرأى هلع الناس من التتار، فهب يعالج الأمر بإيقاد جذوة الإيمان في القلوب، والعودة بالناس إلى الله تعالى، واستعان بالعلماء والخطباء على ذلك، فكان من آثاره أن غدت المنابر والبيوت والأسواق تعج بآيات القتال، وحفظ كثير من الناس سورتي التوبة والأنفال، وآب الناس إلى الله تعالى، وامتلأت المساجد بالركع السجود، وكفّ الفسقة عن معاصيهم، ولم يبق للناس حديث إلا ملاقاة التتار.

فبينا هم كذلك إذ بلغهم نبأ تحرك التتار إليهم ليستبيحوا بلادهم كما استباحوا بغداد؛ فخرجوا للجهاد يتقدمهم قطز وقادته والعلماء، وفي صبيحة الجمعة لخمسٍ بقين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمئة التقى الجمعان في عين جالوت، فكانت الكرّة الأولى للتتار،

(٨) حدث في رمضان للباشا (١٤٥-١٤٨) وانظر عدداً من رسائل المغول التي تدل على طغيانهم وجبروتهم في تاريخ الخلفاء للسيوطي (٣٧٨-٣٧٩).

ولما رأى الملك المظفر شدة بأس عدوه، ووفرة عدده؛ خلع خوذته عن رأسه، وألقى بها على الأرض، وردد بصوته الأجش: وإسلاماه... وإسلاماه[٩].

فألهب قلوب جنده بنار الإيمان، وأضرم أفئدتهم بالحمية للإسلام؛ فانقضوا على عدوهم انقضاض الشهب، وأوغلوا في جموعه المحتشدة؛ فألقى الله الوهن في نفوس التتار، وقذف في قلوبهم الرعب. وما هي إلا ساعات حتى نزل نصر الله تعالى فبدأ العدو يتأخر، ثم يتقهقر، ثم ولى الدبر، فركب المسلمون ظهورهم، وأعملوا السيوف في رقابهم، ومزقوهم شر ممزق.

لقد كان يوم عين جالوت أول يوم يُغلب فيه الغالبون، ويُقهر فيه القاهرون، ثم لم تقم لهم قائمة بعد ذلك، وكان المملوك الذي تناقلته أيدي النخاسين هو أول رجل قاد المسلمين لهزيمة التتار، وأذل الله على يديه ملكهم هولاكو الجبار حين عجز عن ذلك القادة والأمراء والسلاطين. فالله أكبر ينصر من يشاء، ويسلط أضعف خلقه على أقواهم فله الحكمة البالغة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

(٩) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٠١) وحدث في رمضان (١٥٢).

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّت وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ [آل عمران] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن المتأمل لتاريخ المسلمين وحروبهم مع أعدائهم يجد أنهم متى ما استمسكوا بدينهم كان لهم العز والنصر، ومتى ما تخلوا عنه تسلط عليهم عدوهم. ومعارك التتار مع المسلمين من خير الشاهدين على ذلك؛ فإنهم خربوا البلاد، وروعوا العباد، وأصاب الناس منهم ذلٌ عظيم حتى سقطت عاصمة الخلافة تحت أقدامهم. وما حدث ذلك إلا في وقت عمّ فيه الفساد، وضعف أهل الخير والصلاح، وانتشرت البدعة، وكثر الانحراف في أفراد الأمة، فلم يستطيعوا للتتار دفعاً.

ولما أصلحوا أحوالهم، وعادوا إلى ربهم، واستمسكوا بدينهم، هيأ الله لهم من كان مملوكاً فكسروا التتار على يديه، ومزقوهم شرَّ ممزق، وهكذا كان المسلمون عبر تاريخهم الطويل يتقلبون بين النصر والهزيمة، تقلبهم في عودتهم إلى دينهم أو تخليهم عنه.

إن كثيراً من المثقفين والمفكرين والمحللين والسياسيين في هذا

العصر يعزون ضعف المسلمين إلى أسباب سياسية، أو اقتصادية، أو استعمارية، أو تآمرية. وقد يكون ذلك حقاً وواقعاً؛ ولكن السبب المهم الذي كانت على إثره تلك الأسباب: البعدُ عن الله تعالى، والاستهانةُ بأمره، وارتكابُ نهيه. فلم يكن ميزان المفاصلة بينهم وبين عدوهم إلا القوى العددية والمادية، لكنهم لو كانوا مع الله تعالى لهيأ الله لهم النصر ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

فاتقوا الله ربكم، وعظموا أمره، واحذروا غضبه، وأصلحوا أنفسكم، ومن ولاكم الله من أهلكم وذويكم حتى يكتب لكم النصر والعزُّ في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة.

وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

١٥١- فتح القسطنطينية

١٢/ ٥/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله؛ مالكِ الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا يقع شيءٌ إلا بإرادته، ولا يقضى قضاء إلا بأمره، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ اصطفاه الله تعالى فجعله خاتم الرسل، واختار أمته لتكون خير الأمم، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه؛ بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل الله تعالى، فما وهنت لهم عزيمة، ولا وقفت في وجوههم قوة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ، فلا مخرج للأمة من همومها، ولا مسلاة لها من أحزانها، ولا نجاة لها من عذاب ربها، ومن تسلط أعدائها عليها إلا بتقوى الله تعالى، والتزام دينه، وامتثال شريعته ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧].

أيها المسلمون: لئن كانت أمة الإسلام في هذا الزمن تعاني تكالب أعدائها عليها، وبُعْدَ كثير من المسلمين عن دينهم وكتاب ربهم؛ حتى

استباح العدوُ حماها، وسلطَ سلاحَه عليها، وغلَّ يدها بالعهود الغادرة، والمواثيق الجائرة، فقعد كثير من المسلمين عـن نصرة إخوانهم في فلسطين والشيشان ومقدونيا وكشمير والفلبين وغيرها من البقاع التـي يُستباح فيها المسلمون في وضح النهار. إذا كان ذلك كله واقعاً أليماً مهيناً فإن للمسلمين تاريخاً يحفز الهمم، ويطردُ اليأس، ويهيجُ العزائم، ويدعو المسلمين إلى التزام دينهم إن أرادوا النصر والعزة. تاريخ مليء بالشرف والمجد والكرامة، لا يستحي قارئ مسلم أن يجهر به، ولا باحث فيه أن يبرز أحداثه.

تاريخ يحكي عن رجال أبطـالٍ كرام؛ لما أهينوا أو أهين دينهـم غضبوا فقاتلوا، فلما انتصروا عفوا وتسامحوا، ويخبر عن حصـونٍ دكت، ومدن فتحت على أيدي المسلمين، قد عزت طوال تاريخهـا على كبار الفاتحين.

هذه القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية، التي امتنعت ببحارها وخنادقها، وتحصنت بحصونها وأسوارها، بشر النبي صلى الله عليه وسلم بفتحها قبل أن يبارحَ العرب جزيرة العرب(١)، سيّر لها بنو أمية

---

(١) جاءت البشارة بفتح القسطنطينية في أحاديث عدة منها:

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟** قالوا: نعم يا رسول الله، قال: **لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق فإذا جاءوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إلـه إلا الله والله أكبـر، فيسقط أحد جانبيها،** (قال ثور: لا أعلمه إلا قال: الذي في البحر)، **ثم يقولون** =

. . . .

= **الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوها الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم فيدخلوها فيغنموا، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»** أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٠).

٢ ـ حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **مدينة هرقل تفتح أولاً**. يعني: قسطنطينية» أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٢٩)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٦٠٧)، ونعيم ابن حماد في الفتن (١٣٦٧)، والدارمي في سننه (١/ ١٢٦)، والحاكم (٤/ ٤٢٢ ـ ٥٠٨ ـ ٥٥٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في الزوائد (٦/ ٢١٩): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل وهو ثقة» وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٦٦٤٥) وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٧) ونقل تصحيح الحاكم والذهبي ثم قال: «وهو كما قالا».

٣ ـ حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»** أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٥)، وأبو داود في الملاحم باب في أمارات الملاحم (٤٢٩٤)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٤٥٧)، وقال ابن كثير في النهاية (١/ ٩٤): «هذا إسناد جيد وحديث حسن وعليه نور الصدق وجلالة النبوة».

تنبيهات:

التنبيه الأول: وقع إشكال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حاصله: أن الذين يفتحون القسطنطينية من ولد إسحاق عليه السلام، وقد أجيب عن هذا الإشكال بأجوبة منها: =

. . . .

=١ ـ ما نقله القرطبي عن القاضي عياض من قوله: «قال بعضهم: المعروف المحفوظ من بني إسماعيل وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه؛ لأنه إنما يعني به العرب والمسلمين بدليل الحديث الذي سمَّاها فيه في الأم، وأنها القسطنطينية، وإن لم يصفها بما وصفها به هنا» اهـ من المفهم (٧/ ٢٤٩).

قلت: يعني به حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ**... وفيه: **ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية**...» أخرجه مسلم في الفتن وأشرط الساعة باب فتح القسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم (٢٨٩٧).

وقد تعقب القرطبي رحمه الله تعالى هذا القول بقوله: «وهذا فيه بعد من جهة اتفاق الرواة والأمهات على بني إسحاق، فإذاً المعروف خلاف ما قال هذا القائل» (٧/ ٢٤٩).

٢ ـ ما أجاب به القرطبي رحمه الله تعالى في المفهم (٧/ ٢٤٩) بقوله: «ويمكن أن يقال: إن الذي وقع في الرواية صحيح غير أنه أراد به العرب، ونسبهم إلى عمهم، وأطلق عليهم ما يطلق على ولد الأب؛ كما يقال ذلك في الخال، حتى قيل: الخال أحد الأبوين والله تعالى أعلم» اهـ.

قلت: ولا يخفى ما في هذا الجواب من تكلف.

٣ ـ ما أجاب به الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في النهاية (١/ ٤٦) بقوله: «وهذا يدل على أن الروم يسلمون في آخر الزمان، ولعل فتح القسطنطينية يكون على أيدي طائفة منهم كما نطق به الحديث المتقدم أنه يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق، والروم من سلالة العيص بن إسحاق بعد إبراهيم الخليل» اهـ.

قلت: ولعل هذا الجواب هو الأقرب إلى الصواب؛ ذلك أن كثيراً من مدن الإمبراطورية البيزنطية الرومية قد دخلت في الإسلام في عهد الصحابة بعد معركة اليرموك، وعقب سائر فتوح الشام وما يليها من بلاد الترك في عهد الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، وفي دولة بني عثمان تم فتح=

. . . .

= القسطنطينية، ودخل كثير من أهلها في الإسلام، واستمرت بلـداً من بلدان المسلمين إلى أن فرضت عليها العلمانية الحديثة على أيدي المنافقين أتاتـورك وأتباعه، المدعومين من قبل عبّاد الصليب الإفرنج. والحديث يخبر عما سيقع في الفتح الذي يكون في آخر الزمان؛ وذلك بعد أن دخل كثير من أبناء الروم في الإسلام، وهم من ولد إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. ويقوي ذلك أن (من) بيانية، وأن العدد «سبعون ألفاً» نص في معناها، فيكون هذا العدد من هذا الجنس مقصوداً في هذا الحديث، والقاعدة: أن الأعداد نص في معناها، فلا يزاد عليها ولا ينقص منها؛ كما هو مضطرد في النصوص، ويدعم ذلك أن الأحاديث دالة على أن العرب في آخر الزمان يكونون قلة؛ كما في أحاديث ذكر الدجال، والله أعلم.

التنبيه الثاني: أن الفتح المذكور في الحديث يكون قرب قيام الساعة، ووقـوع الفتن والملاحم؛ ولذلك أورد العلماء أحاديث فتح القسطنطينية فـي أبـواب الملاحم التي تقع في آخر الزمان، وجعلوه من علامات قرب الساعة، وقـد دلت النصوص على ذلك من وجوه عدة، منها:

١ ـ لفظ حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ فقد جاء فيه أن فتحها مقرون بخروج الدجال، فعند اقتسامهم لغنائمها جاءهم الصريخ بأن الدجال قد خلفهم في أهلهم.

٢ ـ لفظ حديث معاذ رضي الله عنه؛ فقد جاء فيه ترتيب الأحداث الواقعة في آخر الزمان وفيه: «**وفتح القسطنطينية خروج الدجال**».

٣ ـ حديث أنس رضي الله عنه قال: «فتح القسطنطينية مع قيام الساعة» أخرجـه الترمذي في الفتن باب ما جاء في علامات خروج الدجال (٢٢٣٩).

٤ ـ حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي صلـى الله عليه وسلم قـال: «**الملحمة العظمى، وفتح القسطنطينية، وخروج الدجال في سبعة أشهر**» أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٤)، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٥)، والترمذي في الفتن باب علامات خروج الدجال (٢٢٣٩)، وابن ماجه في الفتن باب الملاحم (٤٩٢)، والطبراني=

. . . .

= في الكبير (٢٠/ ١٩) برقم: (١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥) والحاكم وسكت عنه الذهبي في التلخيص (٤/ ٤٢٦)، وفي سنده أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو ضعيف الحديث.

وبناء على هذه الأحاديث وما في معناها فإن ما حصل من فتح محمد بن مراد العثماني رحمه الله تعالى ليس هو الفتح المقصود بتلك الأحاديث لما يلي:

١ ـ أن الفتح المذكور في الأحاديث مقرون بخروج الدجال، وقيام الساعة، ولم يكن كذلك الفتح العثماني.

٢ ـ أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه يدل على أن فتحها يكون بدون قتال وإنما بالذكر والتكبير، وفتح العثمانيين لها كان بالسلاح والقتال مع التكبير.

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى قال في حاشية عمدة التفسير (٢/ ٢٥٦): «فتح القسطنطينية المبشر به في الحديث سيكون في مستقبل قريب أو بعيد يعلمه الله عزَّ وجلَّ، وهو الفتح الصحيح لها حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه، وأما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا؛ فإنه كان تمهيداً للفتح الأعظم، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة، وسيعود الفتح الإسلامي لها إن شاء الله كما بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم» اهـ.

التنبيه الثالث: احتج بعض المبتدعة بفتح العثمانيين للقسطنطينية على أن الأشاعرة والصوفية أهدى سبيلاً من أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح؛ وذلك أن المذهب الأشعري هو المذهب السائد في الدولة العثمانية، كما أن فيها تصوف كثير، وقد زكى النبي صلى الله عليه وسلم الجيش الذي يفتحها، ومدح أميره؛ كما جاء في حديث عبد الله بن بشر الغنوي عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**» أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٤٢٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ٣٨)، برقم: (١٢١٦)، و(٢/ ٨١) برقم: (١٧٦٠)، والبخاري في =

. . . .

=التاريخ الكبير (٢/ ٨١)، والصغير (١٤٨٢).

ومن استدل بهذا الحديث على صحة مذهب الأشاعرة والماتريدية عيسى بن عبد الله مانع الحميري في رسالة «تصحيح المفاهيم العقدية في الصفات الإلهية» وقد حشاه بجملة من الأباطيل والترهات ـ ليس هذا مقام الرد عليه فيها ـ ومع أنه قرر في رسالته تلك لزوم أخذ كل فن عن أهله، فإننا نجده لم يلتزم بهذا المنهج؛ بل راح يدخل في كل فن بلا علم، فرسالته في العقيدة وهو غير متخصص فيها، وراح يصحح ما يشتهي من الأحاديث ويرد تضعيف أهل الحديث لها وهو ليس من أهل الحديث، ومن ذلك تصحيحه لهذا الحديث، ولم يجب عن الاضطراب الوارد في اسم من رواه، واسم أبيه ونسبهما؛ كما سيأتي ذكر ذلك.

وتتمحور رسالته حول إثبات إمامة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى، ولزوم أخذ مذهبه في الأسماء والصفات القاضي بإثبات الصفات العقلية السبع وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرداة، والسمع، والبصر، والكلام، وتأويل ما عداها من الصفات.

وقد نقل الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٦) عن ابن كثير الدمشقي الشافعي رحمه الله تعالى: «أن الشيخ أبا الحسن الأشعري مرت به أحوال ثلاثة:

الحال الأولى: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة.

الحال الثانية: إثبات الصفات العقلية السبعة، وتأويل الجزئية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك وهي مرحلة تأثره رحمه الله بمذهب ابن كلاّب الذي تنسب إليه الطائفة الكلابية.

الحال الثالثة: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف، وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخراً، وشرحها الباقلاني، ونقلها ابن عساكر، وهي التي مال إليها الباقلاني وإمام الحرمين وغيرهما من أئمة الأصحاب المتقدمين في أواخر أقوالهم والله أعلم» اهـ.

فيا ليت أن الحميري لما دعا الناس إلى الأخذ بمذهب الإمام أبي الحسن الأشعري أخذ عقيدته التي استقر عليها أخيراً، والتي نسخت ما سبق من قوله بالاعتزال ثم=

. . . .

= قوله بتأويل بعض الصفات، فاستقر به المطاف بعد طول تطواف على مذهب السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان بإثبات ما أثبته الرب تبارك وتعالى لنفسه من الصفات العلية، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائق بجلاله وعظمته بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه، ولكن الحميري ـ هداه الله إلى الحق ـ راح ينتقي ما يشتهي، وقَبِلَ من الإمام أبي الحسن الأشعري المرحلة الوسطى التي كانت بين اعتزاله، وبين أخذه بمذهب السلف الصالح التي استقر عليها أمره بعد أن هداه الله تعالى إلى الحق، واستمر عليها إلى وفاته، وبينها في كتابه العظيم: الإبانة عن أصول الديانة.

ومعلوم أن عقيدة الشخص هي ما استقر عليه أخيراً حتى مات، والأشعري رحمه الله تعالى توفي على مذهب أهل السنة والجماعة؛ كما أثبت ذلك في كتابه الإبانة.

وقد وقع الحميري ومن كان على شاكلته في هذا المأزق المتضايق، ولم يجد سبيلاً إلى الخروج منه إلا بالتشكيك في ثبوت الإبانة عن أبي الحسن، كما في رسالته الآنف ذكرها ص(٢٥)، مع أن كثيراً من العلماء أثبتوا صحة الإبانة إلى أبي الحسن، وعدوها من مصنفاته، ومن هؤلاء العلماء: ابن عساكر الدمشقي في تبيين كذب المفتري، وهو كتاب ألفه في الانتصار للإمام أبي الحسن الأشعري حيث قال ص (٢٨): «ومن وقف على كتابه المسمى الإبانة عرف موضعه من العلم والديانة». والبيهقي في الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ص(٣١) والذهبي في العلو للعلي الغفار (١٦٠) وابن فرحون المالكي في الديباج ص(١٩٤) وغيرهم كثير.

فلا مجال للتشكيك في نسبة كتاب الإبانة عن أصول الديانة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري؛ إلا عند من له هوى في نفسه وهو يضر نفسه ولا يضر أبا الحسن أو غيره من العلماء شيئاً، ولن يستطيع إخفاء الحق عن كل الناس مهما عمل.

وأما الجواب عن الحديث الذي زعم فيه صاحب الرسالة المذكورة أن فيه تزكية لمذهبي الأشاعرة والماتريدية فمن أوجه كثيرة منها:

الوجه الأول: أن الحديث ضعيف، فهو من رواية عبد الله بن بشر الخثعمي وهو مجهول، لم يوثقه إلا ابن حبان، وذكر الحافظ في تعجيل المنفعة (١/ ٧٢١) =

. . . .

= الاختلاف في اسمه واسم أبيه وفي نسبه، فقيل: اسمه عبد الله، وعبيد الله، وقيل: عبيد بلا إضافة، وقيل: اسم أبيه: بشير، وقيل: بشر، وقيل في نسبه: الغنوي، وقيل: الخثعمي، والله أعلم؛ ولذلك ذكره الألباني رحمه الله تعالى في السلسلة الضعيفة (٨٧٨)، وقال: ضعيف، ثم ذكر الاختلاف في اسم عبد الله بن بشر وقال: «وجملة القول أن الحديث لم يصح عندي لعدم الاطمئنان إلى توثيق ابن حبان للغنوي هذا، وهو غير الخثعمي كما مال إليه العسقلاني» والله أعلم.

الوجه الثاني: لو سلمنا بصحة الحديث فلا نسلم باستنباط الحميري منه؛ فإنه لا يدل على ما يريد لا من قريب ولا من بعيد.

الوجه الثالث: على فرض وجود وجه دلالة فقد يحمل على فتح غير هذا الفتح، وهو الذي يكون في آخر الزمان، والأحاديث المتظافرة في فتح القسطنطينية كلها تذكر فتحاً غير هذا الفتح، والفتح المذكور في هذا الحديث مجمل، والقاعدة حمل المجمل على المبين؛ فيكون المقصود بهذا الحديث هو الجيش الذي يفتحها في آخر الزمان، خاصة وأن الجيش الذي يفتحها في آخر الزمان جنده من خيار الناس كما جاء في السنة، ولا يعني ذلك تنقص محمد بن مراد، أو عدم الاحتفاء بفتحه للقسطنطينية؛ فإن من أعظم مناقب هذا الفاتح المظفر، ومناقب دولته فتح عاصمة البيزنطيين.

الوجه الرابع: أنه لا حجة في هذا الحديث لأهل البدع والضلالات؛ إذ الحكم على عوام المسلمين أنهم يعتقدون في الله تعالى الكمال، ولا يعرفون تفصيلات الأسماء والصفات، وما أحدث فيها أهل البدع من ضلالات، فالواقع أنهم من أهل السنة ولو كان مشايخهم يؤولون الصفات، ويحرفون نصوصها، ومن هنا يغلط كثير من الناس حينما ينسبون عوام المسلمين في البلاد التي مشايخها على ضلال فيما يتعلق بالأسماء والصفات إلى البدعة؛ لأن ذلك المعتقد الخاطئ متعلق بالشيوخ دون العوام. كما أن عوام المسلمين في البلاد التي مشايخها من أهل السنة والجماعة لا يعرفون تفصيلات الأسماء والصفات ولكنهم يؤمنون إيماناً مجملاً بكمال الرب تبارك وتعالى، وأنه مستحق لكل ما يليق به، بخلاف الشيوخ الضالين، ودعاة البدعة. وما من شك في أن الجيش العثماني الذي فتح القسطنطينية أكثره من عوام=

. . . .

= المسلمين، ولربما كان أميره محمد الفاتح كذلك - وخاصة أنه كان حدث السن - وليس لديه تفصيلات فيما يتعلق بالأسماء والصفات، ولم أقف على من نقل عنه كلاماً في ذلك، فحكمه حكم عوام المسلمين الذين يعتقدون صفات الكمال في الله عزَّ وجلَّ.

الوجه الخامس: لو قدر أن الجيش العثماني كله أشاعرة، وأميره كذلك، وعندهم من تفصيلات هذا المذهب ما يجلعهم مبتدعة مع قيام الحجة عليهم ـ وذلك مستبعد ـ فإن الحديث لا يدل على صحة مذهبهم لما يلي:

أولاً: أن متعلق المدح هو فتح القسطنطينية، وهو عمل طيب، وسعي مشكور، ولا يتعداه إلى غيره.

ثانياً: أن الشخص الواحد تكون فيه حسنات وسيئات، فيثنى على حسناته، وتذم سيئاته، والفاتح وجيشه وإن كانوا أشاعرة وفيهم تصوف فإنهم مجاهدون في سبيل الله تعالى، معلون لكلمته، مظهرون لدينه؛ فيحمدون على ذلك، ويثنى عليهم به، ولا يلزم من ذلك عصمتهم من الخطأ، والثناء عليهم من كل وجه، ولا يستدل بتزكيتهم في الجملة على صحة ما أخطأوا فيه، نعم! يصح ذلك لو كانت التزكية لعقائدهم وهو ما لم يكن، ولعل جهادهم في سبيل الله تعالى، وما قام في قلوبهم من التوكل عليه، وصدق التعلق به، حتى بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى، وفتحهم لهذه المدينة العتيدة يكون سبباً في مغفرة ذنوبهم والتي منها تمذهبهم بمذهب الأشاعر وأخذهم بطرائق المتصوفة.

الوجه السادس: أن الجيش يكون خليطاً من القادة والعلماء والعامة، وهو خليط من الصالحين، ومن هم أقل صلاحاً؛ وأي ثناء عليهم فإنه ينصرف للعموم، ولا يلزم منه الثناء على أعيانهم فرداً فرداً؛ وذلك لتعاونهم على أمر يحبه الله، فيحصل لكل فرد منهم من الثناء والتزكية، بقدر ما قدم في هذا العمل المزكى، ومن المتفق عليه أن الجيش الذي يقوده النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون جنده من الصحابة رضي الله عنهم هو خير جيش وجد في الدنيا، وهو خير من الجيش الذي فتح القسطنطينية، وهو أولى بالثناء منه، ومع ذلك وجد فيه من غلَّ من الغنيمة، ومن =

الجيوش، ومات أبو أيوب الأنصاري ودفن تحت أسوارها[٢] فما استطاعوا فتحها، ثم تأبت على بني العباس؛ ولكنها لانت لبني عثمان، ففتحوها في مثل هذا الشهر جمادى الأولى من عام سبعة وخمسين وثمانمئة للهجرة.

وأحداث هذا الفتح عظيمة، وأخباره كثيرة، تحتاج في عرضها

= قتل نفسه، بل وجد فيه منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ورغم ذلك فإن هذا الجيش كان محل مدح وثناء في الكتاب والسنة، ولا يلزم من ذلك مدح المنافقين الموجودين فيه، أو مدح أهل الغلول، أو من قتل نفسه.

الوجه السابع: أننا لو لم نعتبر كل الأوجه الستة الماضية، وسلمنا أيضاً بأن جيش الفاتح كلهم أشاعرة وصوفية؛ فإن قصارى ما يفيده هذا الحديث احتمال تزكية عقائد ذلك الجيش، وأنهم على الحق، بينما نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان تقطع بخطأ الأشاعرة والماتريدية والمتصوفة، فهل تترك الأدلة المتواترة المقطوع بها ثبوتاً ودلالة لمجرد دليل محتمل قد ضعف من جهة ثبوته، وأما من جهة دلالته على المراد فهو أضعف وأضعف؟! هذا غير مستقيم في المنهج العلمي.

وبناء على ذلك فليس لأي صوفي أو أشعري أو ماتريدي أن يحتج على مذهبه الخاطئ بهذا الحديث. والله أعلم.

(٢) ثبت ذلك من حديث أسلم بن أبي عمران قال: «غزونا من المدينة نريد القسطنطينية...» وفي آخره: «فلم يزل أبو يوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية» أخرجه أبو داود في الجهاد باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] (٢٥١٢) والترمذي في التفسير باب تفسير سورة البقرة، وقال: حديث حسن غريب صحيح (٢٩٧٦)، وصححه ابن حبان (٤٧١١)، والحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٢٧٥)، وذكر الحاكم في معرفة الصحابة أحاديث أخرى تثبت ذلك (٣/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

وتفصيلها إلى خطب كثيرة.

كانت القسطنطينية العاصمة المقدسة الكبرى لنصارى الشرق، وفيها أكثر تراثهم وتاريخهم، وقد حوت كنائسها تماثيل أشهر رهبانهم وبطاركتهم. وموقعها بين آسيا وأوربة جعلها من أفضل المدن موقعاً؛ حتى قال نابليون: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمةً لها»[٣]، وذكر أنها وحدها تساوي امبراطورية كاملة، وأنها مفتاحُ العالم؛ من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه.

ولما قامت الدولة العثمانيةُ واتسعت رقعتها، كانت القسطنطينية في وسطها، تفصل ممالكها الغربية عن ممالكها الشرقية؛ ولذا حاول خلفاءُ بني عثمان فتحها أكثر من مرة، وكان ملوكها ورهبانها يكيدون للدولة العثمانية، ويدسون الدسائس، ويدبرون المكائد، ويؤون كل خارج عليها، ويمدونه بالسلاح والمال والرجال، وكم مرة عاهدوا ثم نقضوا كما هي سيرة أهل الكتاب[٤]. فلما تولى عرش السلطنة العثمانية

---

(٣) انظر: الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية. تأليف الدكتور: علي حسون ص(٣١).

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، تأليف: الميرالاي إسماعيل سرهنك، تقديم ومراجعة الدكتور حسن الزين ص(٣٩)، والسلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوربا الشرقية، تأليف: الدكتور سيد رضوان علي ص(٢٠) والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، تأليف: الدكتور إسماعيل أحمد ياغي، ص(٤٨) ومحاضرات في العثمانيين وحاضر العالم الإسلامي، تأليف: الدكتور محمود محمد زيادة ص(٨).

محمد بن مراد بعد وفاة والده كان همُّه الأكبر أن يفتح تلك المدينة المنيعة؛ فأشغل فكره بها، وكرّس جهده لها، وعمل كل عمل يحقق ذلك سياسياً وعسكرياً.

فبنى قلعة جبارة قبالتها، وصالح الدول المجاورة لها حتى لا تهب لنجدتها، وعقد الهدنة مع كل محاربيه ليتفرغ لها، وصنع المدافع العملاقة لدكِّ حصونها، واستحدث أساطيل بحرية ليغزوها من البر والبحر، ثم درس أسوارها من الداخل والخارج، وأوضاعها وأوضاع أهلها(٥).

فلما رأى ملكها قسطنطين أن الأمر جد راسل السلطان يطلب الصلح، فطالبه السلطان بتسليمها بلا قتال، وله ولأهلها الأمن والعيش فيها أو غيرها بسلام، فرفض حاكمها ذلك(٦). فعزم السلطان على فتحها، وسار بجيش يقارب مئة وستين ألف مقاتل معهم خيولهم وأنعامهم وعتادهم؛ فضربوا الحصار عليها، وبداخل أسوارها ثمانمئة ألف نفس، منهم أربعون ألف مقاتل قد اصطفوا على أسوارها لحمايتها، واستمرَّ الحصار ثلاثاً

---

(٥) انظر: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية (٢٣ ـ ٣١)، والعثمانيون في التاريخ والحضارة، تأليف: الدكتور محمد حرب ص(٧١) والترك في العصور الوسطى تأليف: الدكتورة زبيدة محمد عطا ص(١٩٥ ـ ١٩٦ ـ ١٩٨)، وتاريخ الدولة العثمانية لسرهنك (٤٠ ـ ٤١)، وقد أمضى في استعداداته رحمه الله لهذا الفتح العظيم ثلاث سنوات؛ كما ذكر الدكتور محمد هريدي في كتابه الحروب العثمانية الفارسية، ص(٣٢).

(٦) انظر: محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية ص(٢٢)، والعثمانيون في التاريخ والحضارة، (٧٢ ـ ٨٥)، وتاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، تأليف: الأستاذ الدكتور محمود السيد ص(٥٨).

وخمسين ليلة(٧)، كانت مدافعُ المسلمين أثناءها تدك حصونها، ولكن النصارى كانوا يبنون ما تهدم في الحال، وكل طريقة يخترعها المسلمون للاقتحام، أو فتح ثغرة، أو التسلل إلى داخلها يفشلها النصارى، وكل طريقة تفشل كانت لا تزيد المسلمين إلا إصراراً على قهر تلك الحصون، واجتياز تلك الأسوار، وظهرت بطولات عجيبة من الفريقين، فالمسلمون المهاجمون صمدوا أمام نيران مدافع القسطنطينية، وواجهوا النبال والرماح بصدورهم، ولم يردهم عن تسلق أسوارها الماء المغلي، والزيت الحار الذي يصبه النصارى على المسلمين لردهم عن الحصون؛ حتى مات حرقاً عشرات من المسلمين، وقتل مئات بالنبال والمدافع، وكل ذلك لم يرد السلطان محمداً عن فتحها بل يفكر في الطريقة تلو الطريقة، وتأتيه الفكرة وراءَ الفكرة(٨).

ورغم ما قام به قسطنطين من قتل مئتين من المسلمين المقيمين في

---

(٧) وقع خلاف بين المؤرخين والناقلين عنهم في أعداد الجيش العثماني، وأعداد البيزنطيين، ومدة الحصار، ولعل ما ذكرته هو الأقرب اعتماداً على مصادر نقلت عن مصادر تركية، وبعضها متقدم، وانظر: تاريخ الدولة العثمانية، لسرهنك (٤٥)، وقال: «وكان استيلاء العثمانيين على هذه المدينة العظيمة في يوم الثلاثاء عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٨٥٧هـ (٢٩ مايو ١٤٥٣م) بعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوماً حسب رواية غالب المؤرخين، وقد أرخ بعضهم سنة افتتاحها بقوله (بلدة طيبة) اهـ. وانظر أيضاً: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث للدكتور إسماعيل ياغي ص(٤٩)، وفي مصادر أخرى أن الحصار دام خمسين يوماً فقط؛ كما في الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية للدكتور: علي حسون ص(٣٩).

(٨) انظر: الترك في العصور الوسطى (٢٠٤)، ومحمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي=

القسطنطينية، وتعليقهم على أسوارها؛ فإن ذلك لم يرهب المسلمين بل زادهم حماساً لفتحها، وبدأت مؤنة النصارى تنقص، وأخذهم الجهدُ والتعبُ من هذا الحصار المحكم، وعزم السلطان على الاقتحام العام، لما أحس أن الوقت قد حان؛ فأرسل رسالة إلى قسطنطين يطالبه بالتسليم قبل الهجوم العام، وله وللنصارى الأمنُ على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وديارهم، ومن أراد منهم الرحيل منها رحل، ومن أراد البقاء بقي فيها آمنا(٩).

وما كان قسطنطين إلا شجاعاً متديناً يعلمُ ما لهذه المدينة من تاريخ وتقديس عند النصارى، فآثر أن يموت فيها على أن يهرب منها، أو أن يسلمها للمسلمين، فرد على السلطان بأنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نَفَسٍ في حياته، فإما أن يحتفظ بعرشها، أو يدفن تحت أسوارها، فلما بلغ السلطانَ محمداً مقالة قسطنطين قال رحمه الله تعالى: «حسناً، عمَّا قريب سيكون لي في القسطنطينية عرشٌ أو يكون لي فيها قبر»(١٠).

= في أوروبا الشرقية ص(٣٤)، وتاريخ الدولة العثمانية لسرهنك ص(٤٢)، ومحمد الفاتح للدكتور سالم الرشيدي (١٣٥) وهو أجمع كتاب وقفت عليه في شأن هذا الفتح العظيم، وأكثر المصادر تحقيقاً، وأغلب ظني أنه رسالة علمية، وقد رجع إلى كثير من المصادر التركية المتقدمة إضافة إلى المصادر العربية والإفرنجية والرومية.

(٩) انظر: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية ص(٢٢)، والعثمانيون في التاريخ والحضارة ص(٧٢ ـ ٨٥)، وتاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ص(٥٨).

(١٠) محمد الفاتح للرشيدي (١١٩).

وقبل الهجوم العام بيومين ـ وكان يوم الأحد ـ أمر السلطان جنده بالصيام لله تعالى؛ تطهيراً للنفوس، وتقويةً للعزم والإرادة، وفي مساء ذلك اليوم أمر جنده بإضرام النيران العظيمة ليرهب النصارى، وظل المسلمون طيلة الليل يذكرون الله تعالى، ويكبرون بأصوات عالية، حتى قال رئيس أساقفة القسطنطينية: «لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء، لا إله إلا الله محمد رسول الله، لأخذتك الروعةُ والإعجاب»(١١).

وفي يوم الاثنين ترك السلطان جنده يرتاحون، وبدأ يخطط للهجوم، ثم عبّأ جنوده في ليلة الثلاثاء، وأمر العلماءَ والمشايخ والخطباء أن يحمسوا الجند، ويذكروهم فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى؛ فكانوا يتلون على الجند آيات الجهاد، ويرغبونهم فيه، ثم يقولون لهم: «لقد نزل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب هذه البقعة، ومات فيها، ودفن تحت هذه الأسوار؛ فيلهب ذلك حماسَ الجند، ويكونون أشد شوقاً إلى الاقتحام والفداء»(١٢).

وخطب فيهم السلطان خطبة قال فيها: «إذا تمَّ لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديثٌ من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعجزةٌ

(١١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: محمد فريد بك، تحقيق: د. إحسان حقي ص(١٦٠)، ومحمد الفاتح للرشيدي ص (١٢٤).
(١٢) محمد الفاتح للرشيدي ص(٣٦)، ومحمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية، ص(٣٢).

من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيدُ الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هـذه التعاليم، ليجتنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون»(١٣).

وفي مقابل ذلك دقت أجراس الكنائس، واجتمع النصارى فخطب فيهم قسطنطين فقال: «أيها المحاربون: أعدوا أنفسكم للقتال والتضحية بأنفسكم وأرواحكم في سبيل هذه البلدة المقدسة، وفي سبيل النصرانية... إن الساعة الخطرة الفاصلة التي ارتقبناها منذ أيام قد أزفت، إن الرجل ليقاتل ذوداً عن دينه أو وطنه أو ملكه أو أهله أو ولده فكيف وقد جاءت هذه الأسباب كلها مجتمعة؟! والقسطنطينية هي معقل النصرانية، وملكةُ المدن، وقد كانت زمناً ما عاصمة الدنيا، لقد مضى ثلاثة وخمسون يوماً والعدو يحاصر هذه المدينة بكل عتاده وقواه، وقد رددناه عن أسوارنا...، وهو يتأهب الآن ليضرب ضربته الأخيرة فاثبتوا كما ثبتم من قبل، وادفعوه اليوم عن أسواركم كما دفعتموه بالأمس، حتى تخور قواه، وينتكص على أعقابه.

أيها الإخوان: إنكم سلالة صناديد أثينا، وأبطال روما، فكونوا أهلاً لهذا النسب الرفيع، ولا تخيفنكم صيحاتُ العدو، ونيرانُه المتصاعده،

---

(١٣) محمد الفاتح للرشيدي ص(١٢٦).

وشدوا عزيمتكم، واصدقوا في القتال..» ثم أعلن أنه سيدافع حتى الموت.. ثم صلى النصارى صلاتهم وقد امتلأت بهم الكنائس(١٤).

بعدها ذهب قسطنطين إلى قصره يودعه، ويلقي عليه آخر نظرة قبل القتال، وظل يبكي بكاءً شديداً حتى قال من حضره: «لو أن شخصاً قُدَّ قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدمع لهذا المنظر»(١٥).

وقبيل منتصف ليلة الثلاثاء رشت السماء بمطر خفيف ثبَّت الأرض، وفي الساعات الأولى من صباح يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى عام سبعة وخمسين وثمانمائة دقت طبول الحرب، وتصاعدت التكبيرات مدوية مجلجلة من البر والبحر، وانطلق المسلمون يتسلقون الأسوار، والمدافع تضرب، والجنود تكبر، وحمي وطيس المعركة، واستمرت ساعات تدوي خلالها المدافع، وتمطر النبال، وتتحرك السفن والمراكب، والقتال مستعر في البر والبحر، وأبدى الفريقان بسالة عظيمة: النصارى يدافعون عن مدينتهم، والمسلمون يتسلقون الأسوار، ويلاقون المحن؛ حتى نجحوا في اختراق دفاعات النصارى ودخول المدينة(١٦).

فما برح قسطنطينُ حتى رأى أعلام المسلمين ترفرف على قلاع القسطنطينية وأسوارها، وجنودُه تهرب من أمام المسلمين، فأخذ يقاتل

---

(١٤) المصدر السابق (١٢٨)، وانظر: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية (٣٣).

(١٥) انظر: محمد الفاتح للرشيدي (١٢٩).

(١٦) انظر: محمد الفاتح للرشيدي (١٣٠ ـ ١٣٦).

ذات اليمين وذات الشمال حتى كلَّت يده، ثم ضربه أحد المسلمين فخرَّ صريعاً[١٧].

وهكذا سقطت تلك المدينةُ المنيعة التي امتنعت على كبار القـادة والفاتحين؛ ليذللها الله تعالى لمحمد بن مراد العثماني الذي لقب بعد ذلك بمحمد الفـاتح، وكُنِّي بأبي الفتح، وذلك فضل الله يؤتيه مـن يشاء، والله ذو الفضل العظيم..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله يحب المتقين.

أيها المؤمنون: لما سقطت القسطنطينية في أيدي المسلمـين، وتم الفتح المبين؛ جاء القادة يهنئون الفاتح، ويقولون: «لقد بـارك الله في جهـادك يا سلطان، فكان يقول: حمداً لله، ليرحم الله الشهداء، ويمنح

(١٧) المصدر السابق (١٣٧).

المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر»(١٨).

لقد خاف النصارى وفزعوا في أول الأمر؛ لأنهم ظنوا أن يفعل بهم المسلمون مثل الذي فعله بهم الصليبيون لما دخلوا القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة؛ إذ استباحوا الحرمات، وأمعنوا في قتل الناس، ونهب الأموال، وقالوا في أنفسهم: إذا كان هذا فعل حماة الصليب بنا لاختلاف مذهبنا عن مذهبهم، فكيف بمن يخالفوننا في ديننا؟! يعنون المسلمين، ولجؤوا إلى الكنائس يصلون ويبكون ويدعون.

وعند الظهيرة توجه السلطان الفاتح إلى القسطنطينية على ظهر جواده، يحف به كبار قادته، وهنأ جنده بالنصر، ونهاهم عن القتل والسلب، وأوصاهم بأن يكونوا أهلاً لهذا الشرف والمجد بأخلاقهم الكريمة، فلما توسط في المدينة ترَجَّل عن فرسه، واستقبل القبلة، وسجد على الأرض، وحثا التراب على رأسه؛ تواضعاً وشكراً لله تعالى على ما منحه من توفيق ونصر، ثم استأنف سيره إلى أكبر كنيسة للنصارى وهي كنيسةُ القديسة (أيا صوفيا)، ولما اقترب منها وصلت إليه أصوات خافتة حزينة هي أصوات النصارى بداخلها، يصلون ويدعون بالنجاة، فقصد أحد أبوابها، فأمر الراهب بفتح الباب على مصراعيه، وانتاب الناسَ خوفٌ عظيم، وتوجسوا شراً مستطيراً، وانقطعوا عمَّا كانوا عليه، وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله تعالى ويحمده، ثم أمر النصارى بالعودة إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم،

---

(١٨) محمد الفاتح للرشيدي (١٣٩).

وأن يعود كل واحد منهم إلى عمله الذي كان يمارسه من قبل، فنزل هذا التأمين برداً وسلاماً على أهل القسطنطينية، وقد كانوا يتوقعون أن ينكل بهم المسلمون.

وكان نفر من الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة خوفاً من القتل، فلما سمعوا بما فعله الفاتح، وحسن معاملته للنصارى؛ خرجوا من أماكنهم، وأعلن كثير منهم إسلامهم، ثم أمر السلطان بتحويل الكنيسة إلى مسجد، فأذن فيها أحد العلماء، وأدوا فيها صلاة العصر، ثم أعلن السلطان أن أول جمعة قادمة ستقام فيها الصلاة؛ فرفعت منها الصلبان، وهدمت التماثيل، وطمست التصاوير، وأنشأوا فيها محراباً ومنبراً ومئذنة[١٩]، وظلت مسجداً تقام فيه الصلاة وحلقات العلم خمسة قرون تباعاً إلى أن استولى على السلطة: العلماني اليهوديُ أتاتورك؛ فحوَّل المسجد إلى متحف[٢٠]، عليه من الله ما يستحق.

ثم قصد السلطان قصر الإمبراطور قسطنطين، فرأى ما فيه من الأبهة والعظمة وقد اغبَّر بآثار الحرب والحصار، وأقفر من سكانه، وعششت العناكب في جدرانه، واستبدل في ليلة وضحاها حاكماً بحاكم، وسيداً بسيد؛ فكان عبرة بالغة، اعتبر بها السلطان الفاتح فقال رحمه الله تعالى: «إن العنكبوت قد نسجت بيوتها في قصر الأباطرة، وإن البوم ينعق فيها نعيقاً محزناً»[٢١].

---

(١٩) ملخصاً من محمد الفاتح للرشيدي (١٤٠ ـ ١٤٢).

(٢٠) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة (٧٩).

(٢١) محمد الفاتح للرشيدي (١٤٣).

وأمر السلطان بمداواة الجرحى من النصارى، وفدى كثيراً من كبار الأسرى، وأمر بدفن قسطنطين في مقبرة ملوك النصارى، ثم أمر النصارى أن ينتخبوا أحد رهبانهم بطريركاً لهم، فجعله مسؤولاً عن شؤونهم وزواجهم وميراثهم وما يتعلق بدينهم، وأعطاه مقراً لعمله، وبالغ في إكرامه، حتى خجل النصارى من كرم الفاتح فقال البطريرك: «إن الأباطرة النصارى لم يفعلوا قطُ مثل هذا لمن سبقه من البطاركة».

وقد قال المؤرخون: «إن السلطان الفاتح قد حنا على أهل القسطنطينية حنوَ الوالد الشفيق العطوف على ولده»[٢٢].

ولم تمض إلا أيام على فتحها حتى ساد الأمن والسكينة ربوع المدينة، واستأنف الناس حياتهم وأعمالهم، وفرح كثير من النصارى بهذا الفتح لما رأوا العدل الذي لم يكن موجوداً من قبل، ودخل كثير منهم في الإسلام.

أيها الإخوة المؤمنون: أتدرون رحمكم الله تعالى كم كان عمر هذا السلطان لما أتم الله تعالى له هذا الفتح المبين لهذه المدينة العتيدة؟! لقد أجمع المؤرخون من عرب وترك وروم وإفرنج على أنه لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره[٢٣]، وقد قاد هذا الجيش العرمرم في البر

---

(٢٢) المصدر السابق (١٤٣ ـ ١٤٦).

(٢٣) ولد محمد الفاتح رحمه الله تعالى عام ٨٣٣هـ، وتولى السلطة عام ٨٥٥هـ، وعمره ثنتين وعشرين سنة، وقد فرح النصارى بتوليه وهو صغير؛ ولكن الله تعالى أراهم ما يسوؤهم؛ إذ كان الفتح على يديه وهو صغير وقد عجز عن فتحها القادة الكبار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.=

والبحر، وبنى القلاع العظيمة، وفتح هذه المدينة المنيعة، ثم لم يستخفه الفتح، بل عمل فيها وفي أهلها عمل أهل الحكمة والرأي والخبـرة، ملتزماً شريعة الإسلام التي هي العدل والرحمة.

ورغم هذا الطول في العرض فإني لم آت إلا على القليل من أخبار هذا الفتح المبين.

أسأل الله تعالى أن ينصر دينه، ويعزَّ جنده، ويعلي كلمته، ويدحر الباطل وأهله، إنه سميع مجيب.

سبحان ربك رب العزة عمَّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

= وقد قيل: إن عمره وقت الفتح إحدى وعشرين سنة، وقيل: ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: أربعاً وعشرين سنة، وقيل: خمساً وعشرين سنة، ولم أقف على من قال أكثر من ذلك، وقد كان رحمه الله تعالى عازماً على فتح روما بعد فتحه القسطنطينية، ولكنه مرض وتوفي في يوم الخميس ٤/ ٣/ ٨٨٦هـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة. انظر: تاريخ الدولة العثمانية لسرهنك (٣٩ ـ ٥٦)، والتحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية لإبراهيم بك حليم (٦٤)، والدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية (٣٢ ـ ٤١)، وتاريخ الدولة العثمانية وحضارتهـا (٢٩)، ومحاضرات في العثمانيين وحاضر العالم الإسلامي (٩) والمسألة الشرقيـة، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، تأليف: محمود ثابت الشاذلي (٤٢).

١٥٢- تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق

٧/ ٨/ ١٤٢١هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: الصراع بين الحق والباطل صراع قديم، بدأ منذ أن قال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وأقسم على ذلك بعزة الله تعالى فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢, ٨٣]، فأرسل الله تعالى الرسل، وأنزل الكتب، وبين الطريق إليه، وحذر من سبل الشيطان؛ فانقسمت

البشرية إلى جند للرحمن ينشرون دين الله تعالى، ويجاهدون في سبيله، ويتبعون الرسل عليهم السلام، وجندٍ للشيطان يكذبون الرسل، ويصدون عن سبيل الله تعالى، ويحاربون أولياءه.

إنه ابتلاء مكتوب على ذرية آدم، ينجو فيه من ينجو ممن كتبت له السعادة، ويهلك فيه من يهلك ممن كتب عليه الشقاء.

وإذا تقرر ذلك؛ فإن من الباطل شرعاً وفطرة وقدراً أن يجتمع الكفر والإيمان، ويتآلف الحق مع الباطل، ويتآخى جند الرحمن وجند الشيطان، وكل محاولة لذلك فمصيرها إلى الفشل.

وعداءُ المسلمين مع غيرهم سواءٌ كانوا يهوداً، أم نصارى، أم وثنيين هو عداءٌ بين التوحيد والشرك.. بين الإيمان والكفر .. بين الحق والباطل، وكل محاولة لإزالة هذه العداوة لن تكون إلا بإخضاع الكفر للإسلام على الدوام؛ وهذا ما يأباه الشيطان، ولن يكون قضاءً وقدراً؛ لأن الله تعالى قضى أن الباطل يبقى إلى آخر الزمان؛ حتى يجاهده أهل الحق والإيمان. أو تزال العداوة بينهما بإخضاع الإسلام للكفر، وذلك الكفر الذي ما بعده كفر؛ لأن من مقتضيات دين الإسلام علوه وارتفاعه على الكفر، وديانة أهله بالبراءة من الشرك وأهله.

وكذلك العداوة بين الديانات الأخرى ـ غير الإسلام ـ المحرف منها والمخترع هي عداوة دينية في أغلبها؛ مبنية على اعتقادات باطلة.

وهكذا كانت العداوة بين اليهودية والنصرانية، كانت عداوة دينية، سجلها التاريخ، وصرح بها القرآن العظيم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ

عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة: ١١٣]، وهذه العداوة بين هاتين الأمتين الضالتين عداوة أساسها الدين، فإن عيسى عليه السلام لما بعث بالنبوة، حسده اليهود عليها وعلى ما أعطاه الله من الآيات، وأيده به من المعجزات، فكذبوه وآذوه وآذوا أتباعه، وحاولوا قتله؛ ولكن الله تعالى رفعه إليه، وألقى شبهه على أحد حوارييه، فقتلوه وظنوا أنهم قتلوا المسيح عليه السلام ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧]، ونصوص اليهود المقدسة، في كتبهم المحرفة، ترسخ كراهية النصارى وتلعنهم، وتحذر اليهود من معونتهم. وجاء في نص من نصوصهم: «من يفعل خيراً للمسيحيين فلن يقوم من قبره قط».

لقد وصف اليهود نبي النصارى عيسى عليه السلام بأبشع الأوصاف، واتهموه بأنواع التهم، كالجنون والسحر والنجاسة وأنه وثني وابن شهوة[(١)] وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بصالحي البشر فضلاً عن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

وقذفوا أمه مريم عليها السلام بالزنى، وقالوا عليها قولاً عظيماً[(٢)]؛

(١) أسس القرن التاسع عشر لهيوستن ستيوارت نشامبرلين (١/ ٣٣٧)، والأصولية الإنجيلية لمحمد السماك (١١).

(٢) كما في قوله تعالى عنهم: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني أنهم رموها بالزنى» انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٨٧٢).

ولأجل ذلك فإن النصارى كرهوا اليهود كراهة دينية ـ ولا سيما أن النصارى يعتقدون أن اليهود قتلوا عيسى عليه السلام وصلبوه ـ وجاء في نصوص النصارى الدينية ما يدل على معاداتهم لليهود، فباباوات الكاثوليك ـ أعلى مرجعية دينية عند النصارى ـ قرروا قديماً أن اليهود يعتبرون خطراً على جميع شعوب العالم وخاصة الشعوب النصرانية(٣)، وقال أحد كبار الرهبان النصارى: «إن القوى ذاتها التي صلبت المسيح طيلة ألف وتسعمئة سنة تسعى اليوم إلى صلب كنيسته، ثم يقرر هذا الراهب النصراني أن اليهودية العالمية التي نجحت في إذلال شعوب الأرض تترقب الفرصة المواتية لسحق المسيحية سحقاً كاملاً»(٤).

أيها الإخوة: بان بما سبق شدة العداوة بين المغضوب عليهم والضالين، اليهود والنصارى، والسؤال الذي لابد من طرحه: ما الذي غير العداء اليهودي النصراني الذي هو في حقيقة الأمر عداءٌ ديني، طفحت به نصوص كل طائفة ضد الطائفة الأخرى؟!

لابد للإجابة على هذا السؤال من التأكيد على أن اليهود والنصارى حرفوا ولا زالوا يحرفون كتبهم، كما قال الله عنهم ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [المائدة: ١٣] ولذا فلا عجب أن يُحَوِّلوا نصوص العداء الديني بينهما إلى نصوص وفاق ومحبة؛ لأنهم استمرؤوا التحريف،

---

(٣) مجلة: سيفيلتاكاثوليكا الصادرة عن الفاتيكان مرجع الكاثوليك في العالم، عن الأصولية الإنجيلية لمحمد السماك (١٠).
(٤) انظر: انقضاض اليهودية على المسيحية (٩).

واعتادوا عليه. وهذا التغيير من عداوة إلى وفاق بدأ أيضاً بفكرة دينية على يد رجل دين وعالم باللاهوت الكاثوليكي النصراني في القرن السادس عشر الميلادي[٥]؛ إذ أدخل في عقيدة النصارى: أن نزول المخلص عيسى ابن مريم عليهما السلام من السماء لقتل المسلمين، ولمن لم يؤمن بالنصرانية من اليهود، مشروط بتوطين اليهود في بيت المقدس. وسرى هذا الفكر في الأمة النصرانية التي تنتحل المذهب البروتستانتي، وسعى الإنجليز ـ وهم بروتستانت ـ وقت استعمارهم للشام لتحقيق هذه الفكرة المخترعة عقب وعد بلفور، ثم اعترفت الأمة البروتستانتية في الغرب النصراني بهذه الدولة اليهودية التي زرعت في بيت المقدس[٦].

واعترض الكاثوليك على هذا التوطين؛ لأنهم يرون أن اليهود أنجاس قتلة، لا يجوز توطينهم في بلد مولد عيسى وعودته وهم الذين قتلوه

(٥) هو عالم اللاهوت الألماني (مارتن لوثر) الذي اخترع عقيدة البروتستانت، وقبله لم يكن النصارى سوى كاثوليك وهم نصارى الغرب، وأرثوذكس وهم نصارى الشرق. والكنائس النصرانية تتبع لإحدى هاتين الطائفتين؛ حتى أنشأ (مارتن) هذا المذهب الذي يقوم على تبني اليهود واعتبارهم شعب الله المختار، وتسخير النصارى لخدمتهم، وتوطينهم في بيت المقدس، وقد قيل: إن له أصدقاء يهود تأثر بهم في ذلك وقيل: إنه عميل لليهود. والله أعلم.

(٦) بلفور وزير خارجية بريطانيا هو الذي وعد اليهود بتوطينهم في بيت المقدس عقب استعمارها من قبل الإنجليز، وبريطانيا تدين بالبروتستانتية، ودعم اليهود بعد بريطانيا أمريكا وهي أيضًا تدين بالبروتستانتية، وفيها الأحزاب الإنجيلية المتعصبة لفكرة خلاص النصارى عن طريق توطين اليهود في فلسطين.

حسب اعتقادهم[٧]؛ ولكن مع قوة اليهود في الغرب، وتمكنهم الاقتصادي والإعلامي أخضعوا الكاثوليك لهذه الفكرة الخرافية فعقد الكاثوليك مجمعهم المسكوني المشهور، وبرؤوا فيه اليهود من دم المسيح عليه السلام[٨]، وغيّروا صلاتهم التي صلوها عشرين قرناً لتخلو من عبارات سب اليهود ولعنهم.

وبهذا يرى النصارى ـ خاصة طائفة البروتستانت ـ أنهم حققوا مكسباً باتخاذ اليهود - بتجميعهم في القدس - مطية لخلاصهم، وتحقيق معجزة دينية ينتظرونها، تتلخص في نزول المخلص عيسى عليه السلام ليقتل المسلمين ومن لم يتنصر من اليهود، كما يرى اليهود أنهم خدعوا النصارى بالتمكين لهم في احتلال الأرض المباركة لبناء هيكل سليمان عليه السلام على أنقاض المسجد الأقصى، وتهيئة العالم لخروج ملك السلام، ثم ملك العالم وقتل غير اليهود.

فاليهود إذاً يمكرون بالنصارى، والنصارى يمكرون باليهود. وهذا التعاون بينهم كان لأجل ما يعتقدونه مصالح دينية مشتركة.

أسأل الله تعالى أن يحفظ المسلمين من شرهم ومكرهم إنه سميع مجيب، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ

---

(٧) ولذلك أرسل الفاتيكان عام ١٩٢٢م مذكرة رسمية إلى عصبة الأمم ينتقد فيها فكرة إقامة وطن لليهود في فلسطين، انظر: الصهيونية المسيحية لمحمد السماك (٢٥).

(٨) هذا المجمع المسكوني عقد عام ١٩٦٣م.

كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

بارك اللهُ لي ولَكَم في القرآن العظيم..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ فإن التقوى سبب لنصر الله تعالى، وحافظ يحفظ من كيد الأعداء ومكرهم ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

أيها المؤمنون: تتفق الأمم الثلاث: المسلمون والنصارى واليهود على قدسية الأرض المباركة، ولكن تختلف دوافع تلك القدسية وأسبابها.

كما يتفقون على أن مسرح أحداث آخر الزمان سيكون بيت المقدس وما حوله، ولكنهم يختلفون في تفاصيل تلك الأحداث، ونتائجها النهائية، وتنتظر الأمم الثلاث مسيحاً يخرج في آخر الزمان؛ كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «والأمم الثلاث تنتظر منتظراً يخرج في آخر الزمان؛ فإنهم وعدوا به في كل ملة»[٩].

ولكنهم اختلفوا فيمن يكون هذا المخلص؟ ومن يقود؟! فاليهود ينتظرون

---

(٩) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٣٨).

خروج ملك السلام الذي يؤمنون به، ويصنعون الأحداث لتهيئة خروجه بجعل القدس عاصمة موحدة للدولة اليهودية، وقد ربطت هذه العقيدة بالصلاة اليهودية، فاليهودي في كل صلاة يقول بخشوع وابتهال: «أؤمن إيماناً مطلقاً بقدوم المسيح، وسأبقى حتى لو تأخر أنتظره كل يوم»[١٠]، وهذا المنتظر الذي ينتظره اليهود ويسمونه: «ملك السلام» هو في واقع الأمر: المسيح الدجال كما ذكر ذلك ابن القيم[١١]، وثبت في صحيح مسلم أن سبعين ألفاً من يهود أصبهان يتبعونه[١٢].

ويتفق المسلمون والنصارى على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام؛ ولكن النصارى يظنون أنه سيكون معهم على غيرهم، وهو في حقيقة الأمر سيكون مع المسلمين على من سواهم؛ فيقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويحكم بشريعة أخيه محمد صلى الله عليه وسلم كما دل على ذلك القرآن الكريم، وتواترت به السنة النبوية[١٣].

إن هذه العقائد يعتقدها اليهود والنصارى، وحوّلوها من خيالات

---

(١٠) الخلفية التوراتية (٤٢).

(١١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٣٨).

(١٢) كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة**» أخرجه مسلم في الفتن باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٤).

(١٣) جمع أحاديث نزول المسيح ابن مريم الشيخ المحدث محمد أنور شاه الكشميري في مجلد سماه: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، وقطع بهذا التواتر غير واحد من أهل العلم وهو من مواطن الإجماع.

وأحلام إلى واقع مشاهد. إنها ليست عقائد فئة قليلة منهم ليس لها حول ولا قوة كما يسوق ذلك العلمانيون العرب؛ لينقلوا حقيقة الصراع من واقعه الديني إلى صراع تراب وأرض ووطن. إنها اعتقادات دينية عند اليهود والنصارى يعتقدها عِليةُ القوم من الزعماء والساسة والقادة وصناع القرار، ولولا هذه الاعتقادات الدينية لما هاجر يهود الغرب، وتركوا جنة أوروبا وتطورها إلى الشرق المتخلف حسب رأيهم، ولما خسر النصارى الأموال الطائلة لتطوين اليهود، وملء ترسانتهم بأنواع الأسلحة التقليدية والنووية لحفظهم من عدو يحيط بهم من كل جانب. ولكان بالإمكان توطين اليهود في أي مكان من فردوس الغرب الواسع، فذلك أكثر أمناً وحفظاً لهم، وأقل تكلفة وأيسر على النصارى؛ ولكن تهون الصعاب في سبيل العقائد ولو كانت عقائد محرفة، فمتى يعي من يديرون دفة الصراع معهم أنه صراع ديني؟!.

إن أكثرهم يعرف ذلك؛ ولكنهم خونة خانوا دينهم وأمتهم وأوطانهم، وخدروا جماهير الأمة بوعود السلام الكاذبة، وأحلام التعايش والمحبة الزائفة، وفي كل مرة يمدون أيديهم بالسلام يضربهم العدو ويهينهم ويذلهم ويستعبدهم، وهم لا زالوا يظهرون حسن النوايا بالسلام؛ حتى غدا السلام استسلاماً، وربما سيكون استعباداً لأهل الأرض المباركة؛ حتى يكون المسلم عبداً لليهودي الذي ضربه الله بالذلة والصغار إلا بحبل من الله، وحبل من الناس!!

ألا فاتقوا الله ربكم، وأعينوا إخوانكم في الأرض المحتلة وفي

الشيشان وفي كشمير وفي كل مكان يقتل فيه المسلمون، أعينوهم بصالح دعائكم فإن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل، وأعينوهم بفضول أموالكم فهذا حق لهم علينا ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ،،،

١٥٣- سقوط بغداد

٩/ ٢/ ١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: في تعاقب الليل والنهار، وتقلبات الأحوال والدول عبرة للمعتبرين، وتنبيه للغافلين. كما أن في اشتداد المصائب والمحن، وتعدد البلايا والفتن اختباراً للعباد، وتمحيصاً للقلوب، وتمييزاً للثابتين على الحق من الناكصين على أعقابهم.

وإذا كان التاريخ قد دوَّن بالأمس في صفحاته سقوطَ بغداد،

واستباحتها من قبل عباد الصليب(١)، بعد أيام شدائد أتت على أهل العراق من الحصار والتجويع، إلى التهديد والترويع، ثم تتويج ذلك بالقصف المدمر، والقتل الجماعي، والحرق بالقنابل والقذائف، إلى أن سقطت في ظروف غامضة لا يعلم أسرارها وخفاياها ـ بعد الله تعالى ـ إلا المتآمرون بها على أمة الإسلامة المنكوبة(٢). وستبدي الأيام

---

(١) ابتدأت هذه الحرب الظالمة على العراق في ليلة الخميس ١٧/ ١/ ١٤٢٤هـ، ودخلت القوات الأمريكية بغداد في يوم الأربعاء ٧/ ٢/ ١٤٢٤هـ، وقبل هذه الحرب كانت هناك مناطق حظر جوي، وأراضٍ عدة في جنوب العراق قد انتزعت من العراق إضافة إلى الحصار والتجويع الذي فُرض عليها منذ حرب الخليج الثانية عام ١٤١١هـ، مدة ثلاث عشرة سنة، مات من جرائه أكثر من مليون طفل عراقي من سوء التغذية والأمراض، وتم إفقار شعب العراق طوال هذه المدة، كان الله تعالى في عون المسلمين هناك، وأعظم لهم الأجر في مصيبتهم.

(٢) سقطت بغداد فجأة ومن دون مقدمات، واختفت القيادات البعثية في العراق، وذاب الجنود في الناس، واختلفت الآراء حول هذا السقوط المفاجئ والمحير؛ لأن الناس كانوا يتوقعون مقاومة طويلة وشرسة تمتد إلى أشهر قبل أن يستولي الأمريكان والبريطانيون على بغداد، كيف! وبلدات صغيرة في العراق كأم قصر والفاو وغيرها صمدت أسابيع، وكبدت القوات الغازية خسائر كبيرة، وأهم الاحتمالات التي يتداولها الناس والمحللون إزاء هذا السقوط المفاجئ ثلاثة:
الأول: أن القيادة العراقية عقدت صفقة مع القوات الغازية يخرج بموجبها صدام حسين وأزلامه من العراق خفية، مقابل استيلاء القوات الغازية على بغداد ووقف كل أشكال المقاومة النظامية، وأصحاب هذا الاتجاه يدخلون روسيا في اللعبة، ويرون أنها متفقة مع أمريكا في ترتيب ذلك مقابل حفظ مصالح روسيا في العراق بعد احتلاله، وقبل ثلاثة أيام نشرت الصحف أن وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد صرح بأنه سيتصل بهاتف صدام الشخصي يدعوه فيه للاستسلام، =

. . . .

= وقبل سقوط العراق بأيام قليلة قامت رايس مستشارة الرئيس الأمريكي بزيارة إلى موسكو، قيل إن هدف هذه الزيارة ترتيب الصفقة بين روسيا وأمريكا وحزب البعث، وهدف الأمريكان من هذه الصفقة هو الاستيلاء على بغداد بأقل قدر ممكن من الخسائر ولاسيما أنهم خسروا الكثير من الجنود في اقتحام البصرة والفاو وأم قصر، ومطار بغداد، وكان السفير الروسي قد خرج من بغداد باتجاه سوريا، وتم قصف قافلته، وجرح السفير؛ ظناً أن معه القيادة العراقية، ثم رجع السفير مرة أخرى وهو مجروح إلى بغداد، وهذا الرجوع محل ريبة وشك، وقبل يوم أو يومين من سقوط بغداد تعمدت القوات الأمريكية قصف مقر الصحفيين والإعلاميين وحجزهم عما يجري في بغداد؛ مما يدل على أن ثمة أمراً يدبر.

وبعض أصحاب هذا الاتجاه يجعل كل العملية من أولها إلى آخرها مسرحية متفقاً عليها بين صدام وأمريكا، وأنه عميل قديم لهم، ويدعمون ذلك بعدم احتياطات بغداد بضرب الجسور التي على المناطق المحيطة ببغداد، وإشعال الحرائق في آبار النفط؛ لكي تعيق تقدم القوات الغازية، ولئلا يستفيد منها الأمريكان بعد انتزاع بغداد، وكل ذلك لم يحصل، والبعض الآخر يجعل هذا الاتفاق تم بعد معارك مطار بغداد التي سبقت السقوط بأسبوع تقريباً حيث سقط ضحايا كثر من الطرفين.

الثاني: أن صدام وزبانيته من أعضاء حزب البعث قد قتلوا في غارة مخطط لها، وتم الاتفاق مع القيادات الأخرى على الاستسلام مع ضمان خروجهم سالمين من العراق.

الثالث: أنها عملية تكتيكية من العسكريين العراقيين؛ ليجعلوا الغزاة يتدفقون إلى بغداد، ثم تتم محاصرتهم والإثخان فيهم، وهذا بعيد جداً، وكل يوم لا يحصل فيه شيء يكشف عدم صحة هذا الاحتمال، والله تعالى أعلم بواقع الحال.

ـ إن كان لنا عيش ـ ما أُخفي عنا من تفاصيل هذا الحدث الجلل.

إذا كان التاريخ قد دوَّن في صفحات شهر صفر هذه النازلة العظيمة التي نزلت بالمسلمين بسبب تصرفات أقوام لا خلاق لهم، قد استبدلوا الإسلام بعقيدة البعث الكافر، وظلوا يهتفون بها في وقت هم في أمس الحاجة إلى أن يهتفوا بجلال الله تعالى وعظمته، قد ورطوا الأمة المسلمة في أزمات، نسأل الله تعالى اللطف فيها.

إذا كان ذلك قد حصل فإن شهر صفر أيضاً قد دُوِّن فيه سقوط مُريعٌ لبغداد قبل ثمانية قرون إلا ثنتين وثلاثين سنة على أيدي التتار(٣)، وبين سقوطها الحاضر وسقوطها الماضي حلَّت بأهل بغداد عشراتٌ من الفتن والمحن، والقتل والتشريد، كما كان بين السقوطين قواسمُ مشتركة تدل على أن سنن الله تعالى لا تتغير ولا تتدبل ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤].

لقد كانت بغداد في أول الإسلام قرية صغيـرة، يُقام فيها سوقٌ كبيرة في كل شهر، فيأتيها تجـارُ فارس وما حولها من البلدان، ولما

---

(٣) كان سقوط بغداد في أيدي التتار في شهر صفر عام ٦٥٦هـ، واختلف المؤرخون في عدد القتلى فمنهم من قال: مليون نفس، ومنهم من قال: مليونان، ومنهم من قال: ثمانمئة ألف نفس...

وصل الفتح الإسلامي إلى بلاد فارس في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أغار المثنى بن حارثة بجيشه على هذا السوق فغنموا ما غنموا، وذلك في السنة الثالثة عشرة للهجرة[٤]. وبقيت على ما هي عليه ليس لها خبر يُذكر لا في تاريخ الخلافة الراشدة، ولا في الدولة الأموية. فلما أن كانت الدولة العباسية مصَّرها الخليفة المنصور العباسي رحمه الله تعالى، وانتقل إليها، وجعلها عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك.

ابتدأ في بنائها بعد بحثٍ ومشورةٍ عام خمسة وأربعين ومئة للهجرة، فخطَّ البناء، وقدَّر المدينة، ووضع أول لبنة بيده وهو يقول: «بسم الله، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله»[٥]، وحضر بداية بنائها جمعٌ من أهل الخير والفضل والعلم يتقدمهم الإمام أبو حنيفة النعمان، وبعد أربع سنوات تم بناؤها، وسكنها الخليفة والمسلمون عام تسعة وأربعين ومئة للهجرة، وسميت مدينة السَّلام؛ لأن دجلة كان يقال له وادي السَّلام[٦].

أصبحت بغدادُ بعد بنائها، وجعلها عاصمة للدولة الإسلامية موئلاً للعلم والعلماء، ومقراً للقادة والساسة والتجار والصنَّاع، ومنها كانت

---

(٤) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٣٢٩ و ٣٧٦)، وتاريخ خليفة (١/ ١١٨)، وتاريخ بغداد (١/ ٢٦)، ومعجم البلدان (١/ ٤٥٧).

(٥) تاريخ الطبري (٤/ ٤٥٨)، والمنتظم (٨/ ٧٢)، والكامل (٥/ ١٦٧)، والنجوم الزاهرة (١/ ٣٤٠).

(٦) تاريخ بغداد (١/ ٥٨)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٠١)، ومعجم البلدان (١/ ٤٥٦).

تُعقد الألوية، وتُسير الجيوش لنصرة المستضعفين، ونشر الدين، والحكم بالشريعة فيما بين الناس، وإليها يفد طلاب العلم من شتى الأقطار؛ لطلب العلم على أيدي الأئمة الكبار؛ حتى أزهرت حضارتها، واتسع عمرانها، وصارت مهوى أفئدة الناس. من زارها لم يخرج منها، ومن سمع عنها اشتاق إليها؛ حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ليونس ابن عبد الأعلى: «أيا يونس، دخلتَ بغداد؟ قال: لا، فقال الشافعي: أيا يونس، ما رأيت الدنيا ولا الناس»(٧)، وقال أبو إسحاق الزجاج: «بغداد حاضرة الدنيا، وما عداها بادية»(٨). وقال ابن مجاهد المقري: «رأيت أبا عمرو بن العلاء في النوم فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: دعني مما فعل الله بي، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات نقل من جنة إلى جنة»(٩).

كانت تلك منزلتها عند أهلها وعند الوافدين عليها من شتى الأقطار؛ حتى سوَّدَ العلماء الكتب الكبيرة في تاريخها، ونظم الشعراء القصائد الكثيرة في مديحها، وتحسين الإقامة فيها؛ ولكنْ حقٌ على الله تعالى أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم (١٠)؛ إذ مع تطاول السنين، وتعاقب الخلفاء؛ بدأت

(٧) تاريخ بغداد (١/ ٤٥)، ومعجم البلدان (١/ ٤٦٣)، ووفيات الأعيان (٧/ ٢٥٢)، والمنتظم (٨/ ٨٤).

(٨) معجم البلدان (١/ ٤٦١).

(٩) تاريخ بغداد (١/ ٤٦)، ومعجم البلدان (١/ ٤٦٣).

(١٠) كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري في الجهاد=

تضعف الخلافة العباسية شيئاً فشيئاً، حتى بلغ الضعف فيها مبلغه، وتحولت اهتمامات الخلفاء والأعيان من رفع راية الإسلام إلى الإقبال على الدنيا وزينتها وزخرفها، وأهملوا الجهاد في سبيل الله تعالى، واشتغل الناس باللهو واللعب، والتنافس في الغنى والعمران. وقد وصف هذا الحال البائس الذي ينذر بالخطر الداهم المؤرخ ابن الأثير رحمه الله تعالى فقال: «فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبةٌ في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كلٌ منهم مقبلٌ على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] » اهـ كلامه(١١).

وبعد ثمان وعشرين سنة فقط من كلام ابن الأثير هذا كان هولاكو وجنده يعيثون فساداً في بغداد!!

وإذا كانت معونة المنافقين من الرافضة والعلمانيين قد سهلت مهمة عبّاد الصليب في اقتحام بغداد؛ فإن التاريخ قد أعاد نفسه؛ إذ كان سقوط بغداد في أيدي التتار بتدبير من منافقي ذلك العصر، وعلى رأسهم وزير الخليفة العباسي: ابن العلقمي الرافضي الذي ما حفظ للخليفة تقريبه وتوزيره، فحقد عليه وعلى المسلمين، وخطط لإقامة

= باب ناقة النبي صلى الله عليه وسلم (٢٨٧٢)، وأبو داود في الأدب باب كراهية الرفعة في الأمور (٤٨٠٢)، والنسائي في الخيل باب السبق (٦/ ٢٢٧).

(١١) الكامل (١٠/ ٤٩١).

دولة لأهل طائفته وبدعته على رفات الدولة العباسية؛ فقلَّص أعداد الجيش من مئة ألف إلى عشرة آلاف فقط[١٢]، ثم كاتب هولاكو وطمَّعه في الغزو، وزيَّن له أخذ بغداد. فلما حاصرها هولاكو بجنده أكمل الوزير ابن العلقمي مهمته النفاقية المعادية للإسلام والمسلمين بأن قام بالسفارة بين الخليفة المستعصم وهولاكو، وكان هولاكو راضياً بالصلح، ومتهيِّباً من اقتحام عاصمة الإسلام آنذاك، لولا أن ابن العلقمي هوَّن عليه أمر اقتحامها؛ بل وأشار عليه بقتل الخليفة، ثم زيَّن للخليفة أن يخرج إلى هولاكو لإتمام الصلح، وأخبره بأن هولاكو سيزوج ابنته من ابن الخليفة تتويجاً للصلح[١٣].

فخرج إليهم الخليفة في سبعمئة راكبٍ من القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء والدولة، فلما اقتربوا من معسكر هولاكو حُجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، وأُنزل الباقون عن مراكبهم وقتلوا عن آخرهم[١٤].

وأُحضر الخليفة المستعصم بين يدي هولاكو، واضطربَ من هولِ ما رأى من الإهانة والجبروت، فوضعوه في كيس ثم أخذوا يرفسونه

---

(١٢) وصار العساكر من جراء ذلك يسألون الناس في الأسواق والمساجد، انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٩)، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (١/ ٤١٣)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (١٨٧).

(١٣) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٩)، وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٥٤٢)، والسلوك (١/ ٤١٢)، وفوات الوفيات (١/ ١٥٢)، وتاريخ الخلفاء (١٨٧)، ويجمع المؤرخون على خيانة ابن العلقمي للخليفة العباسي المستعصم.

(١٤) البداية والنهاية (٧/ ١٦٨)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٨٢).

حتى مات[١٥]، وقتلوا معه ابنيه الأكبر والأوسط، وأسروا ابنه الأصغر وأخواته الثلاث، وألفاً من بنات بني العباس، وقتلوا أكابر الدولة؛ حتى إن الرجل كان يُستدعى من دار الخلافة، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهبون به إلى المقبرة، فيُذبح أمام أسرته كما تُذبح الشاة، ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه[١٦].

وأعملوا السيوف في الرقاب مدة أربعين يوماً؛ فقتلوا العلماء والخطباء والأئمة وحملة القرآن، وعامة الناس، وتعطلت المساجد والجمعات مدة شهور ببغداد. ولما انقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها والقتلى في الطرقات كأنها التلال، وفسد الهواء من كثرة الجثث، فعمَّ الوباء، وأتى على البقية الباقية المختبئة من سيوف التتار حتى إن خطيباً بعد انكشاف الغمة استهل خطبته بقوله: «الحمد لله الذي هَدَمَ بالموت مَشِيْدَ الأعمار، وحكم بالفناءِ على أهل هذه الديار» يعني بغداد وما حولها[١٧].

وها هو التاريخ يعيد نفسه، فالشاشات المرئية تنقل أكوام الجثث المفحمة في العربات والبنايات، كما تنقل صور القتلى في الأزقة والطرقات.

وكعادة أعداء الدين والملة إذا تمكنوا فإنهم يطأون جميع من تمكنوا

---

(١٥) البداية والنهاية (٧/ ١٦٩)، والسير (٢٣/ ١٨٣).

(١٦) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٩)، والسير (٢٣/ ١٨٤)، وقد ذكر الذهبي رحمه الله تعالى أن للخليفة المستعصم عقباً في وقته في آذربيجان من ابنه الأصغر الذي أسروه، يعني: في وقت الذهبي في القرن الثامن الهجري.

(١٧) شذرات الذهب (٥/ ٢٧١).

منهم حتى من أعانوهم على ظلمهم بخيانة المسلمين ومصانعة أعدائهم، وهكذا فعل التتار بابن العلقمي الخائن، فأذاقوه خزي الدنيا قبل عذاب الآخرة. ولم يكافئوه على معونته لهم، وخيانته لأهل الإسلام إلا بالإهانة والاحتقار؛ حتى إن المغولي كان يأتي إليه وهو جالسٌ في مجلسه، فيدخل بخيله في مجلسه، فتبول الخيل على فرشه وبساطه، ويصيبه شيء من رذاذ بولها وهو لا يقوى على الاعتراض من شدة الذل والهوان(١٨)، وقد رأته امرأة من أهل بغداد في ذله هذا فقالت له: «يا ابن العلقمي.. هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟!»، فوقعت كلمتها في قلبه، وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وضيقاً، وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من خيانته الشنيعة، وما مات حتى رأى بعينيه، وسمع بأذنيه ما لا يُوصف من الذل والإهانة من المغول ومن المسلمين على حد سواء(١٩).

وهكذا يفعل أعداء الله تعالى بمن خانوا دينهم وأمتهم، يُذلونهم ويهينونهم، ولا يقيمون لهم وزناً، ولو أظهروا خلاف ذلك أمام الناس.

ولا يسلم الخائن لأمته من ذل يراه في الدنيا ولو طال به المقام، ويُسلط الله تعالى عليه بسبب خيانته وظلمه من يهينه ويظلمه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

أسأل الله تعالى أن يحفظنا والمسلمين من تحول عافيته، ومن

---

(١٨) فوات الوفيات (٢/ ١٥٢).

(١٩) البداية والنهاية (٧/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

فجاءة نقمته، ومن جميع سخطه، كما أسأله تعالى أن يحفظ بلاد المسلمين من كيد أعدائهم إنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأطيعوه، واحذروا نقمته فلا تعصوه، فإن أخذه أليم شديد ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

أيها الناس: لئن كان عباد الصليب قد وطئت أقدامهم مدينة السلام، وعاصمة الإسلام في يوم من الأيام، وأحلّوا فيها الدمار والفوضى، ويريدون نهب خيراتها وأرزاقها؛ فإن لهم يوماً من أيام الله تعالى سيُخرجون منها كما أُخرج غيرهم، وستُكسر جيوشهم التي ترى أنها أحرزت نصراً عظيماً بعد سقوط بغداد في أيديهم، نسأل الله تعالى أن يُعجِّل ذلك بمنِّه وكرمه، والتتار ما مكثوا عقب اجتياحهم لبغداد إلا سنتين فقط حتى كسرهم المسلمون في عين جالوت، فلم تقم لهم قائمة بعدها[٢٠].

(٢٠) وذلك في معركة عين جالوت التي قادها القائد المظفر قطز، وكانت يوم الجمعة لخمس بقين من رمضان عام ثمان وخمسين وستمئة للهجرة.

وأعظم انتصارٍ يحققه المسلم في مثل هذه المحن والأزمات: ثباته على الحق، واستمساكه بدينه، ولو رأى أن الأمور تجري على خلاف ما يريد ويتمنى. أما الذين لا يعرفون دين الله تعالى إلا في الرخاء، ويتخلون عن ولائهم لأمتهم في الشدائد؛ حفاظاً على مكاسب دنيوية، أوخوفاً من عدو غاشم، أو اعتقاداً بأن الأمة لا تنتصر، أو أن إمكانيات العدو الهائلة لا تُقهر؛ فهؤلاء عليهم أن يراجعوا إيمانهم ويقينهم بالله تعالى وبقدرته وعظمته وجبروته، وليعلموا أن هذه المحن والأزمات هي معامل التصفية التي تميز الخبيث من الطيب، وتبين من كان انتماؤه لأمته إنما كان لأجل أنه يرجو نصرها، فإذا انكسرت في موقعة من المواقع انكسر إيمانه معها، وذهب يقينه، وضعف انتماؤه وولاؤه لإخوانه المسلمين. وتلك هي نفوس الضعفاء الذين يُسقطهم التاريخ من حسابه.

وإذا كان أفاضل البشر من النبيين والمرسلين قد عُذِّبوا وأوذوا، وطُورد أتباعهم وقتلوا، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، ولم يبدّلوا مواقفهم أو ييأسوا من نصر الله تعالى حتى جاءهم فرج الله تعالى بعد حين، فإن أتباع الرسل كذلك يُبتلون، والواجب عليهم عدم اليأس والقنوط، واليقينُ بوعد الله تعالى ونصره لهذه الأمة المباركة ولو طال الزمن، وانتفش الباطل وأهله، وسواءٌ أدركنا ذلك أم لم ندركه.

إن من الناس من يتخذ دين الله تعالى وسيلة، ويجعل الغاية النصر والتمكين، فإذا لم تتحقق غايته تخلى عن الوسيلة، وبدّل دينه، وغيَّر مواقفه، ولربما والى أعداء الله تعالى؛ لأنه يراهم أقوى، وعادى إخوانه

لأنهم الأضعف، فهذا انهزام معنوي مقيت. والواجب أن تكون غاية المسلم إقامة دين الله تعالى، والثبات عليه في السراء والضراء، وفي العسر واليسر، فهذا هو الصدق مع الله تعالى الذي ينال به العبد رضاه وجنته، ويكون حرياً بالنصر والتمكين.

وما أحوج الأمة في هذه الظروف العصيبة إلى التوبة من الذنوب، وصدق التعلق بجناب الله تعالى، والعناية بصلاح القلوب، واستقامة الأحوال والأعمال، ومعرفة حقيقة أعداء الله تعالى من كفار ومنافقين، وإعداد العدة اللازمة لجهادهم، وردِّ عدوانهم وأذاهم عن المسلمين؛ فما دخل الكافرون بلدةً إلا أفسدوها، وأحلوا الفوضى فيها، وجعلوها سلباً ونهباً على عكس ما يعلنون، وما وُجد منافقون في أمةٍ إلا خانوها في أصعب الساعات، وأحرج الظروف، والتاريخ والواقع يشهدان بذلك.

أسال الله تعالى أن يجبر مصاب المسلمين، وأن يحفظهم من كيد أعدائهم من الكافرين والمنافقين، وأن يمنَّ علينا وعلى المسلمين بالثبات على الحق إلى الممات غير مبدلين ولا مغيرين، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم،،،

الكشـــاف

المواعظ والرقائق

١٠٥- الرضى عن الله تعالى (١) ٧
١٠٦- السبيل إلى الأمن والرزق (١) ١٨
١٠٧- السبيل إلى الأمن والرزق (٢) ٢٨
١٠٨- من فوائد الأمراض (١) ٣٩
١٠٩- من فوائد الأمراض (٢) ٤٨
١١٠- من فوائد الأمراض (٣) ٥٨
١١١- في مطلع العام محاسبة ومقارنة ٦٧
١١٢- القلب السليم ٧٧
١١٣- شدة حر الدنيا من نار جهنم ٨٧
١١٤- علو فرعون ٩٨
١١٥- الثبات على الحق ١٠٧
١١٦- الاعتبار بالآيات والنذر ١١٨
١١٧- التخويف بالزلازل ١٢٨
١١٨- فضيلة طول العمر مع حسن العمل ١٣٩
١١٩- الاستقامة على دين الله تعالى ١٥٣
١٢٠- حسن الخاتمة (١) ١٦٤
١٢١- حسن الخاتمة (٢) ١٧٦
١٢٢- سوء الخاتمة وختام العام ١٨٥

المغازي والتاريخ

١٢٣- قصة المولد والمبعث ١٩٧
١٢٤- الإسراء والمعراج ٢٠٦
١٢٥- الابتلاء والفتنة سبب الهجرة ٢١٦
١٢٦- غزوة بدر (١) ٢٢٩
١٢٧- غزوة أحد (١) ٢٤٦
١٢٨- غزوة أحد (٢) ٢٥٨
١٢٩- سرية بئر معونة ٢٧٠
١٣٠- غزوة بني المصطلق ٢٩٨
١٣١- حادثة الإفك ٣١٣
١٣٢- إجلاء بني النضير ٣٢٥
١٣٣- غزوة خيبر ٣٣٥
١٣٤- رمضان ومواقف من الفتح المبين ٣٤٨
١٣٥- غزوة تبوك (١) ٣٥٩
١٣٦- غزوة تبوك (٢) ٣٦٩
١٣٧- غزوة تبوك (٣) ٣٧٧
١٣٨- غزوة تبوك (٤) ٣٨٦
١٣٩- أحداث توبة صادقة ٣٩٦
١٤٠- غزوة مؤتة ٤٠٧
١٤١- فضائل بيت المقدس ٤٢٢

١٤٢- الفتح الأول لبيت المقدس ٤٣٥
١٤٣- فتح الأندلس ٤٤٦
١٤٤- بداية الحملات الصليبية ٤٥٥
١٤٥- سلب الأقصى واسترداده ٤٦٦
١٤٦- مذابح الصليبيين في القدس ٤٧٨
١٤٧- معركة حطين ٤٩٠
١٤٨- معركة الزلاقة ٥٠١
١٤٩- اجتياح المغول لبغداد ٥١٤
١٥٠- قهر التتار في رمضان ٥٢٤
١٥١- فتح القسطنطينية ٥٣٣
١٥٢- تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق ٥٥٦
١٥٣- سقوط بغداد ٥٦٦